خالد بن الوليد

بقلم

صادق ابراهيم عرجون

عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد	هل قامت النساء عن مثل خالد
[أبو بكر الصديق]	[عمر بن الخطاب]

الطبعة الثانية

[١٣٧٨ هـ — ١٩٦٧]

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

لصاحبها

حسين محمد امبابي المنياوي

٩ شارع الصنادقية ميدان الأزهر

مقدمة

اللهم إنى أستلهمك محامد تبلغ من شكرك ذرى نعمتك ، وأستمنحك توفيقاً أستظل به فى ذرى رحمتك ، وأستهديك بلج الحق ، وأستعينك على السداد ، وأعوذ بكنفك من مساقط الهوى ، وميل اليراعة عن جواد الرشاد .

وأسألك أن تصلى على محمد عبدك ورسولك وخاصتك من خلقك ، صلاة ترضيك، وترضيه ، ونبلغ بها من رضوانك ما أنت أهله من الطول والإحسان

أما بعد . فهذا كتاب «خالد بن الوليد» أرفعه إلى قراء العربية طرزاً فى دراسة « الشخصيات » ذات النواحى المتعددة فى مياسم العظمة ، ومعالم العبقرية ، قائماً على تصوير بعض تلك المياسم وتوضيح هاتيك المعالم .

لا أزعم له كمالا فى التصوير ، ولا أدعى له فوقا فى التعبير ، ولكنه لون من البحث يبرز مآثر التربية الإسلامية فى سيرة رجالات الإسلام ، وهو فن لا تستغنى عنه حياة المسلمين فى هذا العصر ، بل ربما كانت أشد تطلباً له الآن ، لحاجتها إلى الحوافز الدافعة بها إلى طريق التبصرة والإدكار .

والأمة إذا بصرت اعتبرت ، وإذا اعتبرت تطلعت إلى منافذ الهداية فى حاضرها ، إن كان لها من وسائل النهوض رصيد ، وإلا اشرأبت إلى الماضى تستوحيه إن كان لها فى سجل الحياة تاريخ .

ومن عجائب التوفيق أن رصيد الأمة الإسلامية من وسائل نهوضها فى حاضرها مستمد من منابع ماضيها فى التاريخ . وكل مافى يدها اليوم من هذا الرصيد يقظة مبصرة ، ولكنها مبددة الأهداف ، حائرة التفكير ، يخدعها سراب الحياة الصاخبة من أفق الغرب «المتحلل» واشرق «الملحد» فى آيات الله الكونية ، فتمشى إليهما مجدة معظمة مشاكهة حتى إذا أدركها ظلامهما المادى الكثيف بأشباحه البشعة المخيفة ، وأفكاره السوداء المدمرة ، ارتدت إلى أفقها الشرقى متطلعة إلى شمس الهداية فى ماضيها المشرق الزخار بآيات المجد والسؤدد ، الغنى بمثل الإصلاح ونماذج العبقرية .

فإذا أبصرت ظلال ذلك الماضي وقفت حيرى بين كابوس الغرب الفاجر المغرور ، والشرق الجاحد الكفور ، وبين مجد ماضيها المسطور في صحائف التاريخ .

وما غناء الماضي في بعث أمة طال عليها الأمد في مراقد الزمن مسلوبة الإرادة والتفكير إلا من طريق الإيحاء والتلقين ، لو لم يصور لها هذا الماضي في نماذج حية تعيش معها في سيرتها ؟

وما غناء الفكرة لو لم تبرز إلى واقع الوجود في نموذج حي يمثلها أصدق التمثيل ؟

وما قيمة الشرائع في حياة الناس إن لم يكونوا بأعمالهم في هذه الحياة معنى لألفاظها ، وقالبا لحقيقتها ، ومثلا « مكينة » في تطبيق نصوصها ؟

والنماذج الحية في تاريخ الأمة الإسلامية هي المنبع الفياض بعظمة الإسلام ، وهي الآية الكبرى على أن الإسلام في حقيقته العليا عمل مؤتلف من عمل الضمير ، والفكر ، والجوارح ، وهي شواهد ناطقة على عمل التربية الإسلامية في الأفراد والجماعات وعلى أثرها في تكوين الأمة عندما تتخذها تلك الأمة عنصر الإصلاح في نهضتها .

ومن ثم كان عرض هذه النماذج بتصوير حياتها الواقعية حاجة من حاجات العالم الإسلامي في حاضره ليجد الأسوة في ماضيه الواقعي مثلا من مشاهد الحياة .

وبطل الإسلام « خالد بن الوليد » نموذج من أخصب النماذج الحية في الإسلام ، المليئة بالخصائص الإنسانية القوية ، وشخصيته تمثل جانباً من جوانب الحياة الإسلامية في صدرها الأول ، تجلت فيه آثار التربية الإسلامية ، فكان في سيرته عنواناً على واقعيتها كاملة كما نزلت من السماء .

وهذا النوع من النماذج في تاريخ الإسلام حجة دامغة على من زعم أن الإسلام دين مثالي الأهداف والمقاصد ، بعيد عن الواقعية . وهؤلاء يقيسون الإسلام بحاضر المسلمين ، ويحاكمونه إلى أحوالهم ومظاهرهم ، ويقدرونه بأقدارهم ، ويزنونه بأوزانهم ، وهذا غلط أو مغالطة ، وإلا فأين شهادة التاريخ الواقعي في حساب القياس والتقدير ، يوم أن كان الإسلام كله مدرسة لتخريج العبقريات الإنسانية ؟ ويوم أن كانت تعاليمه ممثلة في أشخاص حاملي ألويته ورافعي راياته الخفاقة في العالمين ؟

كان خالد بن الوليد نموذجاً فريداً في العبقرية العسكرية والبطولة الحربية ، فكانت

خصيصة « الجندية » أظهر خصائصه حتى لا يستطيع من يردد النظر فى سيرته باحثاً عن مجالى العظمة ، إلا أن يرى تلك الخصيصة عنوانا لكل فصل من فصول حياته .

ولسنا فى هذا البحث نقصد إلى الحديث عن هاته الخصيصة فى خالد من وجهها الفنى ، فذلك حديث له أقلامه الفنية ورجاله من فنيى الحرب ، والأبطال العسكريين ، وإنما نقصد إلى تصوير الإسلام فى توجيه النبوغ وإعطائه مجاله فى الحياة بأوسع ما تتسع له حياة الأفراد ، وإلى تصوير أثر التربية الإسلامية فى إبراز كوامن العبقريات فى حياة الأمم والجماعات .

فالصورة التى يراها القارىء فى هذا البحث لبطل الاسلام « خالد بن الوليد » هى صورة من صنع الإسلام للنماذج الإنسانية فى ميادين الجهاد والتفكير الحازم فى الخروج من مآزق الحياة .

وقد سلكنا فى عرض الملامح المقومة لشخصية خالد الإسلامية طريقنا فى تتبع الروايات التاريخية ونقدها على ضوء الخطوط الأولى للشخصية المصورة ، وناقشنا حوادث وأحداثاً اضطربت فيها الروايات ، وانحرف بها التاريخ أو حملت عليه حملا ، فكانت مزلقة لبعض كبار الباحثين ممن جانبهم التوفيق فى دراستها ، وانتهينا بها إلى مكانها من الحق فى سجل التاريخ على قدر ما وسعته الطاقة ، واتسع له مدى البحث .

والناظر فى هذا البحث لا يجد فيه شيئاً غريباً على معارفه التاريخية إذا كان ممن أجال النظر فى معارج التاريخ الإسلامى بشىء من التأمل الناقد ، والفكر الممحص .

ومن هنا لم تكن بنا حاجة إلى ثبت من المراجع والمصادر نكثر به على القارىء ، فهى مبثوثة فى غضونه وثناياه ، أو معروفة مشهورة لا تحتاج من أولى العلم إلى كبير معاناة .

وحسب الذين لم يعنوا بدراسة التاريخ الإسلامى أن يشعروا عند قراءة هذا البحث بدفء الصدق وبرد اليقين ، وأن تنبعث فيهم رغبة الدراسة والتفقه فى حوادث وأحداث ذلك التاريخ ، وفهم سير رجالاته ، وتعرف العوامل الأصيلة فى تربيتهم تربية جعلت منهم نماذج لروح الإسلام ، وحيويته على مدى الأزمان ، وما بقليل فى باب الجزاء أن أظفر بهذا الثواب ؟

المؤلف

صادق ابراهيم عرجون

تمهيد

من بحوث التاريخ ما يكتب لتسجيل الماضى ، يصوره حسبما اتفقت ألوانه ورسومه فى إطار الزمن ، وهذا الطرز من البحث لا يقصد به إلى الحقائق التاريخية التى شهدت حتما وجه الحياة ، وإنما يقصد به فى الأعم الأغلب تصوير الحياة السالفة لأمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد الذين كان لهم بروز على أقرانهم فى اتجاه من أنحاء الحياة ، أو عمل من أعمالها ، وخاصة هذا المسلك من البحث الاستقصاء فى التدوين ، وتتبع الروايات المتلقاة من أفواه المتحدثين ، دون تحقيق لصحة الوقائع والأحداث والأشخاص .

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للحاضر ، شحذاً لهمة راكدة أو طبيعة فاترة ، أو تنبيها لجماعة غافلة . وهذا اللون من البحث لا يقصد فيه إلى الإستقصاء فى الرواية ، ولا يلزم الباحث فيه نفسه بتحقيق الحوادث التاريخية ، وإنما تلتقط صوره من الألوان البراقة التى تكون أقرب إلى تحقيق المقصود منه ، ومن ثم كان هذا اللون مصدراً خصيباً لنوع من الأدب الخيالى تصور فيه البطولات فى صورة قصص تجسم فيها الحوادث لتكون أعون على التأثير ، وأبلغ فى تأدية المطلوب .

ومن بحوث التاريخ ما يكتب للمستقبل كوسيلة من وسائل التربية والتوجيه للجماعات والأفراد ، وهذا النوع من البحث يعتمد :

أولا : على تحقيق صحة الحوادث بالقدر الذى تسمح به الشئون التى احتفت بتلك الحوادث حين وقوعها ، أو الشئون التى تحيط بالكاتب حين يكتب مايريد. ويعتمد :

ثانياً : على استقصاء الوقائع لربط بعضها ببعض، وموازنة المتشابهات منها ، وقرن المتصلات ، ووصلها بطبيعة الحوادث والأحوال التى وقعت فيها ، فالاستقصاء فى هذا النوع استقصاء نظر واطلاع ، وليس استقصاء تدوين وتسجيل . ويعتمد :

ثالثاً : على الاستنباط ، وإظهار العبرة الحافزة فى صورة مشعة وضاءة ، وألوان مشرقة براقة ، لتكون أدفع على العمل وأدعى إلى التأسى ، وهو جماع مايبغيه الباحث من نقل صور الحوادث والأشخاص من الماضى إلى المستقبل .

وبهذا التمايز بين فنون البحث يتميز الباحثون فى التاريخ ، فصاحب الرواية المتكثر من القصص والأحاديث ، الحاكى لكل ما يبلغه ، الناقل لكل ما يسمعه ، يجد سبيله معبدة فى منابع التاريخ ومصادره ، الناقلة لأحداثه ، المبتدعة لأقاصيصه ، المصورة لأشخاصه .

وصاحب الفن يجد فى أخيلة الماضين ، وأسلوب القصاصين مرتعا لفنه ، ومسبحاً لخياله ، ومعرضاً حافلا لما يشاء من الصور والألوان .

وصاحب التحقيق من العلماء — الذين لا يطمئنون إلا إذا آمنوا ، ولا يؤمنون إلا إذا تيقنوا — يجد لعقله المحقق مجالا وسيعاً للموازنة بين الأحداث والروايات ، وتطبيقها على سنن الوجود ، لاستنباط العبرة من أطوائها ، حتى يلحق الآخر بالأول ، ويربط الحادث بالقديم ، والحاضر بالماضى ، ليكون جديد الحياة من التفكير والأعمال قائماً على أساس من قديم الوقائع والأحداث ، والماضى أبداً مصدر إيحاء صادق لتفكير العلماء وأعمال النابهين .

والتاريخ الإسلامى : مثل غيره من تواريخ الأمم والجماعات ، والملل ، والمذاهب ، والأفكار ، والأشخاص ، ملىء بما يرضى رغبات الباحثين فى شتى مناحيهم ، ففيه الحقائق الواقعة حافلة بالعبر والأسى ، وفيه القصص البارعة التى تدخل الخيال فى نسج خيوطها ، دائرة حول الأشخاص والأحداث .

بيد أن هذا التاريخ انصب فى مدوناته ومصادره الأولى خليطاً من هذا وذاك ، فلم تتميز فيه واقعة صادقة من حادثة مصنوعة ، ولم تتبين فيه معالم الشخصيات وألوانها خالصة من شوائب الإغراق فى طرفى الاستزادة والتنقيص ، انقياداً لعوامل موضعية يتأثر بها التاريخ .

فالذى يقصد إلى هذا التاريخ باحثاً فى أحداثه وشخصياته قد يجد عنتاً فادحاً إذا أراد تحقيقاً علمياً يصفى الحقائق ويصور الشخصيات الفارعة بألوانها الأصيلة ، ولكنه يجد عيناً ثرارة إذا أراد مادة لعمل أدبى يقصد إلى الفن الذى لا يرى الصدق لازماً فى تدوين وسائله ومراميه .

قد يكون جانب دراسة الشخصيات وبحوث التراجم أقل جوانب التاريخ الإسلامى حظاً من العناية فى التدوين ، ولا سيما الدراسات التحليلية التى تعنى برد الحوادث إلى

مناشئها النفسية من الشخصيات ، أو إلى بواعثها المستسرة من البيئات التى لها أثر فى تكوين تلك الشخصيات .

ومن هنا كانت بحوث التراجم ودراسة الشخصيات الإسلامية دراسة لا تقف عند حد الرواية من أشق البحوث ، وأحوجها إلى الأناة والرفق . وهذه البحوث أحفل ضرعاً بالعوامل التربوية التى يريد إليها الباحث لتكون طريقاً من طرائق تبصير الناشئة فى مستقبل الأمة ، لأن موضوعاتها مثل حية من النماذج الإنسانية التى أفرغت فيها الحياة أفضل ما تملك من قوى حسية ومعنوية ؛ ولكل نموذج منها خصيصة فى منحى من مناحى الوجود ، تمثل أرفع مباغى الحياة فى منزعها من العصر الذى كان مجالا لتلك الشخصية تغدو فى جوانبه وتروح .

فإذا اتفق لعصر من الأعصر أن يضم بين جنباته مجموعة من تلك النماذج العالية ، وتربطها وشائج جنسية ، أو فكرية ، أو عقيدية ، أو لغوية ، كان ذلك العصر من التاريخ فى مكان البؤرة المشعة من جرم الشمس ، وعلى قدر ما فى تلك النماذج من خصائص موزعة على مناحى الحياة يكون التفاوت فى مقومات الأمم والجماعات والأفراد .

وتاريخ الإسلام من أوفر التواريخ حظاً فى هذه النماذج الإنسانية ، ونماذجه من أوفر النماذج السامية حظاً فى خصائص المثل العليا ، التى تتمثل فيها مجموعات من الفضائل المخصبة .

وقد ضمت أوائل صحائفه سجلا حافلا للشخصيات اللامعة ، والحوادث الواقعة ، التى وثقت عروتها وحدة الزمن ، والجنس ، والبواعث ؛ فلما اختلفت الوشائج بين المسلمين فى ظل وحدة العنوان ، وصار الزمن أزمنة ، والجنس أجناساً ، والباعث بواعث ، تتابعت النماذج حاملة خصائص جديدة تختلف قليلا أو كثيراً مع خصائص النماذج الأولى ؛ ولكنها على كل حال ظلت حيناً من الدهر عنواناً على سلامة التكوين فى هذا العالم الإسلامى الذى نشر أحد جناحيه على السور الأعظم فى بلاد الصين ، ومد جناحه الآخر على قمة البرنات من رأس أوربة الأشمط .

غير أن كثرة العناصر والأجناس التى انضوت تحت لواء الإسلام فى هذا المنسع من الكرة الأرضية ، والتى أصبح تاريخها جزءاً من التاريخ الإسلامى ، ولم تكن كلها من يحمل لقاح الإخصاب فى صنع النماذج الإنسانية الفاضلة ؛ وليتها كانت عقما ؛ إذن لكان أمرها أهون ، وشأنها أضعف ؛ ولكنها كانت تنتج نماذج كره الإسلام تبنيها ،

وأبى عليها أن تتخذه حاضناً لها ، وكانت معه كالممعود الذى لا يطيق دسم الغذاء ، فكلما أرضعها من تعاليمه وآدابه شخباً تقايأته دما ، ورجعت إلى موروثها من العقائد والتعاليم والآداب فتحلبته ، فكانت فى العد والحساب مسلمة ، وكانت فى التكيف الواقعى مختلجة مضطربة .

وهكذا زاحمت هذه النماذج الشاردة عن طبيعة الإسلام ، نماذجه الفاضلة فى غمرة هذا الخضم من البشرية المسلمة فى حسبان « الجغرافيين » حتى فقدت خصائصها ، وعادت كشىء من أشياء الناس ، لا تحمل من المزايا التى تطلب للتأسى إلا كما يحمل السراب غير الماء .

ومنذ فقد التاريخ الإسلامى هذا اللون من النماذج الإنسانية أصيب فى حيويته بما يشبه العقم ، فلم يشهد فى فترات من الزمن مهاد العبقرية تهتز بالمثل الواحية بالتوثب إلى أمجاد الحياة .

فما عسى أن يصنع الباحث فى التاريخ الإسلامى — وهو يشهد الأمم الإسلامية مضطربة السير فى الحياة ، لا تجد لها منها فى حاضرها نماذج حية تأخذ بها فى جواد تنتهى بها إلى غاية من السؤدد وقف على سفحها أسلافها الأولون — أفضل من أن يستوحى الماضى فيبرز ما فيه من صور العبقرية الرابضة فى النماذج البشرية الحية ، التى حفل بها مهد التاريخ الإسلامى ، فيعرضها عرضاً تحليلياً يمثل الحوادث تمثيلا صادقا ، بالقدر الذى تسمح به أوضاع التاريخ ورواياته وطرائق تدوينه فى كتب الأقدمين .

وفى الحق إن هذا المسلك يحتف بالأسف والأمل ، وليس فى الأسف غنية من شىء ولكنه شعور يردد صدى الطبيعة المصادمة بالألم ، وفى الأمل روح للنفس يبسط لها وجه الحياة فتراه من جانبه اليانع المثمر ، وهو الذى يدفع إلى العمل . وكأنما جعله الله تعالى أول طلائع الجزاء على احتمال المشاق .

بهذه الصورة المهدة التى انتزعتها من نفسى اتجهت إلى معالجة البحث فى سير رجالات الإسلام من النماذج الحية للإنسانية الفاضلة ، الذين حفلت شخصياتهم بالخصائص السامية فكانوا ولا يزالون مثلا عليا للأسوة الكاملة ، وقد حبب إلى أن أبدأ بالذين فى تاريخهم لمع من الشبه ، أو حوادث عميت حقائقها فى غضون الروايات المتضاربة ، لأحاول بقدر مستطاعى إزاحة هذه الشبه ، وتحقيق الروايات بميزان الشخصيات أنفسها ، وهى فى

طبيعتها الأولى وقدرتها الأصيلة على الصورة التى أخرجها الإسلام بآدابه وشرائعه ، وتطويعه شخصيات رجالاته ونماذجه للتكيف العملى فى تطبيق تعاليمه وتحقيق مقاصده وأهدافه .

* * *

مهدت البحث فيما قصدت إليه من سيرة «عثمان بن عفان»[1] رضى الله عنه ، وأظهرته للناس كتاباً مبيناً ، وقع من قراء البحوث الإسلامية موقعاً كريماً . فقال لى بعض قراء تلك البحوث من المثقفين : فى أية شخصية سيكون بحثك بعد « عثمان » من رجالات الإسلام ؟ قلت : فى بطل الإسلام « خالد » فقال وعلى وجهه علائم غير معبرة : ألا ترى أن « خالداً » قد كتب عنه كثير من الباحثين ؟ فما عساك تقول فيه ؟ قلت : أجل ؛ وما من شخصية من شخصيات رجالات الإسلام الذين لهم فى الحياة أثر مشهود إلا وقد كتب الباحثون عنها فأطنبوا أو أوجزوا ؛ ولكن هذه الشخصيات مثلها مثل الأرض السوداء الخصبة يزورها الغيث فتزداد على كثرة التقليب إثماراً ، وكلما حركتها آتتك ثمراً أخصب وأشهى ، أو هى كالشمس تطلع على الناس فى إشراقها كل يوم ، وهم لا يزالون منها فى جديد مطلوب ، وأثر مرغوب .

على أن كثرة الكتابة فى التاريخ ، ولاسيما الكتابة فى حياة الأفراد الممتازين لا يلزمها أن تحيط بمقومات الشخصية إحاطة تكشف عن عوامل النبوغ كلها ، إذ منها عوامل خفية لا يجلوها إلا الزمن فيستطيع الباحث البعدى أن يلتقطها وقد فاتت الباحث القبلى ، ويستطيع أيضاً أن يصبها فى قالب ينتزعه من مصانع الزمن الذى كشف عنها ، ولكل عصر أسلوبه فى التعبير ، ولكل مفكر طريقته فى التفكير ، ونعنى بالأسلوب الفكرة المدركة من الحوادث التى تقصها الرواية التاريخية ؛ والعبرة قائمة بين أيدينا فيما كتب ولا يزال يكتب عن أفذاذ الشخصيات الإسلامية ؛ وحسبنا ما كتب ويكتب فى سيرة سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت ولا تزال سيرته منبعاً فياضاً لأقلام نبغاء الكاتبين فى الشرق والغرب وفى كل يوم لهم منها جديد ، ولسيرة عباقرة أصحابه من سيرته نفحة الإمداد الروحى الذى يكسبها الخلود .

---

(١) كتابنا « عثمان بن عفان » كتبناه قبل كتابنا خالد بن الوليد ووضعنا فيه منهجنا فى البحث وقد طبع مرتين وستظهر طبعته الثالثة قريبا بعد ظهور « خالد بن الوليد » ان شاء الله تعالى .

على هذا الوضع فهمت ما كتبه الكاتبون ، من القدامى والمحدثين ، وعلى هذا الوضع سأكتب مستفيداً من كتاباتهم محاولا كعادتى أن أضيف إلى ما سجلوا فكرة مستخرجة من ثنايا الحوادث ؛ أو أدفع شبهة تشبث بها جاهل أو متجاهل ، أو أحقق حادثة تجاذبتها الروايات واختلفت فيها الأقاصيص .

ولست أنسى هنا تأثير الجو الذى يسود العصر الذى نكتب فيه هذه البحوث ، ولاسيما هذا الشرق الإسلامى الفوار بالحيوية الوثابة ، فالحرب حديثها يكتنف الناس من كل جانب ، ومن الحروب ولدت بطولة «خالد» ، وفى ظلالها نهدت عبقريته وعلى ذروتها تسنمت عظمته ، فلتكن هى الواحى القريب بالحديث عن بطل من أعظم أبطال الحروب فى القديم والحديث .

الفصل الأول

خالد

قبل إسلامه

مطالع الحديث عن الشخصيات ـــ البيئة العامة وأثرها فى حياة الأفراد ـــ موطن خالد وبلده ـــ قبيلة خالد ـــ بيته وأسرته ـــ مكانة أبيه فى قريش وموقفه من دعوة الإسلام ـــ إخوة خالد ومن أسلم منهم ـــ مكانة خالد فى الجاهلية ـــ موقفه من الإسلام ـــ فى غزوتى أحد والخندق .

مطالع الحديث عن الشخصيات

أول ما يرتقب قارىء مثل هذه البحوث ، الحديث عن أولية الشخصية المحدث عنها والأطوار التى مرت فيها حتى عقد لها لواء العبقرية ، ونحن إذا كنا وكان الكاتبون الذين سبقونا فى جهالة غامضة من أولية « خالد » كغيره من عظماء رجالات الإسلام السابقين ، فإن هذا الغموض الكثيف فى حياة ذلك الجيل الذى كان مهد الحياة « خالد » وأمثاله ، لاتتأثر به الأسباب الحقيقية التى لها تأثير فى تكوين الشخصية ، فالبيئة العامة طبيعية أو اجتماعية ، والبيئة الخاصة فى الأسرة والأتراب ، وهما من أهم العوامل فى ذلك التكوين ، لا يستطيع غموض الحياة الجاهلية أن يمحو معالمها فى شخصية أصبح لها فى الحياة ذكر مشهور .

البيئة العامة وأثرها فى حياة الأفراد

والحديث عن البيئة العامة التى نهد « خالد » بين أحضانها يقتضى استعراض أحوال الأمة العربية ، وأخلاقها وعاداتها فى سلمها وحربها ، وأحوال منازلها من جزيرتها التى عاشت فيها أحقابا متطاولة ، والتى ألقت على أبنائها ظلا من طبيعتها الخاصة فى جوها ومناظرها ، وخصبها وجدبها ، ويسرها وعسرها ، وهذا أمر أشبعته بحثاً كتب التاريخ العامة ، ومباحث الأدب المستحدثة فهو على طرف الثمام[1] من كل مثقف أراد علم شيء منه .

ولست أدرى أى الأمرين أرجح ميزاناً فى نظر علماء الاجتماع؟ هل حياة الأفراد أصدق تمثيلا لحياة الأمة وتصوير خصائصها العامة ، أو حياة الأمة أصدق فى تمثيل حياة أفرادها ؟ وتوضيح هذا أنك إذا قرأت سيرة رجل من رجالات الأمة ، فهل أنت مستطيع أن ترسم من ألوان تلك السيرة صورة مقاربة لمقومات الأمة واستخراج خواصها الطبيعية والعقلية والاجتماعية ؟ وإذا قرأت تاريخ أمة فهل أنت مستطيع أن تضع لأفرادها خطوطا أصيلة لا تختلف فى ألوانها وإن اختلفت زواياها واتجاهاتها ؟ ومعناه بعبارة أوجز : هل الفرد صورة للأمة أو الأمة صورة لأفرادها ؟ ومغزى ذلك أن نتعرف هل الأفضل أن نعنى بدراسة حياة الأفراد ، وبحوث الترجمات ؟ أو الأفضل أن نوجه عنايتنا لدراسة حياة الأمة ؟ وقد يتفرع عليه أن نتساءل مسائل : هل الأجدى على الإنسانية أن تعنى بتربية الأفراد ثم تتركهم ليحددوا علاقاتهم فى المجتمع ؟ أو الأجدى

(١) الثمام بضم الثاء المثلثة : نبت معروف فى البادية ، قال ابن منظور فى اللسان : والعرب تقول للشيء لا يعسر تناوله هو على طرف الثمام ، وذلك أن الثمام نبت لا يطول فيشق تناوله .

أن تعنى برسم الروابط وتحديد العلاقات حتى لا يكون للفرد اختيار إلا أنه ذرة فى جسم يجب أن تأخذ مكانها منه حسبما تقتضيه صلاحية تلك الروابط ؛ لا حسبما يرى الفرد بقواه الفكرية والجسمية ؟

ولعل دارسى القرآن الكريم — وهو دستور الإسلام — واجدون فيه حديثاً عجباً عن نظرية « الفرد والجماعة » لا يذهب فيه إلى جانب واحد ، ولكنه يرى للفرد استقلالا إرادياً هو منشأ الجزاء الشخصى ، ويرى للجماعة وجوداً خاصاً يندمج فيه الفرد باستقلاله فيأخذ منها ويعطيها ويحمل عنها وتحمل عنه ، فهو منها ، ولكنه جزء عامل لا تستغنى الجماعة عن عمله ولا تقوم بغيره .

ومهما يكن من اقتناع الناس بأثر الفرد فى الجماعة ، أو أثر الجماعة فى الفرد ، فإن سيرة الشخصيات الإسلامية التى عاصرت جاهلية العرب ، ثم نقلها الإسلام إلى أحضانه ، أقرب تمثيلا لحياة الأمة العربية ، وتصوير خصائصها العامة فى نطاق تهذيبات الإسلام وآدابه ، وسيرة « خالد » رضى الله عنه أصدق مثل على تحقيق ذلك . .

موطن خالد

وإذا زوينا النظر إلى دائرة أضيق رأينا « خالداً » ينهد بين أكناف « مكة » بلد الله المحرم ، وموطن بيته المعظم ، إليها تشد رحال القبائل من أقطار الجزيرة العربية ليعظموا الكعبة التى بناها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل برفادة ابنه اسماعيل عليهما السلام ، وقد كان للعرب فى مكة إلى جانب هذا الغرض الروحى غرض مادى تجارى ، فقد كانت متسوقهم ، وملتقى تجارتهم الرائحة والغادية ، فهى ميناء برى للجزيرة العربية ، يربطها بما حولها من الأقطار كالحبشة وفارس والشام ، بل كانت ترد إليها سلع البلاد النائية كالهند فتجد فيها رواجاً ، إلى ما كان يردها من أقاصى جنوب الجزيرة وسواحلها من اليمن وحضرموت وعدن وبلاد الخليج الفارسى . وكانت مكة مجتمع القبائل العربية يفدون إلى أسواقها ومحافلها للمضاربة والمرابحة ، وإقامة المحاكمات الأدبية والفصل فى الخصومات الشخصية ، وكان يأمن فيها الخائف ، ويطعم الجائع ، وينصف المظلوم ، وترد المظالم ، ويغاث الملهوف .

قبيلة خالد

وفى هذا البلد المعظم تقطن قريش سادنة البيت الحرام التى ألقت إليها العرب قاطبة زمام طاعتها ومنحتها احترامها فعزت وسادت ، حتى أصبحت بين العرب رمز القداسة وصاحبة السلطان ، تشرع للعرب ما يتواضعون عليه من الأحكام والعادات ، وتضع نفسها

فوق هذه الأحكام والقوانين التي تسري على الناس ولا تسري على قريش واضعة القانون، فيرضى لها العرب ويسلمون، وتقر لها القبائل، فلا يختلف عليها أحد .

ذكر ابن الأثير في كامله أنه « لما كان من أمر أصحاب الفيل عظمت قريش عند العرب، فقالوا لهم: أهل الله وقطنه، يحامي عنهم، فاجتمعت بينها، وقالوا: نحن بنو إبراهيم « عليه السلام » وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنو مكة، فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا، ولا يعرف العرب لأحد مثل ما يعرف لنا، فهلموا فلنتفق على ائتلاف أننا لا نعظم شيئاً من الحل كما يعظم الحرم. فإننا إذا فعلنا ذلك استخفت العرب بنا وبحرمنا، وقالوا: قد عظمت قريش من الحل مثل ما عظمت من الحرم. فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرى سائر العرب أن يقفوا عليها ويفيضوا منها، وقالوا: نحن أهل الحرم فلا نعظم غيره، ونحن الحمس — وأصل الحماسة الشدة، إنهم تشددوا في دينهم وجعلوا لمن ولد واحدة من نسائهم من العرب ساكني الحل مثل ما لهم بولادتهم، ودخل معهم في ذلك كنانة وخزاعة وعامر لولادة لهم، ثم ابتدعوا فقالوا: لا ينبغي للحمس أن يعملوا الأقط، ولا يسلئوا السمن، وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرماً، وقالوا: ولا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت طوافهم إذا قدموا إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، فإن أنف أحد من عظمائهم أن يطوف عرياناً إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه ألقاها، وكانوا يسمونها اللقى، فدانت العرب لهم بذلك فكانوا يطوفون كما شرعوا لهم »

وقال الطبري: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث عمرو بن العاص إلى جيفر[1] منصرفه من حجة الوداع فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو بعمان فأقبل حتى إذا انتهى إلى البحرين وجد المنذر بن ساوى في الموت ثم سار عمرو حتى قدم المدينة فأطافت به قريش وسألوه فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبى[2] إلى حيث انتهيت إليكم؛ فتفرقوا وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر بن الخطاب يريد التسليم على عمرو فمر بحلقة وهم في شيء من الذي سمعوا من عمرو، وفي تلك الحلقة عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن

(١) قال في القاموس: وجيفر بن الجلندى ملك عمان؛ أسلم هو وأخوه عبد الله على يد عمرو ابن العاص لما وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما وهما على عمان .

(٢) دبي، كعلي: سوق للعرب معروفة .

وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال : ففيم أنتم ؟ فلم يجيبوه ، فقال : ما أعلمنى بالذى خلوتم عليه ، فغضب طلحة وقال: تالله يا ابن الخطاب لتخبرنا بالغيب، قال: لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكن أظن : قلتم : ما أخوفنا على قريش من العرب ، وأحلفهم أن يقروا بهذا الأمر ، قالوا صدقت ؛ قال : فلا تخافوا هذه المنزلة أنا والله منكم على العرب أخوف منى من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب فى آثاركم فاتقوا الله فيهم .

وقد تألف من عظماء قريش « حلف الفضول » وهو حلف تعاهدوا فيه على القيام بنصر الضعيف، وإنصاف المظلوم والأخذ على يد الظالم ، ورد الحقوق على أربابها وإغاثة الملهوف ، ورفد العاجز . وقد حضره النبى صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، فقال فيه بعد البعثة « شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما يسرنى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت » وهذه مكانة لم تتم لقبيلة فى العرب غيرها .

بيت خالد وأسرته

وفى الذؤابة من قريش تسنمت الدوحة المخزومية ــ التى يعتزى إلى أرومتها وينسب إلى أعز بيوتها وأسمق فروعها « خالد بن الوليد » ــ مكانها بين الأغصان القرشية ، وإذا كان التاريخ قد جعل بنى هاشم ذروة قريش فهو لم يقعد بإخوتهم بنى مخزوم عن مساماتهم فى صنائع الشرف وشارات المكارم ، ومن ثم فقد توثقت بين البيتين وشائج المصاهرة ، وزاحمت بنو مخزوم بنى هاشم فى المناقب والفضائل ، حتى جاء الله لبنى هاشم بواحدة جدعت لها أنف الكبرياء من بنى مخزوم فاختار الله خاتم النبيين هاشمياً فمصت بريقها بنو مخزوم ، فحملوا لواء مناهضة الدعوة المحمدية ، وكانوا ألد خصومها وأقوى أعدائها ، وأعند معانديها ، لا حماسة لعقيدة فاسدة أو صحيحة ، ولا كراهة للدين الجديد بعد نظر فيه وتفقه فى آدابه، ولكن ذلك كان منهم حمية جاهلية وعصبية قبلية موروثة .

روى أن أبا جهل عمرو بن هشام بن المغيرة ابن عم خالد بن الوليد ــ وكان من غطارفة مخزوم ــ قال لبنى هاشم لما اصطفى الله رسوله محمداً منهم : فلما أطعمنا الطعام وأطعمتم ، وازدحمت الركب ، واستقبلنا المجد كفرسى رهان قلتم منا نبى ؟ ! ! » .
وقد تمثل شرف بنى مخزوم فى بيت خالد ، وانعقدت لهذا البيت ألوية زعامتهم حتى أرخت العرب بموت بعضهم .

أما أسرة «خالد» فلم يفتها شرف من شرف الجاهلية إلا وقد أخذت بحظها منه. فأمه من أعرق بيوتات العرب ، وهى لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية ، وهى أخت ميمونة أم المؤمنين، وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه الصيد الأماجد . فخالد وبنو العباس أبناء خالات .

مكانة أبيه فى قريش وموقفه من دعوة الإسلام

وأبوه الوليد بن المغيرة ، الذى احتبى (١) بفناء الكعبة بعد وفاة عبد المطلب سيد قريش طلبا للرياسة بعده فلم يغير عليه أحد . وكانت تتحاكم إليه قريش ، وتدعوه ريحانتها وعدلها لأنه كان يعدل قريشاً كلها وحده فى كسوة الكعبة ، فيكسوها من ماله الخاصة سنة ، وتكسوها قريش مجتمعة سنة ، وكان ينهى أن توقد نار للإطعام فى منى غير ناره بلا ينازع ، وكان الوليد ممن حرم على نفسه الخمر قبل الإسلام ، وهو الذى جمع قريشا فقال لهم : إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد فتختلف أقوالكم فيه فيقول هذا : ساحر . ويقول هذا : كاهن، ويقول هذا : شاعر ، ويقول : هذا مجنون وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ماقيل فيه : ساحر: لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته (٢) .

وفى الوليد نزلت — على رأى جمهرة المفسرين — هذه الآيات الكريمات من القرآن الحكيم ، قال تعالى فى سورة المدثر «ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر » .

وهذه كما يرى القارىء آيات تصف عنجهيته وغطرسته واستكباره وطغيانه وعتوه وعناده وفخره بماله وبنيه ، وتقوله على القرآن الكريم أنه سحر مأثور ، وذلك حينما استمع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يرتل بعض آيه فأخذته بلاغته ، فقال فيه قولا ظنته قريش ميلا إلى الإيمان فاضطربت جوانبها، وقال قائلهم : صبأ والله الوليد؛ لتصبأن قريش كلها» فأرسلوا إليه من أغراه. ذكر المفسرون وأصحاب السير واللفظ للقرطبى:

---

(١) أصل الاحتباء أن يضم الرجل رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ويشده عليهما، ومنه الحديث : الاحتباء حيطان العرب ، وكان عبد المطلب وهو سيد قريش يحتبى بفناء الكعبة فلما مات جلس الوليد بن المغيرة جلسته فلم تنكر عليه قريش .

(٢) ابن الأثير فى الكامل ج ٢ ص ٢٨ .

« لما نزل (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) سمع الوليد النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاما ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبون قريش كلها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش ؛ فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه . فمضى إليه حزينا، فقال له : مالى أراك حزينا . فقال له : ومالى لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وتدخل على ابن أبى كبشة[1] وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهما ؟ فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه ؟ فأنتم تعرفون قدر مالى، واللات والعزى مابى حاجة إلى ذلك ، وإنما أنتم تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه قط يخنق ؟ قالوا : لا والله . قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذباً قط ؟ قالوا . لا والله . قال: فتزعمون أنه كاهن ؟ فهل رأيتموه تكهن قط ؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجا، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه ، فقالت قريش للوليد : فماهو ؟ ففكر فى نفسه ، ثم نظر، ثم عبس فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فذلك قوله تعالى (إنه فكر وقدر) إلى آخر الآيات من سورة المدثر .

وذكر المفسرون أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال : ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا فيعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتصيب مما عنده، قال: لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر منى ، لا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ،

(١) قال فى القاموس: وكان المشركون يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : ابن أبى كبشة تشبيها بأبى كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً فى عبادة الأصنام . أو هى كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، أو كنية زوج حليمة السعدية .

نال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال دعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هو إلا سحر يؤثر ، فعجبوا بذلك » .

ويقول بعض المفسرين : إنه هو المعنى بقول الله تعالى فى سورة « ن » « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم . (١) أن كان ذا مال وبنين ؛ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » وذكروا أنه أحد عظيمى القريتين المعنى بقوله تعالى « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ومهما يكن من شأنه فإنه كان من أشد الناس عداوة للدعوة المحمدية وأقساهم فى مقاومتها .

إخوة خالد ومن أسلم منهم

ومشى بنوه فى شوطه ، فكانوا قادة قريش وحاملى لوائها فى الصد عن سبيل الله ، حتى أراد الله الهداية لثلاثة منهم . فكان أسبقهم إلى الإسلام « الوليد بن الوليد » وكانت له يد مذكورة فى إسلام أخيه بطل الإسلام « خالد بن الوليد » وثالثهم « هشام ابن الوليد » .

وفى إخوة « خالد » رضى الله عنه « عمارة بن الوليد » كانت تراه قريش أعز فتى فيها وأجمله وأشعره ، مشت به إلى أبى طالب ليأخذه ويخلى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسخر منهم أبو طالب ، ورد عليهم أبلغ رد !!

قال ابن الأثير فى الكامل : « فلما علمت قريش أن أبا طالب لا يخذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه مجمع لعداوتهم ، مشوا بعمارة بن الوليد . فقالوا : يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش ، وأشعره وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصرته ، فاتخذه ولداً ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذى سفه أحلامنا ، وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك ، نقتله ، فإنما رجل برجل ، فقال أبو طالب : لبئس ما تسوموننى . أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدا » .

* * *

مكانة خالد فى الجاهلية وموقفه من الإسلام

فى هذا الجو وهذه البيئة العامة والخاصة نجد « خالد » رضى الله عنه ، وقد تجاوبت خصائصها مع سجاياه ، فأخذ منها وأخذت منه ، وأعدته ليكون على

(١) من معانيه : اللئيم الفاجر .

زعامتها ، وحامل لوائها ، فكان من فتيان قريش وذوى بيوتاتها الذين يرون فى ال
الجديدة هدماً لمآثرهم الجاهلية ، وتقويضاً لعنجهيتهم القبلية . فكان من أشد خص
وألد أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر ، ويضعون أمامها العراقيل ، ويصدون ا
عن سبيلها .

وقد وجد «خالد» فى أبيه وعمومته وإخوته وأبناء عمومته قوة تدفعه إلى هذه العد
البئيسة . فليس بعجيب أن يقف من الإسلام موقف المناوىء المخاصم ، وقد نشأ فى بيئة جا
الدعوة الإسلامية لهدم دعائمها وتطهير الحياة من رذائلها ، وإرغام كبريائها . وكان «خا
قد جمع فى هذه البيئة بين طرفى الشرف : شرف البيت وشرف الشخصية . فقد أس
قومه فى جاهليتهم أهم مناصب الحرب : القبة والأعنة . قال عز الدين بن الأثير فى « أ
الغابة » : وكان خالد أحد أشراف قريش فى الجاهلية وكان إليه القبة وأعنة الخيل
الجاهلية ، أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأ
فإنه كان يكون المقدم على خيول قريش فى الحرب » وهى عبارة ابن عبد البر فى الاستيعا
ونقلها ابن حجر بتصرف فى الإصابة ، وتقريب هذا فى عرف العصر الحاضر ، وإ
« خالد بن الوليد » كان يجمع فى الجاهلية زمن الحرب بين منصبى رئيس الإمدادا
ورئيس هيئة أركان حرب الجيش لأن الخيل كانت لها المنزلة الأولى فى حروب تلك
الأعصر ، فقائدها هو القائد الأعلى للحرب .

فى غزوتى أحد والخندق

اضطلع « خالد » بعبء القيادة الحربية لقومه فى حربهم لجند الإسلام ، فكان أول
موقف برز فيه غزوة أحد ومنه كانت نكبة المسلمين فى تلك الغزوة لأن خالداً كان
من أولئك الرجال الذين يملكون أعصابهم عند تفاقم الخطوب وزحف الأحداث ، فل
يطر عقله شعاعا بالهزيمة النكراء التى أصابت المشركين فى أول جولة من الحرب ، ولكنه
ظل قوياً جلداً يقظا يرتقب ثغرة ينفذ منها إلى قلب الجيش الظافر

كان خالد على ميمنة قريش وجيشها المنهزم ، فأسعفته قوة جنانه وثبات جأشه بأثقب
نظرات القائد المحيط بدخائل الميدان الذى يحارب فيه ، وعرف كيف تتم الحيلة
وتنجح المكيدة ، والحرب خدعة .

رمى « خالد » بنظره فى مؤخرة جيش المسلمين ينظر إلى الرماة الذين جعلهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم حماة لظهرهم ، وأوصاهم ألا يفارقوا مكانهم : فقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ؛ فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا . وكان هؤلاء الرماة على جبل يقال له (عينين) عن يسار أحد لمستقبل المدينة ، فلما رأوا هزيمة المشركين ، والمسلمون يلاحقونهم ، ويضعون السلاح فيهم حيث شاءوا ، تأول بعضهم وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره لهم بالثبات فى مصافهم ، وانطلقوا يتبعون جنود الإسلام فى ملاحقة المنهزمين طمعاً فى الغنيمة وثبت أميرهم فى نفر قليل أطاعوه .

لم تفزع خالداً الهزيمة على نكارتها ، ولم يصبه ما أصاب أقرانه من الاضطراب والبلبلة ، ولم يقف فى مكانه وقفة الجرىء المتهور ، ولكنه — وهو فتى الحرب وأبو عذرتها الناشىء بين أحضانها — كان عبقرى الشجاعة والتدبير ، لم يخنه عقله المظلم فى ساعة تزايلت فيها عقول المطارفة ، وتزلزلت أقدامهم ، ولم يرم به اليأس فى مضال الفرار لينجو بنفسه لو أراد عيشة الجبناء الرعاديد .

وفى الحق إن « خالدا » كان فى هذه الواقعة جندياً بأوسع وأعمق ما تحمل الجندية من معنى كريم ؛ والجندية الصادقة هى التى تنسى شخصها فى مواقف الونى ، ولا تعرف إلا واجبها نحو جيشها الذى نيط به عزها وشرفها . وخالد رأى جيش قومه تعركه الهزيمة عركا ، وهو أحد فرسانه فاحتال فى دورة عسكرية بارعة ورمى بنظره إلى مكان الرماة فى مؤخرة جيش المسلمين ، فرأى كتيبتهم قد زايلت أماكنها ، ولم يبق على الجبل منها إلا نفر قليل ، فحمل عليهم بخيله حتى أبادهم ، وركب أكتاف المسلمين فأدهشهم ، وأوقع الاضطراب والخلل فى صفوفهم ، فتبدل الموقف ، وأصيب المسلمون إصابة بالغة ، وورمت آناف المشركين وانتفخت أوداجهم بأواً واغتراراً حتى صاح قائدهم أبو سفيان بن حرب : « يوم بيوم بدر » قال ابن سعد فى الطبقات : « ونظر خالد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخيل ، وتبعه عكرمة بن أبى جهل ، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم . وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير رحمه الله تعالى ، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم » .

ولو كان لوقائع الشرك أيام فى التاريخ لسمى المشركون يوم أحد بيوم « خالد ابن الوليد » ولكن الله الذى اصطفى « خالداً » سيفاً من سيوفه لم يرض أن يجعل اسمه

عنوانا إلا على أشرف صفحات الإيمان فى تاريخ الخالدين .

وقد عتب الله على المؤمنين ما صنعوا فى آيات من القرآن الكريم كانت أبلغ أدب أدبهم به ، وانتهى بهم فيها إلى العفو الجميل ، قال تعالى « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » ثم قال « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

لم يكن « خالد » فى هذه الوقعة من ذوى أسنان قريش ومشيختها ، بل كان من فتيانها وشبابها ، فقدموه على أقرانه وسودوه على فرسانهم وأسندوا إليه قيادة أغلظ كتائبهم وأعظمها فى أهم الوقائع بعد « أحد » وأوسعها وأكثرها عدداً ، وأجمعها للقبائل والأحزاب ، وإذا كان الله تعالى قد جعل من غزوة بدر الكبرى فتحاً مبيناً للإسلام فكانت فى نظر المسلمين أهم وقائع الإسلام فى نشأته الأولى ، فإن قريشاً وأحزاب الشرك وإخوان الغدر من اليهود قد أرادوا أن يجعلوا من واقعة الأحزاب المعروفة فى كتب السيرة بغزوة الخندق ، أكبر معركة يستعجلون بها نهاية ما بين الحق والباطل من تجاذب واصطدام .

* * *

بعدما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير من ديارهم جزاء غدرهم ونكثهم ما كان بينه وبينهم من عهود ، قام نفر من رءوسهم من أضراب سلام [1] بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، فحزبوا الأحزاب على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجوا إلى قريش يقولون لها : إنا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله ، ثم أتوا غطفان فحرضوهم ، ومنوهم الأمانى وأخبروهم بما كان بينهم وبين قريش فخرجت قريش ، ومن تابعها من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة فى عشرة آلاف يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان ببطونها ومن تابعها من أهل نجد فى مثل عدد قريش يقودهم (عيينة بن حصن الفزارى [2] والحارث [3] بن عوف المرى ،

---

(١) سلام بن أبى الحقيق بوزن زبير أحد زعماء اليهود وشعرائهم ، وكان يهجو المسلمين فى شعره فأمر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك فقتله ، وأما حيى بن أخطب فهو أبو صفية بنت حيى أم المؤمنين وكان أشد يهود فى عداوته للنبى صلى الله عليه وسلم فقتله فى غزوة بنى قريظة ؛ وأما كنانة ابن الربيع فهو ابن أخى سلام بن أبى الحقيق وثلاثتهم من بنى النضير .

(٢) كان سيداً أحمقاً وهو أحد زعماء غطفان وقد أسلم إسلاماً ضعيفاً وكان من المؤلفة أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين مائة من الإبل .

(٣) كان الحارث يسامى عيينة فى رياسة قومه ، وكان قائدهم فى غزوة الخندق .

ومسعود ابن رخيلة الأشجعي[1]) فلما بلغ خبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تجهز للقائهم ، وأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق فقسمه بين أصحابه وعمل فيه بنفسه تشجيعاً واحتسابا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين، وجعل الخندق بينه وبين أحزاب المشركين ، وكان بنو قريظة من اليهود يساكنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بلده وكانت بينه وبينهم عهود على الموادعة وعدم الاعتداء ، وقد أصبحوا — ورسول الله في وجه قريش وأحزابها — خلف ظهر المسلمين يأمنون شرهم للمعاهدات التي عقدوها معهم، ولكن اليهود قوم غدر لا يعرفون الصدق والوفاء ، فخرج حيي بن أخطب النضري إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يحرضه كما حرض قريشا وغطفان فأغلق كعب دونه باب حصنه وقال له: ويحك ياحيي !! إنك رجل مشئوم. إني قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقا. ولم يزل حيي يفتل من كعب في الذروة والغارب حتى فتح له فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة[2] ؛ وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى[3] إلى جانب أحد قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه . فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر بجهام[4] قد هراق ماءه يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك!!! فدعني ومحمداً وما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بكعب يمسح ضرعه ويمريه حتى استنزله عند رأيه فدخلت قريظة مع الأحزاب ونبذت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عهده ، وعظم البلاء على المسلمين ونجم النفاق ، واشتد بالناس الخوف وزلزلوا زلزالا شديداً حتى أنزل الله على المؤمنين نصره وخذل بين الأحزاب فانشمر[5] كل فريق منهم راجعاً إلى مقره بعد اختلافهم وافتراق كلمتهم وردهم الله بغيظهم لم ينالوا من المسلمين سوداء ولا بيضاء .

---

(١) كان مسعود هذا يقود قومه أشجع وهم أربعمائة خرجوا مع قريش لحرب المسلمين في غزوة الخندق .

(٢) قال ابن سيد الناس في عيون الأثر : دومة بضم الدال وفتحها وهي دومة الجندل بينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة .

(٣) ذنب نقمى كجمزى : واد من أودية المدينة قريب من أحد .

(٤) الجهام : السحاب لا ماء فيه أو هو الذي قد هراق ماءه .

(٥) انشمر : مر جاداً مسرعاً .

وروى أبو جعفر الطبرى عن محمد بن كعب القرظى : قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخى ، قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نجهد ، فقال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا ، فقال حذيفة : يا ابن أخى والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق ، وصلى هويا من الليل ، ثم التفت إلينا ، فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ يشرط له رسول الله ، أنه يرجع ، أدخله الله الجنة ، فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه هوياً من الليل . ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوياً من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة ، أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة فما قام رجل من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ، فقال يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم ، فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا قال : فذهبت ، فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبو سفيان بن حرب فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤ جليسه ؛ قال : فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ؛ ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنى لا أحدث شيئاً حتى آتيه ، ثم شئت لقتلته بسهم ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى فى مرط[1] لبعض نسائه مرحل[2] ، فلما رآنى أدخلنى بين رجليه ، وطرح

---

(١) المرط بكسر الميم : كساء من صوف أو خز .
(٢) المرحل كمعظم : برد فيه تصاوير رحل وهو مركب البعير .

على طرف المرط ، ثم ركع وسجد فأزلقته [1] ، فلما سلم أخبرته الخبر .

***

في هذه الأعاصير القاصفة ، والزعازع العاصفة ، وفي هذه الجحافل الجرارة ، والألوف المؤلفة من جيوش الأحزاب التي أعدتها قريش وحلفاؤها من اليهود ، وألفاف العرب بكل ما يملكون من قوة وبطش وبطولة ، مما لم تعرف مثله من قبل ... كان « خالد ابن الوليد » أحد أبطال العرب الذين عصبت بهم قريش أمر اقتحام الخندق ، فكان يتناوب الغدو إليه على رأس الكتائب المهاجمة مع أبي سفيان بن حرب ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب الفهري ، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوما ، ويغدو « خالد » في كتيبته يوما ، ويغدو هبيرة في قومه يوما ، ويغدو ضرار يوما ، وفرق المشركون كتائبهم ، ونحوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة غليظة فيها « خالد ابن الوليد » فاقتتلوا يومهم ذلك إلى هوى من الليل ، مايقدرون أن يزولوا عن موضعهم ، ولا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ظهراً ، ولا عصراً ، ولا مغرباً ، ولا عشاء ، حتى كشف الله عنهم جنود المشركين .

وقد قص الله تعالى حديث هذه الواقعة في آيات من القرآن الكريم ، صورت شأن طوائف الناس من المؤمنين والمشركين ومن ظاهرهم من اليهود والمنافقين أبرع تصوير ، فقال في سورة الأحزاب : «ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ؛ ويستأذن فريق منهم النبي يقولون : إن بيوتنا عورة ؛ وما هي بعورة . إن يريدون إلا فرارا . ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وماتلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا .

---

(١) أزلقه : نحاه عن موضعه .

قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو أراد بكم رحمة ؟ ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ؛ أشحة على الخير ؛ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » . ثم قال تعالى « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ؛ وكان الله قوياً عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديراً » .

* * *

إن قريشا لم تكن فى مواقفها لجند الإسلام تزور عن مكانة « خالد » وبطولته التى كانت تعرفها له من قبل ، بل كانت أحفل به وأعرف لحقه ؛ لأن « خالدا » كان يعرف مكان نفسه من البطولة فيضعها حيث شاء من أسنمة المجد ، فهى فى هذه الغزوة الضخمة تضع بطلها « خالداً » على رأس أغلظ كتائبها وأقواها ، وتخصه بشرف الوقوف أمام كتيبة رسول الله صلى عليه وسلم ، وهى تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم لشجاعته أحد من البشر ، وتعلم أنه يكون فى أمنع الكتائب وأعظمها ، فتنحية « خالد » للوقوف أمامه فيض من الثقة والتقدير لفتى مخزوم انفرد به ولم يكن لقائد عربى سواه ؛ وهكذا كان ذلك كله إرهاصاً لما ينتظر « خالداً » من مجد إسلامى عريض ، يملأ أرجاء الدارع ...

الفصل الثانى

خالد

فى طريقه إلى الإسلام

متى أسلم خالد — كتاب أخيه الوليد إليه وأثره فى نفسه . . رؤيا صادقة — خروجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه — لقاؤه عثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص خارجين للإسلام — احتفاء النبى بخالد ، وثناؤه عليه — ألوان من العبر فى قصة إسلام خالد .

متى أسلم خالد

قال أبو عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب » : واختلف فى وقت إسلام خالد وهجرته؛ فقيل هاجر خالد بعد الحديبية ، وقيل : بل كان إسلامه بين الحديبية وخيبر ، وقيل : بل كان إسلامه سنة خمس بعد فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى قريظة، وقيل : بل كان إسلامه سنة ثمان مع عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ؛ ثم قال أبو عمر : وكان خالد على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ؛ وكانت الحديبية فى ذى القعدة سنة ست ، وخيبر بعدها فى المحرم وصفر سنة سبع ، وكانت هجرته مع عمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة ؛ فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .

فهذه أربعة أقوال : حكى عز الدين بن الأثير فى « أسد الغابة » ثلاثة منها، وأعرض عن أولها ، وكأنه رآه حديثاً عن الهجرة ، لا عن الإسلام .

والهجرة إنما تعتبر بعد استقرار الإسلام فى النفس واطمئنان القلب بالإيمان ؛ وابن عبد البر جزم فى آخر عبارته: بأن خالداً كان فى الحديبية مسلماً، وأميراً على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة التى كانت فى أواخر سنة ست ، وإلى ذلك جنح فريق من الرواة كما حكاه أبو جعفر الطبرى وصححه أبو نصر القشيرى على ما صرح به القرطبى فى تفسير قوله تعالى (وهو الذى كف أيديهم عنكم) الآية . قال الطبرى : « لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم بالهدى وانتهى إلى ذى « الحليفة » قال له عمر : يارسول الله تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينه فلم يدع فيها كراعاً ولا سلاحاً إلا حمله ، فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل ، فسار حتى أتى « منى » فنزل بمنى ، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبى جهل قد خرج إليك فى خمسمائة ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد : ياخالد : هذا ابن عمك قد أتاك فى الخيل ، فقال خالد : أنا سيف الله وسيف رسوله – فيومئذ سمى « سيف الله » – يارسول الله : ارم بى حيث شئت. فبعثه على خيل فلقى عكرمة فى الشعب، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد فى الثانية، فهزمه حتى أدخله حيطان مكة، ثم عاد

فى الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، فأنزل الله تعالى فيه «وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم». إلى قوله : «عذاباً أليما» .

هذه رواية لا نستطيع أن نقبلها كما جاءت ، لأن أبا جعفر الطبرى الذى حكاها، ذكر قبيلها عن الزهرى مايخالفها فقال . « قال الزهرى : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بعسفان ، لقيه بشر بن سفيان الكعبى . فقال له : يارسول الله، هذه قريش قد سمعوا بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ، وقد نزلوا بذى « طوى » يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد ابن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم» وذلك يطابق الرواية الصحيحة الآتية عن البخارى .

وذكر القرطبى نحو هذا فى قصة الحديبية ولم يرد فيه. وإذا كنا لا نستطيع قبول رواية أن خالداً كان فى الحديبية مسلماً وأميراً على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنا نزعم أن وهما دخل على الرواه فيها ، فنقلوا حديثها من موضع كان فيه خالد على خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا الموضع ، ويشبه أن يكون الموضع المنقول منه الحديث فتح مكة ، ففى هذا الفتح كان خالد — بإجماع الرواة — على خيل المسلمين .

ومهما يكن شأن هده الرواية فإنها لم تعين وقت إسلام « خالد » فيحتمل أن يكون فى نفس سنة الحديبية ، أى سنة ست ؛ فى أولها أو وسطها ، ويحتمل أن يكون فى سنة خمس، ولم أر من صرح بالأول ، أى بدخول خالد فى الإسلام سنة ست . وأما الثانى ، فهو قول صريح من الأقوال الأربعة التى ذكرها ابن عبد البر ، وجزم به القسطلانى فى المواهب عن ابن أبى خيثمة ، ورده ابن حجر فى الإصابة فقال: ووهم من زعم أنه أسلم سنة خمس ، وهو حرى بالرد ، وعدم القبول ؛ لأنه ثبت من رواية من لا يرقى إلى روايته الشك ، الإمام البخارى ، أن خالداً كان فى الحديبية على خيل المشركين ؛ فقد جاء فى صحيحه عن المسور بن مخرمة ، ومروان بن الحكم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل قريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين» ولا يمكن أن يتفق ذلك مع القول بإسلام خالد سنة خمس إلا إذا زعم زاعم أن خالداً أسلم ثم رجع ، ثم أسلم ، ولم يقل أحد مطلقاً بنحو هذا .

بقى قول خامس لم يذكره ابن عبد البر ، وهو أن خالداً أسلم سنة سبع ؛ ذهب إلى ذلك الحاكم ، وجزم به ابن حجر فى « الإصابة » فقال : وشهد خالد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية . كما ثبت فى الصحيح أنه كان على خيل قريش طليعة ، ثم أسلم فى سنة سبع بعد خيبر ، وقيل قبلها .

وأرجح هذه الأقوال ميزانا قول من ذهب إلى أن إسلام خالد كان بهجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ثمان من الهجرة ، لأن رواية البخارى ، وهى أرفع الروايات ، بينة فى أن خالداً كان فى آخر سنة ست زمن الحديبية طليعة لقريش وأميراً على خيلها . ولم أر من الروايات ما ذكر خالداً فى وقائع سنة سبع لا مع قريش ، ولا مع المسلمين . ويبعد جداً أن يكون خالد دخل فى الإسلام معلناً سنة سبع ، ثم لا يرد له ذكر فى وقائعها بجانب جنود الإسلام ، اللهم إذا فهمنا أن المقصود بإسلامه استقرار الإيمان فى قلبه من غير إعلان إسلامه وهجرته للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يبعد أن تكون معركة الإيمان بدأت بين عقل خالد وقلبه منذ الحديبية وموقفه فيها ، فكان ذلك آية من آيات الله فتح بها قلب هذا البطل العبقرى إلى نور الإسلام ، فدلف إليه ، وشع فى أرجائه ، وانكشفت عنه حجب الجاهلية ، واستقام له الميسم ، وتبينت له الطريق ، وظهر له الحق ، وذهبت عنه نخوة العنجهية ، وتعززها بموروثها ، ولم يبق عليه سوى الإعلان والجثو بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتلقى منه راية الفتح ولقب البطولة .

وقد يكون من الخير أن نترك الحديث لخالد نفسه ، يحدثنا ونحن نصغى إليه ، ويحكى لنا كيف دخل حب الإسلام إلى قلبه ؟ وكيف أسلم ؟ وكيف استقبله النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟

روى ابن سعد فى الطبقات عن الحارث بن هشام قال : سمعت خالد بن الوليد يقول لما أراد الله بى من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى حب الإسلام ، وحضرنى رشدى ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية خرجت فى خيل قريش ، فلقيت

رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان ، فقمت بإزائه ، وتعرضت له ، فصلى بأصحابه الظهر إماماً : فهممنا أن نغير عليه فلم يعزم لنا ، وكان فيه خيرة ، فأطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعاً ، وقلت : الرجل ممنوع ، وافترقنا ، وعدل عن سنن خيلنا ، وأخذ ذات اليمين فلما صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعته قريش بالراح قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ !! أين المذهب ؟

أإلى النجاشي ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده .

أفأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية !!

أفأقيم في عجم ؟

أو أقيم في داري فيمن بقي ؟ !!

وبينما أنا على ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية ، وتغيبت فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد قد دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العمرة فطلبني فلم يجدني فكتب إلى كتابا ، فإذا فيه :

كتاب أخيه الوليد إليه وأثره في نفسه

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك !! ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ وقد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أين خالد ؟

فقلت : يأتي الله به .

فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له : ولقدمناه على غيره ؟ فاستدرك يا أخي مافاتك ، فقد فاتتك مواطن صالحة » .

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ، وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

رؤيا صادقة

ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلد أخضر واسع ، فقلت : إن

هذه الرؤيا حق ، فلما قدمت المدينة ، قلت : لأذكرنها إلى أبى بكر ، فذكرتها فقال :
هو مخرجك الذى هداك الإسلام ، والضيق الذى كنت فيه : الشرك .

خروجه إلى رسول الله وإسلامه

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت : أما ترى يا أبا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟!! إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد [صلى الله عليه وسلم] على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه ؟ فإن شرف محمد شرف لنا . فأبى علىّ أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيرى من قريش ما تبعته أبداً ، فافترقنا ، فقلت . هذا رجل موتور ، يطلب وتراً ، قتل أبوه وأخوه ببــــدر ؟

فلقيت عكرمة بن أبى جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال لى مثل ما قال صفوان ، فقلت له فاطو ما ذكرت لك ، قال : لا أذكره .

لقاؤه عثمان ابن طلحة وعمرو بن العاص خارجين للاسلام

وخرجت إلى منزلى ، فأمرت براحلتى تخرج إلى أن ألقى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، فقلت : إن هذا لى لصديق ، فلو ذكرت له ما أريد ؟!

ثم تذكرت من قتل من آبائه ، فكرهت أن أذكره ؛ ثم قلت : وما علىّ وأنا راحل من ساعتى ؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر ، لو صب عليه ذنوب من ماء خرج !!

وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة ، وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى بـ « فج » مناخة ، واتعدت أنا وهو « يأجج [1] » إن سبقنى أقام ، وإن سبقته أقمت عليه ، وخرجنا جميعا ، فأدلجنا سحراً ، فلما كنا بـ « الهدة » إذا عمرو بن العاص ، فقال : مرحبا بالقوم ، قلنا : وبك .

قال . أين مسيركم ؟

فأخبرناه وأخبرنا أنه يريد النبى صلى الله عليه وسلم ليسلم ، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول يوم من صفر سنة ثمان ، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها » .
وفى رواية أخرى فقال : أين سيركم ؟ قلنا : ما أخرجك ؟

(١) مكان على ثمانية أميال من مكة فى طريق المدينة كان قرية عامرة فى غابر الزمن ، وبه الآن علما التنعيم ومسجد عائشة حيث اعتمرت أم المؤمنين عائشة وكان معها أخوها عبد الرحمن بأمر النبى صلى الله عليه وسلم .

قال : فما الذى أخرجكم ؟

قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد ، قال : وذاك الذى أقدمنى فاصطحبنا حتى قدمنا المدينــة ، ثم لبست من صالح ثيابى ، وعمــدت إلى رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، فلقينى أخى ، فقال : أسرع . فإن رسول الله صلى الله عليــه وسلم أخبر بقدومك فسر به ، وهو ينتظر ، فأسرعت المشى ، فلما طلعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه بالنبوة . فرد على السلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » .

احتفاء النبى صلى الله عليه وسلم به وثناؤه عليه

وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقلت : استغفر لى كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله ، فقال : إن الإسلام يجب ما كان قبله . قلت : يارسول الله على ذلك : فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ماأوضع فيه من صد عن سبيلك . ثم تقدم عمرو ابن العاص ، وعثمان بن طلحة فأسلما وبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من يوم أسلمت يعدل بى أحداً فيما يحزبه .

هذه الرواية فى إسلام خالد رضى الله عنه وردت فى مصدر من أهم مصادر السير وتاريخ الصحابة وأقدمها ، وهى من حديث «خالد» نفسه عن نفسه، وفيها تعيين وقت دخوله فى الإسلام بالسنة والشهر ، وفيها بيان الدواعى التى حركت وجدان البطل حتى دلف إلى ساحة الإسلام بإيمان يجمع بين رضاء العقل، وراحة الضمير ، وبهذه الرواية قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وإليها ينتهى المصير فى تحديد وقت إسلام « خالد » وهجرته .

* * *

ألوان من العبر فى قصة إسلامه

فى قصة إسلام « خالد » وحديث هجرته ألوان من النظر والاعتبار ، وضروب من المناقب والمآثر ، وأفانين من مجالات العبقرية المحسة بذاتها ، الشاعرة بقيمتها فى الحياة ، وفيها لفتات من الرعاية النبوية الكريمة أبانت عن خصائص فى حيـاة خالد موصولة البداية بالنهاية .

وأول مايطالع الباحث من ذلك : الشعور النفسى الذى اضطرمت به نفس البطل العظيم فى مرحلة الانتقال من دين الآباء والأجداد ، وعقيدة الأوثان والأنداد إلى دين الإسلام وعقيدة التوحيد ، وهى مرحلة من أشد مراحل الحياة على النفوس القوية ، لأنها مرحلة يتسلط فيها الشك المريب على نفس الإنسان فيذيبها على مافيها من عقيدة وإيمان موروث ، ثم يخرجها خالية من الصور والأحاسيس ، حتى إذا أتاها اليقين بشواهد الحق تمثلت فى مرآتها آيات الإيمان باهرة قاهرة .

كذلك بدأ إيمان بطل الإسلام « خالد بن الوليد » رضى الله عنه ، فهو قد شك وألح فى هذا الشك ، شك فيما هو عليه من دين وعقيدة ، وشك فى مواقفه التى وقفها دفاعاً عن ذلك الدين الذى لا يعرف ماهو ؟ سوى أنه دين الوليد ، ودين قريش ، ودين العرب ، ثم انتقل من الشك إلى أولى درجات الإيمان ، فعرف أنه كان فى مواقفه كلها التى وقفها معانداً للإسلام ، موضعاً فى غير شىء ، لأنه يمشى إلى غير هدف ، فماذا إذاً ؟

هذا قلبه قد خلا من الماضى ، ماضى الوليد ، وماضى قريش ، وماضى العرب ، فى الدين والعقيدة ، ولكنه لا يستطيع أن يخليه من عقيدة ينطوى عليها ، وأى عقيدة تلك التى يرتضيها لتعمر قلبه ؟ وهنا يبدأ طور جديد من الشك ، ولكنه شك لعله أهدأ من الشك الأول ، لأن ذاك اقتلاع لجذور متأصلة ، وهذا اختيار لعقيدة جديدة ، تملأ فراغ قلبه .

يصور لنا خالد رضى الله عنه هذا الطور من حياته بأروع مايمكن أن تصور به حياة نفس حائرة ، تتنازعها عوامل متجاذبة ، لا تشبه مامضى قبلها ، ولا ماهو آت بعدها ، وكأنها برزخ يفصل بين فناء لا أظلال لأشباحه ، وخلود لا انتهاء لمقوماته فيقول :

« فلما صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا بالحديبية قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ أين أذهب ؟ أ إلى النجاشى ؟ فقد اتبع محمداً ، وأصحابه آمنون عنده ؟ أ فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية ! ! أ فأقيم فى عجم ؟ أم أقيم فى دارى فيمن بقى ؟ فبينا أنا فى ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله » .

كانت هذه الحيرة النفسية تمحيصاً لعقل خالد وقلبه ، وإعداداً له ليستقبل حياته

الجديدة ، وليواجه الحياة بوجه جديد ، يعرف به بين أبطال العبقرية الإسلامية الخالدة

لو أن باحثاً كان يدرس حياة أحد فلاسفة الإلهيات ، ثم وقف من هذه الحياة مرحلة كهذه المرحلة الشاكة الممحصة التى رأيناها فى حياة « خالد بن الوليد » أذابت من عقله وروحه موروث العقائد ، لرأينا من متفلسفة الباحثين من يعد هذا اللون من الشك أعلى درجات اليقين فى مراتب الإيمان ، ولرأينا منهم من يعده أعمق طرائق الفلسفة للوصول إلى ذروة الإيمان ، ولرأينا منهم من يعده أعظم عمل من أعمال العقل المحرر من أغلال التعقيدات الجوفاء .

والأمر الثانى الذى يلفت النظر فى قصة إسلام خالد ذلك الكتاب الذى كتبه إلى « خالد » أخوه الوليد بن الوليد ، وكان قد دخل فى الإسلام ، وطلب خالداً فى مكة مع المؤمنين فلم يجده ، وفيه يقول : « فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك » .

وهى عبارة تصور شخصية « خالد » ومكانته وامتيازه بعقل فارس ورأى نافذ .

ومن هذا الكتاب يظهر احتفاء النبى صلى الله عليه وسلم بخالد ، وتقديره له تقديرا وعرفانه الحق بطولته ، فهو يسأل عنه ، ويعجب لإعراضه عن الإسلام ، ويرى أن لو كان خالد جعل نكايته وحده مع المسلمين لكان خيراً له ، ولقدمه على غيره من أبطال المسلمين ، وفى ذلك من التقريظ والثناء ما ليس بعده غاية لأحد ، وفيه شهادة عظمى على ما كان يحتله « خالد » من مكانة سامية ، وما كان ينتظره الإسلام منه فى بطولته المستقبلة .

وقد حقق الله ذلك فى مستقبل حياة « خالد » التى عاشها ينافح عن الإسلام ، فكان فيها القائد المظفر والبطل العبقرى ، ولم يشهد النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته الكريمة من بطولة « خالد » مثل ما شهدت معجزاته فيه وتنبؤه بعبقريته ، فكان فى ذلك آية الآيات على ما خص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من بصر بحقائق الرجال ونفاذ بميزان الخصائص التى تكون فيهم كالعنوان على الكتاب ، ولكن لا يقرؤها إلا من أوتى نظراً نفاذاً إلى ماوراء حجب الغيب . وفى سيرة أصحابه ومناقبهم وأعمالهم شواهد فى ذلك وتصديقه .

والأمر الثالث فى هذه القصة: أن إسلام خالد رضى الله عنه كان عن فكر مقتنع ورأى مدبر، وكرامة موفرة، فهو إذ يلقى داهية العرب عمرو بن العاص فى طريق الهداية - وقد بدره عمرو بهذا السؤال ليكشف به خبيئة نفسه، وهو أعلم به وبمقامه فى قريش - «يا أبا سليمان أين تريد»؟ ولو كان غير خالد ماسأله عمرو ولا التفت إليه ويجيبه «خالد» جواب الرجل المتثبت الذى جعل عقله قائده، فلم يتأثر أحداً، ولم يخش أحداً، ولكنه آمن لأن دلائل الحق أنارت جوانب نفسه، وفتحت قلبه، وأيقظت ضميره، فقال: «والله لقد استقام الميسم وإن محمداً لنبى، اذهب فأسلم، فحتى متى؟» ويفصح عن ذلك أكمل إفصاح مقاولة عكرمة ابن أبى جهل مع خالد ليصده عن الإسلام، قال عكرمة بعد أن أطلعه خالد على ذات نفسه رجاء صحبته: «قد صبوت ياخالد» فقال خالد: «لم أصب ولكنى أسلمت» قال عكرمة: «والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت» قال خالد: ولم. قال عكرمة: «لأن محمداً وضع شرف أبيك، وقتل عمك وابن عمك ببدر، فوالله ما كنت لأسلم، ولا أتكلم بكلامك ياخالد، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله.» قال خالد: «هذا أمر الجاهلية وحميتها: ولكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق».

هذا لون من التفكير لا يجوزه الباحث فى سير الرجال وتاريخ الأبطال فى غير تأمل، بل هو يدعو إلى التأمل، وإطالة النظر فيما انطوى عليه من اتجاهات تحدد قيم الرجال فى موازين الحياة.

فهذا عمرو بن العاص داهية العرب، وأحد الأبطال الفاتحين فى تاريخ الإسلام، له من خصائص «خالد» ما يجمعهما فى قرن العبقرية، ولكنها عبقرية ذات ألوان وفنون، لا يستوى فى كلها حظ الرجلين، فالتاريخ يعنون كتاب عمرو بالدهاء، ويطوى فى صفحاته ماله بعد ذلك من مناقب وميزات، ولكنه لا يعنون كتاب (خالد) إلا باسم خالد، فكأنه يرى أن عبقرية خالد إنما هى فى خالد كله، لا فى خصيصة من خصائصه، لأننا لا نعرف فى خصائص (خالد) خصيصة تنفرد بطرة الكتاب فى مكان العنوان، ثم يأتى غيرها بعد ذلك فى الصفحات.

يلقى «خالد» عمراً فى مخرجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلاهما قد أجمع فى نفسه

على الإسلام ، وكلاهما يقدر صاحبه قدره ، ويزنه بميزانه ، فهل قرأ أحدهما ما سطر على صفحة قلب الآخر ، فانتهيا إلى غاية واحدة لم يسلكا لها إلا محجة اليقين في بلج وإشراق التوفيق ؟ !

وهذا عكرمة بن أبي جهل أحد الأبطال وقواد الجيوش في الجاهلية والإسلام من عبقرية ابن عمه «خالد» هذه الخصيصة في البطولة المجترئة ، يأتيه «خالد» سليل بيته وفرع أسرته فيحدثه «خالد» عن وقوع الإسلام في قلبه ، فيرد عليه رد رجل يعيش مع الجاهلية في حمأتها ، يعتز بمعازها ، ويتأثر مظاهرها ، وينظر «خالد» نظر من لم يرتفع عن حضيض التقاعس القبلي والعصبية الجاهلية ، وراح ليرده عن قصده بأسلوب كان يجتذب خالداً إليه لو ظلت نفسه في أفق [illegible] جهل تدور .

ولكن الله تعالى قد خلق من خالد بن الوليد وابن عم أبي جهل ، خالد المسلمين وسيف الإسلام ، فما شرف أبيه الأدنى ونعمه محمد «صلى الله عليه وسلم»

وما عمه وابن عمه اللذان قتلا ببدر ؟

هذا كله أصبح في نظر خالد سيف الإسلام «أمر الجاهلية وعميتها» وهو جعله في مواطئ قدميه ، وأسلم إسلاماً دعاه إليه عقله ، واستجابت إليه فطرته تبين له الحق .

والأمر الرابع في حديث إسلام «خالد» استقبال النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة الحجبي ، فإنه قال حين رآهم : «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها» وهذا أول وسام من أوسمة الشرف والسؤدد يقلده «خالد» الإسلام ، وشاركه فيه فتى سهم ، وفتى عبد الدار ، رضي الله عنهم ، وهي كلمة من نمط الكلام النبوي ، تأخذ بضبعي فتى مخزوم خالد رضي الله عنه إلى ما يستقبله من مجد ونبل في ظلال الإسلام ، وهي إذا صورت خالداً وصاحبيه في السويداء من وجاهة مكة وعزتها ومجدها ، فإنما تعني وصل هذا المجد بمجد الخلود في تاريخ الإسلام على صحائف البطولة الظافرة تحت سمع الدنيا وبصرها .

والأمر الخامس فى حديث إسلام «خالد» تلك الرعاية التى اختص بها النبى صلى الله عليه وسلم « خالداً » وذلك السرور الذى أشرق به وجهه الكريم فرحاً بإسلامه، وتقريبه وإظهار فضيلته فى عقله وشجاعته . قال خالد : «فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى ، فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك فسر بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه فما زال يتبسم إلى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق » . وهنا يقف « خالد » رضى الله عنه ليسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يملى عليه السطر الأول من كتاب البطولة وسفر العبقرية الخالدية فى مشهد من المهاجرين والأنصار، مصوراً فى تلك السخامة البارعة التى قالها لخالد بعد أن شهد شهادة الحق : «الحمد لله الذى هداك؛ قد كنت أرى لك عقلا ، رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » .

وقد تسنم خالد بهذا التاج العبقرى الذى توجه به النبى صلى الله عليه وسلم ذروة الحياة الجديدة ، وهو لما يزل فى أولى درجاتها ، وما كان الإسلام وهو دين الهدى والنور وشريعة العزة والكرامة ليهدر خصائص الأفراد التى كانت لهم قبل إشراقه فى أرجاء نفوسهم ، مادامت تلك الخصائص مما يسمو بالإنسانية ويعزها .

وخصيصة العقل التى أشاد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بطل الإسلام «خالد» رضى الله عنه من الكمالات التى لا تحدها الأمكنة ولا تخضع لقيود الأزمنة .

فهل من حرج إذا أن يعرف « خالد » لنفسه قيمتها ، ويضعها من الشرف والسيادة موضعها ، ثم يفصح عن ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى عليه ؟

قال « خالد » وهو يلقى الستار على أول فصول روايته « والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بى أحداً من أصحابه فيما يحزبه »

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الناس فراسة وأدقهم نظراً ، وأنفذهم بصيرة وأصوبهم حكما ، وأبلغهم حكمة ، وأهداهم سبيلا ، وأعدلهم ميزانا .

وفى قول « خالد » فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألخ . » لفتة لطيفة تطلعنا على شىء جديد من أخلاق « خالد » فى مظهره، فلبسه من صالح ثيابه ليلقى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى زى جميل ، وهيئة منتقاه تعطينا صورة من نزوعه إلى الجمال وحب التجمل فى المحافل ، ولقاء من لم يكن قد رفع يده

وبينهم حجاب الاحتشام ، وهذا لون من حياة الكملة أو المتكملين فى طبقات الخ من الناس ، وهو ليس عارية ولا تصنعا فى حياة خالد ، ولكنه خلق وطبيعة يتفق نشأته وتربيته ومظاهر الحياة فى أسرته وبيئته .

لعظائم الأمور أراد الإسلام « خالداً » ولها زكى رسول الله صلى الله عليه و « خالداً » وأثنى عليه .

ومثل خالد إنما يراد للشدائد يكشفها ، وللبطولة يمثلها . قال ابن عبد البر الاستعياب ، وابن الأثير فى الأسد : ولم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى ا عليه وسلم أعنة الخيل ، فيكون فى مقدمتها فى محاربة العرب .

وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيف الله » :

روى الترمذى عن أبى هريرة قال نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منز فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا ؟ فأقول : فلا حتى مر خالد بن الوليد، فقال : من هذا ؟ قلت: خالد بن الوليد ، فقال: « نعم عبد الله هذا ، سيف من سيوف الله » .

وفى الاستيعاب عن عبد الله بن أبى أوفى قال : اشتكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا خالد لم تؤذى رجلا من أهل بدر لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله ؟ » قال يارسول الله إنهم يقعون فى، فأرد عليهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله ؛ صبه الله على الكفار) .

وروى عن ابن عباس أنه قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام فقال عمار : لقد هممت ألا أكلمك أبداً ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : « يا خالد مالك ولعمار رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدراً ؟ » وقال لعمار : إن خالداً ياعمار سيف من سيوف الله سله على الكفار) قال خالد: فمازلت أحب عماراً من يومئذ .

وفى الإصابة : لما عقد أبو بكر لخالد على قتال أهل الردة قال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله على الكفار) . وروى الإمام أحمد أن عمر استعمل أبا عبيدة على الشام وعزل

خالد بن الوليد ، فقال خالد : بعث عليكم أمين هذه الأمة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله :

فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم فتى العشيرة .

وفى هذه الأحاديث من نفحات النبوة ما يؤكد الذى ألمعنا إليه من صادق النظرات النبوية فى الشخصيات التى اتصلت بالنبى صلى الله عليه وسلم اتصال تربية وتهذيب ، فلكل شخصية منهم فضلها ومكانها ؛ ولخالد بن الوليد من ذلك خصيصته التى عقدت بناصيته لواء العبقرية وبطولة الإسلام . وهو فى كل حالة ومع كل شخص « سيف من سيوف الله » وقد كان خالد رضى الله عنه فى خلائقه الإيمانية متساوقا مع سائر خلائقه الفطرية ، فهو ضرب من العبقرية الشاملة التى تستطيع أن تضع عنوان باطنها على ظاهرها ، وعنوان ظاهرها على باطنها .

وإذا كانت تصاريف الحياة أملت على التاريخ سيرة خالد بن الوليد تحت عنوان « البطولة » ، فذلك لأن خالداً رضى الله عنه كان فى هذا الجانب من العبقرية نسيج وحده فاستجاب التاريخ فى تدوين سيرته إلى ما ألقى إليه من وحى الخصائص فى حياة الرجال .

وهو وراء ذلك مع الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سائر الخصائص التى تفرقت فيهم طوائف وأفراداً ... وإن تعجب فعجب أن ترى عبقرية خالد تنفذ إلى لون من الخصائص ، أبعدما يكون — فى الظاهر — عن خصيصة البطولة التى عنون بها التاريخ سيرة خالد بن الوليد بين رجالات الإسلام . ذلك هو خصيصة الإيمان القاهر الذى يبلغ فى بعض وثباته حد الإعجاز ، ومجاوزة قوانين الطبيعة فى مشاهد الحس المحدود .

وهذا الإيمان — عند التحقيق — هو منشأ العبقرية فى جانب البطولة عند الأبطال .

وإنما موضع العجب فيه موضعه من سيرة خالد ، وسياقة التاريخ له فى أسلوب ينأى به عن مطارح البطولة ومذاهبها ، ويقف به عند حدود الخوارق والكرامات ، وهو بهذا العنوان يقع هنا وهناك ، فلا تقبله خصائص خالد رضى الله عنه إلا على ضرب من التأويل يرده إلى عنوانه الأصيل .

وتأويل ما يروى من هذا النحو فى سيرة خالد أنه ضرب من سيطرة القوى الروحانية فى الأبطال على غرائزهم وكيانهم المادى وصورهم الجثمانية فتنفعل أمامها انفعال

المادة إذا أضيف عليها مزيج يذيبها ، على أن أعمال البطولة لا يسوغ أن [illegible] العرف والعادة فهي في أكثر أمرها فوق هذه القوانين [illegible] وقوانين خاصة تحكمها في حيزها الخاص وحدودها المطلقة .

وعلى هذا النحو نفهم ما جاء في بعض الآثار [illegible] مظهرا لهذا الإيمان القاهر عند بطل الإسلام خالد بن الوليد [illegible] الإصابة قال : لما قدم خالد بن الوليد الحيرة أتي بسم [illegible] فلم يضره ، وقال أيضاً : وروى ابن أبي الدنيا بإسناد [illegible] ابن الوليد رجل معه زق خمر ، فقال اللهم اجعله عسلا فصار [illegible] هذا الوجه : مر رجل بخالد ومعه زق خمر ، فقال ما هذا ؟

قال : خل ، قال : جعله الله خلا ، فنظروا فإذا هو [illegible] (١) .
وروى الطبري قصة السم بشيء من التفصيل فقال : [illegible]

---

(١) قد تسكون لبعض العقول وقفة في معاني هذه الأحاديث ومبناها [illegible] من النظر العلمي أكثر من الخضوع المألوف المتكرر فيما نسميه [illegible] الطبيعة [illegible] نعرف ما هذه الطبيعة في حقيقتها : وما هذه القوانين السرمدية التي [illegible] — كما نفهم من الطبيعة وقوانينها — سنن الله تعالى في الوجود ، قلنا : نعم ، [illegible] أن سنن الله تجري دائما على وفق مشهودنا وما ألفنا [illegible] الله الذي خلق [illegible] هو القادر على أن يجريها في أي اتجاه شاء إذا شاء ومتى شاء [illegible] بهذا فليس للإسلام به كبير حاجة .

ولم نشأ أن نذهب في تعليل نحو هذا التفكير بما ذهب إليه علماء [illegible] الباطنة في الإنسان على قواه الظاهرة ، وتأثير الإيحاء بما يجعل الإحساس [illegible] تقريبا للعقول الذين أخضعوا تفكيرهم لتقليد ما سموه علما ولم نشأ أن [illegible] بما يذهب إليه الروحانيون في جميع الملل من أثر الأرواح في الأجسام [illegible] أمور لم يؤمن بها جمهور أهل العلم والمثقفين .

ولم نشأ أن نضرب الأمثال ونسوق الشواهد بما وقع على أيدي العلماء والباحثين [illegible] يظن في بدء النظر أنه خرق لما يزعمون أنه قانون الطبيعة ، لم نشأ أن نذهب إلى هذا [illegible] نذهب مذهب جمهور المسلمين في اعتقاد أن الله يؤيد المصطفين من الناس بما [illegible] الطبيعة في بعض أحداثها . وقد اتفق أهل الأديان قاطبة على وقوع ذلك للأنبياء [illegible] والعمدة فيه عندنا صحة النقل وثقة الرواية كيفما كانت طبيعة الحادث وصوره .

الحيرة . نظر إلى ابن بقيلة وكان معه منصف له متعلق كيساً فى حقوه ، فتناول خالد الكيس ونثر ما فيه فى راحته فقال : ماهذا ، قال : هذا وأمانة الله سم ساعة . قال : ولم تحتقب السم؟ قال : خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت ؛ فقد أتيت على أجلى ، والموت أحب إلى من مكروه أدخله على قومى وأهل قريتى . فقال خالد : إنها لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها ، وقال : بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض ورب السماء ، الذى ليس يضر مع اسمه داء ، الرحمن الرحيم .

فأهووا إليه ليمنعوه منه ، فبادرهم فابتلعه ؛ فقال ابن بقيلة : والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم مادام منكم أحد أيها القرن ، ثم أقبل على أهل الحيرة وقال : لم أر كاليوم أمراً أوضح إقبالا . .

إلى هنا نقف بالحديث عن أوائل خالد وإسلامه ، ونفتح كتاب عبقريته الغامرة ، ونملى من صفحات بطولاته الباهرة أسطرا ليقرأ المسلمون فيها آيات البراعة فى سياسة الحروب وقيادة الجيوش قيادة مظفرة ، ليستخلصوا منها الأسوة النافعة والعظة البالغة .

الفصل الثالث

خـــالد
فى الإسلام على عهد النبى صلى الله عليه وسلم

مجال العبقريات — العرب والعبقرية — مكانة خالد فى الإسلام — روح الإسلام وطبيعة خالد — أول وقائع خالد فى الإسلام — إمارة خالد فى غزوة مؤتة — القائد المفكر — اختلاف الروايات فى هذه الغزوة — رأى فى الموضوع — إمارة خالد فى فتح مكة — خالد يحطم « العزى » .

مجال العبقريات

لم تكن جزيرة العرب بقبائلها المتناثرة هنا وهناك ، وحياتها الاجتماعية الضيقة المحدودة ، لتتسع آفاقها لغايات العبقريات الخصيبة المكتنزة ، وجولات البطولة القاهرة الماهرة ، ومرامى النبوغ القوى الباهر ، وحاجات الطبائع الفتية الثائرة. وإنما العبقريات فى الأمم كالشمس فى الحياة ، ترسل أشعتها فى الآفاق فيصيب ضوؤها كل موجود أدركه، وحظه منه على قدر استعداده وتعرضه له بغير حجاب ؛ فإذا أقيمت دونه الحواجز الكثيفة انخنس معلنا عن وجوده فى صور مشعة تبدد أستار الظلام . ولكل أمة حظ من هذه العبقريات ، يستثيرها الزمن إذا تكامل للأمة رشدها وتهيأت للعبقرية أسبابها .

العرب والعبقرية

وقد كان حظ الأمة العربية من هذه العبقريات حظا وفيرا ، بيد أن ذلك ظل كامنا حتى استثاره الإسلام بما أزاح من حجب ، ومزق من أسدال ، فانبعثت شمس العبقرية العربية تشرق فى آفاق الوجود ، شرقا وغربا بعد أن كانت حبيسة بين أودية الجزيرة ووهادها ، لا تحس لها الحياة وجودا ، ولا يعلم الناس عنها شيئا غير لمعات خافقة تأتلق حينا وتخبو أحيانا .. وإذا بهذه الأمة البدوية تخرج من صحرائها مدلة تحمل إلى الناس دينا مهذبا، وتشريعا عادلا ، وسياسة حكيمة ، وأدبا فاضلا ، وفكرا سريا ، وقيادة فى الحروب مظفرة، وبطولة بارعة ، سادت الأمم ، وأدهش المفكرين ، ولكنها العبقرية الخصيبة المكتنزة أطلقها الإسلام من قيود القبلية إلى فضاء العالمية ، وفكها من أغلال العنصرية إلى ساحات الإنسانية ، وحلها من ربقة القومية الزارية إلى دعوة الأخوة العامة، فراحت تستبق إلى الخلود حتى أنافت على ذروته غير مدافعة ولا منازعة ، و « خالد بن الوليد » مثلها المضروب ، وشاهدها المذكور ، فهو فى جاهليته بطل من أبطال الجزيرة العربية ، وفتى من فتيان مكة ، وفارس من فرسان قريش ، وهو فى إسلامه بطل من أبطال الإسلام، وقائد سامى من قواد الحروب لم تعرف الهزيمة قط ، ومفخرة من مفاخر العرب ، ورجل من رجالات التاريخ الأفذاذ .

مكانة خالد فى الإسلام

أسلم « خالد » رضى الله عنه ، وسمع من النبى صلى الله عليه وسلم — وهو أعرف الناس بأقدار الرجال — من التقريظ والثناء عليه ما لم يقله لأحد سواه ، ورأى من احتفائه به ما لم ير لغيره مثله ، فأعد نفسه لمكانها فى الإسلام ، وهل لخالد فى حياته الجديدة مكان غير قيادة الأبطال ، فى معامع الوغى والنزال ؟ نعم ، ولذلك وجهه الإسلام .

ألم يقل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه سيف من سيوف الله » ؟

بلى ! وقد شهد منه الإسلام ماأقر عينه ، وأرضى دعوته ، فكان فى جميع مواقفه القائد المحنك ، والسياسى الحكيم ، والبطل الصنديد ، والجندى الصادق ، والشجاع المقتحم ، والفارس الجرىء ، والمفكر الحازم ، والعقل المسدد ، والطود الذى لا تزعزعه الحوادث ، ولا تستطير حلمه الشدائد ، والمؤمن الذى لا يستفزه النصر ، ولا يبطره العجب ، ولا تملكه الخيلاء الجوفاء ، ولا تخدعه الخدع ، ولا يعجزه الابتلاء ، وهذه المزايا منتهى مايمكن أن تجتمع لرجل فى أمة ، وغاية مايطمح إليها قائد ماهر من قواد الحرب فى القديم والحديث ، ولقد كانت فى خالد حقائق هى بعض ما حباه الله به من خصائص أحكمتها الأحداث ، وصقلتها الشدائد ، وهذبتها التجارب ، وربّاها الإسلام وسجلها له التاريخ .

روح الإسلام وطبيعة خالد

كان إسلام خالد رضى الله عنه بعد أن حمل الإسلام بيمينه السيف ، واشتد ساعده ، واستقامت قناته ، ودوّى صوته واستطاع أن يرد العدوان عن نفسه ، وأعلن فى الناس أن القوة يجب أن تنصر الحق ، وتتولى نشر الهداية ، وترفع راية العدالة الاجتماعية ، وتنصف المظلوم ، وتوطد دعائم الحرية الفاضلة ، وتؤذن بمشيئة الله فى رفع المستضعفين عن حضيض الذلة والهوان إلى مستوى العزة والكرامة : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ».

لقد نازل الإسلام خصومه ، فكانت بينه وبينهم وقائع أخذ فيها وأعطى ، وانتصر وامتحن ، وكان لا يزال أوارها يستعر حين انضم « خالد » إلى المسلمين ، وآوى نفسه بين أحضان هذه الدعوة الجديدة التى تجاوبت روحها المجاهدة مع طبيعته الحربية ، وبهذا الوجه الجاد الصارم استقبل الإسلام بطله الجديد ، وبهذه الروح القوية أقبل المسلم على دينه الجديد ، ودفع هذا الدين البطل إلى الميدان فسبق ، وتجلت عبقريته (مؤتة) فى أول وقعة إسلامية حضرها ، وهى وإن لم تكن به بدأت ، [illegible] ، وكان فى وطيسها جنديا ، وغدا ينصرها قائداً عبقريا .

أول وقائع خالد فى الإسلام

ومن عجيب صنع الله تعالى فى حياة هذا القائد الموفق ، أن تكون أولى مواقفه الإسلامية هى أول موقعة يقف فيها الإسلام أمام أعظم دولة فى ذلك التاريخ — دولة

الرومان — وجهاً لوجه . وكأنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك إرهاصاً لكبريات الأحداث التى عصبت بهذا البطل العظيم فى تاريخ الجهاد الإسلامى، وأعاصير الردة التى كادت تعصف بالحياة الإسلامية لولا معجزة الإيمان الحازم من أبى بكر الصديق ، وعبقرية القيادة من قائد قواده « خالد بن الوليد »

عرفت تلك الموقعة فى كتب السير والتاريخ بغزوة (مؤتة) وهو اسم الموضع الذى انحاز إليه المسلمون فى أرض البلقاء من أطراف الشام . وجملة القول فيها أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث (الحارث بن عمير الأزدى) رسولا إلى ملك بصرى يدعوه إلى الإسلام ، فلما نزل الحارث مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، فعدا عليه وقتله، ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك فى ربيع الأول من سنة ثمان قد سرى سرية بقيادة كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح وراء ذات القرى قريباً من الشام ليدعوهم إلى الإسلام ، فقتل جميع من كان فى السرية — وكانوا خمسة عشر رجلا — غير أميرهم ، فإنه نجا بجراحاته ، حتى إذا برد عليه الليل تحامل حتى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فاشتد ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ، وندب الناس للجهاد ، وإرهاب الأعداء ، فأسرع جند الله ، واجتمع منهم ثلاثة آلاف عسكروا خارج المدينة بموضع يقال له (الجرف) فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أمير الناس زيد بن حارثة ، فإن قتل ، فجعفر بن أبى طالب ، فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتض المسلمون منهم رجلا فليجعلوه عليهم) فوثب جعفر رضى الله عنه وقال يارسول الله : ما كنت أذهب أن تستعمل على زيداً ، قال : امض . فإنك لا تدرى أى ذلك خير ؟ !

كان « خالد » رضى الله عنه جندياً فى هذا الجيش كغيره من المهاجرين والأنصار ورجالات الإسلام، والنبى صلى الله عليه وسلم يعلم مكانه ، ولم يعينه فى القواد ، فلم يعترض كما اعترض غيره ، ولم يتخاوص ذهاباً بنفسه عن الجندية تحت إمرة مولى من الموالى ، وبذلك وضع الإسلام أعظم مبدأ فى تقدير الفضائل الإنسانية فى الأشخاص ؛ فهذا عتيق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه أمير جيش فيه من رجالات قريش وأبناء البيوتات من المهاجرين والأنصار من يصلح لتولى الإمارة ، ولكن القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم

رأى أن مولاه زيداً أهل للإمارة قبل ابن عمه جعفر فأمره ، حتى يعلم الناس أن الأحساب والأنساب ليست من موازين الفضائل فى الرجال ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه . فأى غضاضة على «خالد» رضى الله عنه أن يروض نفسه على أمر الرضا بهذه المقاييس الصادقة فى وزن الرجال ، وعنده منها ما يرتفع به إلى الذروة فى الغد القريب ؟

دفع النبى صلى الله عليه وسلم اللواء إلى القائد الأول زيد بن حارثة ، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم ، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم ، فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودع بكى . فقالوا له ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ فقال لهم المسلمون ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيعهم ، فمضوا قدما حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع الروم ومن تبعهم من المستعربة فى عدد هائل ، أكثر الرواة فى تقديرهم وزادوا حتى صعد به أكثرهم إلى مائة ألف من الروم ، ومثلها من لخم ، وجذام ، والقين ، وبهراء ، وبلى ، ممن كانوا تحت حماية الرومان من العرب ، وليس عندنا أداة دقيقة فى التقدير فى عدد هذه الجيوش الجرارة ، فما نظن أن إحصاء الفرق والكتائب ومعرفة أعدادها بلغ فى ذلك الوقت من الدقة والنظام حالة تمكن جيشاً صغيراً مهاجماً من معرفة عدد جيوش ضخمة هائلة العدد كالتى تحدثنا عنها الروايات فى هذا الموضع ؛ ولا شك أن معرفة ذلك تحتاج إلى نظام خاص فى المخابرات ومعرفة أسرار الدول ، وأنظمة حروبها وإعداد فرقها ، ومقدار كل فرقة ، ولم يذكر لنا الرواة شيئاً من ذلك عند المسلمين فى مهدهم ومبدأ نشأة دولتهم .

والذى نطمئن إليه أن الروم كانوا قد ترامت إليهم أنباء المسلمين وانتصاراتهم على العرب فى داخل الجزيرة ، وكانت دعوة الإسلام قد وصلت إليهم ، وثبت فى صحيح الحديث أن هرقل هم بالاستجابة إلى الإسلام ، وأنه دعا قومه إلى ذلك [illegible] فلم يجيبوه وحاصوا عليه فترضاهم ، وأقام معهم على نصرانيته ، وذلك مما جعلهم يحسبون خيفة من المسلمين ، يترصدونهم ويستعدون لهم ، ويحرضون القبائل الموالية لهم ليكونوا معهم حرباً على المسلمين . وهذه القبائل كانت تخشى ما يخشاه الروم من صولة المسلمين ،

وقد جاءتهم النذر من قبلهم بهذه السرايا التى قتلوا بعض رجالها فكانت من بواعث هذه الغزوة ، وكان الروم فى حذر دائم من الفرس أعدائهم المنافسين .

فليس ببعيد أن يكون الروم على أهبة عسكرية للقاء عدوهم ، فلما بلغهم مسير المسلمين إليهم استعدوا للقائهم بقوات تنفق مع ما جال فى خواطرهم من تقدير قوة الجيوش الزاحفة تقديراً يعتمد على الحدس والتخمين تبعا للأخبار التى ترامت إليهم ، وأخبار الحروب محفوفة دائما بالمبالغات الفضفاضة . فالذى لاشك فيه أن جيوش الروم وأحلافهم فى هذه الواقعة كانت أضعافا مضاعفة بالنظر لجيش المسلمين ، ولا يهم بعد ذلك حصر عددها فى مائتى ألف أو أقل أو أكثر .

نظر المسلمون إلى جيوش أعدائهم فوقعت كثرتها منهم موقعاً ، فانحازوا إلى قرية « مؤتة » وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا برجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له ، فخطبهم القائد الثالث عبد الله بن رواحة مشجعا فقال « والله ياقوم إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون « الشهادة » وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فما هى إلا إحدى الحسنيين ، إما ظهور ، وإما شهادة » فقال الناس : صدق والله ابن رواحة . وثابت إليهم شجاعتهم ، واستقرت نفوسهم ، ومضوا إلى عدوهم بإيمانهم وسيوفهم ، والتحم القتال بين الفريقين على تفاوت ما بينهما فى العدد والعدة ، وحمل اللواء أمير المسلمين زيد بن حارثة فصدق الحملة ، وقاتل حتى شاط فى رماح الروم فأخذ اللواء أمير الناس بعده جعفر بن أبى طالب وقاتل وهو على فرس له حتى إذا ألجمه القتال نزل عنها فعرقبها — وهو أول من صنع ذلك فى الإسلام — وقاتل راجلا وهو يرتجز :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها على إذ لاقيتها ضرابها

فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى ، فقطعت فاحتضنه بعضديه ، وقاتل به حتى قتل ، ثم أخذ اللواء أمير الناس بعدهما عبد الله بن رواحة ، وكأنما فاجأته الطبيعة البشرية ، وهو يرى الموت يختطف الرجال من حواليه ، فأراد أن يجدد لنفسه يقينا

يدرع به إلى لقاء الموت فجعل يستنزل نفسه وينهنهها وهو رجل شاعر فيقول :

أقسمت يانفس لتنزلنه طائعة أو فلتكرهنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة ما لى أراك تكرهين الجنة

قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة فى شنة(١)

ثم عدل بنفسه إلى واد آخر من أودية القريض فقال :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهما هديت

وإن تأخرت فقد شقيت

ثم نزل إلى القتال فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال له : شد بها صلبك فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، فانتهش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة فى ناحية الناس ، فقال وأنت فى الدنيا ؟ ! ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفه فتقدم إلى القتال وقاتل حتى قتل ، وكان آخر قائد عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ترك الأمر بعد لرأى الجيش ، يختار لنفسه قائداً من أهل البلاء والحنكة .

وفى الحق إن هذه أدق وأخطر ساعة تمر بجيش مشتبك فى المعركة ، يفقد قواده المعينين ، ويصبح خاليا من قائد يسوس أمره ، وينظم صفوفه ، وماذا ينتظر من جيش انفرط عقد نظامه بفقد أمرائه غير التماس طريق النجاة ؟ ولكن هذا الجيش الباسل إن يكن على قلة عدده قد فقد قواده الأبطال فإنه لم يفقد روحه المعنوية ، وإيمانه القوى ، وتذكروا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يرتب القواد : فإن أصيب عبدالله بن رواحة فليرتض المسلمون منهم رجلا فليجعلوه عليهم .

وإنما قال لهم رسول الله ذلك ثقة بكفاية جند الله الذين مرنوا على الجهاد والطراد ، وتدريباً لهم على سياسة الأمور إذا فاجأتهم الشدائد حتى لا يأخذهم البهر ، ويقعدهم البلاء عن التماس المنافذ فى مضائق الأحداث .

إن كل جندى من جنود الإسلام الذين رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائد جحفل وبطل أمة ، وذلك هو السر فى ترك الأمر بعد القواد الثلاثة شورى بين أفراد الجيش ، يقيمون على قيادتهم أميراً منهم ، يختارونه من أبطال الإسلام وبين أيديهم ميزان الفضائل منصوب .

---

(١) الشنة : القربة البالية .

إمارة خالد في غزوة مؤتة

ابتدر اللواء بعد استشهاد ابن رواحة آخر القواد الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثابت بن أقرم العجلانى حليف الأنصار ، وهو بدرى من السابقين ، وصاح فى الناس : يا للأنصار ! فجعلوا يثوبون إليه ، فقال: يامعشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم ، فقالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل ، ثم نظر إلى خالد بن الوليد ، فقال : يا أبا سليمان : خذ اللواء ، قال : لا آخذه ، أنت أحق به منى ، لك سن ، قد شهدت بدراً ! !

قال ثابت : خذ أيها الرجل ، فوالله ما أخذته إلا لك ، أنت أعلم بالقتال منى . ثم قال ثابت : أصطلحتم على خالد ؟ قالوا : نعم ، فأخذ خالد اللواء وتأمر على الجيش .

وفى هذه الرواية نرى رجلا من أهل بدر يسرع لأخذ اللواء بعد أن لم يكن للناس أمير ، ويدعو القوم إليه ، وقد أصابهم من الاضطراب والفزع ما أصابهم ، فاستجابوا لدعوته ، وثابوا إليه فطلب إليهم أن يؤمروا أميراً منهم تحقيقاً لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . فقال الناس لثابت: أنت الأمير وقد رأوا من شجاعته وسابقته وسنه ما يجعله أهلا للإمارة ، فأبى عليهم ثابت ، ولكنه رأى أن ينتهز هذه الثقة التى أضفاها عليه المسلمون فى ساعة لا تحتمل التقاول ، فنظر إلى فارس قريش ، فتى مخزوم « خالد بن الوليد » فقال له : يا أبا سليمان : خذ اللواء ، فهل هزت هذه الكلمة أريحية الخيلاء وحركت مشاعر الإعجاب فى خالد فاستجاب لأول نداء باسم الإمارة ؟ لا . ولكنه أجاب ثابتا ، والمسلمون يسمعون ، بما دل على بعض ما حباه الله به من أدب رفيع ، امتاز به الفرسان من الظافرين فى أبطال الحروب ، الذين هم فى غنية عن مظاهر الاغترار ، وأساليب التربيط ، فقال : أنت أحق به منى لك سن ، قد شهدت بدراً .

فخالد يذكر لثابت مذنيين تجعل ميزانه أرجح للإمارة — فى نظر خالد — من خالد نفسه ، فمن دونه من الناس ، ذكر أنه رجل مكتمل العقل ، عالى السن ، قد حنكته التجارب ، وصقلته السنون وللسن فى الحروب امتياز ، فإنها حاضنة الأناة والريث ، والحرب لا يصلح لها أحيانا إلا الرجل المكيث ، وذكر أنه شهد بدراً ، وهذا أشرف أوسمة

الإسلام ، وقد علم خالد رضى الله عنه مقام شهود بدر ، ومكانهم من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخالد إذ يجرى بينه وبين عبد الرحمن بن عوف تعنيف ترتفع إلى سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فيعتب عليه ابن عوف فلا يتفضل عليه بأمر سوى أنه رجل من أهل بدر ، وهو إذ يقع بينه وبين عمار بن ياسر كلام يتألم له عمار فيبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا ينهى خالداً عن عمار إلا لأنه من قوله « يا خالد لا تؤذ عماراً رجل من أهل الجنة ، قد شهد بدرا » . ولم يمنح الله أهل بدر هذا الشرف العظيم إلا لما خصوا به من الفضائل التي ليس أقلها ولا أدونها ، معرفة الحق لأهله ، وتقدير الرجال بخصائصهم ، ومن هنا جاء رد ثابت على خالد ، فقال له : والله ما أخذت اللواء إلا لك ، ويذكر له أبرز خصائص القيادة الحربية التي تحتاج إليها المعركة : أنت أعلم بالقتال منى . فكأنه يقول بهذه الكلمة الجامعة : ليس الموقف موقف [illegible] ولا عرض لأوسمة الإيمان بشهود بدر ، ولكنه موقف إنما يحتاج إلى [illegible] يطلب قائداً حازما عبقريا ، وأنت يا أبا سليمان ذلك ، لأنك سيف من سيوف الله . وهكذا توج المسلمون رأس البطل بتاج الإمارة وأصبح خالد قائداً بعد أن كان جنديا .

ومن هنا تبدأ صفحة البطولة الإسلامية فى تاريخ خالد رضى الله عنه .

* * *

بدأ « خالد » رضى الله عنه حياته الإسلامية جنديا يحارب تحت راية أمراء النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أطوع ما يكون جندى فى جيش ، وأبعد ما يكون الناس عن رجل فى مكان « خالد » من العزة العربية والعبقرية الحربية والبطولة النادرة ، والحرب محك الرجال ، ومظهر الأبطال ومصنع العباقرة ، وقد قتل فى (غزوة مؤتة) — وهى أول وقعة إسلامية حضرها خالد — ثلاثة أمراء ، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عينهم ورتب إمارتهم على الجيش ، فالتفت المسلمون إلى أنفسهم ، وهم فى أشد الحرج يبحثون عن رجالاتهم ، ليقيموا عليهم من أنفسهم أميراً يقودهم فى هذه الحرب [illegible] ولم يجدوا فى بديهتهم من يسعفهم فى محنتهم أشجع من خالد ولا أبرع سياسة فى الحرب منه ، فاختاروه لقيادتهم ، ورضى هو بإمارتهم ، فماذا عسى أن يصنع فى هذه المحنة [illegible]

الحرب أقصى ما تناله من جيش قليل العدد، بعيد المدد يواجه جيوشاً من الروم والعرب ضخمة متكاثفة فى أهبة تامة وعدة كاملة ؟ !

إن قائداً فى مثل موقف «خالد» أحوج إلى الفكر النافذ منه إلى السيف الصارم، وقد حبا الله تعالى «خالداً» من ثاقب الفكر ومحكم التدبير وبارع السياسة ما أغنى عن الأمداد والسلاح .

رأى القائد الجديد أن لا طاقة لجيشه فى قلة عدده، وكثرة جراحه، بجيوش أعدائه المتكاثرة المستعدة فى حرب فاصلة، وموقف حاسم، فماذا يصنع ؟ أيطلق لهذا الجيش عنان الفرار والهرب وحسبه من الهزيمة أن يكون قد نجى كتيبة المسلمين من فناء محقق ؟ أم يدفع به إلى هجوم لا يبالى نتائجه كائنة ما تكون، ما دام القائد قد استجاب لداعى البطولة والشجاعة ؟ أم يلجأ إلى الفكر يستوحيه خطة لا تحمل على أكتاف المسلمين عار الفرار، ولا تدفع بهم إلى الهلاك والدمار، وترمى فى قلوب أعدائهم الفرق والفزع، وتقذف فى أنفسهم الرهبة والرعب، وتحيل الهزيمة نصراً وفتحا مبينا ؟!

اختلاف الروايات فى هذه الغزوة

اختلفت الروايات وأقوال المؤرخين وكتاب السيرة فى موقف القائد الجديد ونهاية المعركة على هذه الحالة بعد الجولات، شتى الغايات والمرامى .

والعجيب فى أمر هذه الروايات أن بعض كتب السيرة والتاريخ يقصها متتابعة لا يبين ما تحمله من تضارب يبعدها عن الصدق، فهذا محمد بن سعد يقول فى كتاب الطبقات : (فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناس، فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون، فقتل من قتل من المسلمين، ورفعت الأرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظر إلى معترك القوم، فلما أخذ اللواء خالد بن الوليد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الآن حمى الوطيس) فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف فجعل الناس يحثون فى وجوههم التراب، ويقولون : يا فرار، أفررتم فى سبيل الله ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليسوا بفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى) .

ثم نقل ابن سعد بعد ذلك حديثاً رواه عن أبى عامر قال : (بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام، فلما رجعت مررت على أصحابى، وهم يقاتلون المشركين بمؤتة،

قلت والله لا أبرح اليوم حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمرهم ، إلى أن قال : ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فطاعن حتى قتل ، ثم انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعا ، ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار ، ثم سعى به حتى إذا كان أمام الناس ركزه ثم قال : إلى أيها الناس ، فأجمع الله الناس حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد ، فقال له خالد : لا آخذه منك ، أنت أحق به منى ، فقال الأنصارى : والله ما أخذته إلا لك ، فأخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم ، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا .

وفى تاريخ الخميس للديار البكرى : «فأخذ خالد اللواء ، وحمل بأصحابه ففض جمعا من جمع المشركين » ثم قال : « وقد جاء فى بعض الروايات : اصطلح الناس على خالد ابن الوليد ، وأخذ اللواء وانكشف المسلمون وكانت الهزيمة » ثم قال : وفى الاكتفاء : فلما أخذ خالد الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ثم انحازوا حتى انصرف الناس فقالوا ولما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، ولقيهم الصبيان يشتدون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل مع القوم على دابة ، فقال : (خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر) فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه وحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون يا فرار ، أفررتم فى سبيل الله ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى) وقالت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة : مالى لا أرى سلمة تحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : إنه والله لا يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس ، يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ؟ حتى قعد فى بيته ؟ وعن أبى هريرة أنه قال : لما قتل ابن رواحة ، انهزم المسلمون ، فجعل خالد يدعوهم فى أخراهم ويمنعهم من الفرار وهم لا يسمعون ، حتى نادى قطبة بن عامر : أيها الناس لأن يقتل الرجل فى حرب الكفار خير أن يقتل حال الفرار ، فلما سمعوا كلام قطبة رجعوا .

ثم قال الديار بكرى : وروى أن خالداً لما أصبح أخذ اللواء ، وجعل صفوف القتال غير صفوف جيشه ، فجعل المقدمة مكان الساقة ، والساقة مكان المقدمة والميمنة مكان الميسرة ، والميسرة مكان الميمنة ، فوقع الكفار فى غلط ، فحسبوا أن لحق المسلمين مدد .

فوقع في قلوبهم من ذلك الرعب ، فانهزموا ، فتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا ، فغنم المسلمون من أموالهم فرجعوا إلى المدينة، وفي مقفلهم مروا بمدينة لها حصن، وقد كان أهل الحصن قتلوا رجلا من المسلمين في مرورهم إلى مؤتة ، فحاصروهم، وفتحوا حصنهم، وقتل خالد كثيراً منهم .

وهذا أبو جعفر الطبرى يقول : « فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم ، وحاشى بهم ، ثم انحاز حتى انصرف بالناس » ثم روى بعيد ذلك عن خالد بن سمير قال : « قدم علينا عبد الله بن رباح الأنصارى — وكانت الأنصار تفقهه — فغشيه الناس ، فقال حدثنا أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بعث رسول الله جيش الأمراء ، فقال : « عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة» فوثب جعفر، فقال يارسول الله، ما كنت أذهب أن تستعمل زيداً على ، قال : امض فإنك لا تدرى أى ذلك خير ؟ فانطلقوا ، فلبثوا ما شاء الله ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ، وأمر فنودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس إلى رسول الله فقال « باب خير ، باب خير ، باب خير ، أخبركم عن جيشكم هذا الغازى ؟ إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، فقتل زيد شهيداً واستغفر له ، ثم أخذ اللواء جعفر ، فشد على القوم حتى قتل شهيداً ، فشهد له بالشهادة ، واستغفر ، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيداً ، فاستغفر له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء ، هو أمر نفسه ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنه سيف من سيوفك ، فأنت تنصره) فمن يومئذ سمى خالد سيف الله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبكروا فأمدوا إخوانكم ، ولا يتخلفن منكم أحد ، فنفروا مشاة وركبانا ، وذلك فى حر شديد) .

وهكذا نرى أن أكثر كتب التاريخ والسير . إن لم نقل كلها — فى تدوين أخبار نقد وتحقيق هذه الغزوة وغيرها من الحوادث الإسلامية البارزة ، فهذه الروايات التى رويت فى مصادر تاريخية لها عند العلماء من المؤرخين قدرها وحرمتها ، وهى عندهم من أصول المراجع ودواوين التاريخ الإسلامى ، لا تقف عند الاختلاف فى الأسلوب والعبارة ،

ولكنها تتضارب وتتناقض فى معانيها ومراميها وغاياتها تناقضاً لا يمكن معه التوفيق بينها فى يسر واطمئنان ، ولا مناص من رفض بعضها ، ولسنا ندرى كيف قبل هؤلاء العلماء من أئمة التاريخ هذا التناقض العجيب ، فسجلوه ، ولم ينقدوا هذه الروايات فيخرجوا منها الزائف ويحققوا الصحيح ؟ وكان يسيراً عليهم لو أنهم سلكوا مسالك الموازنة والنظر الفاحص ، والفهم الممحص ، لأنهم أخبر بحال الرواة ، وأعلم بحال الوقائع والأشخاص .

ولا شك أن منهجهم فى التدوين من أكبر معوقات التحقيق فى روايات التاريخ أمام الباحثين ، فلا يدرى الباحث ماذا يأخذ ، ولا ماذا يدع . وإذا كان للترجيح بين هذه الروايات مجال ، فلعل التى تذهب منها إلى ماتضمنته رواية ابن سعد الثانية ، وهى رواية شاهد معاين ، أثقل فى ميزان النقد ، وأقرب إلى الوضع المعقول ، لأنها تثبت الهزيمة على المسلمين فى مكانها المعقول ، وهو الوقت الذى خلا فيه جيشهم من قائد يضبط أمره ، بعد أن فقد قواده الثلاثة ، وهذا وضع يحدث فى كل جيش يصاب به أعظم الاضطراب . فلا غرابة إذا أصيب بالهزيمة حينئذ . وقد تركت النصر الهم والفتح المبين فى مكانه المعقول لما اجتمع أمر الناس على قائد تسبق شهرته إلى القلوب الجند أسرارهم إلى شخصه ، فثابت إليهم أنفسهم ، وقويت أرواحهم وعاودتهم يقينهم ، وما كان يشغلهم شغل عنهم بعض الشىء بنشوة الظفر ، فحملوا صادقين ، ونالوا من عدوهم ما نالوه .

ويؤيد هذا الترجيح ما جاء فى رواية الديار بكرى وغيره من الخطة الحربية التى ابتكرها خالد فى تغيير نظام الجيش مما أدخل على العدو فى بداهة الظن بالظن بعد وصول أمداد لجيش المسلمين ، وقد يدخل فى باب تأييد ذلك حديث أبى هريرة فإنه يتضح من معين حديث أبى عامر فى رواية ابن سعد ، وإذا صحت رواية الطبرى التى تقول بإرسال مدد لجيش المسلمين بعد تأمير خالد عليه وأن الناس نفروا للإمداد إخوانهم مشاة وركبانا ، كانت من أقوى مرشحات انتصار المسلمين على يد قائدهم الجديد ، وعينت على هذه الرواية فهم الروايات فهماً يوفق بينها ، وهى أغرب روايات جاءت فى هذه الغزوة ، لأن حديث الإمداد والنفر لم نعرفه فى غيرها .

وقد أراد بعض المتأخرين من المؤرخين التحرر من المتابعة والتقليد ، فاستنبط رأياً

انتصار المسلمين فى هذه الواقعة لقلة عددهم وكثرة عدد عدوهم ، ولجأ إلى التأويل فى روايات الفتح والانتصار ، وجعله مجازاً عن نجاة المسلمين ، وجرى فى هذا الشوط بعض الكاتبين من المعاصرين .

رأى فى الموضوع

ولسنا نذهب هذا المذهب ؛ ولكنا نرجح أن المسلمين انتصروا ورجعوا ظافرين ، غير أنه ظفر الجولة ونصر الحملة الصادقة ، لا ظفر الميدان ، ونصر الموقعة الحاسم ؛ أما حديث الفرار وتعيير الناس للجيش فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، ورده عليهم نضحاً عن أصحابه أن يعيروا بالفرار ، فذلك مالا نستطيع أن نعتمد عليه ، ولا الركون إليه ، ولا نطمئن إلى قوله ، لأن استمرار الناس فى التعيير بعد ما سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفعه عن جنود الجيش إلى حد يمنع سلمة بن هشام صهر رسول الله من حضور الصلاة معه ، بعيد جداً من رضاء النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يعيروا بالفرار ، وهو لا يراهم فراراً ، وبعيد جداً من أدب الناس وطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر لا يرضاه ولا يحبه لأحد من أصحابه

والاحتجاج بكثرة العدو وقلة المسلمين احتجاج لا يقوى على مواجهة التاريخ فى حروب المسلمين ، لأنهم لم يحاربوا بكثرة عدد قط ؛ وإنما كانوا يحاربون بقوة العقيدة وثبات الإيمان ، وحسن بسالة القادة ، وبطولة الجنود ، وحب الموت فى سبيل الله ، وأشهر مواقعهم مع الروم والفرس كان التفاوت فيها بين عدد المسلمين فى قلتهم ؛ وعدد المشركين فى كثرتهم ظاهراً جداً ، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون .

وفى وصية عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص بطل القادسية . (وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله وطاعتهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ، وعدتنا ليست كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإن لا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا)

والقرآن الكريم جعل المسلم الواحد بعشرة رجال من الكفار فى أول الأمر ، ثم خفف الله عنهم فجعل المسلم برجلين من الكافرين ، وهذا تسجيل للتفاوت المعنوى فى القوة والجلاد ، وهو الذى درج عليه المسلمون فى حروبهم ومشهور وقائعهم .

فالكثرة العددية لا دخل لها في النصر الحربي ، وقد تؤدي مكيدة من مكايد دهاة القواد والأبطال إلى ما لم تقم له الألوف المؤلفة من الرجال والعتاد، والله تعالى يحكي عن أولى اليقين من المؤمنين قولهم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

ويمكن تلخيص رأينا في هذه الموقعة بأن المسلمين لما أصيب قائدهم الثالث : عبدالله ابن رواحة ، وكان آخر المعينين من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، فزعوا لهول الخطب بإصابتهم في قوادهم الثلاثة وانفراط عقد نظامهم ، فأحدث هذا الفزع اضطرابا ساعد العدو على كشفهم فانكشفوا ، وانهزموا فزعين ؛ حتى إذا أخذ اللواء خالد بن الوليد ، وذاع الخبر في الجنود تراجعوا ، وبات خالد ليلته يعمل فكره ، والمسلمون من حواليه في جراحهم يقضون مضجعه ، فلما أصبح كان قد واتاه الفكر العبقري بإحدى خدع الحرب . ذلك أنه أراد :

أولا : أن يدخل في روع العدو أن مدداً جديداً قدم على المسلمين ، ليضعف بذلك الروح المعنوي لدى أعدائه ، ويوهن من قوتهم ، ويكسر من حدة الغرور الذي انتابهم من جراء النصر الذي نالوه على المسلمين .

ثانياً : — أن يقوي الروح المعنوية في جيش المسلمين بتبادل تحمل أعباء الحرب بين الجنود ، وتجديد المواقف في الهجوم ، وتوجيه طوائف الجيش إلى خطة جديدة بالنظر إلى خطة الأمس، فعمد إلى حيلة تغيير الوضع الأول للجيش على ما ذكرته الرواية ، وهذا تدبير من أحكم التدبير ، حقق ما قصده القائد العظيم من وقوع العدو في غلطة وظنه وصول مدد للمسلمين ، أوقع الرعب في قلوبهم ، وهو أمر قريب للفهم والمعقول ولاسيما إذا انضم إليه شجاعة القائد الجديد ، تلك الشجاعة التي يقول في مظهرها خالد نفسه في هذه الموقعة : « لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية» .

ويؤيد رأينا تأييداً يرتفع عن الشبهة ما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك : « أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيداً، وجعفراً ، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ سيف من سيوف الله حتى فتح عليهم) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن الله تعالى قد فتح على المسلمين لما أخذ رايتهم خالد بن الوليد ، وسمى خالداً سيف الله ، ولا تسمى الهزيمة والفرار فتحا ، وإنما عرف الفتح فى عرف الحروب الإسلامية بالظفر بالعدو والنصر عليه ، وليس لأحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قول ، وليس لراو بعد البخارى كلام .

الفصل الرابع

فتح مكة

أمل المسلمين فى فتح مكة — خروج النبى فى أصحابه معتمرا — المفاوضة مع قريش ورجوع النبى بأصحابه عن مكة — ونقد عمر بن الخطاب فى هذا الرجوع — نقض قريش العهد — ندم قريش وإرسال أبى سفيان ليؤكد العهد — خيبة أبى سفيان فى سفارته — تجهز رسول الله للفتح — تأمير خالد فى فتح مكة — إسلام أبى سفيان وهيبة المسلمين فى قلبه — خالد يحطم العزى .

أمل المسلمين في فتح مكة

كان فتح مكة أملا تجيش به صدور المسلمين منذ أحسوا قوة الإسلام تسرى فى قبائل العرب ، فتجذبهم إلى حظيرة قدسه أفراداً وجماعات ، ثم تعاظم ذلك الأمل حتى لهجت به ألسنتهم وتحدثوا عنه فى مجالسهم منذ كان العهد بينهم وبين قريش ، ذلك العهد الذى أفصح عن تأييد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بما حباه به من كامل العقل ، ونافذ البصيرة ، ومحكم التدابير، مما خفى بعضه على بعض الأكابر فكادوا . . . لولا أن من الله عليهم بالتثبيت فثبتوا ، وأنجز الله تعالى موعوده لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وأتم نعمته على عباده المؤمنين بذلك الفتح المبين .

خروج النبي فى أصحابه معتمراً

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون والأنصار فى ذى العقدة من السنة السادسة للهجرة معتمراً ، لا يريد حربا ، وقد استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى، وسلك طريقاً ينزل به على مهبط الحديبية من أسفل مكة بعيداً عن طريق قريش حتى لا يصطدم بها ، فلما بلغ موضعاً يقال له ثنية المرار بركت ناقته القصواء ، فقال الناس : خلأت القصواء فقال : « ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

وبينا رسول الله والمسلمون كذلك إذ أقبل عليهم بديل بن ورقاء الخزاعى — وخزاعة عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة — فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنا لم نأت لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددناهم مدة ، ويخلو بينى وبين الناس ، فإن أظهر ، فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره .

المفاوضة مع قريش ورجوع النبي بأصحابه عن مكة

بلغ بديل بن ورقاء قريشا مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرعدت فرائصها وخضعت لبعض الأمر ، فندبت عروة بن مسعود الثقفى ليلقى رسول الله ، فتحدث إليه، ورأى من عظمته بهيبة النبوة وتعظيم أصحابه له ما أدهشه وطامن من تنطسه ، فرجع

إلى قريش يقول لها : لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى ، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً .

ثم لم تزل الرسل تغدو على رسول الله حتى بعثت قريش وفداً [illegible] سهيل بن عمرو ليصالح رسول الله ، فتكلم سهيل فأطال الكلام وتراجعا حتى التأم أمر الصلح بينهما على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، وعلى أن من أتى رسول الله من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم ترده عليه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد رسول الله وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن يرجع النبى صلى الله عليه وسلم بالمسلمين عامه هذا فلا يدخل مكة عليهم ، حتى إذا كان عام قابل دخلها بأصحابه ليس معهم سلاح غير سلاح الراكب ، السيوف فى القرب .

وقفة عمر بن الخطاب فى هذا الرجوع

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خروجهم هذا لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفسه ، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا ، فوثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ ! قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ ! قال : بلى ! قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ ! قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال الصديق الأمين : يا عمر ، الزم غرزه ، فإنى أشهد أنه رسول الله ! قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم أتى عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال أوليسوا بالمشركين ؟ ! قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ ! ! قال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى » . فكان عمر رضى الله عنه يقول : مازلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا .

نقض قريش العهد

لم يكد « خالد بن الوليد » رضى الله عنه يستقر بالمدينة وقد عاد [illegible] من « مؤتة » أميراً ، وكان جنديا فأظفره الله على عدو كان له فى الحروب العربية [illegible] جعلت غزوهم مثلا فى التندر من صناديد قريش على المسلمين ، حتى [illegible] الأنباء بأن قريشاً نقضت ما عاهدت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [illegible]

على خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشرافها : صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل ابن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص بن الأخيف ومن تبعهم من عبدانهم ، وبيتوا خزاعة ليلا ، وهم غارون آمنون ، فقتلوا منهم عشرين رجلا ، وخرج عمر بن سالم الخزاعى فى أربعين راكباً من قومه ، يستنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أن ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت « بات عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلتى ، ثم قام وتوضأ للصلاة فسمعته يقول : لبيك، لبيك ثلاثا . فلما خرج من متوضئه قلت : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى !! سمعتك تكلم إنسانا، فهل كان معك أحد ؟ قال: هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ، ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بنى بكر » قالت ميمونة رضى الله عنها : فأقمنا ثلاثة أيام ، ثم صلى الصبح بالناس، فسمعت راجزاً ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد بين ظهرانى الناس وهو يقول : —

لاهم إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فوالدا كنا وكنت ولدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرا عتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... أبيض مثل البدر ينمى صعدا
إن سيم خسفا وجهه تربدا ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء رصدا ... وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا ... هم بيتونا بالوتير هجدا

وقتلونا ركعا وسجدا

فقام النبى صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه ، ويقول :

ندم قريش وإرسال أبى سفيان ليؤكد العهد

« لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى » . ثم ثابت قريش إلى رشدها وأدركت سوء صنيعها ، فأرسلت قائدها وشيخها أبا سفيان بن حرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤكد العهد ، ويزيد فى مدته ، فلما قدم المدينة دخل على ابنته

أم حبيبة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوته عنه فقال . يابنية : والله ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش؟أم رغبت به عنى ؟ قالت : هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك نجس، وما أحب أن تجلس على فراش رسول الله ! قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر .

هنا لفتة روحية سامية ، نسجلها ونمر بها جوازاً ، تلك هى قوة الإيمان المسيطرة على العواطف والمشاعر التى لم يبق معها للأبوة — وهى أعلى درجات الوشائج النسبية — مكان فى إحساس الإيمان ، مما سجلته هذه المحاورة الطريفة بين الوالد وولده فى صراحة جادة وحزم مؤمن ؛ هذا هو المعنى فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده » .

خرج أبو سفيان من بيت ابنته بعد أن رأى أبدع فصل فى رواية بدأها ، إن لم يكن قد أرضاه ؛ وهو لم يرضه ؛ فلا ريب أنه حرك نفسه حركة غير إرادية فى اتجاه لم يقصد إليه ولم يرده ، ولكنه انتهى إليه فى رحلته هذه .

خرج أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه [illegible] من أجله فلم يرد عليه رسول الله شيئاً . ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل ؛ ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟! فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم ! ثم أتى على بن أبى طالب ، وعنده فاطمة ابنة رسول الله ، وعندها الحسن بن على ، غلام يدب بين يديها فقال : يا على : إنك أمس القوم بى رحما وأقربهم منى قرابة ، وقد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ؛ اشفع لنا إلى رسول الله ؟ فقال : ويحك يا أبا سفيان ! ! والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد : هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت فاطمة : والله ما بلغ بنى ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد .

هذا موقف من مواقف الاصطدام النفسى بين الغطرسة المتعالية ، والعجز والخاسة فى ذلة المغلوب ، وتضرع المتخاذل ، يعجز القلم عن تصويره تصويراً يبرز معالم الانفعالات النفسية فى خطوطه ، وإلا فكيف يستطيع القلم أن يرسم نوازع أبى سفيان —

البطحاء، وشيخ قريش، وقائد جحافلها في حرب محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو يتضرع إليهم أن يمادوه، فيصكه ابن الخطاب صكة الظافر المكظوم، ويرده على رد المهدد المستعلى، فتتصاغر طمطمة أبي سفيان تصاغراً يأخذ بيده إلى ذيل طفل يدب بين يدى أمه وأبيه، ويسأل أمه سؤال المستعطف المتهانف أن تصعد بابنها من مهد الطفولة إلى سامقات الرجولية المسيطرة، فيجير قريشاً وغطريفها أبا سفيان من جده رسول الله؟ ولكن فاطمة عليها السلام — وهي بضعة رسول الله — أدركت ما أصاب الشيخ من تفلت الأعصاب عن مرابطها، ولعلها ابتسمت إذ تقول له: والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس!!

هنا تماسك غطريف قريش، ونفض عن يده ذيل الغلام، وأخذ بعضد أبيه ربيب النبوة، وقاهر قريش في (بدر) يكشف له عن ذات نفسه فيقول له: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى، فقال له: والله ما أعلم شيئاً يغنى عنك شيئاً، ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً شيئاً؟! قال: لا، والله ما أظن، ولكن لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت تقول ذلك يا أبا سفيان).

خيبة أبي سفيان في سفارته

ثم انصرف أبو سفيان قافلا إلى مكة فلقاه زعماؤها الذين أوفدوه، فقالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما رد على بشيء، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، وجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت على ابن أبي طالب فوجدته ألين الناس، فقد أشار على بشيء صنعته، فوالله ما أدرى هل يغنيني شيئاً أم لا؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: والله إن زاد على أن لعب بك على، فما يغني عنا ما قلت. قال: لا، والله ما وجدت غير ذلك.

تجهز رسول الله للفتح

أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بالفتح الأعظم، وأمرهم أن يتجهزوا، وأمر أهله بجهازه، ولم يعلموا به أحداً حتى دخل أبو بكر رضى الله عنه على ابنته عائشة وهي تصلح بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا بنية ما هذا الجهاز! قالت: لا أدرى، قال: أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن تجهزوه؟

قالت : نعم ، قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : ما أدرى ، قال : ما هذا زمان غزو بنى الأصفر ، فأين يريد ؟ ! ! قالت : لا علم لى .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال : (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها) . فتجهز الناس ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من حوله من القبائل وأهل البوادى ، فأجابه منهم : أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وسليم ، حتى اجتمع له منهم إلى المهاجرين والأنصار عشرة آلاف ، كان الموت فى سبيل الله أحب إلى أحدهم من الحياة ، وسار بهم حتى بلغوا موضعاً يقال له (قديد) وهناك عقد الألوية والرايات ، وسمى الأمراء والقواد ، ووضع تفاصيل خطة الغزو .

تأمير خالد فى فتح مكة

كانت تلك الخطة أحكم خطة حربية وضعها قائد بعد ، فتحاً لم تُرق فيه الدماء ، لأنها قامت على أساس المفاجأة وتطويق العدو فى بلده ، وأخذه على غرة حتى لا يستطيع القتال ، وكانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتيبته الخضراء مع الأنصار معقودة لقائدهم سعد بن عبادة ، وكان على المجنبة اليسرى حوارى رسول الله وابن عمته الزبير بن العوام ، وكان على المجنبة اليمنى قاهر قادة بنى الأصفر سيف الله وسيف رسوله ، خالد بن الوليد بطل الإسلام ، وهذه أول إمارة (رسمية) يشرفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً ، وكان أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح على الحسر والبياذق .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير أن يدخل مكة من (كُدى) بأسفلها ، وأمر قائد كتيبته سعد بن عبادة أن يدخلها من (كَداء) بأعلاها ، وأمر سيف الله خالداً أن يدخلها من موضع يقال له (الليط) ، وكان خالد رضى الله عنه أميراً على جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار ، وكان أولئك أربى من ثلث الجيش كله . وهذا بلا ريب تقدير عظيم لمكانة خالد العسكرية وبطولته الحربية وقدرته على سياسة الرجال من مختلف القبائل والبطون ، وفتح مكة الذى أمّر فيه النبى صلى الله عليه وسلم خالدا على هذا الجمع العظيم كان أعظم الفتوحات الإسلامية الأولى ، سماه الله تعالى فى القرآن الكريم فتحاً مبينا .

فتأمير خالد على ثلث جيش يقوده رسول الله بنفسه فى أعظم فتح عند المسلمين

يومئذ دليل ساطع على ما لهذا البطل العبقرى من البصر النافذ فى سياسة الحرب وقيادة الجيوش .

إسلام أبى سفيان وهيبة المسلمين فى قلبه

وقد رأى أبو سفيان بن حرب ووصف من حال جيش الفتح ما يصور حال قريش وما أصابها من الفرق والفزع ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه العباس حين تشهد أبو سفيان شهادة الحق : انصرف ياعباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادى حتى تمر عليه جنود الله ، قال العباس فخرجت حتى حبسته حيث أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرت به الكتائب على راياتها حتى مر رسول الله فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدق . فقال أبو سفيان : من هؤلاء ياعباس ؟ قلت : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، قال : مالأحد بهؤلاء من قبل ؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ! قال العباس : ويحك يا أبا سفيان ، إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً ، قلت : الحق بقومك فحذرهم . وكان العباس حين استأمن لأبى سفيان حتى أسلم قد قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون فى قومه ، فقال : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

وهنا موطن من مواطن التأمل ، فهذا لون براق من حرب الأعصاب الذى يقصد به إشاعة الفزع فى قلوب الأعداء حتى تخور قواهم وتضعف معنويتهم ، ويتحلل تماسكهم ، وهو ما تحقق ؛ فقد دخل المسلمون البلد الحرام دون قتال إلا ما كان من البطل الصنديد خالد بن الوليد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى قواده وأمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، ولكن خالداً لقى بعض غطارفة قريش لا تزال حمية الجاهلية تنفخ فى آنافهم ، وأجمعوا على قتال المسلمين ، وكان فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو فى ناس من بنى بكر ، وقوم من بنى الهون ، وبنى الحارث وبنى المصطلق ممن يسمون بالأحابيش لتحالفهم بأسفل جبل يقال له « حبش » وكان من البكر بين حماس بن قيس الذى أعد للمسلمين سلاحاً ، فقال له امرأته : لماذا تعد ما أرى من السلاح ؟ فقال لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أراه يقوم لمحمد شىء ، قال :

والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم أنشد :

إن تقبلوا اليوم فمالى علة هذا سلاح كامل وأله
وذو غرارين سريع السلة

فلما لقى القوم خالد فى أصحابه ، وناوشوهم شيئاً من القتال وأحسوا حرارة السيوف
فر حماس لا يلوى على شىء حتى دخل بيته ، وقال لامرأته أغلقى على بابى ، قالت : فأين
ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمه إذ فر صفوان وفر عكرمه
واستقبلتهم بالسيوف المسلمه يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضربا فلا تسمع إلا غمغمه لهم نهيت خلفنا وهمهمه
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه

خالد يدافع

ولما علا رسول الله صلى الله عليه ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضض
المشركين قال : ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟ قال المهاجرون : نظن أن خالداً قوتل
وبدىء بالقتال فلم يكن بد أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليعصيك ، ولا
ليخالف أمرك . ثم قال لخالد : لم قاتلت ، وقد نهيتك عن القتال ؟ قال : هم بدأونا
ووضعوا فينا السلاح ، وأشعرونا النبل ، وقد كففت يدى ما استطعت ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : قضاء الله خير .

وفى رواية أن خالداً أنال قريشا شيئاً من القتل ، فجاء رجل من قريش ، فقال
يا رسول الله ، هذا خالد بن الوليد قد أسرع فى القتل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم
لرجل من الأنصار عنده : يافلان ، قال لبيك يارسول الله ، قال ائت خالد بن الوليد ف
قل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن لا تقتل أحداً ، فجاء الأنصارى
فقال : يا خالد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تقتل من لقيت ، فاندفع خالد
فقتل سبعين رجلا من أهل مكة فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من قريش ،
فقال يا رسول الله هلكت قريش ، لاقريش بعد اليوم ! ! قال : ولم ؟ قال : هذا خالد
لا يلقى أحداً من الناس إلا قتله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ادع لى خالداً ، فلما
أتى إليه خالد ، قال : يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحداً ؟ قال : بل أرسلت إلى

أن أقتل من قدرت عليه ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ادع لى الأنصارى، فدعاه له، فقال : ألم آمرك أن تأمر خالداً أن لا يقتل أحدا ؟ قال : بلى ، ولكنك أردت أمرا وأراد الله غيره ، فكان ما أراد الله .

هذه الرواية مما لا نطمئن إلى تفصيلاتها ، لأننا نستبعد جداً أن يأمر رسول الله رجلا بأمر فى رسالة يبلغها إلى قائد من قواده ، يعصم بها دماء الناس ، وأرواحهم، ثم يخالف هذا الرسول أمر رسول الله، فيبلغ القائد أمراً آخر على نقيضه، يبيح فيه الأنفس والدماء ، ويكون سببا فى قتل هذا العدد من رجال قريش معاندة لأمر رسول الله فى قومه ، ثم يحتج لنفسه بهذه الحجة الجدلية، فيسكت لها النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرضى عنها رضاء لا يكون معه تاديب يرشد الناس إلى توقير أوامر النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغ رسالاته على أبلغ درجات الأمانة والصدق . هذا بعيد ، بعيد .

وهى فى جملها ونتيجتها متمشية مع رواية مسلم فى الصحيح عن أبى هريرة قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد ، وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر ، فقال لى: يا أبا هريرة اهتف لى بالأنصار فهتفت بهم فجاءوا فأطافوا به، فقال : أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم؟ ثم قال بإحدى يديه على الأخرى : احصدوهم حصداً حتى توافونى بالصفا ، قال أبو هريرة : فانطلقنا فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه ، فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ، أبحت خضراء قريش لا قريش بعد اليوم ! ! فقال صلى الله عليه وسلم : من أغلق بابه فهو آمن . وهذا أثبت وأقوم .

وقد رويت روايات كثيرة مختلفة ، وما ذكرناه أمثلها ، وقد ترتب على اختلاف الروايات فى الفتح ، تفريعات للعلماء والمؤرخين. ولكن موقف خالد من هذه الأحداث هو موقف البطل الذى تأبى بطولته إلا أن تكون عنوانا عليه فى جميع مواقفه .

* * *

خالد يحطم العزى.

أعز الله بفتح مكة دينه ، ونصر جنده ، وأقر به عين رسوله فأراه البلد الذى عانده، وناهض دعوته وأخرجه عنه وهو أحب بلاد الله إليه ، يدخل فى طاعته طوعاً وكرها ،

وأراه قريشاً واسطة عقد العرب تستجيب إليه راضية خاضعة ، فيتبدل حالها حتى كأنما
كان هذا الفتح المبين ميلاداً جديداً لها ، لأنه طهرها من دنس الزراية بالعقل الإنسانى ،
وانتشلها من وهدة الوثنية البليدة ، وأراها أصنامها تتفتت إلى حبات من الرمال تحت
أقدام جند التوحيد ، فلقد طهر النبي صلى الله عليه وسلم حرم الله وبيته من رجس
« هبل » و « اللات » و « ذراريهما » من أحجار الصحراء ورضراضها ، ورضيت
قريش منه هذا التطهير راغمة ، ولكنها لحظة فى دورة الفلك حتى أدركت فبادرت ،
وهمت فنفذت ، وعزمت فوصلت ، كانت صاحبة اللواء الأعظم فى فتوحات الإسلام ،
وكان فتيانها حماة الدعوة وأبطال الجهاد ورسل إنقاذ الإنسانية من وصمة التعبد لغير
بارىء الوجود رب العالمين .

* * *

أتم الله على رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة الفتح وتطهير البيت من الأصنام ، ونظر
إلى قريش مستسلمة ، وإلى مكة آمنة فلم يثنه ذلك عن متابعة الجهاد وراء حدود البلد
الحرام أينما حلت قريش من العرب ، فإذا هى خضعت فى بلدها وحرمها وبيتها وأوثانها
رأى عينها ، فليلاحقها انكسار الوثنية وتحطيمها أينما توجهت حتى تستوى لها عزة
التوحيد فى ظل الإسلام ، وإذا هوى « هبل » من عليائه البلهاء الأسطورية فى أ[illegible]
إلى حقيقة الترابية ، فتلك هى « العزى » لا تزال قريبا من مكة رابضة [illegible] ،
معبودة معظمة من كنانة ومضر ، تزورها قريش ، وتحنى أمام صخرها [illegible] وتهدى
إليها نفائسها ، وتقرب بين يديها قرابينها ، ويقوم على سدانتها بنو شيبان حلفاء بنى هاشم
سنام قريش وذروتها ، وهذا عرق معرق من أعراق الوثنية لا يزال فى قريش راسخا ،
ولا يتم إشراق نور الإسلام فى حنايا أفئدتها إلا باستئصاله ؛ فمن للعزى يحطمها بعد
« هبل » ؟ ذاك الفتى المخزومى سيف الله خالد بن الوليد .

أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبطل الإسلام الأول على بن أبى طالب أن يحطم
« هبل » ويرى قريشاً أنها كانت فى عبادته من الخاطئين ، فكان ذلك شرفاً لربيب
النبوة أى شرف ؛ ثم التفت النبى صلى الله عليه وسلم فرأى سيف الله وفارس الإسلام ،
وأمير جحفل الفتح خالد بن الوليد ، وكان قد أعده للعظائم ، ورشحه للبطولات ، فجعله

فى هذا الشرف العظيم عدل على ، وعلى من رسول الله بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام ؛ فكان ذلك من أعظم التكريم لفتى مخزوم .

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً فى ثلاثين فارساً من جند الإسلام إلى « العزى » يحطمها ويمحو عار عبادتها عن قومه ، وترامى نبأ المسير الخالدى إلى سدنة « العزى » فطافوا بها وواعدوها الفتك بمن يهتك حرمها ويكشف سترها ، ثم جهزها صاحبها « دبية » بن حرمى السلمى بسيف صارم علقه عليها ، وتنحى عنها مصعدا فى الجبل وهو يخالسها النظر ، وينشدها منذراً متوعداً :

أيا عز شدى شدى لا شوى لها   على خالد ، ألقى القناع وشمرى
ويا عز إن لم تقتلى اليوم خالدا   فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

إى والله لقد اختارت عزاك — يا أخا شيبان — وما بها اختيار — أمر أمريك ، فباءت بإثم عاجل ، وبؤت معها بشر من إثمها ، فحطمها خالد تحطيما ، وهو يسخر منك ومنها .

يا عز كفرانك ، لا سبحانك   إنى رأيت الله قد أهانك

ثم رجع خالد رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل إليه بشرى الظفر باجتثاث جذر من جذور الوثنية المهينة .

الفصل الخامس

خالد في بني جذيمة

خالد فى قصة بنى جذيمة ــ روايات القصة ــ الرواية الأولى ــ مناقشة فى هذه الرواية ــ رواية أخرى ــ أغرب روايات القصة ــ نقد وتمحيص ــ أمثل الروايات ــ مناقشة وترجيح ــ تأويل فى رواية ــ استئناس .

خالد فى قصة بنى جذيمة

كان فتح مكة من أقوى الحوافز على انتشار الدعوة الإسلامية فى قبائل العرب بين أودية الجزيرة ووهادها ، فقد حمل أبناؤها من فتيان قريش المشعل فى أيمانهم، وقبضوا على السيف بشمائلهم ، وانساحوا فى الأرض داعين إلى الله تعالى بالحجة النيرة والبرهان المبين ، فمن قبل ورضى فهو أخو المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ؛ ومن أبى واستكبر ووقف أمام الحق منحوه السيف ليذوقوا الحياة من شره المستطير .

روايات القصة

لم يكد خالد رضى الله عنه يفرغ من أمر « العزى » حتى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم أمير سرية من ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار إلى بنى جذيمة بأسفل مكة من ناحية يلملم ، فسار إليهم حتى نزل بأصحابه على ماء لهم يقال له « الغميصاء » وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أمره أن لا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً ، أو سمع أذانا .

وهنا تختلف روايات التاريخ فى شأن هذه الوقعة مبتدأ وخبرا كعهدنا بها فى كبريات الحوادث ، وبحسب هذا الاختلاف يختلف تصوير موقف خالد فى هذه القصة ، وهذا الاختلاف من أقوى الأسباب التى تحملنا على التوقف فى التسليم إلى هذه الروايات المتضاربة وعلى أن نعمد إلى الموازنة بينها ، واستنباط ما نطمئن إليه من الرأى والمذهب.

الرواية الأولى

يقول صاحب « الخميس » نقلا عن الاكتفاء : « لما فتح الله على رسوله مكة بعث السرايا فيما حولها يدعو إلى الله تعالى ، ولم يأمرهم بقتال ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً ولم يبعثه مقاتلا ، ومعه قبائل من العرب ، فوطئوا بنى جذيمة ابن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا، فقال رجل منهم يقال له جحدم : ويلكم يا بنى جذيمة ! إنه خالد ، ووالله ما بعد وضع السلاح إلا الأسر ، وما بعد الأسر إلا ضرب الأعناق، ووالله لا أضع سلاحى أبدا . فأخذه رجال من قومه ، وقالوا : يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب ، وأمن الناس ، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح إجابة لقول خالد .

« فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف فقتل منهم ؛

وقال لهم جحدم ، حين وضعوا سلاحهم ورأى ما يصنع بهم : يا بنى جذيمة ضاع الضرب ، قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه !

« فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ؟ ثم قال: « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل انفلت منهم ، فأتاه بالخبر ، هل أنكر عليه أحد ؟ فقال : نعم ، قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة ، فنهمه[1] خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل آخر مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما ، فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبى حذيفة » .

مناقشة هذه الرواية

فهذه الرواية تذكر أن القوم استقبلوا خالداً فى أهبة الحرب آخذى سلاحهم ، مستعدين للقتال ، ففاوضهم خالد فى وضع السلاح وأنبأهم أن الناس قد أسلموا ، فأبى عليه رجل منهم ، وحرض قومه على الإباء ، فلم يسمعوا له ، ولم يزالوا به حتى نزع سلاحه مع أسلحتهم ، فأمر خالد بهم فأوثقوا ، وقتل من قتل منهم ، وخالفه فى ذلك عبد الله ابن عمر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ولما بلغ الحادث النبى صلى الله عليه وسلم برىء إلى الله مما صنع خالد بهؤلاء القوم .

ويرى الذين يأخذون بهذه الرواية أن حمل السلاح فى وجه المسلمين عذر قوى لخالد فيما صنع بالقوم ، ولا سيما أن نزع السلاح منهم كان بعد مفاوضة وتهديد ، فهم أقرب إلى احتمال التقية والاستتار . ولكن المعترضين لا يقبلون هذا الاعتذار ، ويسندون مذهبهم بإنكار عبد الله بن عمر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وهما من خيار المهاجرين وأجلائهم علماً وسابقة ، وببراءة النبى صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد ، ويسندونه بما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت كأنى لقمت لقمة من حيس فالتذذت طعمها فاعترض فى حلقى منها شىء حين ابتلعتها فأدخل على يده فنزعه » فقال أبو بكر : « هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب ، ويكون فى بعضها اعتراض ، فتبعث عليا ، فيسهله » .

---

(١) نهمه : زجره

ولما كان من خالد فى بنى جذيمة ما كان ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فقال له : « يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على حتى جاءهم ، ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليدى لهم ميلغة الكلب ، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم على حين فرغ : أبقى دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا ، قال : فإنى أعطيكم هذه البقية من المال احتياطا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال له : أصبت ، وأحسنت .

والعاذرون لخالد رضى الله عنه يردون على ذلك بأنه كان فيمن وافق خالداً ولم ينكر عليه من جلة المهاجرين والأنصار كثرة ممن لا يقل فقها فى الدين وتقديراً للحوادث وشجاعة نفس عن عبد الله بن عمر وسالم مولى أبى حذيفة ، وبعيد أشد البعد أن يزعم زاعم أن سائر من كان فى هذه السرية من علماء الصحابة قد رأى أنكر ما ينكر فى الدين من قتل قوم مؤمنين وسفك دمائهم ، ثم يسكت فلا يغير على خالد . وإنما الذى نفهمه أن إنكار عبد الله بن عمر وصاحبه سالم كان بضرب من التأويل ، قد تكون العجلة من جهة خالد وازرته ، ومن هنا نفهم براءة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الله مما صنع خالد فى هذه الواقعة حين بلغه الخبر ، وحاشا أن تكون براءته من أجل أن قوما مؤمنين اعتدى عليهم قائد إحدى سراياه فقتلهم مراغمة ، ثم لا يقتص منه ، ولا يعزله عن الإمارة ! ! وأما المال الذى دفع إلى بنى جذيمة على يد على بن أبى طالب فليس فيه رائحة القصاص ، وإنما هو من قبيل الترضية والاحتياط وتعويض من بقى منهم مؤمنا .

رواية أخرى يقول الواقدى فى المغازى : « ثم مضى خالد بن الوليد إلى حى من كنانة بالأبرق يقال له بنو جذيمة ، فوجدهم يصلون صلاة الغداة فغشيهم خالد ، فقال : ما أنتم ؟ قالوا : نحن مسلمون ، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قال فمتى أسلمتم إن كنتم صادقين ؟ قالوا الليلة — حين بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كف يده عمن ألقى السلاح ، وقال : لا إله إلا الله ، فقلناها وصلينا » .

هذه الرواية صريحة فى أن خالداً غشى القوم وهم يصلون صلاة الغداة ، وأنهم شهدوا

شهادة الحق بين يديه ، وأن إسلامهم كان ليلة غشيهم ، وأنهم لم يحملوا السلاح فى وجه سرية خالد ، وكل ذلك يدل على أنه لا يجوز قتل أحد منهم بغير حد موجب ، فكيف قتل خالد من قتل منهم ؟ ، قد يجد المتأمل فى رواية الواقدى احتمال التقية بهذا الإسلام الذى أحدثوه ليلة غشيهم المسلمون قائما ، وخالد قد أبدى شكا مريبا فى إسلامهم بقوله : فمتى أسلمتم إن كنتم صادقين ! ومن أين لنا أن الذين قتلهم خالد من القوم هم الذين كانوا يصلون صلاة الغداة ، وهم الذين أسلموا وشهدوا بين يديه شهادة الحق ؟

أغرب روايات القصة

وأعجب ما روى التاريخ فى شأن خالد رضى الله عنه وبنى جذيمة ما ذكره ابن هشام فى سيرته ، وعرض له الطبرى وابن الأثير عرضاً عابراً ، قال ابن هشام : « وقد كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فى ذلك ؛ فقال له عبد الرحمن بن عوف : عملت بأمر الجاهلية فى الإسلام ، فقال خالد : إنما ثأرت بأبيك ، فقال عبد الرحمن : كذبت قد قتلت قاتل أبى ، ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة ، حتى كان بينهما شر ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : مهلا يا خالد دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته » . قال ابن هشام : وكان الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وعوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة ، وعفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس قد خرجوا تجاراً إلى اليمن ، ومع عفان ابنه عثمان ، ومع عوف ابنه عبد الرحمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر كان هلك باليمن إلى ورثته ، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ، ولقيهم بأرض بنى جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت فأبوا عليه ، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه ، وقاتلوه ، فقتل عوف ابن عبدعوف ، والفاكه بن المغيرة ، ونجا عفان بن أبى العاص ؛ وابنه عثمان ، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة ، ومال عوف بن عبد عوف ، فانطلقوا به وقتل عبد الرحمن ابن عوف خالد بن هشام قاتل أبيه ، فهمت قريش بغزو بنى جذيمة ، فقالت بنو جذيمة ما كان مصاب أصحابكم عن ملأ منا ؛ إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم ولم نعلم ، فنحن نعقل لكم ما كان قبلنا من دم أو مال ، فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب » .

نقد وتمحيص

فهذه الرواية أو الأقصوصة ترى أن خالد بن الوليد رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمير سريته للدعوة إلى الإسلام ، وقائد جند الله ، صنع ماصنع فى بنى جذيمة من قتل وسفك دماء شفاء لحزازة نفسه وهواه ، وإجابة لداعى الحمية الجاهلية فى الأخذ بثأر عمه الفاكه بن المغيرة — على ما تزعمه الرواية على لسان عبد الرحمن بن عوف — أو الأخذ بثأر عوف بن عبد عوف ، والد عبد الرحمن — على ما تزعمه الرواية إقراراً لا التواء فيه على لسان خالد بن الوليد نفسه — فيكون خالد حينئذ قد قتل قوما ذوى عدد من المسلمين معصومى الدم برجل كافر قتل فى جاهلية عمياء .

وتزعم الرواية أن عبد الرحمن بن عوف قد أنكر على خالد صنيعه هذا الذى تعدى به حدود الإسلام ، وعمل فيه بعمل الجاهلية ، وجرى بينهما كلام فى ذلك ارتفع إلى حد الخصومة واللجاج حتى بلغ أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن منه إلا زجر خالد عن مخاصمة عبد الرحمن ، وبيان فضل عبد الرحمن .

وأما أصل القضية وجانبها الأهم منها ، وتلك الدماء المعصومة المهدرة المسفوكة بغير ذنب إلا أمر الجاهلية وحميتها ، فلم يجر لها ذكر فى هذا الموضع من كلام النبى صلى الله عليه وسلم على ما تزعمه هذه الرواية العجيبة ! !

وقد يتشبث بعض الباحثين فى تصحيح هذه الرواية بما رواه ابن هشام وغيره ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه ماصنع خالد فى بنى جذيمة دعا عليا كرم الله وجهه ، فقال له : « يا على اخرج إلى هؤلاء القوم ؛ فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج على حتى جاء ومعه مال قد بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى ميلغة الكلب ، حتى إذا لم يبق شىء من دم أو مال إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال فقال لهم على رضى الله عنه حين فرغ منهم : هل بقى لكم بقية من دم أومال لم يود لكم ؟ فقالوا : لا ، قال : فانى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله صلى عليه وسلم مما لا يعلم ، ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال ؟ أصبت وأحسنت ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات .

فهذه الرواية تصرح بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر علياً بأن يجعل أمر الجاهلية تحت قدميه ، وليس فى القصة أمر جاهلية سوى الأخذ بالثأر على عادة العرب قبل الإسلام فى تعدى الحدود وتجاوز العدل ، وهذا هو الذى عابه عبد الرحمن بن عوف على خالد فى زعم الرواية .

* * *

إن الباحث ليقف من هذه الرواية التى تداولتها أكثر كتب التاريخ والسيرة موقف الشاك فيها شكا يقودها إلى الرفض والتزييف ، حتى يتبين وجه جديد يدفع البحث إلى وجهتها البعيدة ، وليس لها فى العقل المسلم وجه من التأويل .

وإنما نبنى هذا الشك — وإن شئت فقل هذا الرفض — على دعائم استقامت فى نظرنا فلم نجد ما يدفعها :

أولا — إن هذا الحادث الجاهلى — على فرض صحته — تسجل الرواية نفسها أنه كان قد سوى فيما بين قريش وبنى جذيمة طبقاً لما تعارفوه من قواعدهم الجاهلية ، ورضيت قريش هذه التسوية رضاء العزيز القادر ، وهذا حكم فى قوانين الجاهلية لا يقبل النقض ، والعرب قاطبة ترى نقضه شيئاً من الشين ، يعير به صانعه ، فلو سلمنا بما فى الرواية لكان خالد بن الوليد سليل قريش أشد قبائل العرب تمسكا بقواعد العرب ومحافظة على قوانينها ورضاء بعرفها ، من أكثر الناس استهتاراً بتلك القواعد ، واستهانة بتلك القوانين وذلك العرف ، ولكان مثلا مضروبا فى الغدر ونكث العهود ، وهذا أبعد ما يكون من أخلاق الأبطال وفرسان الحروب ، وخالد بن الوليد فى طليعتهم فى الجاهلية والإسلام .

ثانياً : هذه الرواية تزعم أن عبد الرحمن بن عوف قد أنكر على خالد أشد الإنكار حتى لج بينهما الخصام فرفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ونحن نتساءل متى كان هذا الإنكار ؟ ! أكان قبل قفول السرية إلى المدينة ؟ فذلك مدفوع برواية المتفلت من بنى جذيمة إلى المدينة ليستصرخ النبى صلى الله عليه وسلم لقومه كما تزعم الرواية ، وقد سأله النبى صلى الله عليه وسلم بمحضر عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة : هل أنكر عليه أحد ؟ فقال : نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فزجره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما ، فقال عمر : أما الأول فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبى حذيفة ، ولم يذكر معهما مطلقاً عبد الرحمن بن عوف ،

وهو أجل منهما ، وقد كان إنكاره الذى زعمته الرواية أشد من انكار ابن عمر وسالم .

أم كان هذا الإنكار من عبد الرحمن بن عوف بعد قفول السرية إلى المدينة ؟ فان زعم هذا زاعم فلا بد من التساؤل ، لماذا أخر عبد الرحمن إنكاره على خالد حتى رجع إلى المدينة ، وقد كان فى جند خالد فى هذه السرية ؟ أفيستطيع أحد عارف بأخلاق عبد الرحمن بن عوف ومكانته فى الإسلام أن يقول: إن ذلك قد كان منه جبناً عن خالد وخشية منه ، وهو الذى وضع عمر بن الخطاب فى يده أمر الخلافة من بعده ، وجعله رأس رهط الشورى ؟ !

وإن كان لسبب آخر فلا بد من بيانه حتى يدار النظر فى قيمته من الحق كما يقول علماؤنا .

ثالثا : إن هذه الرواية لا تحتمل إلا فهماً واحداً لا يقبل التأويل ، ذلك أن خالداً — بزعم الرواية — يكون قد تعمد مخالفة أمر النبى صلى الله عليه وسلم لسبب ينكره الإسلام أشد الإنكار لأنه بعثه داعيا إلى الإسلام ، ولم يبعثه مقاتلا ، وأنه قتل قوماً أقروا له بالإسلام ، وشهدوا بين يديه شهادة الحق ، ورآهم يصلون — والصلاة أعظم شعائر الدين — برجل كافر قتل فى الجاهلية ، وصولح قومه على قتله ، فكان أقل ما يستحقه خالد على فعله هذا أن يقتص منه النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أن ينكل به زجراً لمن تحدثه نفسه بخرق قوانين الشريعة والعبث بها . وهل يتوهم مسلم ، لا بل هل يتوهم إنسان يقدر النبوة حق قدرها أن النبى صلى الله عليه وسلم يداهن فى حد من حدود الله ؟ !

والروايات كلها مجمعة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يذكر لخالد حين رآه شيئاً من عتاب ، ولم يزل خالد فى مكانه من قلب رسول الله ، ولم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حزبه ، وبقى على مكانه من الإمارة لم يعزل عنها مدة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : أية قيمة تبقى لإسلام خالد إن صحت هذه الرواية ؟ فهى تجعله رجلا قد اتخذ من الإسلام ستاراً لإشباع شهوة جاهلية ، لا تقيم للإسلام وزنا ، ولا ترعى لأصوله عهداً ، ولم يزن خالد بن الوليد فى دينه بريبة تنزل به إلى هذا الدرك السحيق منذ أسلم وجهه لله تعالى ، بل المتواتر المتضافر أن خالداً ظلت مكانته عند رسول الله هى مكانته التى أحله الله

من قلبه ، وظل به حفياً يقرظه ويثني عليه ، وسيأتيك نبؤه في غزوة حنين ، ويستحيل على مقام النبوة أن يرفع مكانة رجل قد وقع منه بعض ما تزعم هذه الرواية الزائفة أنه وقع من خالد بن الوليد إلى حيث خالد في الإسلام عالي الشأو رفيع العماد .

خامساً : أن الكلمة التي جاءت في رواية بعث علي رضي الله عنه لتلافي خطأ خالد ، وهي « واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ليست بواجبة الحمل على ما زعمته الرواية من أمر الفاكه بن المغيرة وثأر خالد له ، بل هي قرينة الحمل على رسم الخطة التي يسير عليها علي في تلافي ما وقع من الخطأ وترضية القوم ، وأنها خطة يجب أن تكون إسلامية خالصة ، يحمل عليها بنو جذيمة ، مطرحين أمر الجاهلية من القتل الظالم وتعدد الديات ومضاعفاتها ، وأن يرضوا بأمر الإسلام في أمرهم ، ولا سيما والناس قريبو عهد بجاهلية جهلاء ، ومن ثم عمد علي إلى ترضيتهم ، وتطييب خواطرهم بما زاد في إعطائهم من المال تأليفاً لقلوبهم ، وتثبيتاً لأفئدتهم ، وقد استحسن منه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فصوبه ، وحسن فعله .

ولو صحت هذه الرواية الباطلة فكيف يمكن فهم موقف النبي صلى الله عليه وسلم من خالد ، وهو يصرح — في زعم الرواية — عند تقاوله مع عبد الرحمن بن عوف أنه صنع ما صنع لثأر الجاهلية ؟ فهل يكفي في هذا الموقف أن يبرأ رسول الله إلى الله من صنيع خالد ؟ وهذا أقصى ما علمناه جاء في صدد الإنكار من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان هذا الموقف — على ما تذكره الرواية — مما تصححه الدية وتوزيع الأموال ؟ ! !

وبعد فهذا عرض وتحليل إجمالي لروايات دارت عليها القصة في كتب السيرة والتاريخ ، ولكننا لا نجد في أنفسنا اطمئناناً إليها ، وحسبنا أننا وجهنا البحث فيها وجهة الكشف عن الأثر الذي تتركه أمثال هذه الروايات في إبعاد الحقيقة عن قلم الباحث إذا استسلم لها ، وليس يكفي أن توجد الرواية أو الأقصوصة في كتاب مشهور من كتب الأولين ، بل يجب البحث عن قيمة ذلك الكتاب في تمحيص مروياته ، ويجب تعرف مقدار صلة تلك الرواية بمعالم الشخصية التي تتحدث الرواية عنها .

وهذا نهجنا في كتابة حياة من نكتب حياتهم من رجالات الإسلام ، نعمد إلى أن نرسم الخطوط الأولى لتلك الشخصية من ألوانها الثابتة الأصيلة ، ثم نجعل ذلك أساسا

البحث . وقد عرفنا أن شخصية خالد رضى الله عنه كما عرفها التاريخ الصحيح أبعد ما تكون عن هذه المداورات الغادرة التى ترويها تلك الأقاصيص .

أما وجه القضية فى هذه القصة فستراه واضحاً أشد الوضوح فيما سنسوقه إليك بعد من رواية البخارى عن عبد الله بن عمر ، وهو شاهد عيان ، لا يصح العدول عن روايته فى البخارى إلى رواية غيره فى كتاب غير كتب الصحيح ، وسترى عذر خالد قائماً على حميته الإسلامية التى دافع عنها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله ، سله على المشركين » .

* * *

أمثل الروايات

روى البخارى عن عبد الله بن عمر قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة ، فدعاهم إلا الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ، فجعل خالد يقتل ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره ، فقلت : والله لا أقتل أسيرى ، ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره ، حتى قدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم فذكرناه ، فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده ، فقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد ! مرتين » .

مناقشة وترجيح

هذه هى الرواية التى نعتمد عليها فى فهم هذه القصة ، لأنها :

أولا : وردت فى كتاب أجمعت الأمة على اعتماده فى أخذ دينها وفروع شريعتها ، لما تواتر عن مؤلفه العظيم من الدقة فى فحص حال الرواة ، واختيار أفضلهم حفظاً وجودة أداء وحسن تلق ، وبعداً عن مزالق العصبية المذهبية أو الطائفية ، وأبلغهم فى تحرى الصدق والخشية لله تعالى .

ثانيا : رواية مستقيمة النسج ، لا اضطراب فيها ، لم تدخل حادثة فى حادثة ، ولا مزجت حديثاً بحديث ، فهى تحكى الواقعة منذ بدأت إلى حين انتهائها فى أسلوب موجز محكم ، يؤدى لباب الغرض فى منأى عن الخيال وتلاعبه .

ثالثاً : رواية شاهد معاين ، اشتهر بالدقة والتحرى ، وكان زعيم المنكرين على أمير السرية صنيعه ، واحتفظ بأسيره فلم يقتله ، وأمر أصحابه فصنعوا مثل صنيعه ، فأحرى به أن يحدث النبى صلى الله عليه وسلم بما رأته عيناه ووعته أذناه .

هذه الرواية الصحيحة تروى أن خالداً رضى الله عنه دعا بنى جذيمة إلى الإسلام كما أمر رسول الله صلى عليه وسلم ، وتذكر هذه الرواية أن القوم لما دعاهم أمير السرية إلى الإسلام لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، وهذا صريح فى أن خالداً لم يبدأ القوم بقتال ، ولا أظهر لهم نية فى القتال ، بل دعاهم إلى الإسلام كما أمره النبى صلى الله عليه وسلم ، وصريح فى أنهم لم يحسنوا الأخبار عن إسلامهم أى دخولهم فى الاسلام وإيمانهم بالله وبرسوله ! ففهم عبد الله بن عمر ومن كان معه من أصحابه أن القوم مسلمون بعقيدتهم ، ولم يبال العنوان عن هذه العقيدة أن يكون صريح كلمة التوحيد أو ما يؤدى إلى فهم معناها ؛ وعذر القوم بجهلهم وقبل منهم فى حقن دمائهم قولهم : صبأنا .

وفهم أمير المسلمين خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار أن ذلك كان من القوم تقية ، واستبعد أن لا يحسنوا التعبير عن إسلامهم بعنوانه الذى ارتضاه الله للناس ، وهو كلمة التوحيد التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الناس حتى يقولوها ، فاذا قالوها فقد عصموا دماءهم بها ، فلم يكتف خالد من القوم بما اكتفى به ابن عمر ، وخالد أمير الناس ، ولم يرضه عدولهم عن عنوان الإسلام إلى هذه الكلمة ، ووجد منهم إصراراً ، قال بدر الدين العينى فى شرح البخارى : « وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم صبأ فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الإسلام حقيقة ، وأما خالد فانه لم يكتف بذلك حتى يصرحوا بالإسلام » .

ويرشح عذر خالد رضى الله عنه فى عدم اكتفائه بقولهم «صبأنا» أن هذه الكلمة كانت عندهم كالتعيير والسب ، وكان كثير من المسلمين إذا قيل له : صبأت ، أنف من قبولها . وهذا خالد بن الوليد نفسه حين خرج مسلماً يأبى أن يقول له عكرمة بن أبى جهل « قد صبوت ياخالد » فيقول «لم أصب ولكنى أسلمت» وذلك عمر بن الخطاب فى قصة إسلامه يصرخ به جميل بن معمر الجمحى فى أندية قريش « ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ » وعمر خلفه يقول «كذبت ولكنى قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله» وهذا ثمامة بن أثال الحنفى ، وقد أخذته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد العمرة فأسلم وبشره النبى صلى الله عليه وسلم وأمره

بالعمرة ، فقال له قائل بمكة « صبوت يا ثمالة ؟ » قال : لا ولكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أفلا يعذر خالد رضى الله عنه إذا لم يرض من القوم فى التعبير عن إسلامهم وإعلانه قولهم « صبأنا » وهو نفسه مع أولئك الأجلة ما كانوا يقبلون على إسلامهم أن يقال فيه صبوا ؟ بلى ، إن له لعذراً واضحاً ؛ وقد عذره النبى صلى الله عليه وسلم ودافع عنه بقوله : « لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » .

وليست براءة النبى صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد إلا بياناً لوجه الخطأ فى التأويل ، وعدم درء الحدود بالشبهات ، ولا شك أن قولهم « صبأنا » إن لم يكن إسلاماً صريحاً فإنه شبهة قوية تدرأ حد القتل حتى يتبين الأمر ، فالخطأ الذى كانت منه البراءة هو الإسراع وعدم التلبث ، ولذلك لم يعاتبه النبى صلى الله عليه وسلم مواجهة ، ولم يعزله عن الإمارة وقيادة الجنود ، بل أقره على مكانه وفضله .

وقد عذر أئمة الإسلام بطل الإسلام اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وأقاموا له صوى الحق فى هذه الحادثة . قال الخطابى : يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام ، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين ، فقتلهم متأولا ، وإنما نقم رسول الله صلى الله عليه وسلم على خالد موضع العجلة وترك التثبت فى أمرهم » وقال الداودى : « لم ير صلى الله عليه وسلم القود فى ذلك لأنه متأول » وقال ابن تيمية : « فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فقالوا صبأنا ، فلم يقبل ذلك منهم ؛ وقال إن هذا ليس بإسلام ، فقتلهم ، ولم يكن خالد معانداً للنبى صلى الله عليه وسلم ، بل كان مطيعاً له ، ولكن لم يكن فى الفقه والدين بمنزلة غيره ، فخفى عليه حكم هذه القضية . إلى أن قال ابن تيمية : فإن خالداً لم يتعمد خيانة النبى صلى الله عليه وسلم ولا مخالفة أمره ولا قتل من هو مسلم معصوم عنده ، ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة بن زيد فى الذى قتله بعد أن قال لا إله إلا الله ، وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذى قال أنا مسلم » .

ولعل تأول خالد فى حادثة بنى جذيمة أقرب وجهاً من تأول أسامة فى الرجل الذى قتله بعد اعتصامه بكلمة التوحيد صريحة . قال ابن سعد فى الطبقات : وفى هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذى قال لا إله إلا الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا

شققت عن قلبه ؛ فتعلم صادق هو أم كاذب ؟!! » وقال الطبرى: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الكلبي إلى أرض بني مرة ، فأصاب بها مرداس بن نهيك حليفا لهم من الحرقة من جهينة ، قتله أسامة بن زيد ورجل من الأنصار . قال أسامة: لما غشيناه قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فلم ننزع عنه حتى قتلناه ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرناه الخبر . فقال : يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟ !

وفى معالم التنزيل عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً الآية » فى رجل من بنى مرة بن عوف يقال له : نهيك بن مرداس ، وكان من أهل فدك ، وكان مسلما لم يسلم من قومه غيره ، فسمعوا بأن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريدهم وكان على السرية غالب بن فضالة الليثى ، فهربوا ، وأقام الرجل لأنه كان على دين الإسلام ، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فألجأ غنمه إلى حضن الجبل ، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون ، فعرف أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ونزل وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم . فقتله أسامة واستاق غنمه ، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداً شديداً ، وكان قبل ذلك قد سبق ذلك الخبر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقتلتموه إرادة ما معه ؟ ! ثم قرأ هذه الآية على أسامة بن زيد ، فقال : يارسول الله استغفر لى ، فقال: فكيف بلا إله إلا الله ؟ ثلاث مرات ، قال أسامة فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها ويعيدها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يؤمئذ ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لى بعد ثلاث مرات وقال : أعتق رقبة .

***

قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم تأول أسامة واستغفر له ولم يغلظ عليه كما غلظ على محلم ابن جثامة الذى قتل صاحب الغنيمة بعد أن حيا بتحية الإسلام وقال : أنا مسلم ، للعلم بما كان بين نيتهما من فرق عظيم ، فأسامة رضى الله عنه ظن الكلمة تقية بدليل قوله كما فى بعض الروايات ، إجابة عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقتلته بعد أن قال

لا إله إلا الله ! فقال أسامة : يارسول الله كان متعوذاً بها من السيف . فكان قتله اجتهاد مجاهد فى سبيل الله .

أما محلم فقد ابتغى بقتل الرجل عرض الحياة الدنيا ، وطمع فيما كان معه من متاع قليل ، إلى ما انطوت عليه جوانحه من قصد الثأر وشفاء الإحن الجاهلية ، ولذلك كان غضب النبى صلى الله عليه وسلم على محلم متميزاً بلون خاص ، قرنه بالدعاء عليه ، فمات بعد سبع فدفنوه فلفظته الأرض مراراً فألقوه فى بعض الشعاب ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الأرض لتقبل من هو شر منه » وفى رواية عن الحسن أنه قال : « أما إنها تحبس من هو شر منه ، ولكن وعظ القوم أن لا يعودوا » .

قال القرطبى : فإن قيل فتغليظ النبى صلى الله عليه وسلم على محلم ونبذه من قبره كيف مخرجه ؟ قلنا : لأنه علم من نيته أنه لم يبال بإسلامه فقتله متعمداً لأجل الحنة[1] التى كانت بينهما فى الجاهلية .

وها هنا نكتة تشريعية لطيفة ، وهى عدم القصاص من محلم مع العلم بسوء نيته ، تطبيقاً لقواعد الشريعة فى إقامة الحدود على ظواهر البينات حتى لا تسفك الدماء وتتلف الأنفس بالشبه ، وفى حادثة محلم احتمال التأول قائم فى الظاهر كما كان قائماً فى حادث أسامة وحادث خالد مع عدم الشك فى خلوص نيتهما وطهارة قصدهما ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم رد على أهل صاحب محلم غنيمته وحمل إليهم ديته تأليفاً لهم كما صنع مع بنى جذيمة إرضاء لمن أقام على الإسلام منهم ، وبقى خالد وأسامة على مكانهما وفضلهما .

* * *

والمتأمل فى هذه القصص يرى أن وقفة النبى صلى الله عليه وسلم مع أسامة كانت أشد وأعنف حتى تمنى أسامة أن لو لم يكن أسلم إلا يومئذ . ولم يكن له صلى الله عليه وسلم موقف مع خالد فى مواجهته مع أن حادث خالد كان أعظم لأن قتلاه على بعض الروايات يربون

(١) الحنة : البغضاء .

على السبعين ، وقتيل أسامة رجل واحد ، وقد يكون فى قبول عبد الله بن عمر وأصحابه أن يأخذوا أسرى من بنى جذيمة — كما صرحت به رواية البخارى — وجه وجيه فى العذر لخالد ، وأن فضلهم عليه كان فى التلبث بأسراهم وأنه هو تعجل فأمر بالقتل وقتل من قتل ، وبعيد جداً أن يكون ابن عمر وأصحابه جازمين بإسلام القوم ثم يقبلونهم أسرى فى أيديهم ؟ !

رواية وتأويلها

بقيت فى القصة رواية جاءت عن ابن اسحاق ، وذكرها المؤرخون وأصحاب السير ، وهى فى الطبرى وابن هشام والديار بكرى ، وهم يذكرونها فى معرض الاعتذار عن خالد رضى الله عنه ، قال ابن اسحاق : وقد قال بعض من يعذر خالداً إنه قال : ما قتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمى ، وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام .

وليس هذا تنازلا من خالد عن إمارته ، وإنما تأويل ذلك — إذا صحت الرواية — أن خالداً دعا القوم إلى الإسلام ، فلم يجد عندهم صريحه ، بل قالوا كلمة محتملة ، فكان من رأى عبد الله بن حذافة قتالهم حتى يسلموا إسلاما لا تلجلج فيه ، وفهم أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالكف عن قتالهم إذا أجابوا إلى الإسلام صريحاً ، فإن امتنعوا قوتلوا ، وهم قد امتنعوا فى رأى ابن حذافة فحق — فى نظره — قتالهم وقتلهم على الإسلام ، وقد رفع هذا الرأى إلى أميره فوجد لديه موافقة وقبولا ، فلما عوتب خالد اعتذر بأنه لم ينفرد برأيه ، وإنما سلك مسلك الإسلام فى الشورى فيما لم يكن فيه أمر صريح وقد وافقه على رأيه واجتهاده كثير من سادات الصحابة من المهاجرين والأنصار ، لعل عبد الله بن حذافة كان أشدهم تمسكا وأجهرهم صوتا فى الأخذ به فأسند إليه الأمر بالنسبة .

استئناس

ومما يستأنس[1] به فى الاعتذار عن خالد رضى الله عنه ما بسطه أبو الفرج فى كتاب الأغانى ، وعرض له الطبرى وابن الأثير وابن هشام وسواهم ، مما يدل على أن القوم لم تخالط بشاشة الإسلام قلوبهم ، أو فى الأقل ، قلوب جميعهم ، بل كان منهم من أقام على

(١) فى تعبيرنا بالاستئناس ما يشعر القارىء بعدم تعويلنا على رواية أبى الفرج وما فيها من تفاصيل تنم على أنها من مسامرات الأدباء المتفكهين ، ويكفى منها القدر الذى تتفق فيه مع رواية النسائى فى مصنفه وهو من كتب السنة المعتبرة .

كفره لم يفارقه ، ولعل فى هؤلاء كانت غمرة الوقعة من خالد وأصحابه .

قال ابن أبى حدرد الأسلمى : كنت يومئذ فى خيل خالد بن الوليد فأثرنا فى إثر ظعن مصعدة ، يسوق بهن فتية ، فقال: أدركوا أولئك فخرجنا فى إثرهم حتى أدركناهم ، ثم مضوا ووقف لنا غلام شاب على الطريق ، فلما انتهينا إليه جعل يقاتلنا ويقول :

ارفعن أطراف الذيول وارتعن مشى حييات كأن لم تفزعن
إن تمنع اليوم النساء تمنعن

فقاتلناه طويلا فقتلناه ، ومضينا حتى لحقنا الظعن ، فخرج إلينا غلام كأنه الأول فجعل يقاتلنا ويقول :—

أقسم ما إن خادر ذولبده يروح بين أثلة ووهده
يفرس شبان الرجال وحده بأصدق الغداة منى نجده

فقاتلناه ، حتى قتلناه ، وأدركنا الظعن ، فأخذناهن ، فاذا فيهن غلام وضىء الوجه به صفرة كالمنهوك فربطناه برمة وقدمناه لنقتله ، فقال لنا : هل لكم فى خير ؟ قلنا : ما هو ؟ قال : تدركون بى الظعن فى أسفل الوادى ثم تقتلونى ، قلنا نفعل ، فعارضنا الظعن ، فلما كان بحيث يسمعن الصوت نادى بأعلى صوته : اسلمى حبيش بعدفقد العيش ، فأقبلت إليه جارية بيضاء حسانة وقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء ، فقال سلام عليك دهراً ، وإن بقيت عصراً ، قالت : وأنت سلام عليك عشراً وشفعاً تترى وثلاثا وتراً ، فقال :

إن يقتلونى ياحبيش فلم يدع هواك لهم منى سوى غلة الصدر
فأنت التى أخليت لحمى من دمى وعظمى وأسبلت الدموع على نحرى

فقالت تجيبه :

ونحن بكينا من فراقك مرة وأخرى وواسيناك فى العسر واليسر
وأنت فلم تبعد فنعم فتى الهوى جميل العفاف والمودة فى الستر

فقال لها :

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم بحلية أو ألفيتكم بالخوافق
ألم يك حق أن ينول عاشق تكلف إدلاج السرى والودائق

فلا ذنب لى أن قلت إذ أهلنا معا ... أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى ... وينأى الخليط بالحبيب المفارق
فإنى لا سراً لدى أضعته ... ولا راق عينى بعد وجهك رائق
على أن ما ناب العشيرة شاغل ... ولا ذكر إلا أن يكون لوامق

قال ابن أبى حدرد : ثم انصرفت به فضربت عنقه ، فجاءت المرأة إليه ، فلم تزل تشمه وتقبله حتى ماتت ، فروى أنهم لما قدموا إلى رسول الله صلى عليه وسلم خبروه الخبر ، فقال : أما كان فيكم رجل رحيم ؟ !

فهؤلاء فتيان فى ظعن يسوقون بهن وهم يرون الموت يلاحظهم فلا يذكرون كلمة الاسلام لينجوا بها من القتل ، بل إن أحدهم ليرضى بالموت قرير العين بعد حديث فى الهوى والهيام .

وقد خرج النسائى فى مصنفه هذه القصة عن ابن عباس وقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم بعث سرية فغنموا وفيهم رجل فقال : إنى لست منهم ، عشقت امرأة فلحقتها ، فدعونى أنظر إليها نظرة ، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم ، فاذا امرأة طويلة أدماء ، فقال : اسلمى حبيش ، قبل فقد العيش ، وأنشد أبياتاً فقالت : نعم فديتك ! !

فقدموه فضربوا عنقه ، فجاءت المرأة فوقعت عليه ، فشهقت شهقة أو شهقتين ، ثم ماتت ! !

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر فقال : أما كان فيكم رجل رحيم ؟

الفصل السادس

خالد في بعوث شتى

خالد في غزوة حنين ـ انسحاب لا يخدش البطولة ـ شجاعة النبي وأثرها ـ خالد في محاصرة ثقيف ـ بعث خالد للتثبت من بني المصطلق ـ سرية خالد إلى أكيدر ـ بعث خالد لهدم اللات ـ بعث خالد إلى نجران داعيا ومعلما ـ كتابه إلى رسول الله مبشراً ـ كتاب رسول الله إليه يستقدمه بوفد بني الحارث ـ حنين خالد إلى الجهاد ـ رواية أخرى في سرية نجران ـ توفيق بين الروايتين .

خالد في غزوة حنين

عذر النبي صلى الله عليه وسلم خالدا رضى الله عنه في حادث بنى جذيمة وقبل تأوله، وكان أعظم مظهر لذلك إبقاؤه على الإمارة حتى في الغزوات التى يكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم القائد الأعلى للجيش ، فهو لم يكد يرجع من بنى جذيمة على رأس كتيبته حتى كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تجهز لهوازن لما بلغه تجمعهم لحربه بقيادة زعيمهم مالك ابن عوف النصرى ، وخرج إليهم المسلمون في جموع كثيفة من جمهور المهاجرين والأنصار ، ومسلمة الفتح وطوائف من الأعراب رغبوا في الغنيمة، حتى أعجبت المسلمين كثرتهم فقال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة ، ولكن الله تعالى الذى تولى تربية المسلمين وإعدادهم لحمل رسالته إلى الخلق كافة لم يرض لهم أن يكون اعتمادهم على كثرة العدد وكثافة الجند ، فامتحنهم هنا لهذه الآفة النفسية ، وكانت تلك الكلمة الغارة مفتاح المحنة ، كما امتحنهم في غزوة أحد لمخالفة أمر القائد الأعلى ، وكان لهم من كل ذلك دروس في التربية والنظام جعلتهم يتخذون من قوة الإيمان عوضا عن كثرة الجند وأهبة العدة .

روى أبو جعفر الطبرى من طريق ابن اسحاق عن جابر بن عبد الله قال : لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط ، إنما انحدرنا فيه انحدارا، وذلك في عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقوا إلى الوادى ، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد ، وانهزم الناس أجمعون ، فانشمروا لا يلوى أحد على أحد .

وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر قليل معه من أهل بيته وخاصة المهاجرين والأنصار ، وتمت المحنة وكان الابتلاء فيها شديدا محصت به قلوب المؤمنين ، ثم تداركهم الله برحمته ، وعاد إليهم نصره وتأييده ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى من الناس ما رأى قال لعمه العباس — وكان العباس صيتا جهيرا — اصرخ في الناس ، يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة ، فانعطفوا يقولون : لبيك لبيك ، فيذهب الرجل منهم ليثنى بعيره فلا يقدر عليه ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ثم يقتحم

عن بعير فيخلى سبيله فى الناس ، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس فقتلوا ، فكانت الدعوة أولا ياللأنصار ، ثم جعلت أخيراً يا للخزرج ، وكانوا صبرا عند الحرب ، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى مجتلد الناس وهم يجتلدون ، فقال : الآن حمى الوطيس .

وهكذا هزمت القلة الصابرة كثرة المشركين الباغية ، وشفى الله صدور المؤمنين من أعدائهم ، وفى ذلك نزل قول الله تعالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا ؛ وذلك جزاء الكافرين » .

انسحاب لا يخدش البطولة

قال الديار بكرى : « كان خالد بن الوليد مع بنى سليم فى مقدمة الجيش ، وكان أكثرهم حسرا ليس عليه سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوما كانوا لهم ، جمع هوازن وبنى نصر ، وهم قوم رماة لا يكاد يسقط لهم سهم ، والمسلمون عنهم غافلون ، فرشقوهم رشقا لا يكادون يخطئون ، فولى جماعة كفار قريش الذين كانوا فى جيش الإسلام وشبان الأصحاب وأخفاؤهم وتبعهم المسلمون الذين كانوا قريبى العهد بالجاهلية .

« فلما انعطف الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيبين لندائه كان خالد رضى الله عنه فى أول من كر مع أبطال الإسلام يضرب فى وجه المشركين حتى أثخنته جراحاته ؛ قال ابن عبد البر فى الاستيعاب : وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى سليم يوم حنين وجرح يومئذ ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رحله بعد ما هزم الله هوازن ليعرف خبره ويعوده ، فنفث فى جرحه فانطلق » .

تقع الأحداث فتترك وراءها آثارها فى النفوس ، وتلك الآثار تختلف باختلاف مواقعها وأسبابها ، وهذا الحدث الذى انسحب فيه خالد بن الوليد ، وهو بطل الحرب ، ترك فى نفسه أثراً جعله فى كرته يتمثل غدرة القوم بالمسلمين وأخذهم على غرة ، فامتلأ صدره غيظا عليهم ، حجب عنه بعض خلائقه ، فكان يقتل كل من لقيه من المشركين ، لا يبالى أكان سيفه فى عنق رجل أو امرأة .

ذكر ابن اسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر يومئذ بامرأة ، وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس متقصفون عليها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا . امرأة قتلها خالد ابن الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من كان معه : أدرك خالداً ، فقل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفا[1] . فكان عند أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وليس فى هذا الانسحاب خدش لبطولة خالد رضى الله عنه ، لأنه كان مع كتيبته فى مقدمة الجيش ، فكان عنفوان المفاجأة التى مكر بها الأعداء عليه ، فلو صبر وصبر معه جنده لهذه المفاجأة العاصفة لكانت العاقبة إفناء هذه الكتيبة الباسلة فى غير شىء يعود على المسلمين بالنفع والفائدة ، فلا حرج على البطل أن ينحاز ليستعد للوثوب ، ولو كان ذلك فى صورة الانهزام والتقهقر ، بل لعل ذلك الانسحاب خطة حربية ناجحة ، ولكنها قد تكون بعيدة النتائج ، وقد عرفنا فيما قرأنا من سير أبطال الحروب الحديثة أن الانسحاب لإنقاذ الجيش المأخوذ على غرة من أهم الفنون الحربية ، حتى تخصص فيه قوم من القواد وحذقوه فكان عند أممهم من أقوى عوامل الانتصار .

شجاعة النبى وأثرها

ولا نتوهم عاقلا يعترض بموقف النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة ، لأن شخصيته أعظم من أن تقايس بها شخصية فى الوجود ، والذين ثبتوا معه هم أقرب الناس إليه نفسا ونسبا فهم أشبه بأركان حرب القائد فى الاصطلاح الحديث ، فهم خاصته الملازمون ، فلما رأوا شجاعته الباهرة شجعت أفئدتهم ، واتقوا به البأس ، أما خالد فقد كان مرتبطا بكتيبته لأنه قائدها وأميرها فكان عليه أن يعمل على إنجائها من الهلاك ، وليس موقف قائد الفرقة أو قائد الكتيبة كموقف القائد الأعلى ، لأن قائد الفرقة روح فرقته وقائد الجيش الأعلى روح الجيش كله ، ولذلك كان النصر فى غزوة حنين هذه أثراً من آثار موقف النبى صلى الله عليه وسلم وشجاعته ، فإن الناس لم يلبثوا أن سمعوا الصوت يناديهم « إلى أيها الناس ، أنا رسول الله » حتى عطفوا عليه عطفة النحل على يعسوبها ، وتم للمؤمنين نصر الله بصورة لم تسبق لهم من كثرة الغنائم ورهبة

---

(١) العسيف : الأجير .

الأعداء . فقد بلغت الغنائم فى هذه الغزوة ستة آلاف من الذرارى والنساء وأربعة وعشرين ألفا من الإبل ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وما لا يحصى من الشاء ، وأسلمت بعد ذلك هوازن فرد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذراريها ونساءها ، وقسم الأموال فى المسلمين ، وأعطى المؤلفة عطاء غامرا .

خالد فى محاصرة ثقيف

كان النصر فى هذه الغزوة نصرا مؤزرا ، أرعب قلوب من بقى من العرب مباعدا للإسلام ، وكانت قبيلة ثقيف قد اعتصمت بحصونها بعد هزيمة حليفتها هوازن ، فزحف عليها النبي صلى الله عليه وسلم بجند الله ، وسير سيف الله خالد بن الوليد فى ألف رجل على مقدمته طليعة ، فحاصروا الطائف زمنا اختلفت الروايات فى تقديره ، ولم يقع قتال غير تراشق النبل ، وكان بطل الإسلام خالد يخرج فينادى : هل من مبارز ؟ فلا يرد عليه أحد ، فلما أعنتهم بتحديه وأكثر عليهم أجابه زعيم ثقيف عبد ياليل : لا ينزل إليك منا أحد ولكن نقيم فى حصننا ، فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى فى حصاره ثقيفا رؤيا فقصها على أبى بكر ، فقال : إنى رأيت أنه أهديت لى قعبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فأهراق ما فيها ، فقال : ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا لا أرى ذلك ، فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل فارتحلوا ، ثم جاء الله بعد قليل بثقيف مسلمين .

* * *

بعث خالد للتثبت من بنى المصطلق

كان بنو المصطلق قوما من بنى جذيمة ، أسلموا وبنوا المساجد فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة مصدقا ، وكان بينهم وبين الوليد عداوة جاهلية ، فلما قدم عليهم وسمعوا به خرج منهم عشرون رجلا يتلقونه بالجزر والغنم وما جمعوه من مال الصدقات ، فرحا بقدومه وتعظيما لأمر الله وأمر رسوله ، فنفخ الشيطان فى صدره أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه أنهم يحولون بينه وبين الصدقة وأنهم يريدون قتله ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاد أن يهم بهم ، فلما بلغهم رجوع الوليد مغاضباً أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يارسول الله ، سمعنا بمجىء رسولك ، فخرجنا نتلقاه ونكرمه ، فرجع ، فخشينا أن يكون رده عنا بلوغ

كتاب منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليهم سيفه وموضع ثقته وعيبة نصحه خالد بن الوليد فى عسكر خفية ، وقال له : أنظر فإن رأيت ما يدل على إيمانهم ، فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ماتستعمل فى الكفار، فأتاهم خالدفسمع منهم أذانى صلاة المغرب والعشاء ، فأخذ منهمصدقاتهم ، ولم يرمنهم إلا الطاعة والخير ، فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخبره الخبر،قيل:فأنزل اللهفىشأن الوليد بن عقبة وشأنهم قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » .

* * *

سرية خالد إلى أكيدر

ترامى إلى النبى صلىالله عليه وسلمبعد أن فرغ منحنين ورجع منحصارالطائف وأقام بالمدينة نحواً من ستة أشهريحم أصحابه، أن الروم جمعت له بالشام جموعا كثيرة ليقاتلوه ، وقد اجتمع معهم من مستعربة الأطراف من بنى لخم وجذام وغسان وعاملة عدد كثير ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ليستعدوا ، وأنهم تقدموا إلى البلقاء فعسكروا بها ، فأمر الناس بالتأهب والتجهز والمسير إلى الشام، وكان الزمان زمان حر وعسرة ، وكان هذا الوجه من أهيب وجوه الغزو لدى المسلمين ، وكان النبى صلىالله عليه وسلم إذا غزا قوما ورى عنهم بغيرهم إلاهذه الغزوة التىيقصدبها إلى بنى الأصفر ، فإنه أعلنعنها للناسليتأهبوا لها لبعد السفرفيها وشدة الحالعلىالناس ، وحض رسولالله صلى الله عليه وسلمعلىالجهاد ورغبفيهوأمر بالصدقةوالإنفاقفىسبيل الله ، فأقبل المسلمون فجادت أنفسهم بما وسعها الخير ، فجاء أبو بكرالصديق بماله كله، وجاء عمربنالخطاب بنصف ماله ، وأنفقالعباس، وطلحة ، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن عبادة ، ومحمدبن سلمه ، وعاصم بنعدى، نفقات عظيمة القدر ، وجاءعثمان ابن عفان بمال عظيم اختلفت الروايات فى تقديره، وأمثلها من يرى أنه استقل وحده بتجهيزثلث الجيش كله، وكانالجيشفىهذهالغزوة ثلاثين ألفا ؛ فدعا لهالنبىصلىاللهعليه وسلم وأظهر السرور البالغ بصنيعه . وفى هذه الغزوة نجم النفاق، وافتضح المنافقون،

فتكلموا بما فى أنفسهم من الضغن على الإسلام والمسلمين ، فأخبر الله نبيه عنهم وأنزل فى شأنهم ما أنزل من القرآن الكريم .

مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى تبوك فلم يجد مما بلغه عن تأهب الروم لحربه شيئاً ، ولقيه صاحب أيلة ، وأهل جرباء وأذرح فصالحوه على الجزية ، ولم يجد فى طريقه كيدا ، ولا لقى فى وجهه هذا حربا .

كان فى هذه الغزوة خالد بن الوليد على ما كان عليه فى سوابقه من الإمارة على الفرسان والخيل ، ولكن الروايات لم تجر له فيها ذكرا ، لأنه لم يكن فيها موقف حربى تظهر فيه بطولة خالد فيتحدث عنه بما كان . وقد ذهب بفضل هذه الغزوة أهل الثراء ممن أمدوا الجيش بأموالهم وجهزوا الجند بالأسلحة والمؤن ، ولم يعرف عن خالد أنه كان من ذوى الثراء وأصحاب الأموال ، فليس له فيها إلا حظ القائد الذى تأهب لموقفه من الميدان ، فلم يجد أمامه صائلا يدفعه ولا عدوا يحاربه ، فقنع ليبحث عن مكانه فى ساحة البطولة الظافرة .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة ، ثم شاور أصحابه فى التقدم إلى الروم والمسير إليهم فى بلادهم ، فقال عمر بن الخطاب : إن كنت أمرت بالمسير فسر فقال صلى الله عليه وسلم : «لو أمرت ما استشرتكم فيه» ، فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم وأفزعهم دنوك ، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله فى ذلك أمرا ؟

ولما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصراف بعث خالد بن الوليد على رأس أربعمائة وعشرين فارسا إلى أكيدر صاحب دومة الجندل — قرية فى طرف الشام ولا بد لقاصدها من أن يتخطى بلاد كلب وهى قبيلة من أكثر قبائل العرب عددا ، وأشدها كلبا — فقال خالد : كيف لى به يا رسول الله وسط بلاد كلب ؟ ! وإنما أنا فى ناس يسير . فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه سيأخذه غارا ويظفر به ، فقال : ستجده يصيد الوحش فتأخذه .

فخرج خالد على كتيبته من تبوك ميمما دومة ، فلما دنا منها ، وكان بمنظر العين من حصن أكيدر تلبث قليلا ينظر فى شأنه ، وكان أكيدر على سطح قصره فى ليلة قمراء

صائفة ، ومعه امرأته الرباب الكندية ، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن ، فأشرفت امرأته على باب الحصن فرأت البقر ، فقالت له : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا ، والله ؛ قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ؛ وكان أكيدر يضمر لهذا الصيد الخيل شهرا ، فنزل وأمر بالخيل فأسرجت ، فركب وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخوه حسان ، فدلف إليهم خالد بفرسان المسلمين فاتبعهم حتى لحق بهم ، فاستأسر أكيدر ، وامتنع أخوه حسان ، وقاتل حتى قتل ، وهرب سائر من كان معه حتى دخلوا الحصن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قال لخالد : إن ظفرت بأكيدر فلا تقتله ، وائت به إلى ، فقال له خالد — وهو في يده أخيذ — : هل لك أن أجيرك من القتل حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن تفتح لى دومة الجندل ؟ قال : نعم ، لك ذلك ؛ فلما صالح خالد أكيدر وهو في وثاقه كان أخوه مصاد في الحصن ، فأبى أن يفتح الحصن حتى يطلق أكيدر من وثاقه ، فطلب أكيدر أن يصالحه خالد على شيء معين حتى يفتح له باب الحصن ، ثم ينطلق به وبأخيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحكم فيهما بما شاء ، فرضى خالد ، وتم بينهما الصلح على ألفى بعير ، وثمانمائة فرس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح ، وخلى خالد سبيله ففتح له باب الحصن ، فدخله المسلمون ، وحقن خالد دمه ودم أخيه ، وانطلق بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقدمه من تبوك ، فضرب عليه وعلى قومه الجزية ، وكتب لهم كتاب أمان ، واختلفت الروايات في شأنه بعد ذلك ، وأثبتها أنه ظل على نصرانيته ، ثم نقض العهد فحاصره خالد نفسه زمن أبي بكر وقتله مشركا .

وفي لقائه الأول أخذ منه خالد قباء مخوصا بالذهب مما تلبسه الملوك ، فبعث به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل قدومه به فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرد عنهم وساوس الدنيا ، ويصرفهم إلى ما هو أعظم : لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا .

كانت سرية خالد من تبوك إلى دومة الجندل مظهرا من مظاهر تعويض البطولة عما فاتها من غمرات المجالدة ، وكانت عنوانا بارزا على تقويم خالد بقيمته التي وزنه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم إسلامه ، وإن تكن الأحداث قد غيرت من ذلك

التقويم شيئاً فذلك ماينتهى إليه الذهب بعدفتنته بالنار، وطبائع النفوس أقوى فى حقائقها الإنسانية من طبيعة الذهب فى حقيقته المعدنية .

وكانت آية من آيات عقله السياسى البارع ، فهو يصطنع إلى أسيره الملك عارفة من عوارفه فيجيره من القتل على أن يفتح له الحصن ، فلما لم يرض مصاد أخو أكيدر بفتح الحصن إلا أن يحل وثاق أخيه الملك ، لم تقف عزة الغالب الظافر أمام خالد فيأبى عليه ذلك ، ولكنه يرضى به ويكسب المسلمين صلحا يعود عليهم بأعظم المنافع ، ويأتى مع ذلك إلى ما أراده خالد أول المفاوضة من الذهاب بأكيدر وأخيه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأقر ما صنع بهما خالد ، وردها إلى مكانهما آمنين .

وقد كشفت لنا هذه السرية عن شىء من خلائق خالد التى تزدان بها البطولة وتغلب فى طبع الأبطال ؛ ولنا بكشفه حاجة فى حياة خالد تدفع شبهة قد تمس الأمانة فى أخلاق البطل ، وإن تكن تلك الشبهة مدفوعة بما مات عنه خالد من فقر ش المال ، وهو القائد المظفر الذى خاض أكثر من مائة زحف ظفر فيها وغنم من الغنائم ما لو شاءه معه أن يكون أثرى أثرياء المسلمين لكان له ما شاء ، لولا خصيصة البطولة فى أمانة خالد .

ظفر خالد بأكيدر ملك دومة فى متصيده ، وعليه حلة من حلل الملوك مخوص قباؤها بأسلاك الذهب ، فلم تحدثه نفسه أن يحتجن لخاصته هذا القباء الذى بلغ من قيمته أن يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، لما رأى تعجب أصحابه منه : لمناديل سعد فى الجنة خير منه ؟ والمؤمنون يعرفون مقدار المفاضلة بين أدنى أشياء الجنة وأعلى أشياء الدنيا فى تعظيم ما يراد تعظيمه من حاج الدنيا .

أفليس ذلك أرفع ما يصبو إليه الناس من مراتب الأخلاق فى الأمانة والعزف عن زخارف الدنيا ؟ ! بلى ، إن رجلا أدى ذلك لأمين أى أمين .

بعث خالد لهدم اللات

لما رجع خالد بن الوليد من دومة ظافرا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قدمه قافلا من تبوك إلى المدينة ، فقدم عليه وفد ثقيف فقاضاهم على الإسلام ، وكان فيما قاضاهم عليه هدم طاغيتهم « اللات » ، وهو بيت كانوا يتعبدونه ، ويهدون له ، يضاهون به البيت الحرام ، وكانوا قد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم فلا يهدمه حتى يدخل الإسلام قومهم ، فأبى عليهم أن يدعه شيئاً من زمن ، فأسلم الوفد وعادوا

إلى قومهم ، نخوفوهم بطش الإسلام وقوته ، ورغبوهم فى الدخول فيما دخل فيه سائر الناس فأسلموا مستسلمين .

ثم أرسل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسله ليهدموا معبودهم «اللات» وأمر عليهم خالد بن الوليد ، وكان فى الرسل المغيرة بن شعبة ، لأن قومه بنى معتب من ثقيف هم سدنة الطاغية ، فهو يتألفهم ليؤكد دخولهم فى الإسلام ، وهم يقومون دونه يحمونه من مثل ما وقع لعروة بن مسعود ، إذ دعاهم إلى الإسلام فقتلوه .

فلما قدم عليهم خالد فيمن كان معه عمدوا إلى «اللات» يهدمونها فتكفأت ثقيف قضها بقضيضها ، حتى خرج العواتق من الحجال ينظرون ماتصنع ربتهم بمن يهدمها ، وهم فى جهالتهم لا يصدقون أنها تهدم ، ويرون أنها ستمنع نفسها ، ثم أمر خالد المغيرة ابن شعبة أن يكون هو الذى يتولى هدمها ، فضحك المغيرة ، وقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف !! فأخذ الكرزون(١) فضرب به ، ثم أخذ يرتكض ، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة ، وقالوا أبعد الله المغيرة !! قد قتلته الربة ! وفرحوا حين رأوه يسقط ، وقالوا من شاء منكم فليقرب ، وليجهد على هدمها ، والله لا تستطاع أبدا . فوثب المغيرة وقد رأى منهم الشماتة والسخرية ممزوجتين بهذه البلاهة الجاهلة ، فقال : قبحكم الله يا معشر ثقيف ؛ إنما هى لكاع حجارة ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا على سورها ، وعلا الرجال معه فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض ، ولكن جهالة ثقيف كانت على مقدار عنادهم ونكارتهم ، فما زالت فيهم عقيدة الوثنية تعمل عملها ، فجعل سادنها وصاحب مفاتيحها يقول : ليغضبن الأساس ، فليخسفن بهم ! فلما سمع المغيرة هذه الجهالة البليدة قال لأميره خالد بن الوليد : دعنى أحفر أساسها ، فحفروها حتى أخرجوا ترابها ، وأخذوا حليها وثيابها ، فبهتت ثقيف ، وعلمت بعد جهالة أن ربتهم فى حقيقتها إنما هى صورة من بلاهتهم معجونة بحفنات من التراب ، لم تلبث إذ رأت شمس الحق ساطعة أن عادت هباء تذروها الرياح .

هذه الرواية فى هدم طاغية ثقيف نقلها الديار بكرى فى تاريخ الخميس من طريق.

---

(١) الكرزون : المعول .

موسى بن عقبة . وهناك رواية أخرى ذكرها من طريق ابن اسحاق ، ترى أن أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة هما اللذان أرسلا لهدم الطاغية ، فلما قدما الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان ، وقال للمغيرة : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان فى مال له هنـاك ، فدخل المغيرة وهدم الطاغية ، وأخذ ما وجد فيها من مال وحلى ، فأرسله الى أبى سفيان ، ثم عادا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى منه دينا كان على عروة بن مسعود ، وأخيه الأسود ، وقد سأله فى ذلك أبناهما مليح بن عروة ، وقارب بن الأسود ، وكانا قد أسلما قبل قومهما ، ثم قسم سائره من يومه .

وقد يظهر للبحث ترجيح الرواية الأولى، لأنها تتفق مع ما جرى فى السوابق من إرسال عدد من الرجال بأميرهم فى أمثال هذا الحادث ، ولأنه يبعد أن يرسل إلى ثقيف رجلان لهدم طاغيتهم ، وهم بعد لم يخالط الاسلام قلوبهم ؛ ولأنه يبعد أن يعهد بذلك الى أبى سفيان بن حرب وهو قريب عهد بالإسلام ، لم يسلم طواعية ، ولأنه لو كان هو المرسل فإنه يبعد أن يدع صاحبه المغيرة يدخل على قومه وحده فى أمر أشق على أنفسهم من القتل وسفك الدماء ، ثم يتخلف فى مال له هناك .

* * *

وارسال خالد أميراً على سرية لهدم «اللات» وكان هو الذى هدم العزى ، أقرب من إرسال أبى سفيان بن حرب ؛ وقد كان لخالد فى ثقيف موقف يرشحه لهذا العمل ؛ وكان لأبى سفيان موقف فى ثقيف وهى مع هوازن فى حنين ما عنس عليه كثير زمن ؛ يباعد بينه وبين ذلك .

بعث خالد الى نجران هاديا ومعلما

لم يزل خالد بن الوليد رضى الله عنه منذ أسلم حظى المكانة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يعدل به أحداً من أصحابه فيما حزبه ؛ يوليه أعنة الخيل ؛ ويؤمره أميراً على سراياه ، ويعقد له على كتائب جيوشه الظافرة ؛ ويرسله معلما وداعيا إلى الله .

واذا كانت عبقرية خالد العسكرية من العبقريات القاهرة الغامرة حتى غلبت على سائر خصائصه وفواضله فى جوانب الحياة الأخرى فلم تجعل لجانب سواها ذكراً معها فى سجل الخلود ؛ فلم يجهل التاريخ فضائل خالد كإمام من أئمة الدين ومعلميه ؛ فقد اختاره

رسول الله صلى الله عليه وسلم معلماً لكتاب الله وسنة نبيه ، ومبينا لمعالم الإسلام وشرائعه ، وهذا لا يكون إلا عن يقين من رسول الله صلى الله عليه وسلم بفقه خالد في الإسلام وعلمه بالكتاب والسنة ، لأنه أرسله إلى قوم بعيدة دارهم عن موطن النبوة والوحى ، وقد لا يمكن مع هذا البعد تلافى مايقع من الخطأ فى الأحكام الشرعية ، فلو لم يكن أمير القوم ومعلمهم فقيها فى الدين عالما بتأويل الكتاب وفهم السنة لكان فى بعثه معلما تلبيس وحرج على من بعث معلما له ، وهذا ما لا يمكن وقوعه من النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا عرف أنه وقع قط ، بل الذى تظاهرت به الأخبار الصحيحة أن معلمى المسلمين على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانوا من علماء الصحابة المشهود لهم بالفقه فى الدين والعلم بالتأويل ، واختلافهم فى العلم والفقه ودقة النظر فى المسائل والفتاوى أمر طبيعى يقع بين طبقات الناس جميعهم فى كل عصر ومصر ، وهذا تأويل ما نقل عن خالد رضى الله عنه : شغلنى الجهاد عن الكثير من القرآن .

روى أصحاب السير والمؤرخون أن النبى صلى الله عليه وسلم : بعث خالد بن الوليد على سرية إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا ، وقال له : «فإن استجابوا لك فاقبل منهم ، وأقم فيهم ، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام ، فإن لم يفعلوا فقاتلهم» .

فخرج إليهم خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، يدعون الناس إلى الإسلام ، يقولون : «أيها الناس أسلموا تسلموا» فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه ، فأقام خالد فيهم يعلمهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وقد سجل خالد لنفسه هذه المنقبة العظمى فى كتاب أرسله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه :

كتاب خالد إلى رسول الله مبشرا

« بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد بن الوليد ، السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب ، وأمرتنى إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم

ركبانا ، قالوا : يابنى الحارث ، أسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، آمرهم بما أمرهم الله به ؛ وأنهاهم عن مانهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

كتاب رسول الله بوفد بنى الحارث

وقد أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتابه هذا فكتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من النبى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . »

حنين خالد إلى الجهاد

وفى كتاب خالد رضى الله عنه إلى جانب تسجيله ماطواه التاريخ من جوانب مضيئة فى شخصيته ، ناحية تلفت نظر الباحث ، ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما أرسل خالداً إلى بنى الحارث باليمن أمره أن يقيم فيهم إماماً ومعلماً، يبين لهم معالم الاسلام، ولكن خالداً ــ وهو القائد المفطور على حب الحرب ــ لم تسكن نفسه لتسكن إلى الدعة والهدوء بعد أن أدى مهمته الحربية ، وتم على يديه إسلام بنى الحارث ، وعلمهم معالم الإسلام، بل حنت نفسه الكبيرة إلى الجلاد استجابة لما فى طبعه من خصائص عسكرية فائقة ، فكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يبلغه أنه أدى ما أمره به فدعا إلى الاسلام فاستجاب له الناس ، وأقام فيهم يأمرهم بأمر الله وينهاهم عن مناهى الله ، وأرشدهم إلى شرائع الإسلام ومعالمه ، وهو ينتظر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدر إليه بما يوجهه إليه .

وكأن هذا تلميح من خالد إلى مايريد من خوض الغمرات جهاداً فى سبيل الله ، فأجابه رسول الله إلى رغبته ، فاستقدمه بوفد بنى الحارث ، فأقبل خالد من اليمن قافلا ، وأقبل معه وفد بنى الحارث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآهم رسول الله قال يسأل عنهم : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل يارسول الله : هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب ، فلما وقفوا عليه سلموا عليه وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا اله الا الله ، فقال رسول الله: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، ثم

قال لهم وهو يعلم شدة شكيمتهم وتميزهم عن العرب بأخلاق المغالبة وشدة البأس : أنتم الذين إذا زجروا استقدموا ؟ فسكتوا فلم يراجعه أحد منهم حتى ذكر ذلك أربع مرات؛ فقال أحدهم — يزيد بن عبد المدان — : نعم يارسول الله : نحن الذين إذا زجروا استقدموا ، وجعل يكررها حتى بلغ بها مرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله : لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إلى فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم .

ويبدو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم هذه المقالة الشديدة التي لم تجر بها عادته الكريمة في مخاطبة الوفود ، ليطامن من عنجهيتهم ويكسر من حدتهم ويدخل في قلوبهم رهبة الإسلام حتى يبلغوا من وراءهم من قومهم فتلين أفئدتهم ، وتذهب عنهم نخوة الجاهلية وحمية العصبية ، وغرور الاستعلاء والغلب مما تميزوا به عن سائر قبائل العرب ولذلك جاء ردهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير خلي من جفوة الأعرابية وتعزز الجاهلية ، فقال متكلمهم يزيد بن عبد المدان : أما والله يارسول الله ماحمدناك ولا حمدنا خالدا ، فقال رسول الله : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله الذي هدانا بك !! قال . صدقتم .

ولما سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض أخلاقهم التي كانت لهم في الجاهلية والتي كانوا بها غلابين مرهوبين ، أجابوا متغضبين : لم نغلب أحداً !! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ؟ قالوا : يارسول الله كنا نغلب من قاتلنا إنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم ، قال صدقتم .

رواية اخرى في سرية خالد الى نجران

هذه رواية يجمع عليها المؤرخون وأصحاب السير في شأن بعث خالد بن الوليد إلى نجران من أقاليم اليمن داعياً بني الحارث بن كعب إلى الإسلام ، وهي صريحة في أن خالدا ذهب إليهم أمير سرية ، فدعاهم إلى الإسلام وعلمهم القرآن والسنة ومعالم الإسلام فأتم ما أمر به ، وأداه أحسن أداء ، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب إليه رسول الله فاستقدمه بوفد بني الحارث ، فوفد بهم عليه ، وحدثهم وحدثوه ، ثم ولى عليهم أميراً منهم ، وبعث إليهم معلماً بقي على ولايته حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . بيد أن بعض المؤرخين ذكروا رواية أخرى في بعث خالد إلى اليمن في التاريخ

نفسه الذى تذكر فيه بعثه إلى بنى الحارث بن كعب ، وهى مختلفة فى تفصيلها ووقائعها ونتائجها كل الإختلاف مع الرواية الإجماعية ، لأن هذه الرواية تقول : إن خالدا أرسل إلى اليمن لدعوة قبيلة همدان إلى الإسلام ، وهمدان غير بنى الحارث الذين أرسل إليهم خالد فى الرواية الأولى ، ولأنها تقول : إن خالداً دعا القوم فلم يجيبوه ، وأنه لم يوفق فى رسالته ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث على بن أبى طالب لما كان بعث إليه خالد بن الوليد ، وأمر عليا أن يقفل خالدا ومن معه إلا من شاء منهم أن يبقى فى سرية على فله ذلك ، وأن خالداً رجع بسريته بعد ستة أشهر لم يجبه القوم إلى شىء ، وأن عليا كرم الله وجهه قام بدعوة القوم فأجابوه وأسلموا جميعاً ، فكتب بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لهم وسلم عليهم .

التوفيق بين الروايتين

والناظر بعين الباحث الناقد يدرك — إذا فرضنا صحة الروايتين — أن هناك بعثتين فى بعثتين مختلفتين كان فيهما خالد بن الوليد أمير سرية ، وأنه وفق فى إحداهما — وهى بعثة بنى الحارث — أتم توفيق ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم استقدمه بوفد القوم ، فقدم بهم عليه ، وجرى حديثهم على ما سقناه .

وأما البعث الآخر فهذا كان إلى أهل اليمن عامة ، وجماعتهم فى همدان ، وهذا هو الذى تتحدث عنه الرواية الثانية ، وهو الذى عقب فيه على خالداً لأن القوم لم يجيبوا خالدا ، ولم يؤمر بقتالهم فلم يقاتلهم ، فلما قدم عليهم على وأقفل خالداً ومن معه دعاهم إلى الله فأجابوه .

حدث الطبرى عن البراء بن عازب قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، فكنت فيمن سار معه ، فأقام عليهم ستة أشهر ، لا يجيبونه إلى شىء ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ، وأمره أن يقفل خالداً ومن معه فإن أراد أحد ممن كان مع خالد بن الوليد أن يعقب معه تركه ، فكنت فيمن عقب ، فلما انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر فجمعوا له ، فصلى بنا على الفجر ، فلما فرغ صفنا صفاً واحداً ، ثم تقدم بين أيدينا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قرأ كتابه خر ساجداً ثم جلس فقال : السلام على همدان ، السلام على همدان ، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام .

ويدل لما ذهبنا إليه أولا : ـ أن الطبرى وتابعه ابن الأثير ـ على عادته ـ ذكر فى موضع بعث خالد إلى بنى الحارث ، وساقه كما ذكرناه، ولم يعرض فيه لذكر بعث علىّ إلى اليمن ، ولا لذكر همدان ، وذكر فى موضع آخر بعث على إلى أهل اليمن معقباً لخالد وأمره أن يقفل خالداً بمن معه،وساق حديث البراء المتقدم، ولم يعرض فى هذا الموضوع لذكر بنى الحارث ودعوتهم إلى الإسلام .

وجرى فى هذا الشوط الديار بكرى فى تاريخ الخميس ، فذكر بعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث مختصراً على ماذكره الطبرى فلم يجر فيه ذكر لعلى ولا لهمدان ، وذكر قصة أخرى فى التاريخ نفسه الذى تحدث الرواة فيه أن علياً عقب فيه خالداً إلى اليمن، ولم يجر فيها ذكر لبنى الحارث ودعوتهم .

ويؤيد ما ذكرناه أن القسطلانى فى المواهب ذكر بعث خالد إلى عبد المدان فى التاريخ الذى ذكر المؤرخون فيه بعثه إلى بنى الحارث ، وعبد المدان بطن من بنى الحارث ، وأن خالداً دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، فهذا هذا .

وكذلك يؤيده ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى وأبو داود من حديث على قال : بعثنى النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ، فقلت يارسول الله : تبعثنى إلى قوم أسن منى ، وأنا حديث السن ، لا أبصر القضاء ؟ قال على : فوضع : يده فى صدرى ، وقال اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، وقال يا على : إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ، الحديث .

قال الديار بكرى : فخرج على فى ثلاثمائة فارس ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك ، ثم لقى جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل حتى حمل عليهم على وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا، فتفرقوا وانهزموا فكف عن طلبهم ، ثم دعاهم إلى الاسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام ، ثم قفل فوافى النبى صلى الله عليه وسلم بمكة قد قدمها للحج سنة عشر .

فظاهر جدا من سياق هذه الروايات أن القصة أكثر من واحدة ولكن العقدة فيها هى التاريخ الذى يذكر جميع الرواة أن البعث كان فيه، فالإجماع منعقد من المؤرخين على أن بعث خالد إلى بنى الحارث كان فيما بين ربيع الأول وجمادى الأولى من السنة العاشرة ،

والروايات التي تذكر بعث علي إلى أهل اليمن معقباً لخالد ورجوع خالد بمن معه تجعله في رمضان من سنة عشر ، فالسنة موضع اتفاق عند الجميع ، وحديث البراء المتقدم يقول : إن خالداً مكث ستة أشهر يدعو القوم فلا يجيبه أحد ، وهذه الستة أشهر هي المدة من ربيع الأول إلى رمضان ، وذلك يحتم أن القصة واحدة في بعث واحد ، وهو ما تقضي ببعده تفاصيل الروايات .

وإذا صح أن يكون للحدس والتخمين موضع في هذا المقام فأقرب ما يتجه إليه الباحث أن يكون قد وقع خطأ في تاريخ البعثين أو أحدهما ، ولعل الأشبه أن يكون بعث خالد إلى بني الحارث كان في أخريات سنة تسع فجعل في أوائل سنة عشر تأثراً بالبعث الثاني الذي كان فيها ، وقد كان إلى الجهة التي كان إليها البعث الأول مع اختلاف القوم المدعوين في البعثين ، وكان خالداً أميراً فيه كما كان في البعث الأول ، فمن السهل جداً وقوع الاشتباه والغلط في تاريخ البعثين أو أحدهما .

وقد ثبت في الصحيح قدوم علي بن أبي طالب من اليمن إلى مكة حيث لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجته فأهل بما أهل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكون بعث علي إلى اليمن في السنة العاشرة مما لا اشتباه فيه .

ومهما يكن من شيء فإن رواية بعث علي إلى همدان وإسلامها على يديه لا تدفع بعث خالد إلى بني الحارث واستجابتهم له وإسلامهم على يديه ، وإقامته فيهم معلماً لهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

الفصل السابع

خالد
في حروب الردّة

حال الناس بعد وفاة رسول الله ــ شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه ــ أين رأى خالد ــ توجيه خالد إلى طليحة الأسدى ــ وصية أبى بكر لخالد ــ تنبيه وتذكرة ــ خالد وعدى بن حاتم ــ خالد فى وجه طليحة ــ هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام ــ حملة تأديبية ــ سياسة حكيمة .

حال الناس بعد وفاة رسول الله

لم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وفى جزيرة العرب ركن لم يدخله الإسلام ، بل لقد فاضت به على من حولها حتى وقعت دعوته فى أسماعهم ، فأقر الله عين رسوله وأتم نعمته على عباده ، وأكمل للمؤمنين دينهم الذى ارتضاه شريعة لعامة خلقه ، ولكن الناس كانوا بين مؤمن موقن ، ومؤمن مفزع ، وكافر عنيد ، ومنافق مفضوح النفاق ، ومتاوج تتطارحه الأهواء ، يصبح مع هذا ويمسى مع ذاك ، وإذا بالطامة الكبرى تفجأ المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسرى النبأ فادحا مع الأثير فى أرجاء الجزيرة ، وتلقاه الناس فاغرى أفواهم ذهولا وبهرا ، ورفع النفاق رأسه ، وأبدت اليهودية عن ذات نفسها ، وأعربت النصرانية عن كظم غيظها ، وتراجع الجفاة من الأعراب إلى مضاربهم فى أكنان الصحراء ومنازل الجاهلية يقولون لأنفسهم : لو كان نبياً ما مات ، وتنبأ الكذابون والكذابات ، وتجمع الغثاء الى بعضه جسراً يمنع تيار الإسلام أن يندفع إلى مهابط الهداية والرحمة من الأرض .

شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه

وبقيت فيما بين المسجدين طائفة المؤمنين الموقنين بإمامة أفضل مولود بعد النبيين ، ذلك عماد الدين وعلم اليقين ، أول مجدد للإسلام ، الصديق أبو بكر ، سيد المؤمنين ، فنهض بحمل العبء وحده ، ولم يبق رجل فى الإسلام ، الفاروق فمن دونه إلا كانت له فى هذا اليوم كبوة وتردد ، وانفرد الصديق بعزيمة كانت لها بعزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الشعب والطائف وشائج سمت بها عن عزائم البشرية ، فكانت معجزة الخلافة الأولى أصدق آية على معجزة النبوة فى تربية الرجال .

فلما رأى أعلام الإسلام الجد فى الأمر من الصديق انشرحت صدورهم لما شرح الله له صدره من الحق . قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تصف حال الناس وحال الصديق معهم حينما صدعهم الخطب العاصف . لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، وأشرأبت اليهودية والنصرانية ، وعم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم حتى جمعهم الله على أبى بكر ، فلقد نزل بأبى ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها .

وحدث أبو جعفر الطبرى عن عروة بن الزبير قال : لما بويع أبو بكر رضى الله عنه

وجمع الأنصار فى الأمر الذى افترقوا فيه فقال : ليتم بعث أسامة . وقد ارتدت العرب إما عامة وإما خاصة فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقلتهم وكثرة عدوهم ، فقال له الناس : إن هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى ، قد انتقضت بك ، فليس ينبغى لك أن تفرق جماعة المسلمين ، فقال أبو بكر : والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تتخطفنى لأنفذت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته .

أشفق المسلمون أشد الإشفاق على أنفسهم ودينهم من هذا الحادث الخطير ، وودوا بجدع الأنف لو أنهم هادنوا الناس فهادنهم الناس ، وأعربوا عن خوالجهم وإشفاقهم أن تجتاحهم العاصفة إلى إمامهم ، وجادلوه وجادلهم حتى تغلب عزمه على ترددهم ، واجتمعت كلمتهم على أن يأخذوا بحجز الناس عن النار ليردوهم إلى ساحة الإيمان واليقين .

روى صاحب الخميس عن يعقوب بن محمد الزهرى : أن العرب افترقت فى ردتها ، فقالت فرقة : لو كان نبياً مامات ، وقال بعضهم : انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحداً بعده ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ، وقال بعضهم : نؤمن بالله ، ونشهد أن محمداً رسول الله ، ونصلى . ولكن لا نعطيكم أموالنا ، فأبى أبو بكر إلا قتالهم ، وجادل أبو بكر أصحابه فى جهادهم ، وكان من أشدهم عليه عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وقالوا له : احبس جيش أسامة بن زيد ، فيكون عمارة وأماناً بالمدينة ، وارفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر فإن هذا الأمر شديد عوره ، ومهلكته من غير وجه ، فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا : قاتل بمن معك ممن ثبت من ارتد ، وقد أصفقت العرب على الارتداد ؛ فهم بين مرتد ، ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك ، قد قدم رجلا وأخر رجلا .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه لما هم بقتال أهل الردة كره ذلك منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله

فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم ؟ فقال له أبو بكر : أليس قد قال : إلا بحقها؟ ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ، ولو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى .

وعند الواقدى أن عمر بن الخطاب قال لأبى بكر : وإنما شحت العرب على أموالها وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئاً ، فلو تركت للناس صدقة هذه السنة ، وتألفت قلوبهم ورفقت بهم ! !

فقال له أبو بكر : أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ قد انقطع الوحى ، وتم الدين أينقص وأنا حى ؟ ! !

وقد طمع قوم من جفاة الأعراب ، وشيوخ أهل البادية ممن لم يخالط الإيمان قلوبهم فى استغلال هذا الاضطراب استغلالا ماديا ، وظنوها فرصة قد أمكنت نهزها ، فلا يريدون أن تفلت منهم .

روى أن عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، قدما على أبى بكر فى رجال من رءوس العرب ، فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا : إنه قد ارتد عامة من وراءنا عن الإسلام ، وليس فى أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن تجعلوا لنا جعلا نرجع فنكفيكم من وراءنا . فدخل المهاجرون والأنصار على أبى بكر فعرضوا عليه الذى عرضوه عليهم ، وقالوا : نرى أن تطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من وراءها حتى يرجع إليك أسامة وجيشه، ويشتد أمرك ، فإنا اليوم قليل فى كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب .

قال أبو بكر : هل ترون غير ذلك ؟ !! قالوا : لا ؟ قال أبو بكر : قد علمتم أنه كان من عهد رسول الله إليكم المشورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ، ولا نزل به الكتاب عليكم ، وإن الله لن يجمعكم على ضلالة ، وإنى أشير عليكم ، وإنما أنا رجل منكم ، تنظرون فيما أشرته عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجمعون على أرشد ذلك ، فإن الله يوفقكم أما أنا فأرى أن نشد إلى عدونا ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وأن لا ترشوا على الإسلام أحداً ، وأن تتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فنجاهد عدوه كما جاهدهم

والله لو منعونى عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه، فأتمروا يرشدكم الله فهذا رأى ، فقالوا : أنت أفضلنا رأيا ورأينا لرأيك تبع . قال عمر بن الخطاب : فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق ! !

سبحان الله ! ! رجل من الناس يقف وحده فى جانب والناس أجمعون فى جانب، يقفون منه موقف المخالف ، قلة منهم تواليه ، وتؤمن بما يؤمن به ، ولكنها تثبطه وتخذل عنه ، ويحجزها الفزع عن مجاراته ؛ وكثرة غامرة تناصبه العداء ، وتتربص به الدوائر، وتتأهب لاجتياحه وسحق عصابته .

فما هذا الذى أغرى الصديق أبا بكر بهذا الموقف الفذ فى تاريخ الحياة ؟ إنه الإيمان ، ولا شىء غير الإيمان ، هو الإيمان وحده الذى هون على الصديق أمر الحياة بأسرها فى سبيل عقيدته يقول ضرار بن الأزور — وكان فيمن وفد على أبى بكر بأخبار الردة — : فما رأيت أحداً ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم أملأ بحرب شعواء من أبى بكر ، فجعلنا نخبره ، ولكأنما نخبره بماله ولا عليه .

ذلك طرز من العزائم ، وفن من الإيمان ، ولون من رسوخ العقيدة فوق متناول الآحاد من البشر ، فلا يصلح أن نطلب إلى الناس أن يأتوا بمثله ، إلا بضرب من التحدى؛ لأنه فى سلك الإعجاز منظوم ؛ ولكننا نعرضه للتأسى ، وليس من شرط الأسوة أن تجىء صورتها الحاكية على أتم ما كان للصورة المحكية من خطوط وألوان ، وحسبها أن يكون لها منها ما يكون للولد من طبائع أصوله فى وراثة المشخصات .

الإيمان نفحة من نفحات الأرواح ، فهو أوحى سريانا ، وأقوى صهراً لصدأ القلوب ، وسرع ما سرى إلى قلوب المؤمنين قبس من إيمان الصديق ؛ فتحولت أنفسهم إلى أرواح صديقية تفدى العقيدة بالحياة ، وبحق ما قال الفاروق عمر بن الخطاب : والله لقد رجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة جميعا .

* * *

كان النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما قضى حجة الوداع « التمام » ورجع إلى المدينة

فى المحرم من سنة إحدى عشرة ، قد ضرب بعث أسامة بن زيد ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء حيث قتل أبوه زيد بن حارثة فى غزوة مؤتة ، وأوعب مع أسامة أكثر المهاجرين والأنصار ومن كان حول المدينة من القبائل، وخرجوا فعسكروا بالجرف، وثقل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واشتد به المرض ، فلم يلبث أن توفى ، فوقف أسامة بالناس ، وكان فى جنده عمر بن الخطاب ، فقال له أسامة : ارجع إلى خليفة رسول الله فاستأذنه ، يأذن لى أن أرجع بالناس ، فإن معى وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله ، وثقل رسول الله ، وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . وقالت الأنصار فإن أبى إلا أن نمضى فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة ؛ فقال أبو بكر : لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال عمر : فإن الأنصار أمرونى أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سناً من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر ، فقال له : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ؛ استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأمرنى أن أنزعه ؟ ! فخرج عمر إلى الناس فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال لهم : امضوا ثكلتكم أمهاتكم ؛ ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله ؟ ! !

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فاشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة . حتى إذا انتهى قال : إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل فأذن له .

* * *

وسار أسامة بجيشه وخلف وراءه المدينة عاصمة الإسلام ، وليس فيها إلا العدد القليل من أهل القتال وحملة السلاح ؛ والعرب قد أصفقت كلها على الارتداد وحرب المسلمين يريدون استئصالهم ، وزاد فى البلاء ما كان من استغلاظ أمر مسيلمة الحنفى وطليحة الأسدى ، وما كان تقدمهما من أمر الأسود العنسى ؛ وجاءت رسل المسلمين ووفودهم

من أنحاء الجزيرة العربية فدفعوا إلى أبى بكر بالكتب وأخبروه خبر الناس ، فقال لهم أبو بكر : لا تبرحوا حتى يجىء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمر ، وانتقاض الأمور ، فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبى صلى الله عليه وسلم من كل مكان بانتقاض عامة أو خاصة ، وتبسطهم بأنواع المثل على المسلمين ، فحاربهم أبو بكر بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حاربهم بالرسل فرد رسلهم بأمره : واتبع الرسل رسلا ، وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة .

فلما قدم أسامة استخلفه أبو بكر على المدينة ، وقال له ولجنده : أريحوا وأريحوا ظهركم . ثم خرج فى الذين خرجوا إلى ذى القصة والذين كانوا من الصحابة على أنقاب المدينة يحمونها ، فقال له المسلمون : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك ؛ فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلا فإن أصيب أمرت آخر ؛ فقال : لا ، والله ، لا أفعل ، ولأواسينكم بنفسى ! فخرج فى تعبيته إلى ذى حسى وذى القصة حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فاقتتلوا فهزم الله عبسا وذبيان ، وفى ذلك يقول زياد بن حنظلة :

ويوم بالأبارق قد شهدنا على ذبيان يلتهب التهابا
أتيناهم بداهية نسوف مع الصديق إذ ترك العتابا

وإذا دلت هذه الروايات كلها على شجاعة الصديق وعزيمته فإن فيها وجها من الدلالة على خصيصة عقلية بارعة ، تبرجت فى هذا اللون من السياسة الحكيمة التى أخذ بها أبو بكر الناس .

فصارم عزيمته مع المسلمين فى مطلع العاصفة هو الذى جمع إليه كلمتهم ؛ وتسييره جيش أسامة ، وفيه وجوه الناس وحدهم هو الذى أرعب قلوب المرتدين ، وجعلهم يظنون بقوة المسلمين ، وهو الذى صورها فى أفئدتهم بصورة عظيمة ، وتقديره لخطر المرتدين ودواهم خطبهم هو الذى جعله على بينة من أمره ، فأعد للعظائم أقرانها من الدهى والسياسة والحرب والقتال ، وخروجه بنفسه فى قلة من معه من المسلمين إلى لقاء من حدثتهم أنفسهم ممن كانوا قريبين من المدينة من القبائل المرتدة بمهاجمتها هو الذى بعج عزيمة المتربصين وراء هذه القبائل فأخافهم ووقف بهم عند شطط الحيرة والاضطراب ؛ وتدبيره

المحكم مع من بعدت دارهم من المرتدين ، وأخذه إياهم بمتابعة الرسل هو الذى أفسح له المجال حتى عاد إليه جيش أسامة أسلم ما يكون جيش ، فاستطاع أن يسدد ضربته القاصمة إلى عدوه وهو آمن الظهر مطمئن الفيئة .

أين رأى خالد ..

لم نعرف لخالد رأيا فى هذه المقاولات التى وقعت بين أبى بكر الصديق وسائر المسلمين فى شأن المرتدين ، ولم نسمع له صوتا نعلم به أنه كان فى أى جانب من جانبى هذا الاختلاف فما سبب ذلك ؟ وخالد بن الوليد ليس بالرجل المغمور الذى ينكر أو يخفى مكانه ورأيه فى أعظم حادث فاجأ المسلمين بعد وفاة نبيهم ؟ !

لعلنا نستطيع أن نجد السبب فى شخصية خالد وخلائقه وخصائصه ، فهو رجل حرب ، وقائد جحفل ، وفارس ميدان ، وبطل جلاد ؛ وفى لسان العصر : رجل عسكرى ؛ والعسكريون أبعد ما يكونون عن السياسة ودهيها ؟ أو ينبغى أن يكونوا كذلك ، لأن العسكرى ينتهى إليه التنفيذ ، فلو أنه كان رجل سياسة تتجاذبه الآراء وتتقارضه المذاهب ، وتتداوله الأحزاب لم يصلح أن يكون أداة متماسكة لتنفيذ ما تنتهى إليه السياسة من رأى يختلف مع رأيه ومذهب شيعته وحزبه .

والرجل العسكرى فى طبيعته وتربيته صاحب فكرة واحدة ، ولا يرى لتنفيذها إلا طريقاً واحداً ، والرجل السياسى صاحب فكر كثيرة فى الموضوع الواحد ، وله طرائق متعددة يرى أن يسلكها لتحقيق أهدافه ؛ ونعنى أن الرجل العسكرى ينظر إلى الحياة من جانب واحد ، هو القوة الميدانية ، أما الرجل السياسى فإنه ينظر إلى الحياة من جوانب متعددة ليس غفلا منها القوة المادية ؛ ولكنها عنده ليست أهمها ولا أولاها .

وخالد بن الوليد فى هذا المقام كغيره من العسكريين أبطال الحروب الذين يقفون عند الشدائد وراء رجال الشورى وذوى الرأى من رجالات الدولة متأهبين ، ينتظرون الأمر بامتشاق الحسام ليحكم بين الناس ، والسياسة التى نعنيها هنا ليس منها سياسة تدبير الحرب وإدارة المعارك ، لأن هذه لا تخرج بالرجل العسكرى عن نظرته للحياة .

وهناك أمر آخر قد يمت إلى الطبيعة العسكرية بصلة ، ولكنه فى خالد بن الوليد يتميز أشد التميز حتى يظن أنه من خصائصه ، ذلك أن خالداً — فيما عرفنا من طبيعته —

رجل شديد التمسك برأيه إلى حد التعصب ، لا يرى أن يرجع إلى رأى غيره ، ولعل مرد ذلك عنده هو خلق الصرامة الحربية ، والغلو فى الاعتداد بالنفس فى غير عناد ولا مكابرة ، ولكن عن اقتناع وإيمان ، وليس من الحتم أن يكون الاقتناع والإيمان بالرأى بعيدين عن الخطأ مبرأين عن مجانبة الحق والصواب ، ولكنهما على كل حال بعيدان بصاحبهما عن متابعة الهوى والخضوع لشهوات النفس، وقد يكون ذلك — فى قائد لم تشذبه نزعة روحية غلابة — من قبيل الغرور والتعالى والادلال على الناس بما تميز به من الخصائص والصفات .

وإذا كنا لم نعرف لخالد رأياولم نسمع له صوتا فى مشاورات الردة، فإنه لينقدح فى حدسنا أن خالداً كان أميل إلى رأى الخليفة فى أخذ الناس بالحزامة وشدة البأس، ولذلك كان خالد أول قائد عقد له أبو بكر الصديق لواء الإمارة العامة وأوعب معه الناس ، وأمره بالمسير إلى عدوه ، وأظهر أنه ملاقيه على كتيبته ليرهب بخروجه ويعرف الناس الجد فى الأمر .

روى الطبرى عن طريق ابن الكلبى: أن أبا بكر لما رجع إليه أسامة ومن كان معه من الجيش جد فى حرب أهل الردة ، وخرج بالناس وهو فيهم حتى نزل بذى القصة منزلا من المدينة على بريد من نحو نجد ، فعبى هنالك جنوده، ثم بعث خالد بن الوليد على الناس ، وجعل ثابت بن قيس على الأنصار وأمره إلى خالد ، وأمره أن يصمد لطليحة وعيينة بن حصن وهما على بزاخة — ماء من مياه بنى أسد — وأظهر أنى ألاقيك بمن معى من نحو خيبر مكيدة » وقد أوعب مع خالد الناس ، ولكنه أراد أن يبلغ ذلك عدوه فيرعبهم .

وقال صاحب الخميس: ولما كان من العرب ما كان من التوائهم على الدين ومنع من منع منهم الصدقة جد بأبى بكر الجد فى قتالهم، وأراه الله رشده فيهم، وعزم على الخروج بنفسه إليهم، وأمر الناس بالجهاد ، وخرج هو فى المهاجرين والأنصار، وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بقعاء، وهو ذو القصة ، يريد أبو بكر أن يتلاحق الناس من خلفه ، ويكون أسرع لخروجهم ووكل بالناس محمد بن مسلمة يستحثهم فانتهى إلى ذى القصة عند غروب الشمس، وصلى بها المغرب، وأمر بنار عظيمة فأوقدت، وأقبل خارجة بن حذيفة الفزارى

فى خيل قومه يريد المدينة للإغارة عليها ، فلقيه أبو بكر فيمن معه من المسلمين. فانكشف خارجة فى فلال المرتدين من قومه وولوا منهزمين ، فقويت بذلك شوكة المسلمين وشجعت قلوبهم وتحلبوا إلى الصديق وهو مقيم لهم حتى تكاملت منهم حشود عظيمة ، وهو يظهر أنه سيقود هذه الحشود بنفسه .

رأى المسلمون عزمة الصديق فانفعلت لها نفوسهم وعزموا عليه أن لا يخرج بنفسه وأن يرجع حتى يكون للناس فيئة وردءا، فلما كثروا عليه وأطمأن إلى صوارم عزماتهم أراد أن يستخلف على الناس ، فنثر بين يديه كنانة أبطال الإسلام لينظر أصلبها عوداً فيرمى به فى أول وجه، فدعا زيد بن الخطاب فعرض عليه إمارة الجيش ، فقال له زيد: ياخليفة رسول الله، كنت أرجو الشهادة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أرزقها ، وأنا أرجو أن أرزقها فى هذا الوجه، وإن أمير الجيش لا ينبغى أن يباشر القتال بنفسه !! فتركه أبو بكر إلى نيته وما يرجو لنفسه من الخير ، ودعا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة فعرضها عليه فاعتذر بما اعتذر به زيد بن الخطاب ، ثم دعا سالماً مولى أبى حذيفة فأبى عليـه .

كأن الله تعالى أدخر هذا المقام لسيفه بطل الإسلام القائد العبقرى ، حليف الحروب وصنديدها ، وربيب الجلاد ، ورضيع الجهاد أبى سليمان خالد بن الوليد ، فالتفت إليه أبو بكر وهو أعلم بيمن نقيبته وطالع سعده ومكانه من سياسة الحرب ، فدعاه فلبى ، وأمره على الجيش فأطاع، وأعلن فى الناس ذلك وقال لهم: سيروا على اسم الله وبركته فأميركم خالد بن الوليد ، فاسمعوا له وأطيعوا .

ثم خلا بخالد فقال له : ياخالد عليك بتقوى الله ، وإيثاره على سواه ، والجهاد فى سبيله ، فقد وليتك على من ترى من أهل بدر من المهاجرين والأنصار .

* * *

توجيه خالد إلى طليحة الأسدى

كان طليحة بن خويلد الأسدى ممن تكذب فادعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم والتف حوله جمع من طغام قومه وسفهائهم ، فوجه إليه النبى صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور، وأمره بالقيام مع من استطاع من المسلمين على كل من ارتد، فأشجوا طليحة وأخافوه ، وهم ضرار به حتى كاد أن يأخذه ، ولم يلبث رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن توفى ، فاستطار أمر طليحة ، واستشرى شره ، وعظمت على الناس فتنته ، وتفاقم خطبه،وكان رجلا فارسا شجاعا وداهية منطيقاً ، فوجه إليه أبو بكر رضى الله عنه أول جيش فى حروب الردة بعد إيقاعه بعبس وذبيان ، بقيادة البطل المظفر خالد ابن الوليد،وعهد إليه إذا فرغ من طليحة سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له ثم خلا أبو بكر بخالد وألقى إليه وصيته الخالدة فقال :

وصية أبى بكر لخالد

« ياخالد عليك بتقوى الله تعالى وإيثاره على من سواه ، والجهاد فى سبيله والرفق بمن معك من رعيتك،فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً عن الحملة ، فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر فى صحابك على تعبية جيدة وأحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولاتقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن فى العرب غرة ؛ وأقلل من الكلام ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وإذا أتيت داراً فأقمهم ، فإن سمعت أذانا أو رأيت مصلياً فأمسك حتى تسألهم عن الذى نقموا ومنعوا الصدقة ،فإن لم تسمع أذانا ولم تر مصلياً شن الغارة فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس:شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع ، وإذا لقيت أسدا ،وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا لك ولا عليك ، متربص دائرة السوء ، ينظر لمن تكون الدبرة ، فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة فاستعن بالله على قتالهم،فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم،فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة ، سر على بركة الله »

تنبيه وتذكير

يستوقف نظر الباحث فى هذه الوصية أمور جديرة بالتمييز والتسجيل ، فالخليفة الأول يأمر قائده بالرفق بمن معه من جنده ورعيته ، لأنهم من أهل السابقة فى الجهاد ، وذوى السوابق فى الذود عن حياض الدين وحمايته ، والرفق بالرعية دستور الحكمة السامية فى سياسة الجند ،والعروة الوثقى بين الراعى والرعية يربط قلوبهم بقلبه،وتصل

ألبابهم بلبه ، وتمد أبصارهم إلى موقع بصره ، وتنيط طاعتهم بإشارته ، وإقدامهم بأمره .

والخليفة الأول يأمر قائده بمشاورة من معه من أهل الرأى فى جيشه عند الملمات والمشاورة دستور الإسلام، وقاعدة نظام الحكم فى دولته ، أمر بها القرآن الكريم ، وعمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أغنى الناس عنها ، لوكان لبشر عن الشورى غناء ، واستن بها الخلفاء الراشدون من بعده ، وهى بعد طويل الزمن وكثرة التجارب أعلى مطامح الأمم الراقية ، ولو أن المسلمين حرصوا عليها لما أصابهم هذا التفرق والانحلال .

والخليفة الأول يحذر أمير جيوشه إذا دخل أرض العدو مهاجماً أن يواجه حملة جحفله وعنفوان قوته . لأنه يخشى عليه صدمة الجولة ، وجولة الدفاع بقوى متجمعة متأهبة أشد وطأة وأقوى اندفاعا ، وأصلب قناة من هجمة المهاجم ، وهذا إرشاد إلى تعرف مواطن الضعف فى قوى العدو لأخذه من جوانبها ، وذلك ما يتبارى فى ميدانه قادة الجيوش منذ أقدم الأزمان ، وقد أصبح من أعظم مظاهر العبقرية فى سياسة الحروب الحديثة .

والخليفة الأول يأمر قائده أن يستظهر بالزاد،ويسير بالأدلاء ، يقدم أمامه الطلائع لترتاد له المنازل،وفى ذلك تنبيه إلى قيمة الاستعداد فى تموين الجيوش، وتوفير حاجاتها حتى لا يشغل الجندى بأمر نفسه عن واجبه الحربى وموقفه من القتال ، وقد عرفت الحروب الحديثة،وهى أشد تعقيداً فى طرائقها من الحروب القديمة،أن تموين الجيوش وتوفير أغذيتها وذخيرتها وأسلحتها أهم أسباب النصر والظفر على الأعداء .

أما السير بالأدلاء وتقديم الطلائع ، فهذا ما تسميه أساليب الحرب الحديثة طلائع الاستكشاف ، وهو أمر من أعظم فنون الحرب ، وعلى أساسه ترسم الخطط هجوما ودفاعا،وفى صحائف الحربين العالميتين ما يقفنا على القيمة العظيمة لهذا الزمن عند قادة الجيوش ويرينا كيف كانت العبقريات الإسلامية تدير دفة الحياة فى الحرب والسلم بأفكار لا تعرف حواجز الزمان والمكان .

والخليفة الأول يأمر قائده أن يسير إلى عدوه فى تعبئة جيدة ومرد ذلك إلى حذق القائد وحزمه ومهارته فى إدارة دفة المعارك ووضع كل فرقة فى موضعها ، وترافق الأسلحه وتعاونها ، ونظام الكتائب والفرق ، وقيام كل كتيبة وفرقة بواجبها ، فلا تتعداه إلى ماهو من خصائص غيرها ، وارتباط طبقات الجيش بجعلها وحدة فى دفاعها وهجومها .

وفى قول أبى بكر الصديق لقائده البطل العبقرى فى هذه الوصية « واحرص على الموت توهب لك الحياة » إرشاد إلى أعظم مبادىء الفدائية الصادقة فى سبيل العقيدة الإيمانية التى يجب أن يربى على غرارها الجندى حتى لا يعترضه الجبن المذل، ولا يقعد به الفزع عن الإقدام ، ولا يرده التشبث بالعيش عن الاقتحام ، ولا يرعد فرائصه الفرق فيتقدم وهو ثابت الجأش رابط الجنان .

ويقول الخليفة الأول لقائده البطل : ولاتقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، وفى ذلك تنبيه على العناية بالجرحى، فلا يقحمون فى المعارك وهم يألمون من جراحهم، لأنهم حينئذ يكونون وزراً ثقيلا على المقاتلة ، ومشغلة للقيادة عن التفكير فى متابعة الخطط وتنفيذها ، وعقبة فى سبيل الإقدام والاقتحام ، ولا يخلو قول الصديق من لفتة إلى ما يجب أن يكون فى أوائل معدات الجيوش من المشافى الحربية المتنقلة تبعاً لحركات الكتائب، وفى قول الصديق لخالد رضى الله عنهما: واحترس من البيات فإن فى العرب غرة، تحريش على اليقظة الواعية ، وتأكيد للعناية بنظام الحراسة الدقيقة حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة تحت جنح الظلام ومناقصة الغفلة ، ولقد كان خالد لاينام ولا ينيم ؟ ذاكى العيون ، يقظ الحراسة ، نهازا للفرص ؛ لا تفلت منه نهزة إذا سنحت

وفى قوله: وأقلل من الكلام؛ إشارة إلى ما يجب أن يتحلى به القادة والزعماء وولاة الأمر وأصحاب السلطان من حبس ألسنتهم عن الثرثرة والتكثر من الحديث تحرزا من سقطة قد تكشف سراً من أسرار الدولة أو خطة من خطط الحرب مما يؤدى إلى ضياع فرصة كان فى انتهازها مصلحة للأمة ، أو ظفر فى موقعة ، أو يؤدى إلى إنزال نكبة بالجيش أو الدولة .

وليس أخطر على الأمم ، ولا أفتك بالجيوش من ثرثرة القادة والزعماء وانطلاق ألسنتهم ، وإذا عيبت الثرثرة على عامة القادة فهى فى قادة الجيوش ورجال العسكرية أخطر وأفدح .

وفى قوله له : وأقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله فى سريرتهم ، وضع لأساس العلاقة التى يجب أن تكون بين ولاة الأمور وذوى السلطان من الحاكمين وبين رعيتهم من عامة الناس وخاصتهم، ممن استرعاهم الله مصالحهم وولاهم سياسة أمورهم وإصلاح شئونهم ، وتأمين تصرفاتهم فى دائرة العدالة والتراحم .

ونصيحة الصديق ترمى إلى أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ولا سيما علاقة القائد الحربى بجنود جحافله لا تتعدى ما يظهر من صفحات الناس فى أقوالهم وأفعالهم ؛ لأن المقصود الأهم من نظم الحكم وتولية القادة إنما هو إصلاح حال الأمة ، وتأمين حقوق الأفراد والجماعات ، ومنع التعالب الذى ينتهى إلى ابتزاز الأقوياء الضعفى ، وإضعاف ثقة الرعية والجند فى الولاة والقادة مما يشيع فى الأمة الاضطراب والفوضى ، وينشر فيها الأفكار الخطرة الهادمة .

وليس بالوالى والقائد حاجة إلى أن يفحص عن قلوب الناس ليكشف ما بها من خير أو شر ، وإنما به أشد الحاجة إلى أن يرقب ببصر نافذ وبصيرة نيرة أعمال الأمة ومن تولى أمرهم من الجند ليجزى من أحسن ويزجر من أساء .

وقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم دهره يسوس أمته ، وأهل النفاق منبثون فى غمار المؤمنين، فلم يكشف صفحة أفئدتهم ولا نبش قلوبهم ، بل كان يذود عنهم من يريد ذلك بهم حتى فضحهم الله وكشف سوآتهم بنعوتهم العامة وأوصافهم الشائعة ، ولم يذكر أحداً منهم باسمه ولا عينه بشخصه ، تربية للأمة على عدم إشاعة سوء الظنة فيما بين أفرادها وجماعاتها ، مما يقود إلى بلبلة الأفكار واضطراب الحياة الاجتماعية فيها .

وفيما ختم به الصديق وصيته للقائد العبقرى من الحديث عن قبائل العرب وموقفهم من الإسلام ، وتبيين شأن أسد وغطفان وأهل اليمامة ما يدل على إحاطة الخليفة الأول علما بشأن الناس ، وأنه بتوجيه خالد إليهم ، وهم على ما وصف ، قد رماهم بالصماء التى لا تنطق بإقالة عثرة ، ووجه إليهم بقائد جمع بين أطراف الكفاية السياسية والحربية

فرد رسن المترددين المتربصين إلى كاهل الإسلام ، وفتك بجموع الطغاة المعاندين .

* * *

خالد وعدى ابن حاتم

وعى بطل الإسلام خالد وصاة إمامه الأعظم ، فسار إلى عدوه بجيشه ، يقدمه حزم جليد ، وصيت فى الحروب تفزع له قلوب الصناديد ، وكان أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — فيما رسم له من خطة سيره : أمره أن يبدأ بطيء على أكناف جبليهم سلمى وأجأ ، ثم يكون وجهه إلى البزاخة ليلقى طليحة وألفافه ، ثم يسير إلى مالك بن نويرة بالبطاح ، وكان طليحة بعد أن أرزت إليه عبس وذبيان أرسل إلى طيء غوثها وجديلتها يطلب إليهم أن ينضموا إليه ، فتعجل إليه ناس من الحيين ، فكانوا فى ألفافه ، وحرضوا سائرهم على اللحاق بهم ؛ فلما خرج خالد على تعبيته ازوار عن البزاخة وجنح إلى أجأ ، فقعد ذلك سائر طيء ، وبطأهم عن اللحاق بإخوتهم الذين انضموا إلى طليحة ، وكان فى جيش خالد أبو طريف عدى بن حاتم ، فتقدم إلى قومه يفتلهم فى الذروة والغارب حتى أجابوه ، فكان معه من غوثهم ألف رجل ممن يحمل السلاح ، وكانت بقية جديلة قد همت أن تلوى أعناقها فقام فيهم مكيث بن زيد الخير — وكان رجل صدق وديانة — فقال لهم : أتريدون أن تكونوا سبة على قومكم ؟ لم يرجع رجل واحد من طيء ، وهذا أبو طريف عدى بن حاتم معه ألف رجل من طيء فكسرهم ؛ ولما نهزهم يتقدموا إلى صفوف المسلمين حتى لقيهم عدى ؛ فإن خالداً رضى الله عنه أراد أن يبدأ بقتالهم لما بلغه خبرهم ، فقال لعدى : يا أبا طريف ألا نسير إلى جديلة ؟ ! فقال عدى : يا أبا سليمان « لا تفعل » أقاتل معك بيدين أحب إليك أم بيد واحدة ؟ قال : بل بيدين ، قال عدى : فإن جديلة إحدى يدى ! فكف عنهم خالد ، فأتاهم عدى فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا فحمد الله وسار بهم إلى خالد وهم فى أهبة الحرب ، فلما رآهم خالد على عدتهم فزع منهم وظن أنهم جاءوا لحربه ، فصاح فى أصحاب السلاح ، فقيل له : إنما هى جديلة أتت تقاتل معك ! ! ففرح بهم خالد ورحب ، واعتذروا إليه من الهزيمة ، وقالوا : نحن لك حيث أحببت ، فضمهم خالد إلى جيشه وعقد لواء طيء كلها غوثها وجديلتها لأبى طريف عدى بن حاتم الذى كان أيمن مولود وخيره فى أرض طيء وأعظمه عليها بركة ، وقد فرح المسلمون به وبقومه فرحا شديداً فقال شاعرهم :

جزى الله عنا طيئاً فى بلادها ومعترك الأبطال خير جزاء

هم أهل رايات السماحة والندى إذا ما الصبا ألوت بكل خباء

هم ضربوا بعاعلى الدين بعدما أجابوا منادى فتنة وعماء

خالد فى وجه طليحة

تقدم خالد بجيوش الإسلام إلى البزاخة وهو ماء لبنى أسد حتى كان قريباً منه ، وكان طليحة قد نزل فى جموعه من المرتدين على ماء آخر لهم يقال له الغمر ، وتراءى الجيشان ، فقال عدى بن حاتم لخالد بن الوليد : يا أبا سليمان : اجعل قومى مقدمة أصحابك ، فقال له خالد : يا أبا طريف إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك فإذا لحمهم القتال انكشفوا فانكشف من معنا ، ولكن دعنى أقدم قوماً صبراً لهم سوابق وثبات ، وهم من قومك (يريد المهاجرين والأنصار) فقال عدى : الرأى ما رأيت.

وهذه نظرة ثاقبة من نظرات أبى سليمان خالد بن الوليد فى سياسة الحرب وإدارة دفة الوقائع والعلم بأحوال الرجال وشأن الجند فى حومة الوغى ، ومنزلة أهل العقائد والإيمان فى الإقدام والحرص على الموت استشهاداً فى سبيل الله .

انتهى المسلمون إلى معسكر طليحة وهو فى قبة من أدم ضربت له ، يسجع لأصحابه ويتكهن لهم فدعاه خالد إلى الإسلام تنفيذاً لعهد الخليفة وعملا بسنة الإسلام ، فأبى طليحة وأعرض اغتراراً بكثافة من معه من الحشود ، فانصرف عنه خالد إلى معسكره ، وبات يدبر أمره ويشاور أركان حربه ويعبىء جيشه ، فلما كان السحر دفع باللواء الأعظم إلى زيد بن الخطاب ، وعقد لواء الأنصار لثابت بن قيس بن شماس ، ودنا الناس بعضهم لبعض ، وخرج طليحة فى كتيبة خاصة ، قوامها أربعون غلاما جلداً أقامهم فى الميمنة وقال لهم : اضربوا حتى تأتوا الميسرة فتضعضع الناس ولم يقتل أحد منهم ، ثم أقامهم فى الميسرة ففعلوا مثل صنيعهم الأول فانكشف المسلمون ، فصاح خالد : يامعشر الأنصار ، الله ، الله ، واقتحموا غمار المعركة وتراجع إليه الأنصار ، وتبعهم سائر الناس فاختلطت الصفوف واختلفت فيما بين الناس السيوف ، وضرس خالد فى القتال فجعل يقحم فرسه ، ويقولون له : الله ، الله ! فإنك أمير القوم ، ولا ينبغى لك أن تقدم ، فيقول خالد : والله إنى لأعرف ما تقولون ، ولكنى ما رأيتنى أصبر وأخاف هزيمة المسلمين .

نعم إن خالداً رضى الله عنه أمير القوم ، ولا ينبغى لأمير القوم أن يباشر القتال بنفسه ، ولكن إمارة خالد بن الوليد فى الحرب طرز فريد ، لأنه بطل قبل أن يكون أميراً ، وجندى قبل أن يصير قائداً ، فأنى له الصبر عن الاقتحام وقد حمى الوطيس والمسلمون ينكشفون ؟

روى السكابي عن بعض الطائيين : أن طليحة لما حمل على الناس فى كتيبته الخاصة نادى منادى الناس : يا خالد : عليك سلمى وأجأ ؛ فأجابه خالد : بل إلى الله الملجأ ، ثم حمل خالد فوالله مارجع حتى لم يبق من أولئك الأربعين رجل واحد ، وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما .

يريد الناس من خالد أن يتحصن فى ساعة العسرة بالجبال وهو يرى أن يتحصن بالله تعالى خالق الجبال ، وإذا لم يكن قواد الجيوش على مثل هذه الثقة ورسوخ الإيمان والشجاعة فى لحظات الشدائد التى لا ينفع فيها التحوز والاحتماء بالحصون والقلاع فليس لهم إلى النصر من سبيل .

هذه حقيقة من حقائق الحرب يعلمها خالد بن الوليد علم اليقين وعليها عاهده إمامه الأعظم والخليفة الأول أبو بكر الصديق فى قوله : واحرص على الموت توهب لك الحياة ، فلم يستطع خالد — وقد قبل هذا العهد الفدائى — أن يصبر وهو يرى المسلمين تضعضعهم أسياف أعدائهم ، وهو واقف ينظر إليهم لأنه أمير ؛ أف لهذه الإمارة التى تحجز سيف الله وبطل الإسلام أن يواسى المسلمين ساعة المحنة بنفسه ! ! وليس من شك فى أن شجاعة خالد فى اقتحامه ومخاطرته هى التى كان لها فضل فى تثبيت المسلمين وعطفتهم على أعدائهم حتى أنزل الله عليهم نصره .

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما — وكان فى جند خالد — نظرت إلى راية طليحة يومئذ حمراء يحملها رجل لا يزول بها فترا ، فنظرت إلى خالد أتاه فحمل عليه فقتله فكانت هزيمتهم ، فنظرت إلى الراية تطؤها الخيل والإبل والرجال حتى تقطعت ، ولقد رأيت خالد يوم طليحة يباشر القتال بنفسه حتى ليم فى ذلك ، ولقد رأيته يوم اليمامة يقاتل أشد القتال ، إن كان مكانه ليتقى حتى يطلع إلينا منبهرا .

هكذا كانت بطولة خالد بن الوليد ، وهكذا كانت قيادته لجند الإسلام فى حروبه

الردة ، يصفها جندى من جنوده عرف بصدق المقال ، ودقة الوصف ، وشدة التحرى، فخالد وهو أمير القوم يضرب للناس المثل بنفسه حتى يكون لهم فيه أحسن الأسوة ، فلا يبقى منهم أحد إلا وهو فى نفسه صورة متحركة لذلك المبدأ الفدائى الذى تكيف به قائدهم العظيم ؛ فلقد حرص خالد على الموت فى سبيل الحق والعقيدة ، فحرص كل جندى من جنود الإسلام مثل حرصه ، فوهب الله لهم عز الحياة وكرامتها ، ونصرهم على أعدائهم نصراً مؤزرا .

وقد أدرك أعداء الإسلام هذه الروح القوية فى جند الإسلام ورأوا فيهم حب التضحية واقتحام الموت فى سبيل عقيدتهم ودينهم فرجعوا إلى هذه الروح الفدائية نصرهم وهزيمة المرتدين . روى أن طليحة لما رأى هزيمة أصحابه بعد جولتهم قال لهم : ويلكم ما يهزمكم؟! فقال رجل منهم : أنا أخبرك ! ! إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله، وإنا نلقى أقواما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه .

هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام

ضرس القتال بين جند الإسلام وأصحاب طليحة ، يقود كل جماعة رئيسها ، وكان فيهم عيينة بن حصن الفزارى يقود فزارة ، وكانوا من أشد القوم تراميا على القتال ، يزمرهم عيينة فيقتحمون حتى إذا لحتهم الحرب وذاقوا حر السلاح نظروا إلى قائدهم عيينة، وطليحة متزمل بكسائه ينتظر شيطانه ، فأتاه عيينة فقال له : لا أبا لك ! هل أتاك الوحى بعد ؟ فقال طليحة وهو تحت الكساء : لا ، والله ما جاء بعد . فقال عيينة : تبالك سائر اليوم ! ثم رجع إلى أصحابه يزمرهم على القتال ويحضهم وقد ضجوا من وضع السلاح فيهم فلما طال الأمر على عيينة جاء إلى طليحة وهو مستلق متشح بكسائه فجبذه جبذة جلس منها ، وقال له : قبح الله هذه من نبوة ، ماقيل لك بعد شيء ؟ فقال طليحة قد قيل لى : إن لك رحى كرحاه وأمراً لن تنساه ! ! فقال عيينة : أظن أن قد علم الله أن سيكون لك أمر لن تنساه ؛ يا فزارة هكذا وأشار لقومه تحت الشمس لينصرفوا فانصرفوا ، وقال لهم : هذا والله كذب ما بورك له ولا لنا فيما يطلب . فتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم ، وكان فى الأسرى عيينة قائدهم ، وانكشف عن طليحة شيطانه ، ورأى ما حل بأصحابه من بلاء القتل والأسر ، وهم يصيحون به ماذا ترى ؟ وكان طليحة قد أعد فرسه فوثب عليها وحمل وراءه امرأته النوار ، ثم قال لأصحابه : من استطاع منكم

أن يفعل هكذا فليفعل ، فهرب إلى الشام ، ونزل هناك على بنى كلب وبلده ، مالقيت أسد وغطفان من جنود المسلمين ، ومعاودة العرب للإسلام فأسلم وحسن إسلامه .

ذكر ابن اسحاق أن طليحة لما ولى هاربا تبعه عكاشه بن محصن ، وثابت بن أقرم ، وكان طليحة أعطى الله عهدا أن لا يسأله أحد شيئاً إلا أجابه إليه ، فلما أدبر ناداه عكاشة للنزال فعطف عليه فقتل عكاشه ، ثم أدركه ثابت فقتله أيضاً فاشتد قتلهما على المسلمين .

وذكر الواقدى فى قتل عكاشة وثابت رواية تخالف رواية ابن اسحاق فقال : إن خالد بن الوليد لما دنا من القوم بعث عكاشة وثابتا طليعة أمامه ، وكانا فارسين ، فلقيا طليحة وأخاه مسلمة ابنى خويلد طليعة لمن وراءهما من الناس ، فلما التقوا انفرد طليحة بعكاشة ومسلمة بثابت ، فلم يلبث مسلمة أن أقتل ثابتاً ، وصرخ طليحة بمسلمة : أعنى على الرجل فإنه قاتلى ، فكر معه مسلمة على عكاشه فقتلاه ، ثم رجعا إلى من وراءهم ، وأقبل خالد معه المسلمون ، فلم يرعهم إلا ثابت بن أقرم قتيلا ، تطؤه المطى فعظم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيروا إلا يسيرا حتى وطئوا عكاشة قتيلا ، فثقل القوم على المطى حتى ما تكاد ترفع أخفافها بهم ؛ وأذكى ذلك الحمية فى أنفس المسلمين حين التقوا بأصحاب طليحة ، وأخذوهم قتلا وأسرا ، وصاح خالد فى جنده : لا يطبخن رجل قدراً ولا يسخنن ماء إلا أثفيته رأس رجل !

وقد مر طليحة بعد إسلامه بجنبات المدينة المنورة فى خلافة أبى بكر معتمرا ، ولم ينزل بها حياء من أبى بكر ، فقيل لأبى بكر : هذا طليحة ! ! فقال : ما أصنع به ؟ قد أسلم ، ولما توفى أبو بكر وقام بالأمر من بعده عمر أتاه طليحة فبايعه ، وقال له عمر : أنت قاتل عكاشة وثابت ؟ والله لا أحبك أبدا ، فقال يا أمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بيدى ولم يهنى بأيديهما ؟ وقد كان لطليحة بعد إسلامه مواقف محمودة فى الجهاد ، وكان له فى حرب القادسية قدم صدق ؛ وعرف له عمر بن الخطاب مكانته ورأيه فى الحرب فكتب إلى النعمان بن مقرن أن استعن فى حربك بطليحة وعمرو بن معديكرب ، واستشهد طليحة فى حرب نهاوند .

حملة تأديبية

ولما انتهى خالد رضى الله عنه من بنى أسد وفزارة بهزيمة طليحة سرى الفزع إلى قلوب القبائل العربية الواقفين بالمرصاد ، ينظرون لمن تكون الدبرة ، فلم يلبثوا أن ترامت إليهم مع رياح الصحراء أنباء انتصارات المسلمين ، فقدمت وفودهم على خالد ، وألقوا فى

يده مقود طاعتهم بين راغب فى الإسلام وخائف من السيف ، وكانت بنو عامر متحيرة تقدم رجلا وتؤخر أخرى حتى علموا بما صنع خالد ببنى أسد وفزارة ، فأقبلوا على خالد يبايعونه فقبل منهم ، وأخذ عليهم عهد الله وميثاقه ليؤمنن بالله ورسوله وليقيمن الصلاة وليؤتن الزكاة ويبايعون على ذلك أبناءهم ونساءهم .

وكانت هذه أول وقعة أوقعها خالد بالمرتدين ، فجعل منها وسيلة عاصفة للترهيب والتخويف ، فنكل بهم وبعج طوائفهم وبخع زعماءهم وشرد بهم من خلفهم ومثل بكل من عدا على أهل الإسلام فى ردته ، ولم يدخل فيما دخل فيه الناس من الطاعة وحسن الإسلام فقتلهم كل قتلة ، وحرقهم ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من شواهق الجبال ونكسهم فى الآبار .

استبقى خالد قرة بن هبيرة القشيرى وعيينة بن حصن الفزارى وأرسل بهما إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وكتب إليه كتابا قال فيه : إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ودخلت فى الإسلام بعد تربص وإنى لم أقبل من أحد قاتلنى أو سالمنى شيئا حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين فقتلتهم كل قتلة ، وبعثت إليك بقرة وأصحابه .

قال ابن عباس : فقدم بهما المدينة فى وثاق ، فنظرت إلى عيينة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ينخسه غلمان المدينة بالجريدة ، ويضربونه ويقولون : أى عدو الله ! أكفرت بعد إيمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنت بالله ! وكذلك كان أعرابياً جافياً ، أقام ما أقام فى حياة رسول الله عليه وسلم مجدوع الأنف مقلم الأظفار ، حتى إذا حانت من الشيطان لفتة الردة فاضطرب لها حبل الإسلام ، ومرج عهده ، وماج أهله ، وبغى الغوائل ، ظن عيينة ومن لف لفه من جفاة الأعراب ومنافقى العرب أن قدا كثبت نهزهم ، ولات حين الذى يرجون .

روى أن عمرو بن العاص — وهو قافل من عمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم — لقى عيينة بن حصن خارجاً من المدينة فى جماعة على شاكلته ، وكانوا قدموا على أبى بكر فى طليعة الفتنة ، يقولون له : إن جعلت لنا شيئا كفيناك من وراءنا ؟ فقال عمرو بن العاص : ماوراءك يا عيينة ؟ من ولى الناس أمورهم ؟ قال : أبو بكر . قال

عمرو : الله أكبر ؛ فقال عيينة ياعمرو قد استوينا نحن وأنتم ؛ فقال عمر وكذبت ياابن الأخابث من مضر !!

* * *

وصل كتاب خالد إلى أبي بكر ودخل الأسرى المدينه ، فروى أبو بكر فى الأمر ، وكان رضى الله عنه ضليع الرأى ، نفاذا إلى ماوراء الحجب ، فعفا عن قرة وعيينة مع عظيم ذنبهما ، وكتب لهما أمانا لأن الأمر كان لا يزال فى إبانه ، وكانت العرب لاتزال جامحة،وكان المسلمون لايزالون فى حاجة إلى تأليف قلوب رؤساء القبائل ليكونوا ردءاً وعونا لهم فى محنتهم ، وهذه سياسة أبى بكر كانت تجمع بين اللين والمؤالفة ، والشدة الزاجرة .

وكتب أبو بكر يرد على خالد كتابه فشجعه وزمره على أعداء الإسلام ، وأظهر له رضاءه عما صنع بهم فقال له: ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً،واتق الله فى أمرك ،فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، جد فى أمر الله ، ولا تنين ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ، ونكلت به غيره،ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحاً فاقتله .

أخذ خالد بعد ظفره يتتبع فلول المرتدين ليقضى على الشر فى مكامنه ، وأخذ يجيل خيله فيما حوله من مضارب العرب، فلقى جمعا لبنى سليم، عليهم أبوشجرة ابن الخنساء الشاعرة ، وكان شاعراً يتكذب فقال :

صحا القلب عن مى هواه وأقصرا	وطاوع فيها العاذلين فأبصرا
وأصبح أدنى رائد الجهل والصبا	كما ودها عنا كذلك تغيرا
وأصبح أدنى رائد الوصل منهم	كما حبلها من حبلنا قد تبترا
ألا أيها المدلى بكثرة قومه	وحظك منهم أن تضام وتقهرا
سل الناس عنا يوم كل كريهة	إذا ما التقينا دارعين وحسرا
ألسنا نعاطى ذا الطماح لجامه	ونطعن فى الهيجا إذا الموت أقفرا
وعارضة شهباء تخطر بالقنا	ترى البلق من حافاتها والسنورا
فرويت رمحى من كتيبة خالد	وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

وكان أبوشجرة حين لحق بمن ارتد من قومه قبل لقاء خالد قد قال :

فلو سألت عنا غداة مزامر كما كنت عنها سائلا لو نأيتها

لقاء بنى فهر وكان لقاؤهم غداة الجواء حاجة فقضيتها

صبرت لهم نفسى وعرجت مهرتى على الطعن حتى صار وردا كميتها

إذا هى صدت عن كمى أريده عدلت إليه صدرها فهديتها

وقوله : فرويت رمحى من كتيبة خالد : من أكاذيب الشعراء لأن قومه بنى سليم لم يقيموا لخالد وكتيبته الظافرة إلا بمقدار ما أدركتهم السيوف المسلمة حتى رعبلتهم وفرقت شملهم ، وفر أبو شجرة ، وتقطعت آماله ، ثم أدركته عناية الله فعاود الاسلام ودخل فيما دخل فيه الناس . روى أنه قدم على عمر بن الخطاب فى خلافته فلقيه وهو يعطى المساكين ، فاستعطاه فقال له عمر لما عرفه : ألست القائل :

فرويت رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

وعلاه بالدرة ، حتى سبقه عدواً ثم ركب إلى أرض قومه وفى ذلك يقول :

ضن علينا أبو حفص بنائله وكل مختبط يوما له ورق

مازال يرهقنى حتى خذيت له وحال من دون بعض الرغبة الشفق

لما رهبت أبا حفص وشرطته والشيخ يفزع أحيانا فينحمق

ثم ارعويت لها وهى جانحة مثل الطريدة لم ينبت لها ورق

وردتها الخل من شوران صادرة إنى لأزرى عليها وهى تنطلق

تطير مرو أبان عن مناسمها كما تنوقد عند الجهبذ الورق

إذا يعارضها خرق تعارضه ورهاء فيها إذا استعجلتها خرق

ينوء آخرها منها بأولها سرح اليدين بها نهاضة العنق

وكان فلال غطفان ممن نجا من خالد قد اجتمعوا إلى أم «زمل» سلمى ابنة مالك ابن حذيفة بن بدر، وهى على مثل عز أمها « أم قرفة» فذمرتهم وصعدت سائرة فيهم وصوبت تدعوهم إلى حرب خالد ، حتى اجتمع لها حشد ، وتأشب إليهم الشراد من كل جانب ، فلما بلغ أمرها خالداً ، وهو يتتبع فلال القوم ، عاج إليها ، وقد استكشف أمرها وغلظ شأنها فقاتلها قتالا شديداً وهى واقفة على جمل أمها أم قرفة تحرض الناس،

حتى قتل بين يديها وحول جملها مائة رجل ، ثم قتلت وانطفأت فتنتها ، وبذلك انكسرت شوكة من أرز إلى البزاخة من المرتدين .

سياسة حكيمة

انتهت هذه الوقائع وقد أبانت عن مظاهر البطولة الخالدية ، وتجلت فيها عبقرية البطل العظيم سيف الله خالد بن الوليد بما لم يكن فوقه زيادة لمستزيد ، وقد كشفت عن جانب من جوانب الفكر العبقرى فى سياسة تصفية الوقائع والسير بها إلى نتائجها الطبيعية .

ذلك أن خالد رضى الله عنه بعد أن تم له النصر ، وأقبلت عليه القبائل مستسلمة أخذ من كل من جاءه مسلماً بعد ارتداد ما ظهر من سلاحهم، واستحلفهم على ما غيبوا منه حتى اجتمع لديه منه شىء كثير ، أعطاه قوماً من جنده يحتاجون إليه فى قتال أعدائهم ، وكتبه عليهم فلقوا به عدوهم ثم ردوه بعد ، فقدم به على أبى بكر فضمه إلى ما كان قبضه من أسد وغطفان من الحلقة والكراع ، فلما توفى الصديق رأى الفاروق أن قد الإسلام ضرب بجرانه ، وأن هذا كان عارية لوقت الحاجة ، فدفعه إلى أهله أو إلى عصبة من مات منهم .

وفى ذلك من سياسة الحرب وفضائل الأخلاق ما يمكن أن يعد فى فرائد المسلمين التى رسخها فى أنفسهم الإسلام بما بث فيها من أدب سام وخلق كريم ، فخالد رضى الله عنه قبل من هؤلاء القوم توبتهم ، وحقن بإسلامهم دماءهم ، ولكن ما كان له أن يطمئن إليهم ، فيترك فى أيديهم الأسلحة التى حاربوه بها ، والذخائر التى استعانوا بها ، ومن الذى يؤمنه إذا تركها لهم وانصرف عنهم أن يطعنوه بها فى ظهره ، وهو مشغول عنهم ؟ ثم هو لم يستعن بهؤلاء فى حربه فيتخذهم جنداً إلى جنده ، لأنهم استسلموا إليه مفزعين ، فليس لهم رسوخ عقيدته وعقيدة جنده التى أحبوا فى سبيلها الموت فرزقهم الله الحياة .

والذى يتأمل ما يجرى فى أعقاب الحروب بين الدول الكبرى فى أعصر الحضارة والعلم من معاملة المغلوبين المستسلمين يدرك براعة السياسة الإسلامية التى كان يسوس بها قادة المسلمين الناس فى السلم والحرب ، ونظرة إلى جانب صنيع خالد وتصرفه فيما صنعه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد رد الأمانة إلى أهلها بعد أن نشر الدين رايته ، وقويت شوكته . ورست أوتاده . ترينا كيف كان قادة الإسلام يسوسون الناس سياسة كانت أقوى العوامل فيما بلغ إليه المسلمون الأولون من عز وسلطان .

الفصل الثامن

أحدوثة مالك بن نويرة

عرض وتحليل

قصه غامضة ــ مالك بن نويرة ومسير خالد إليه ــ حكمة حازمة ــ غرور وتيه جاهلى ــ اختلاف الروايات ــ رواية ملفقة ــ رواية زائفة ــ رواية مقبولة ــ موقف أبى قتادة وابن عمر فى القصة ــ لعب الخيال فى أقصوصة زواج خالد امرأة مالك ــ وجه الرأى فى هذا الزواج ــ رواية مشهرة ولكنها مريبة ــ عوامل الريبة فى هذه الرواية ــ نتيجة .

قصة غامضة

هـذه قصة من قصص التاريخ الإسلامى ، اختلفت فيها الرواية اختلافا بعيد المدى ، واضطرب حولها الحديث اضطرابا قصى الغاية ، يعسر معه على الباحث أن يجمع بين أطرافه فى عروة واحـدة ، ومن ثمة كانت هـذه القصة فى صفحة التاريخ الخالدى سطراً غامضاً لا يتضح معناه إلا بشىء من التحقيق فى عرض تلك الروايات المتكاثرة وتحليلها تحليلا يصل بها إلى وجه الحق من واقع التاريخ .

* * *

مالك بن نويرة ومسير خالد إليه.

كان مالك بن نويرة سيداً من سادات تميم ، وكان فيهم رئيس قومه بنى يربوع ، وفارسهم وشاعرهم وفتاهم الذى إليه يجأرون ، ولأمره يطيعون ، وكان فى نفسه تياها معجابا ، ذا خيلاء وجفلة ، وقد عرف بالجفول .

أسلم حين قدم فى وفد قومه بنى تميم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمره على صدقات قومه ، فلما ذر قرن الشيطان فى أفق الفتنة ، وارتدت الأعراب ومنعوا الزكاة ، كان مالك فيمن اضطرب أمره وطاش سهمه ، وكان قد جمع صدقات قومه ، فبلغته وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، فعدا على ماجمع وانتهبه وفرقه فى قومه ، فانتهى ذلك إلى أبى بكر والمسلمين فعظم عليهم فعله ، وعهد أبو بكر إلى قائد جيوشه البطل خالد بن الوليد فى وصيته : « إن كفاك الله الضاحية فامض إلى اليمامة » وحقق الله ظن الصديق رضى الله عنه ، وفرغ خالد فى الجولة الأولى من أسد وغطفان ومن لف لفهم ، وعزم المسير بجيوشه الظافرة إلى اليمامة ليأخذ الكذاب مسيلمة فى قومه بنى حنيفة كما أخذ طليحة الأسدى فى جموعه وألفافه تحقيقاً لوصية الخليفة الأعظم ، وكان خالد قد ترامى إليه شأن مالك بن نويرة ، فمد إليه وإلى من شاركه فى ضلالته يده ليؤمن ظهره ويطهر ما يتركه خلفه من أرجاس الردة ويفرغ إلى أهل اليمامة لقوة شكيمتهم ، وإجماعهم على الارتداد كما أخبر بذلك أبو بكر خالداً فى وصيته حيث قال فى خاتمتها : « ولـكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم » .

حكمة حازمة

أظهر خالد للناس عهد أبي بكر إليه بالمسير إلى اليمامة فتوقفت الأنصار، وقال قائدهم ثابت بن قيس بن شماس : ما عهد إلينا ذلك ، وما نحن بسائرين ، وليست بنا قوة، وقد كل المسلمون ، وعجف كراعهم ، فقال لهم خالد : « أما أنا فلست بمستكره أحداً منكم ، فإن شئتم فسيروا ، وإن شئتم فأقيموا ، وأنا الأمير ، وقد عهد إلى ، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة ، وكنت إن أعلمته — الخليفة — فاتتني ، لم أعلمه ، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى من المهاجرين » .

لا بد للقلم هنا من وقفة للتأمل في هذه السياسة الجريئة الحازمة التي تقتضيها الحرب ولا ترضى غيرها ، حتى نرى كيف تتخطى العبقرية الإسلامية ممثلة في بطلها خالد بن الوليد حواجز الزمن في تفكيرها السياسى ، وإدارة دفة القيادة الحربية والحرب يستعر أوارها ، والعدو واقف بالمرصاد يتحين الفرص ليثب على جيوش المسلمين وثبة الأبادة والإفناء .

فهذا القائد العبقرى خرج على رأس جيشه ليوقع بالمرتدين، ويقضى على الفتنة في منابتها ، وهذه الوقعة التي انتصر فيها على أسد وغطفان ليست إلا مقدمة الأمر ، فكيف يقف عندها ، وما قضى للإسلام من أعدائه وطرا ؟

فلا بد له من المسير إلى أولئك الذين أجمعوا أمرهم على الارتداد عن دين الله، ولكن كيف يحقق مطامح عبقريته وينفذ برنامج خليفته وهذا جيش المسلمين ينقسم على قائده ، ففريق يعطيه طاعته أنى أراد ، وفريق يختلف عليه ، ويرى أنهم لا يعطون قائدهم مقاد الطاعة إلا في حدود عهد الخليفة ، وهم لا يعلمون للخليفة عهدا بهذا المسير الجديد ، ويحتجون لرأيهم بما أصابهم ، فما عسى أن يكون رأى القائد في هذا الموقف الحرج الآزم ، وما سياسته الحكيمة التي ينهجها مع جيشه المنقسم عليه حتى يحفظ له روحه وبسالته ؟

هنا تتفرج العبقرية الخالدية عن أحكم سياسة حازمة تساس بها الجيوش ساعة الأزمات !!

لم يكن بطل الإسلام خالد بن الوليد يجهل قدر الأنصار بين المسلمين ومكانهم من الحرب والجلاد ، ولم يكن كذلك يجهل العقلية العربية في عمومها ، تلك العقلية التي

لاتعرف الخضوع لسلطان بشرى إلا عن طريق العزة والكرامة، فليس يجديه فى علاج هذا الموقف التدرع بسلطان القدئد ليأمر فيطاع ، بل هو يعطى هؤلاء السادة فرصة التفكير وتقلب الرأى ، ويريهم عملياً أنه على عزمة المسير بمن معه من سائر جنود الإسلام إلى عدوهم عزمة لا تردد فيها ، وأنه لا يستكره أحداً على المسير معه ، ثم هو لا يدعهم دون أن يشعرهم بسلطان الإمرة ، فيقول : « وأنا الأمير » وأنه إذا تجاوز لهم عن ذلك السلطان القانونى ، فلأنه يقدر لهم مكانهم ولا يرتاب فى إخلاصهم ، ويرجو أن يراجعوا رأيهم . وقد تحققت فراسة القائد المظفر ، فإنه لم يكد ينفصل بمن معه من المهاجرين وأبناء القبائل عامداً لأرض بنى تميم واليمامة حتى تلاومت الأنصار فيما بينها ، وأدركوا أنهم جانبوا ماعودهم الله تعالى من السداد فى مواقفهم الإسلامية ، وقال بعضهم لبعض : والله ما صنعنا شيئاً ، والله لئن أصيب القوم ليقولن خذلتموه وأسلمتموه ، وإنها لسبة باق عارها إلى آخر الدهر ، ولئن أصابوا خيراً وفتح الله فتحاً إنه لخير منعتموه فابعثوا إلى خالد يقيم لكم حتى تلحقوه ، فبعثوا إليه رسولا من أنفسهم، فلما جاءه الرسول أقام لهم حتى لحقوه فاستقبلهم فى كثرة من معه من المسلمين وفرح برجعتهم فرحاً شديداً وساروا جميعاً حتى انتهى بهم خالد إلى البطائح من أرض تميم .

لم يقف خالد رضى الله عنه عند هذه السياسة الحكيمة الحازمة فى علاج هذا الموقف الذى فاجأه فى أحرج ساعات الحرب ، ولكنه تخطى ذلك إلى أمر هو أفضل ما يتحلى به القائد العظيم .

ذلك أن خالداً لم تشأ له عبقريته أن يقف فى سياسة جنده وقيادة جيشه عند حرفية القانون ونصوص العهود، بل شاءت له أن يكون قائداً سياسياً بعيد النظر ، نهازا للفرص، إذا سنحت لم يفلتها ، ولو لم يكن فى ذلك من الخليفة كتاب أو عهد ، ولاسيما والحال فى البادية يومئذ على ما كان عليه من بطء فى المواصلات تقضى به طبيعة الحياة ، ويضيع معه كثير من الغرض لو أنه وقف فى أموره خاضعاً للقانون تلقى الأوامر من الخليفة فى كل جزئية ، وهو لا يأمن المفاجآت ، وهى لا تخضع لسلطان غير سلطان الوقت واللحظة وفى ذلك يقول القائد العبقرى «ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة ، وكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه » بل هو يرمى إلى أبعد من ذلك ، يرمى إلى أن يعلم تلاميذه من قواد

المسلمين وسواسهم أن يتحملوا المسؤوليات ويجعلوا صنيعه قانوناً عاماً يسوسون به جندهم فيقول : « وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه من الخليفة عهد إلينا لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به » وفى ذلك قطع لأطماع « الواقفية » الذين تبخعهم الحيرة ويقطع عليهم التردد سبيل الإقدام ، فلا يبقى أحد أمام هـذا القانون الخالدى ناظراً إلى الوراء أليس هذا هو أقصى مايتطلبه النظر الطليق من قيود التزمت؟ بلى إن خالداً رضى الله عنه كان فى هذا المضمار فارساً من طرز جديد كانت الحياة الإسلامية أحوج ماتكون إلى مثله فى محنتها التى كشفها خالد ، لا بشجاعته وحسن سياسته فى إدارة دفة الحرب فحسب بل بتفكيره التشريعى الطليق وهذه الروح المشبوبة بشعلة الحرية هى السبب الأول — كما سترى — فيما كان بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

* * *

غرور وتيه جاهلى

كان بنو تميم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين وفى بعهد الإسلام مقيم على الإيمان ؛ ومتردد ينظر إلى الناس حتى أفاء ورا‌جع اليقين ؛ ومرتد مانع للزكاة ؛ منتهك لحرمات الإسلام ، وكان مالك بن نويرة من هذا الفريق ؛ وكان تياها مغروراً ، وكان متلافا لاتليق يده شيئاً ، جمع صدقات قومه فلما بلغته وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم عدا عليها وانتهبها وفرقها فى صعاليك بنى تميم ، وبجح بذلك فى شعره فقال :

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجىء من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

وفى لسان العرب لابن منظور : «ومنه حديث مالك بن نويرة حين جمع بنو يربوع صدقاتهم ليوجهوا بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فمنعهم من ذلك وقال :

وقلت خذوها هذه صدقاتكم مصررة أخلافها لم تجرد
سأجعل نفسى دون ما تحذرونه وأرهنكم يوماً بما قلته يدى

وقد لامه بعض سادة قومه ممن بقى على الإسلام وحذره مغبة عمله رجاء أن يراجع نفسه فيفىء إلى أمر الله ، فقال له الأقرع بن حابس وضرار بن القعقاع : إن لهذا الأمر قائماً وطالباً فلا تعجل بتفرقة ما فى يدك ؛ فأبى مالك إلا عتواً واستكباراً وأنشدهما :

أرانى الله بالنعم المندى ببرقة رحرحان وقد أرانى
أإن قرت عيون فاستفيئت غنائم قد يجود بها بنانى
حويت جميعها بالسيف صلتا ولم ترعد يداى ولا بنانى
تمشى يا ابن عوذة فى تميم وصاحبك الأقيرع تلحيانى
ألم أك نار رائبة تلظى فتتقيا أذاى وترهبانى

أحس مالك دنو خالد بجيوش المسلمين من أرض قومه وملأ أذنيه صدى انتصار الإسلام على طلائع المرتدين فأمر من كان معه بالتفرق فتفرقوا .

اختلاف الروايات

وهنا تختلف الروايات اختلافا تتباعد أطرافه فلا تتقارب ، وتفترق فلا تجتمع . وأشد ما فى هذه الروايات المتضاربة إقحام أسماء جماعة من سادة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الذين لا يرتفع إلى ضمائرهم ظل من الشك فى عدالتهم وصدق ديانتهم ؛ وحسب القارىء الذى لم يتعمق فى مغاور التاريخ الإسلامى أن يسمع اسم فاروق الإسلام عمر بن الخطاب فى جانب حادث أو رواية حتى يندفع إلى الإيمان بما سمع فى غير ريبة ولا تحفظ . ويتأكد ذلك إذا انضم إلى اسم عمر أسماء رجال آخرين ممن يعرف لهم المسلمون امتيازاً فى الديانة وفضلا فى الإسلام من أضراب أبى قتادة الأنصارى ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ؛ ومن ثمة يجب على الباحث أن لا تأخذه هيبة هذه الأسماء فتقف به دون الوصول إلى تزييف ما يؤدى البحث إلى زيفه ، فقد يكون إقحام هذه الأسماء إمعانا فى ستر الحقيقة التاريخية لسبب خارج عن إرادة الرواة وخاضع للعوامل التى دون فى ظلها ذلك التاريخ .

رواية ملفقة

من هذه الروايات رواية ترى أن مالك بن نويرة وهنت نفسه وراجع الإسلام بعد تردده وأوصى بذلك قومه فقال : « يا بنى يربوع إنا دعينا إلى هذا الأمر فأبطأنا عنه فلم نفلح وقد نظرت فيه فوجدت أن الأمر يتأتى لهم بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، وإياكم ومناوأة قوم صنع لهم ، فتفرقوا إلى دياركم وأدخلوا فى هذا الأمر »

وقريب من هذه الرواية تلك التى تقول : إن خالداً لما قدم البطاح بث السرايا وأمرهم بدعاية الإسلام ، وأن يأتوه بكل من لم يجب ، وأن امتنع أن يقتلوه ، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع ؛ فاختلفت السرية فيهم ، فشهد قوم أنهم أذنوا

وأقاموا وصلوا؛وشهد آخرون أنه لم يكن شيء من ذلك، وكان ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة الأنصارى ؛فكان يحدث أنهم لما غشوا القوم راعوهم تحت الليل ، فأخذ القوم السلاح.قال أبو قتادة:فقلنا إنا المسلمون ؛ فقالوا : ونحن المسلمون؛ قلنا فما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح ، فوضعوها ثم صلينا وصلوا .

ثم تمضى هذه الرواية ــ فى غير فطنة ــ إلى نتيجتها المقصودة فتقول : فلما اختلفت السرية فيهم أمر بهم خالد فحبسوا فى ليلة باردة لايقوم لهاشىء ؛ فامر خالد مناديا ينادى أدفئوا أسراكم فظن القوم أنه أراد القتل ، ولفظة أدفئوا فى لغتهم معناها اقتلوا ، ولم يرد خالد إلا الدفء،وهو معنى الكلمة فى لغته فقتلوهم ؛ وقتل ضرار بن الأزور مالك ابن نويره،وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم.فقال:إذا أراد الله أمراً أصابه . وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال أمرأة مالك .

وهذه الرواية فى أصلها وفرعها لا نطمئن إلى قبولها . بل نكاد نجزم أنها رواية ملفقة مصنوعة . وأن صانعها عريض الوسادة . لا يؤمن بالفطنة . ولا يزن بالدهاء .

ذلك أننا إذا تجاوزنا عن أن هذه الحكايات الموضوعة على لسان مالك فى نصيحته لقومه بمراجعة الإسلام وأن لا يناوئوا المسلمين لأن أمرهم لايسوسه الناس وإنما يسوسه رب الناس . لم تذكر لنا كيف انتهت إلى قتل هذا الناصح الحكيم ؟ نتساءل : إذا كان مالك بن نويرة راجع الإسلام وأسلم مخلصاً ونصح بذلك قومه فلم لم يذهب إلى لقاء المسلمين طائعاً مختاراً معلناً إسلامه ؟ ولماذا أمر قومه بالتفرق وتركهم ورجع إلى منزله ثم كيف يتفق مع العقل وأوليات الدين أن قوماً أذنوا ودعوا بدعاية الإسلام .وصلوا مع المسلمين ــ كما تزعم الرواية ــ ثم تختلف السرية فى إسلامهم . وهى قد صلت معهم وصلوا معها ؟ أليس فى هذا نسبة الكذب الصريح والغش المتعمد إلى خيرة الصحابة من المهاجرين والأنصار ؟ لان الرواية تزعم أن المختلفين من رجال السرية كلهم قد اشتركوا فى الصلاة مع القوم فإن كان ابن نويرة وقومه قد صلوا مع المسلمين حقاً وأعلنوا إسلامهم ؛ فالذين شهدوا من الصحابة بعدم إسلامهم قد كذبوا وغشوا . وإن كان ابن نويرة وقومه لم يصلوا مع المسلمين . ولم يعلنوا إسلامهم فالذين شهدوا بإسلامهم

قد كذبوا وغشوا ، وهل عرف تاريخ الإسلام هذا النحو من الأخلاق عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم كيف جاء رجال السرية بابن نويرة إلى خالد إذا كان قد أسلم ؟ وخالد إنما أمر جنده أن يجيئوه بمن لم يجب إلى الإسلام ؟ وكيف صح من قائد المسلمين أن يخاطبهم بلغة يعلم أنها ليست لغتهم فيما يقصد إليه من معنى وغرض ؟ وإن كان لا يعلم ذلك فلماذا لم يعتذر بهذا العذر الوجيه عند الخليفة يوم أن عاتبه ؟ قد يغلب على الظن أن إقحام اسم أبي قتادة هنا من نوع ما قلناه في إقحام الأسماء الضخمة في الروايات الملفقة للتمويه والتضليل ؛ وأبو قتادة رضي الله عنه إذا كان قد شهد عند خالد بإسلام مالك بن نويرة ، وأنكر على خالد صنيعه فلعل ذلك كان بطريق آخر لو عرفناه لكان للرأي فيه مجال ويمكن تعليل اختلاف السرية تعليلا معقولا .

***

رواية زائفة

وهذه رواية أخرى تحمل في طواياها دلائل زيفها وبطلانها ، جاء في خزانة الأدب للبغدادي: أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه مقالة مالك أمر خالداً أن يأتيه ، وعزم عليه ليقتلنه إن أخذه ، فأقبل خالد حتى هبط أرضهم فلم يسمع أذاناً ، فحمل عليهم ، فثار الناس ولا يدرون ما بينهم ، فلما رأوا الفرسان والجيش قالوا : من أنتم ؟ قالوا: نحن المسلمون ، قال مالك : ونحن المسلمون. فلم ينته المسلمون لذلك . ووضعوا السيف فيهم . وأعجل مالك عن لبس السلاح ، وإن امرأته ليلى بنت سنان قامت دونه عريانة . ودخل القبة . فلبس أداته ثم خرج وقاتل حتى أخذ أسيراً . فلما أتي به إلى خالد قال له : يا ابن نويرة هلم إلى الإسلام ، قال مالك : وتعطيني ماذا ؟ قال: ذمة الله وذمة رسوله ، وذمة أبي بكر ، وذمة خالد بن الوليد . فأقبل مالك وأعطاه بيديه ، وعلى خالد تلك العزمة من أبي بكر ، قال خالد : يا مالك إني قاتلك، قال : لا تقتلني . قال : لا أستطيع غير ذلك ، قال : فأت ما لا تستطيع إلا إياه فقدمه إلى الناس ، فتهيبوا قتاله ، وقال المهاجرون : أتقتل رجلا مسلما ؟ غير ضرار بن الأزور الأسدي فإنه قام وقتله ، وفي ذلك يقول أخو مالك متمم بن نويرة :

نعم القتيل إذا الرياح تناوحت فوق الكنيف قتيلك ابن الأزور
أدعوته بالله ثم قتلته لو هو دعاك بذمة لم يغدر
ولنعم حشو الدرع يوم لقائه ولنعم مأوى الطارق المتنور
لا يلبس الفحشاء تحت إزاره صعب مقادته عفيف المئزر

وزيف هذه الرواية ظاهر من وجوه :

أولا ـ إنها تذكر أن أبا بكر عزم على خالد ليقتلن مالكا إن أخذه . فهل يسوغ لنا أن نزعم ـ إن صحت هذه العزمة من أبي بكر ـ أنه أرادها من خالد ولو أخذ مالكا مسلماً بريئاً من حدود الله ؟ ما نظن أحداً من المسلمين يذهب إلى ذلك. ثم كيف يسوغ لنا أن نقبل هذه المحاورة الساذجة التي تعقدها الرواية بين خالد ومالك وتنتهي بقتل رجل مسلم لم يعرف له المسلمون الذين شهدوا قتله ذنباً يسوغ هذا القتل حتى تهيبوه وأنكروه ؟

ثانياً : ان هذه العزمة التي تذكرها الرواية معزوة إلى أبي بكر بقتل ابن نويرة تخالف ما اشتهر في الروايات الكثيرة من جزع أبي بكر عندما بلغه قتل مالك ، ذكر ابن عساكر في تاريخه « لما قدم أبو قتادة على أبي بكر وأخبره بقتل مالك وأصحابه جزع جزعاً شديداً » .

ثالثاً : هذه الرواية تخالف ما ثبت من أن أبا بكر دفع دية مالك بن نويرة إلى أخيه متمم ، وأنه عاتب خالداً ولامه لوماً شديداً حتى أبان خالد عن وجهة رأيه فعذره أبو بكر واعتذر عنه .

رابعاً : إن هذه الرواية لا تقف عند حد أن خالداً رضي الله عنه قتل رجلا مسلماً ، تهيب المسلمون قتله وأنكروه . بل هي تسجل على أعظم قواد الإسلام غدراً بذمة الله وذمة رسوله ، وذمة الخليفة ، وذمة نفسه وهو أمير المسلمين وقائدهم ، وهذا ما يدفعه تاريخ الصدر الأول عن هذه الأمة وتنكره أشد الإنكار سيرة خالد بن الوليد رضي الله عنه في معاملته للمغلوبين .

* * *

رواية مشهوره ولكنها مريبة

وهذه رواية شهرت وعقد عليها الرواة الخناصر ، وهى أدخل فى مجاهل الريبة فهى تقول : إن خالداً رضى الله عنه لما وصل إلى بلاد بنى تميم ثاروا إليه فقال من أنتم؟ قالوا : نحن عباد الله المسلمون ، وقد كان خالد بث سراياه فلم يسمعوا أذانا فقاتلهم وأسر مالك بن نويرة وأصحابه ثم قتلهم ؛ ولما بلغ خبر قتل مالك بن نويرة وأصحابه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى بكر : إن سيف خالد فيه رهق ، وأكثر عليه فى ذلك ، فقال : يا عمر تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، وودى مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ، ففعل ، ودخل المسجد وعليه قباء ، وقد غرز فى عمامته أسهما — فقام إليه عمر رضى الله عنه فنزعها وحطمها ، وقال له : قتلت امرأ مسلما ، ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك ، وخالد لا يكلمه ، يظن أن رأى أبى بكر مثله ، ودخل على أبى بكر فأخبره الخبر ، واعتذر إليه بأنه سمع منه كلاما استحل به قتله فعذره وتجاوز عنه ، وعنفه فى التزويج الذى كانت العرب عليه من كراهته أيام الحرب ، وأمره أن يفارق امرأة مالك ، فخرج خالد وعمر جالس فى المسجد ، فقال : هلم إلى يا ابن أم شملة ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه ، فلم يكلمه ودخل بيته .

هذه الرواية من أعظم روايات القصة استغلالا فى توجيهها توجيهاً يضع من قدر أعظم قواد الإسلام خالد بن الوليد ، فتصوره فى تلك الصورة التى تتجافى عنها المروءة وينكرها الدين ، وتشمئز منها الرجولية ، ولا يرضى عنها عامة الناس ، فهى أحقها بالنظر الناقد والتفنيد ، لأنها تتكىء على اسم رجل هو ثالث ثلاثة فى الإسلام كله فتجعل منه بطلا تدور عليه فصولها ؛ ذلك فاروق الإسلام عمر بن الخطاب ، وحسب القارىء أن يجد اسم عمر يحتل المكان الأرفع فى القصة فيؤمن أشد الإيمان بالجانب الذى ينتهى إليه . هكذا أراد الذين استغلوا هذه الرواية وأبدوا فيها وأعادوا ونقصوا وزادوا ، ولم يرعوا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة ولا للحق كرامة ، وهذه الرواية تحمل بين طياتها عوامل الريبة فيها :

عوامل الريبة فى هذه الرواية

أولا : إنها تصور خلافا حاداً بعيد المدى بين رأى الشيخين الصديق والفاروق فى قصة خالد بن الوليد ، ومالك بن نويرة . فعمر بن الخطاب — كما تزعم الرواية — كان يرى أن خالداً قد قتل رجلا مسلما معصوم الدم متعمداً . لأخبث قصد وأسوأ غرض . وأنه نزا على امرأة قتيله المسلم ، وأقسم ليرجمن خالداً بأحجاره .

وأبو بكر الصديق كان يرى أن أقصى ما يُعاب على خالد فى هذه القضية أنه تأول فأخطأ . وهذا اختلاف غريب فى حادث خطير ، لم يعرف أنهما انتهيا فيه إلى اتفاق ، وإذا لم يكن الاتفاق لازما بين المجتهدين فليس هذا من مواضع اختلاف المجتهدين ، لأن هذا اختلاف فى تكييف الحادث ، لا فى فهم نص وتطبيقه ، وهذا التكييف إنما كان مصدره عند الشيخين شهادة النقل ممن كان شاهدا ؛ فكيف إذاً انتهى بهما إلى هذا التصوير المتضاد ؟ والمعروف المشهور فى هذه القضية أن الذى قدم المدينة قبل قدوم خالد أو رسوله إليها هو أبو قتادة الأنصارى ، وهو رجل صدق وشجاعة . وهو الذى أخبر الخليفة بتفاصيل ما رأت عيناه وسمعت أذناه ؛ وعن طريقه — فى الأغلب — وصل النبأ إلى سمع عمر بن الخطاب ؛ وكان أبو قتادة قد ذهب مغاضباً لقائده خالد مقسما أن لا يعمل تحت رايته ؛ ولكن الخليفة لم يقبل منه هذه المغاضبة ؛ بل زجره زجراً رده إلى قائده جنديا كما كان .

فهل كانت مغاضبة أبى قتادة لمحض حادث مالك بن نويرة ؟ وهل كانت صورة الحادث فى نفس أبى قتادة كصورته التى عزتها الرواية إلى عمر بن الخطاب ؟ وما الذى منع أبا بكر حينئذ من الأخذ بشهادته وعمر يلح عليه مشدداً ؟ أو كان للحادث فى نفس أبى قتادة صورة أخرى ؛ فهم منها أبو بكر ما أملى عليه قوله فى رده على عمر « تأول فأخطأ » .

والذى شهده أبو قتادة ولم يرضه لخالد ؛ ولم يقره عليه قد شهده عشرات من الصحابة رضوان الله عليهم ؛ ولكنهم لم يصنعوا ما صنع أبو قتادة ولا شيئاً منه ؛ ولم يحجم عبد الله ابن عمر عن الإعلان برأيه فى مخالفة خالد ؛ ولكنه لم يصنع صنيع أبى قتادة ؛ وكان أقصى ما فعله أن طلب إلى خالد حين دعاه لشهود عقد نكاح ليلى امرأة مالك أن يعرض الأمر على الخليفة ليفصل فيه برأيه .

وإذا صحت هذه الرواية وصح ما فيها معزواً إلى عمر بن الخطاب فأين التنفيذ لأعظم حد من حدود الله فى أخطر حادث إسلامى ؛ وقد ملكه عمر فى خلافته ؛ وكان قد قال لخالد — فيما تزعم بعض الروايات — « لئن وليت الأمر لأقيدنك به » وأين

ذهبت حماسة عمر بعدخروج خالد من لدن أبي بكر وكان يسمع منه تفاصيل ماحدث؟ ألا كان يملك عمر معارضة الخليفة والاحتجاج عليه فى تعطيل حد من حدود الله تعالى؟! فهل لنا أن نفهم إذا لم نجد جوابا عن هذا النحو من التساؤل — ولن نجد — أن للقضية فى التاريخ وجهاً غير وجهها الذى رسمته هذه الرواية الزائفة ؟ !

ثانياً : هذه الرواية تقول : إن أبا بكر دفع إلى متمم بن نويرة أخى مالك دية أخيه من بيت مال المسلمين ، وهى نفسها تقول : إن لمالك أصحابا كانوا على مثل ما كان عليه ، وصاروا إلى مثل ما صار إليه ، فمن المعقول أن يكون حكمهم حكمه ، فلماذا خص مالك بغضبة عمر ، ولم يذكر معه أحد من أصحابه ، وكانت الجناية أشنع فى قتل جماعة مسلمة ؟ معصومة الدم عمداً ، هل كان هذا التخصيص لمسألة زواج خالد من امرأة مالك ؟ كيف وهى متفرعة على أصل قتل مالك ، فإن كان قتله حلالا فلا شىء مطلقاً على خالد فى هذا الزواج ، وإن كان قتله حراماً ، فجرم القتل أعظم من جرم هذا الزواج مهما قيل فى تصويره ، وجرم قتل الجماعة أخطر من جرم قتل الواحد ، فكيف أهدرت تلك الدماء ولم تجد من المسلمين من يطالب بها ؟ ولعل قائلا يقول : ذلك أنه ليس فى أصحاب مالك من هو مثل مالك ، قلنا : تلك مزايا جاهلية أهدرها الإسلام ولم يقم لها وزنا . وعمر نفسه كان أبلغ مثل عملى تطبيقى لإهدارها فى حادث جبلة بن الأيهم المشهور.

ولماذا خص أبو بكر مالكا بالدية ولم يد غيره من أصحابه الذين قتلوا معه إن كانوا كما تزعم الرواية — قد قتلوا مسلمين ؟ !

ثالثاً : تقول هذه الرواية الزائفة : إن أبا بكر استقدم خالداً . فلما قدم المدينة دخل المسجد فى هيئة القائد الظافر ، فقام إليه عمر ونزع أسهمه وحطمها وقال له تلك الكلمة الجبهة المتوعدة بقاصمة الظهر : «قتلت رجلا مسلما ثم نزوت على امرأته ، والله لأرجمنك بأحجارك » وبطل الإسلام خالد لا يكلمه . يظن أن رأى أبى بكر مثله ، فمن أين لعمر ابن الخطاب هذا السلطان الذى جعله يصنع بقائد جيوش المسلمين هذا الصنيع المهين قبل أن يصل إلى الخليفة الذى استقدمه ليعرف منه وجه الحق فيما حدث ، والخليفة وحده هو صاحب السلطان الشرعى فى تأديب قواده وإقامة الحدود عليهم وعلى من دونهم من الأمة؟ أفيظن أن خالد بن الوليد يرضى ويستسلم لعمر بن الخطاب يصنع معه ماصنع قبل أن

يصل إلى الخليفة لمجرد أنه يظن أن رأى أبي بكر على مثل رأيه ؟ وهل المقام مقام تعذير يقوم به رجل من رجالات المسلمين ؟

ثم إن عمر بن الخطاب كان يعرف رأى أبي بكر في هذه القضية قبل أن يقدم خالد عليهما ، لأنهما تجاولا في القضية ، واشتد عمر على خالد ، فنهنهه أبو بكر وقال له : ارفع لسانك عن خالد ، وقرظ خالداً وزكاه بما زكاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «إن خالداً سيف سله الله على الكافرين فلا أشيمه» فكيف ساغ لعمر بن الخطاب بعد هذا أن يصنع بخالد هذا الصنيع مخالفاً رأى الخليفة ؟ قد يقول قائل : إن عمر بن الخطاب ذلك الرجل الشديد في الدين ، الذى يقف مع رأيه غير متخاذل لرأى أحد ، قلنا : وأين ذهبت تلك الشدة بعد أن قابل خالد أبا بكر وأفضى إليه بحقيقة الأمر كما وقع وكما قدره هو ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج على عمر يتوعده بهذه الكلمة الساخرة : هلم إلى يا ابن أم شملة ؟ أكانت في تلك الصورة الهزيلة التي تختم بها الرواية فصولها . «فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه ، فلم يكلمه ودخل بيته» وهذه المعرفة كانت عند عمر قبل أن يلقى خالداً وينزع أسهمه ويحطمها ، ولكن الرواة ينسون أو يغفلون ؟ أم إن عمر غير رأيه وعرف أن خالداً برىء مما قذف به ؟

رابعاً : إن هذه الرواية لم تذكر لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أبي بكر وعمر رأياً في هذه القضية الخطيرة حتى الذين كانوا من جند خالد وغاضبوه ، وأبوا عليه أن يحضروا عقد نكاحه ، مثل أبي قتادة وعبد الله بن عمر ، فأين رأيهما في تحقيق القضية وقد أخذت هذا الوضع الحاد بين الخليفة ووزيره ؟ وأين رأى على بن أبي طالب الذى قال فيه عمر : لولا على لهلك عمر ؟ وأين رأى أكابر الصحابة من أمثال عثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، ووجوه الأنصار ؟ أين رأى هؤلاء الأجلة في أخطر قضية مرت على المسلمين ؟ قضية تتعلق بتصرف قائد قواد الإسلام تصرفاً إذا صح فيه ما نسب إلى عمر في اتهامه لخالد كان أقل جزاء هذا القائد في الشريعة الإسلامية القتل على شر وجوهه ؟ أفيكفى أن يقال في بعض الروايات إن عمر غضب حين رأى خالداً وفي عمامته سهمان ، فقام فأتى عليا ، فقال : إن في حق الله أن يقاد هذا بمالك ، قتل رجلا مسلماً ، ثم نزا على امرأته كما ينزو

الحمار ؛ ثم قاما فأتيا طلحة فتتابعوا على ذلك ، فقال أبو بكر : سيف سله الله لا أكون أول من يغمده ، أكل أمره إلى الله !!

هل هـذا يتفق مع ما عرف فى سيرة هؤلاء السادة من أشد الغيرة على الشريعة وحدودها ، وما عرف عنهم من شـدة فى البحث عن الحقائق والكشف عن حقيقة الوقائع ؟ وهل يتفق مع العقل أن يتطابق علماء الصحابة وخيارهم على أن رجلا من قادة المسلمين خرق فى الشريعة خرقاً استوجب عندهم القصاص منه ، وهم يطلبون إلى الإمام الأعظم إقامة حد الله عليه فيرد عليهم بهذا الرد المعطل لأحكام الدين ثم يسكتون ، ويبقى هذا الرجل فى مقامه من صدارة الدولة ؟

خامساً : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه تولى الخلافة بعد أبى بكر وأصبح سلطان الدولة الإسلامية فى يده ، وكان رجلا قواماً على حدود الله جريئاً فى الحق ، لا يهاب أحـداً ولا شيئاً ، وكان خالد بن الوليد يومئذ يقف أميراً على عامـة جيوش المسلمين فى نحر الروم ، فلم يرجمه عمر بأحجاره كما توعده — فى زعم هذه الرواية — ولم يقتله قصاصـاً بمالك وأصحابه ، وليس عمر بالذى يظن فيه رجوع عمـا اقتنع أنه الحق ، ولا بالذى يظن فيه هوادة فى الدين ومجاملة فى حدود الله .

أما عزل عمر خالداً عن الإمارة فلم تكن قضية مالك بن نويرة سبباً من أسبابه عند التحقيق ، ولا يستقيم أن تـكون من أسبابه ، لأن الله تعالى لم يشرع العزل عن الإدارة حداً من حدوده ، وسنحقق أسباب هذا العزل عندما نصل من سـيرة بطل الإسلام وعبقرى قادته خالد بن الوليد إلى نهايتها .

سادساً : تسند بعض الروايات إلى عمر بن الخطاب أن متمم بن نويرة وفد عليه بعد أن تولى الخلافة فاستعداه على خالد ، فقال عمر : لا أرد شيئا صنعه أبو بكر ، فقال متمم : قد كنت تزعم أن لو كنت مكان أبى بكر أقدته به ، فقال عمر : لو كنت ذلك اليوم بمكانى اليوم لفعلت ، ولـكنى لا أرد شيئا أمضاه أبو بكر . فـكيف يطلب صاحب الحق حقه ممن يراه له ويملك تنفيذه فلا يقوم له به لأن غيره أمضاه ؟ ومتى كان هذا ؟ ! فى عهد عمر بن الخطاب !! على أن الكلمة المنقولة عن عمر وهى « لئن وليت الأمر لأقيدنك به » لا تحتمل هذا التأويل المزعوم .

سابعاً : روى أن متمم بن نويره دخل على عمر بن الخطاب فى خلافته ، فقال له عمر : مابلغ من وجدك على أخيك مالك ؟ قال : بكيته حولا حتى أسعدت عينى الذاهبة عينى الصحيحة ، ومارأيت ناراً إلا كدت أتقطع لها أسفاً عليه لأنه كان يوقد ناره إلى الصبح مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه ، قال عمر : فأنشدنى بعض ماقلته فيه ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

لعمرى ومادهرى بتأبين مالك ... ولا جزع مما أصاب فأوجعا

لقد كفن المنهال تحت ردائه ... فتى غير مبطان العشيات أروعا

حتى انتهى إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال له عمر : هذا والله التأبين ، ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل مارثيت به أخاك ؛ فقال متمم : لو أن أخى مات على مامات عليه أخوك مارثيته ؛ فقال عمر : ما عزانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم .

فعلى أى شىء مات مالك بن نويرة إذا لم يكن قد مات على الإسلام الذى مات عليه زيد بن الخطاب شهيدا ؟ !

* * *

رواية مقبولة

وهذه رواية تقول إن مالك بن نويرة لما جاءت به السرية أسيراً إلى خالد حاوره خالد فى موقفه من الإسلام فقال مالك : أنا آتى بالصلاة دون الزكاة ، فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معا ، لا تقبل واحدة دون الأخرى فقال مالك قد كان صاحبكم ؟ يقول ذلك ؛ قال خالد أو ماتراه لك صاحبا ؟! والله لقد هممت أن أضرب عنقك ، ثم تجاولا فى الكلام ، فقال له خالد : إنى قاتلك ، فقال له ؟ أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : هذه بعد تلك ؟ وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصارى حاضرين ، فكلما خالداً فى أمره . فكره كلامهما ، فقال مالك : ياخالد ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا ؛ فقال خالد : لا أقالنى الله إن أقلتك ؛ وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه ، وقبض خالد امرأته ؛ قيل إنه اشتراها من الفىء فأعتقها

وتزوج بها ، وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها ، وقال لابن عمر ولأبى قتادة: احضرا النكاح فأبيا ، وقال له ابن عمر : نكتب إلى أبى بكر ونعلمه بأمرها وتتزوج بها ،. فأبى خالد وتزوجها ، وكانت العرب تكره النساء فى الحرب وتعايره .

هذه الرواية قد تكون قريبة القبول ، لأنها تذكر جهة الردة التى باء بها مالك بن نويرة ومن اتبعه من قومه ، وهى امتناعه عن الزكاة، وهذا موافق لأصل السبب الذى التوى من جهته عامة العرب فى هذه الفتنة ، والذى بدأ به موقف مالك بتفريقه ما جمع فى يده من صدقات قومه ، والذى ثبتت فيه المفاوضة بين الصديق وسائر الصحابة بزعامة عمر بن الخطاب ، واحتجوا لها بالحديث الثابت، فقد روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » واحتج الصديق بأن الزكاة من حقها الموجب للقتال، وقال والله لو منعونى عناقا أو عقالا ، كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه. ومن هنا استقى خالد بن الوليد حجته على مالك بن نويرة فى مجادلته حيث قال: أما علمت أن الصلاة والزكاة معا ، لا تقبل واحدة دون الأخرى ؟ وعندئذ تكشف ابن نويرة عن صريح أمره الذى طوى عليه كشحه ؛ فقال فى رده على خالد : قد كان صاحبكم – يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقول ذلك ، وهذه كلمة لا تخرج من صدر سليم الإيمان ، ولكنها نفثة من نفثات النفاق ، أو فلتة من فلتات الكفر البواح ، غير أن خالداً فى دينه ورجوليته لا يسرع إلى قتل رجل بأمر قد يشتبه على بعض سليمى الصدور من المؤمنين ، فمد إلى مالك حبل المجادلة حتى استبان له أمره ، ولم يبق فى نفسه موضع للشك فى ردته فأبرم العزم على قتله ، ولم يرض أن يستأنى به كما استأنى بقرة بن هبيرة وعيينة ابن حصن ويرسله إلى أبى بكر كما أرسلهما وكما طلب ذلك ابن نويرة ، لأن قرة وعيينة لم يثبت لهما مقالة خبيثة الطوية كهذه المقالة التى ثبتت على مالك فى مواجهة خالد ومحاورته.

موقف أبى قتادة وابن عمر

وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو قتادة الأنصارى ممن حضر مجلس المجادلة بين خالد ومالك ، فكلما خالداً فى أمر مالك وأرادا أن لا يقتله ، وكأنهما تأولا ما صدر منه وزادت حماسة أبى قتادة لرأيه وخالف قائده وفارق الجيش ذاهباً إلى الخليفة شاكياً له أمر خالد فى شأن مالك وامرأته ، وأقسم أن لا يقاتل تحت راية خالد أبداً، فلم يكن من

الخليفة الحازم الراشد إلا أن رد أبا قتادة إلى جيشه جنديا تحت راية أميره وقائده خالد كما كان ، ولم يفتح باب شكاية الجند لقوادهم والخروج عليهم حتى يحقق الأمر بنفسه بعد عودة القائد بجيشه، وهذه سياسة من أحكم وأحزم السياسات التي حرست الدولة الإسلامية في أول عهدها من الانقسام والفساد .

أما عبد الله بن عمر فاكتفى بأن أظهر رأيه في القضية ولم يصحب إنكاره لما أنكر من حادث مالك بن نويرة بالخروج على القائد ، وهذا من فقه ابن عمر ، لأنه علم أن خالدا ومن معه من الصحابة الذين وافقوه على قتل مالك لا يصدرون عن هوى ، وأنهم إن أخطأوا فقد تأولوا ، والفيصل إنما هو رأى الخليفة عند رجوع الجيش ومواجهة القائد ولهذا لما دعاه خالد مع صاحبه إلى حضور نكاح ليلى امرأة مالك أبيا ، وقال ابن عمر : نكتب إلى أبى بكر ونعلمه بأمرها وتتزوج بها ، ومن هنا يظهر الفرق بين الاتجاهين فعبد الله بن عمر رجل علم وفقة وأبو قتادة رجل فروسية وشجاعة فكان تصرفهما مطابقا لتكوينهما العقلى والخلقى .

لعب الخيال في أقصوصة زواج خالد بامرأة مالك

وقد لعب خيال القصاص فى أقصوصة زواج خالد بامرأة قتيله مالك بن نويرة . وأمر هذا الزواج عجيب كشأن القصة فى أصلها .

فبعض الروايات تقول : إن خالداً قتل مالكا وتزوج امرأته من ليلته . ولما لم يعقل هذا والناس فى ذلك العهد ناس والدين دين ، تمحل بعض حسنى النية من المؤرخين والفقهاء فقال لعلها كانت مطلقة قد انقضت عدتها إلا أنها كانت محبوسة عند مالك . وهذا تخريج لا يتم إلا على أساس أن مالكا قتل مسلما حرام الدم والمال والأهل ، وحينئذ يعود الكلام إلى القضية العظمى وهى سفك دم مسلم عدوانا ونكاح امرأته بغير وجه شرعى ودون إثبات ذلك تناول نجوم السماء باليدين .

ومما يتصل بهذه الرواية بسبب من التضليل وسوء الفرية على أجلاء أبطال الإسلام وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحكيه بعض أغرار المؤرخين من أن خالد بن الوليد عشق امرأة مالك لفرط جمالها فقتل مالكا ليستولى عليها ، وأن مالكا قال لزوجته لم يقتلنى غيرك ، وأن خالداً رد عليه حين سمعه يقول ذلك بقوله : بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام .

وهذا الكلام لا تحصيل في نقاشه لأنه أشبه بروايات أهل الفراغ والبطالة من سخفاء العقول وسفهاء الأحلام الذين لا يبالون أن يخدشوا تاريخ عظماء الإسلام بمثل هذه التفاهات التي ينفر منها رعاع الناس ورذ الهم، بله عقلاءهم وذوي المروءات فيهم. فكيف بالصحابة في تربيتهم ودينهم وعلو أنفسهم وكمال مروءتهم وتاريخهم شاهد صدق على جلال أخلاقهم وترفعهم عن دنيات الأمور ؟

وكيف فيهم بخالد بطل الإسلام وسيف الله ؟

وجه الرأي في هذا الزواج

في الرواية التي رأينا أنها قريبة القبول والتصديق أن خالداً اشترى امرأة مالك من الفيء وتزوج بها وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوج بها، وهذا أمر معقول ومقبول صدوره من خالد جبراً لخاطرها وتطييبا لنفسها، إذ هي قد فجعت في زوجها وهو فارس قومها ورئيسهم. وحينئذ يجب أن نفرض بقاءها على الإسلام وعدم موافقتها مالكا على ردته وذلك تأويل من زعم أنها كانت مطلقة منه، ومحروسة عنده لأن ردته فصلت بينهما واستبقاها تحته ظالما حتى استنقذها خالد فتزوجها. ويكون الذي عيب على خالد إنما هو ما كان عند العرب معيباً من التزويج أيام الحرب ولا سيما إذا كان المتزوج بها من نساء الأعداء والمعركة ما تزال ناشبة فإنه حينئذ يخشى من التجسس والفتك بالأبطال. ولعل خالداً تيقن إخلاصها للإسلام فخلصها.

وفي قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية بنت حيي ما يحمل أقوى دفاع عن خالد في هذه القضية إذا جردت قصة مالك بن نويرة من خيالات القصاصين.

نتيجة

أمر هذه الروايات في أحدوثة مالك بن نويرة ظاهر أنه من تزيد القصاصين. وإقحام اسم عمر بن الخطاب بهذه الصورة التي تقصها الروايات ظاهر الانتحال، ولباب الأمر في هذه القصة كلها أنها لا تعدو أن تكون مثل قصة خالد نفسه مع بني جذيمة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سلف الحديث عنها، فهم قد أساءوا لما أظلتهم سرية خالد بما ليس صريحا في إسلامهم فظن خالد أن قولهم « صبأنا » تقية السيف لا عقيدة القلب فقتل خالد منهم من قتل اعتقاداً لكفرهم، فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم وبرئ إلى الله مما صنع ولم يعزله ولم ير أن ذلك موجب للقصاص منه.

ولا تعدو أن تكون مثل قصة أسامة بن زيد مع الرجل الذي لاذ بالشجرة وقد قال:

"لا إله إلا الله ، فقتله أسامة محتجاً أنه قالها تقية لاعقيدة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هلا شققت عن قلبه ، ولم يقتص منه ، ومن ثمة قال أبو بكر لعمر رضى الله عنه : تأول خالد فأخطأ ، ولعل سبب ذلك أن عمر كان يرى أن يشتد أبو بكر على خالد فى العتب كما اشتد النبي صلى الله عليه وسلم عليه وعلى أسامة ولاسيما وخالد كان فيه استقلال بالرأى فى الحرب كان يخشاه عمر ويرى أن يحد منه ، وكان من سياسة أبى بكر أن يحتفظ بخالد فلا يكسر شوكته ؛ والمسلمون فى أزمة الردة أشد ما يكونون حاجة إلى أمثال خالد .

وعلى هذا الأساس لانرى حرجا على خالد فى تزوجه امرأة مالك لأنه قتل رجلا كافراً فى اعتقاده منابذاً للإسلام محارباً للمسلمين معتدياً عليهم ، فإذا فرضنا إسلام زوجته وهى تحته فيكون خالد قد أحسن إليها وجبر خاطرها بتزوجها ، وهذا مانرجحه فى شأنها لأن أكثر المؤرخين ذكروا أنها اعتدت بثلاث حيض ؛ وإذا فرضناها غير مسلمة فحكمها حكم السبى ويكون خالد قد أحسن إليها أيضاً . لأنه كما تقول بعض الروايات ، اشتراها من الفىء وأعتقها وتزوج بها .

ويتعلق بهذا النكاح نكتة لطيفة لم يلتفت إليها كثير من الباحثين : ذلك أن أبا بكر لما استقدم خالداً وسمع حجته أمره بطلاق امرأة مالك عقوبة سياسية على تسرعه للنساء فى الحرب ، وهو أمر تخشى عواقبه . والطلاق حكم شرعى لا يكون إلا بعد نكاح صحيح وهذا يحمل فى طياته صحة رأى خالد واقتناع أبى بكر به ، وأن مالكا لم يقتل مسلماً معصوم الدم ، ولاسيما وأن الطلاق لم يكن معجلا فقد عاد القائد إلى حرب مسيلمة وتحته أم متمم امرأة مالك ؛ وإنما دفع أبو بكر مالا لأخى مالك متمم بن نويرة من باب الترضية والتأليف على نهج ماصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى جذيمة .

الفصل التاسع

واقعة اليمامة

بين خالد ومسيلمة

هول معركة اليمامة — عبقرية خالد فى إدارة المعركة — نبوءة صادقة — إدعاء مسيلمة النبوة — شعوذة وخبث دهى — عصبية عمياء — أول لواء لحرب اليمامة — توجيه خالد إلى حرب مسيلمة — سياسة حكيمة — مجاعة بن مرارة الحنفى ومكانته فى قومه — بدء المعركة وترجحها هنا وهناك — نفحات البطولة الإسلامية — حملة صادقة — قتل مسيلمة — من قتله ؟ — بدء النهاية فى المعركة — خدعة مجاعة — الصلح بين التأييد والمعارضة — كتاب أبى بكر إلى خالد وإمضاء الصلح — غدرة لم تتم — رسول خالد إلى أبى بكر — هل وفد خالد على أبى بكر بعد اليمامة ؟ — زواج خالد بنت مجاعة — رجولية بطل — عتب أبى بكر ودفاع خالد — تحليل وتوضيح .

هول معركة اليمامة

لم يلق المسلمون الأولون فى تاريخهم الحربى أشد مما لقوا فى واقعة اليمامة ومقاتلة بنى حنيفة قوم مسيلمة بن حبيب الحنفى المشهر بالكذاب ، وقد كانت هذه الشدائد أعظم امتحان لقوى الرجولية وأحد مشحذ لعبقرية البطولة ، وفى هذه الواقعة تجلت عبقرية بطل الإسلام وقائده المظفر خالد بن الوليد رضى الله عنه عن مظاهر الشجاعة وسياسة الحرب ، وحنكة القيادة ، وحزامة الإمارة التى سجلها له التاريخ فى صحائف أعظم القادة والأبطال .

ومن الخير فى توجيه ذهن القارىء إلى إدراك صورة تمثل هول هذه الموقعة وشدائد الابتلاء فيها أن نرسم لها خطوطا أولية تبدو من أثنائها عواصف الهول ، وقواصم العزائم إلى جانب رواسى الهمم لدى جيوش المسلمين وصبرهم فى وجه الموت وشجاعتهم عند زلزلة أقدام فوارس الحرب وأبطال اللقاء ؛ مستمدين ذلك من روايات التاريخ عمن شهدوا أوارها حتى يتم لنا أن نؤمن على ابتهالات التاريخ فى محراب البطولة الخالدية :

أولا — قال رافع بن خديج : خرجنا من المدينة ونحن أربعة آلاف ، وأصحابنا من الأنصار ما بين خمسمائة إلى أربعمائة ، وعلى الأنصار ثابت بن قيس ، ويحمل رايتنا أبو لبابة ، فانتهيا إلى « اليمامة » فننتهى إلى قوم هم الذين قال الله تعالى فيهم « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، » فلما صففنا صفوفنا ووضعنا الرايات موضعها لم يلبثوا أن حملوا علينا فهزمونا مراراً فنعود إلى مصافنا وفيها خلل ، وذلك أن صفوفنا كانت مختلطة ، فيها حشو كثير من الأعراب فى خلال صفوفنا فينهزم أولئك بالناس ، فيستخفون أهل البصائر والنيات حتى كثر ذلك منهم ، ثم إن الله تعالى بمنه وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر ، وذلك أن ثابت بن قيس نادى خالد بن الوليد : أخلصنا ، فقال خالد : ذلك إليك ؛ فناد فى أصحابك ، فأخذ ثابت الراية ونادى يا للأنصار ، فتسللت إليه رجلا رجلا ، فنادى خالد : يا للمهاجرين ، فأحدقوا به ، ونادى عدى بن حاتم ، ومكنف بن زيد الخيل بطىء فثابت إليهما طىء ، وكانوا أهل

بلاء حسن ، وعزلت الأعراب عنا ناحية ، فقاموا من ورائنا غلوة أو أكثر ، وإنما كنا نؤتى من الإعراب .

وأجهض أهل السوابق والبصائر العدو ، فهم فى نحورهم ما يجد أحد مدخلا إلا أن يقتل رجلا منهم أو يخرج فيقع فيخلف مقامه آخر حتى أوجعنافيهم، وبان خلل صفوفهم وضجوا من السيف، ثم اقتحمنا الحديقة فضاربوا فيها وغلقنا الحديقة، وأقمنا على بابها رجلا لئلا يهرب منهم أحد فلما رأوا ذلك عرفوا أنه الموت، فجدوا فى القتال ودارت السيوف بيننا وبينهم ، ما فيها رمى بسهم ولا حجر ولا طعن برمح حتى قتلنا عدو الله مسيلمة :

هذه رواية فيها من إيجاز الخبر وناصع الأسلوب وحسن القصص ما جعلها تجمع بين أطرافها لباب الأمر فى واقعة أطال المؤرخون رشاء القول فيها ، وفيها من وصف أعداء المسلمين وشدة بأسهم ما جعلهم فى نظر علماء الصحابة محمل الآية الكريمة « ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد » .

وبحسبك أن تجد القرآن الحكيم يصف قوما بالبأس الشديد فتعلم من هم ؟ وعلى أى لون من القوة فى العدد والعدة هم ؟ وفيها بيان سبب انهزام المسلمين أول الأمر ؛ وأن ذلك كان باختلاط صفوفهم بحشو من الأعراب الذين لم يكونوا قد انضموا لجيش الإسلام مسوقين بعقيدة يناضلون عنها ويقاتلون بها ، فتزلزلت أقدامهم حينما لحتهم السيوف وأحسوا حر السلاح ، فانهزموا ، واستخفوا بهزيمتهم أهل البصائر والنيات ممن خرجوا فى سبيل الله مفعمة أنفسهم بالايمان وقوة العقيدة التى بها يقاتلون وعنها يناضلون ، وهذا أمر معقول تصدقه السوابق الخالدية ، فقد ذكرنا أن عدى بن حاتم أراد فى حرب أسد وغطفان أن يجعل قومه — وكانوا قد توقفوا فجمعهم الله به إلى الإسلام — مقدمة جيش خالد ، فأبى عليه خالد ذلك ، وقال له : ياأبا طريف إن الأمر قد اقترب ، وأنا أخاف أن أقدم قومك ، فإذا لحمهم القتال انكشفوا ، فانكشف من معنا ، ولكن دعنى أقدم قوما صبرا لهم سوابق وثبات ، وهم من قومك .

وهؤلاء الأعراب الذين أتى المسلمون من قبلهم الذين أبى عليهم خالد أن يكونوا جندا فى جيشه لضعف روحهم وانخذالهم ، واكتفى بأن أخذ منهم سلاحهم يستعين به

على حرب عدوه ، حتى كان أبو بكر رضى الله عنه هو الذى ألحقهم به تمحيصاً لإسلامهم وتكثيراً لسواد المسلمين بهم ولشغلهم بالجهاد عن التفكير فى هزيمتهم فلا يكونون شوكة فى ظهر جيوش الإسلام ، وكان أبو بكر قد عاهد خالداً إذا فرغ من أسد وغطفان والضاحية أن يقصد اليمامة وأكد عليه فى ذلك ، فلما أظهر الله خالداً على أولئك الأعراب تسلل بعضهم إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يبايعهم على الإسلام ويؤمنهم فقال لهم : بيعتى إياكم وأمانى لكم أن تلحقوا بخالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ، فمن كتب إلى خالد بأنه حضر معه اليمامة فهو آمن ، فليبلغ شاهدكم غائبكم ، ولا تقدموا على واجعلوا وجوهكم إلى خالد ، فقال أبو الجهم : أولئك الذين لحقوا بخالد من الضاحية هم الذين كانوا انهزموا بالمسلمين يوم اليمامة وكانوا على المسلمين بلاء .

وفى هذه الرواية تأييد سياسة خالد رضى الله عنه مع جنده إذ اشتد وطيس القتال ، ذلك أن بعض القواد فى جيش خالد لما أدرك أن هؤلاء الأعراب هم سبب هزيمة الجيش طلب إلى القائد العام تنحيتهم عن الميدان إلى حيث يكونون وراء الجيش ردءاً له فى نظر العدو وتكثيراً لسواد المسلمين ، فنادى ثابت بن قيس — وهو قائد كتيبة الأنصار — خالداً فقال له : أخلصنا ، فأجابه خالد إلى ما طلب لعلمه بأن ذلك رأى له قدره وأثره الخطير فى توجيه المعركة ، فامتاز الأنصار بلوائهم ، وامتاز المهاجرون بلوائهم ، وصنع صنيعهم أهل الإيمان والعقيدة من سائر الجيش وأبناء القبائل ، وعزلت الأعراب ناحية ، فقاموا من وراء الجيش يتربصون ، وهذا من أحكم التدبير ، لأن امتياز الناس إلى وحدات مستقلة بأوصافها الخاصة ينفى التواكل ويذكى الحمية ويشعل روح التنافس بين هذه الكتائب المتمايزة ، وبهذا ملك المسلمون زمام المعركة حتى انتهوا بها إلى نهايتها الظافرة .

ثانياً — فى حديث ضمرة بن سعيد المازنى أن المسلمين لم يلقوا عدواً أشد لهم نكاية من بنى حنيفة ، لقوهم بالموت الناقع ، وبالسيوف قد أصلتوها قبل النبل ، وقبل الرماح ، وقد صبر المسلمون لهم ، فكان المعول على أهل السوابق .

ثالثاً — حدث خالد بن الوليد رضى الله عنه فقال : شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ، ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة .

إنا لما فرغنا من طليحة،ولم تكن له شوكة ،قلت كلمة والبلاء موكل بالقول :وما بنو حنيفة إلا كمن لقينا ، فلقينا قوماً ليسوا يشبهون أحداً ، ولقد صبروا لنا من مطلع الشمس إلى صلاة العصر حتى قتل عدو الله ، فما ضرب أحد من بنى حنيفة بعده بسيف، ولقد رأيتنى فى الحديقة وعانقنى رجل منهم وأنا فارس وهو فارس فوقعنا عن فرسينا ثم تعانقنا بالأرض ، فأجؤه بخنجر فى سيفى ، وجعل يجؤنى بمعول فى سيفه، فجرحنى سبع جراحات ، وقد جرحته جرحاً أثبته به فاسترخى فى يدى ، ومابى حركة من الجراح، وقد نزفت من الدم إلا أنه سبقنى بالأجل فالحمد لله على ذلك .

هذه رواية قائد القواد خالد بن الوليد الذى شهد فى الجاهلية والإسلام من الوقائع والزحوف مالم يشهده سواه ؛ يصف أعداءه فينصفهم بأنه لم ير قوما أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداما فى وجه الموت منهم ، وهى شهادة حاذق بالحرب مجرب لأهوالها . فإذا ظفر خالد بهؤلاء الأبطال فهو ظفر عبقرى ، لا يعدله فى جلاله إلا سمو النشوة به .

ولم يكن خالد ليقول هذا القول عن بنى حنيفة لظفره بهم تعظيما لانتصاره عليهم ، ولكنه حق يقوله وواقع يصفه أليس قد ظفر من قبل ظفره ببنى حنيفة بأسد وغطفان وهزم طليحة حتى ألجأه الى الفرار، فلم يفخر بهذا النصر ولا عظم ذلك الظفر، بل هو يقلل من شأن طليحة وقومه الى جانب الحنفيين ، ويرى أن طليحة لم تكن له شوكة مع ماعرفناه من شدة وقائعه .

وهذه الصراحة التى يتحدث بها خالد الى الناس طبع فيه وخليقة لا يتكلفها ،فهو يعترف بأنه ظن ظنا خاطئاً فكان منه ابتلاؤه ، ذلك أنه حسب أهل اليمامة كأهل الضاحية وأن بنى حنيفة كأسد وغطفان بيد أنه لقى من بنى حنيفة قوماً لا يشبهون أحداً ولا يشبهم أحد فى الصبر والبأس ، وشجاعة القلب والسماح بالحياة .

رابعاً ــ كان مسيلمة الكذاب قد أصاب حبيب بن زيد وعبدالله بن وهب الأسلمى من المسلمين ، فقال لهما : تشهدان أنى رسول الله ؟ فقال الأسلمى: نعم ؛ فأمر به فحبس مثقلا بالحديد ، وقال له حبيب بن زيد : لاأسمع ،فقال :أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فأمر به فقطع ، وكلما قال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : لاأسمع ، فإذا

قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم ، حتى قطعه عضواً عضواً ، فقطع يديه من المنكبين ، ورجليه من الوركين ، ثم أحرقه بالنار ، وهو فى كل ذلك لا يتزعزع عن قوله ، ولا يرجع عما بدأ به حتى مات حرقاً بالنار بعد شديد العذاب ، فلما تهيأ خالد إلى اليمامة جاءت أم حبيب ، وهى نسيبة بنت كعب ، وتكنى أم عمارة إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فاستأذنته فى الخروج ، فقال لها أبو بكر : ما مثلك يحال بينه وبين الخروج ؛ قد عرفناك وعرفنا جراءتك فى الحرب فاخرجى على اسم الله .

قالت أم عمارة : فلما انتهينا إلى الحديقة بعد إذ تداعت الأنصار ، أخلصونا ، أخلصونا ؛ ازدحمنا على الباب وأهل النجدة من عدونا فى الحديقةقد انحازوا يكونون فئة لمسيلمة فاقتحمنا فضاربناهم ساعة ، والله مارأيت أبذل لمهج أنفسهم منهم ، وجعلت أقصد إلى عدو الله مسيلمة لأن أراه ، ولقد عاهدت الله لئن رأيته لا أكذب عنه أو أقتل دونه ، وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف ، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف حتى بصرت بعدو الله ، فشددت عليه ، وعرض لى رجل منهم فضرب يدى فقطعها ، فو الله ماعرجت عليها حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع ، وأجد ابنى عبدالله قد قتله .

فسألها سائل : أكثرت الجراحات فى المسلمين ؟ فقالت : لقد تحاجز الناس وقتل عدوالله وإن المسلمين لجرحى كلهم ، لقد رأيت بنى أبى مجروحين مابهم حركة ، ولقد رأيت بنى مالك بن النجار بضعة عشر رجلا لهم أنين يكمدون ليلتهم بالنار ، ولقد أقام الناس باليمامة خمس عشرة ليلة ، وقد وضعت الحرب أوزارها وما يصلى مع خالد بن الوليد من المهاجرين والأنصار إلا نفر يسير .

هذه الرواية تصور لونا من ألوان البطولة الإسلامية تمثلها شخصية حبيب بن زيد ، ذلك البطل المسلم العظيم ، وقد قطع عضواً عضواً وأحرق بالنار ليقول كلمة بلسانه ، فما رجع عن إيمانه ، ولا عرض ، ولا ورى ، ولكنه تماسك واستصلب ليكون نموذجا من نماذج التربية الإسلامية الصادقة التى أسس عليها الإسلام بناء الأمة الإسلامية .

وتمثلها شخصية أمه أم عمارة نسيبة بنت كعب التى كانت نموذجاً من نماذج المرأة المسلمة فى تربيتها الإسلامية حتى ولدت للإسلام مثل حبيب بن زيد ، فكانت خليقة بتزكية الخليفة الأول أبى بكر الصديق بقوله ما مثلك يحال بينه وبين الخروج ،

وما كان أبو بكر ليزكى امرأة مسلمة فى خروجها للحرب بما زكى به نسيبة لو لم يكن يعلم من صدق عزيمتها وقوة إيمانها ما كانت تعلم من نفسها ، وهى فوق ذلك ثكالى موتورة ، وقد وصفت هذه المرأة المسلمة الجليلة ، تدافع أهل اليمامة على الموت فى حربهم للمسلمين فخفقت ، وصورت لنا احتدام القتال فصدقت ، وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف .

هذه هى واقعة اليمامة فى هولها ؛ فماذا كان حظ القائد العبقرى خالد بن الوليد فيها ؟ هذا ما نصوره لك فيما يرد من الحديث ، وتقصى الآثار .

* * *

عبقرية خالد فى ادارة المعركة

إن نظرة فاحصة إلى ذلك الإطار الذى يجمع بين حفافيه صورة الهول الذى كانت عليه معركة اليمامة بين جند الإسلام من المهاجرين والأنصار وصادق الإيمان بقيادة البطل العبقرى خالد بن الوليد ، وبنى حنيفة بقيادة مسيلمة بن حبيب الشهير بالكذاب ، تجعل القارىء يدرك كيف أدار خالد رضى الله عنه هذه المعركة حتى انتهى بها إلى نهايتها التى أقرت عين الإسلام فى جزيرة العرب ، وانتقل بها النضال إلى ما وراء السفوح العربية حيث كان نضالا بين العرب وهم جرثومة الإسلام وجنده ، وبين دوانق الفرس والرومان .

* * *

قدم مسيلمة فى وفد قومه بنى حنيفة على النبى صلى الله عليه وسلم عام الوفود ، فلما أظلوا المدينة خلفوا مسيلمة فى رحالهم يحفظها لهم ، فحباهم النبى صلى الله عليه وسلم على عادته الشريفة مع وفود العرب التى كانت تقدم عليه مسلمة ، فذكروا له مكان مسيلمة ، فقالوا يارسول الله . إنا قد خلفنا صاحباً لنا فى رحالنا وركابنا يحفظها لنا ، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لقومه وقال لهم : « إنه ليس بشركم مكانا » قال علماؤنا فى تأويل ذلك : يعنى لحفظه ضيعة أصحابه .

نبوءة صادقة

والذى ينقدح فى الخاطر أن تأويل هذا الحديث أعمق من ذلك ، وأن هذا ضرب

من نبوءات رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادقة ومعجزاته الإخبارية الواقعة، فقد قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى لوح الغيب ما كتب على نواصى هؤلاء القوم من دلائل الغدر والنكوص على الأعقاب والارتداد عن دين الله، وأن صاحبهم هذا الذى سألوا له رسول الله صلى الله عليه وسلم حباء مثل حبائهم فأخبرهم عنه أنه ليس بشرهم مكانا ، سيقودهم الى شر عاقبة يهلكهم بها ، وأنهم سيتابعونه على ضلالته فيهلكونه كما أهلكهم ، فهم وهو فى شرها على سواء .

يرشح تأويلنا هذا ماروى عن رافع بن خديج أنه قال : قدمت على النبى صلى الله عليه وسلم وفود العرب فلم يقدم علينا وفد أقسى قلوباً ولا أحرى أن يكون الإسلام لم يقر فى قلوبهم من بنى حنيفة ؛ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر له أن مسيلمة الكذاب قال عندما قدم فى قومه : لو جعل لى محمد الخلافة من بعده لاتبعته ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس ، وفى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتخة[1] من نخل ، فوقف عليه ثم قال : لئن أقبلت ليفعلن الله بك ؛ ولئن أدبرت ليقطعن الله دابرك ، وما أراك إلا الذى رأيت فيه ما رأيت ولئن سألتنى هذه الشظية — لشظية من الميتخة التى فى يده — ما أعطيتكها . وهذا ثابت يجيبك .

قال ابن عباس : سألت أبا هريرة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : ما أراك إلا الذى رأيت فيه ما رأيت ؟ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب فنفختهما فطارا فوقع أحدهما باليمامة، والآخر باليمن . قيل : وما أولتهما يارسول الله ؟ قال أولتهما كذابان يخرجان من بعدى .

ادعاء مسيلمة النبوة

انصرف مسيلمة الى موطنه ، ولم يلبث أن أبدى لقومه خبيئة نفسه ، فادعى فيهم النبوة ، وأنه أشرك فى الأمر مع محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن عجيب خذلانه أنه جعل حديث النبى صلى الله عليه وسلم عنه مع وفد قومه وإخباره أنه ليس بشرهم مكاناً دليلا على دعواه السخيفة ، وسرعان ما تطاير اليه بنو حنيفة تطاير الفراش على النار، فلما رأى ذلك منهم

(١) عسيب من جريد النخل .

وملأ يديه من جهالتهم كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون .

فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم فكتب اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك » .

شعوذة وخبث دهى

كان مسيلمة رجلا صاحب ذكاء ودهى . فيه خبث ومكر واقتدار على الاحتيال . واعتباد السذج وضعفاء العقول ؛ فاستولى بذلك على عامة قومه. وخدعهم فانخدعوا له. وتعصب له قوم من ذوى رأيهم فوافقوه على سخفه .

قال الجاحظ : كان مسيلمة قبل ادعاء النبوة يدور فى الأسواق التى بين دور العرب والعجم كسوق الأبلة وسوق بقه وسوق الأنبار وسوق الحيرة . يلتمس تعلم الحيل والنيرنجات . واحتيالات أصحاب الرقى والنجوم ؛ ومن حيله أنه صب على بيضة من خل حاذق قاطع ؛ فلانت حتى إذا مددتها استطالت واستدقت كالعلق . ثم أدخلها فى قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وعادت كهيئتها الأولى فأخرجها إلى قومه وهم قوم أعراب وادعى النبوة .

وذكر الرواة أن من أعظم مافتن بنى حنيفة بمسيلمة شهادة رجل من قومه يقال له نهار الرجال بن عنفوة . زعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول بإشراك مسيلمة معه فى الأمر فكان أكذب لصاحبه من صاحبه على الله . وإنما وقعت فتنة هذا الرجل فى قلوب بنى حنيفة لأنه كان قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وقرأ القرآن وتعلم من السنن ثم عاد الى قومه فوجدهم يطيفون بمسيلمة فانسلخ من الإيمان بهذا الكذب السخيف وانتفخ أنف مسيلمة ، وأمال لقومه عطفه وأخذ يسجع[1] لهم سخافات هى فى وزن

---

(١) يستبعد بعض الباحثين صدور هذا الهراء الذى تحكيه بعض الروايات معزواً الى مسيلمة بن حبيب فى سجعات سخيفة اللفظ مريضة المعنى مدعيا أنها مما أوحى إليه ، ونحن لا نثبت هذا ولا ننفيه من جهة الرواية لأنه ليس لدينا حجة على أحد الأمرين ولكنا نستبعد صدور هذا ، السخف من هذا =

العقل من أضاحيك البله المرورين . وفى وزن البيان العربى من سخرية اللغة على الباقليين .

وكان أعقل بنى حنيفة فى هذه الفتنة العاصفة من جرفتهم العصبية القبلية دون نظر إلى عقل أو دين . حدث عمير بن طلحة النميرى عن أبيه أنه جاء اليمامة فقال : أين مسيلمة ؟؟ فقالوا : مه ! ! رسول الله ؟ فقال : لا . حتى أراه ؛ فلما جاءه قال : أنت مسيلمة ؟ قال : نعم . قال من يأتيك ؟ قال : رحمن ؛ قال : أفى نور أم فى ظلمة؟ فقال فى ظلمة ؛ فقال : أشهد أنك كذاب . وأن محمداً صادق . ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ! !

ويروى أن فتان بنى حنيفة نهار الرجال كان يقول بعد ما أضله الله على علم : كبشان انتطحا. فأحبهما إلينا كبشنا؛ وقال محكم بن الطفيل — وهو من سادات أهل اليمامة — لما قيل له : هذا خالد بن الوليد فى المسلمين : رضى خالد أمراً ورضينا غيره، وما ينكر خالد أن يكون فى بنى حنيفة من أشرك فى الأمر ؟

هذا تفكير عقلاء الحنفيين، وهذا فهمهم للنبوة والدين، وإن كانوا لم يعدموا آحاداً منهم ثبت الله أقدامهم وعصم عقولهم فاستمسكوا بعروة الإسلام الوثقى، وكان فى هؤلاء الأحرار الذين لم تستعبدهم العصبية القبلية عمير بن صالى اليشكرى، وهو من سراة أهل اليمامة وأشرافهم ، فكتم على قومه إسلامه لما رآهم يمرجون فى الفتنة يقودهم إليها محكم بن الطفيل ونهار الرجال ممسكين بخطام مسيلمة يقودانه كما يقاد الجمل المخشوش ، وفيهما يقول عمير بن صالى :

يا سعاد الفؤاد بنت أثال طال ليلى بفتنة الرجال
فتن القوم بالشهادة واللـه عزيز ذو قوة ومحال
لا يساوى الذى يقول من الأمـ ـر قبالا وما احتذى من قبال

= الرجل الماكر المشعوذ لمعالا فى دعم دعواه عند ذوى الجهالة من البدائيين الذين لم ترق فطرتهم عن غرائز الخفافيش ودواب الظلام ، بعد أن استطاع بدهائه أن يحرك عوامل العصبية عند عقلاء قومه فتعصبوا له وهم يعلمون كذبه . ولو لم يكن هذا السخف صدر من مسيلمة لكان فى حكايته عنه تمثيل لروح جمهرة المجتمع الذى اتبع نعيقه ، مع احتفاظ الرواية بتمثيل روح الخاصة فى وحى شيطان العصبية لها بقوله (ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر) .

إن ديني دين النبي وفي القو م رجال على الهدى أمثالي
أهلك القوم محكم بن طفيل ورجال ليسوا لنا برجال
بزهم أمرهم مسيلمة اليو م فلن يرجعوه أخرى الليالي
قلت للنفس إذ تعاظمها الصبر وسادت مقالة الأقوال
ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال
إن تكن ميتتي على فطرة الله حنيفاً فإنني لا أبالي

أول لواء لحرب اليمامة

استعلن أمر مسيلمة واستشرى خطره بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد استقبل أمر ردة العرب بعزيمة لم يعرفها التاريخ لرجل في أمة من الأمم ، فاستجابت لعزيمته قلوب المسلمين ، فوضعوا أرواحهم بين يديه يدفع بها حيث شاء ، فعقد الألوية وأرسل الجيوش مجاهدة في سبيل الله فكان من حظ اليمامة لواء عكرمة بن أبي جهل مردفاً بشرحبيل بن حسنة ليكون ردءا له . ولكن عكرمة رضي الله عنه أراد أن يكون له خاصة فخر الظفر بهؤلاء المرتدين ، فتعجل الهجوم، ولم ينتظر رديفه ، فنكب ولم يصنع في القوم شيئاً ، فأغضب ذلك أبا بكر رضي الله عنه ، وكتب إلى عكرمة يعنفه بقوله : يا ابن أم عكرمة لا أرينك ولا تراني على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس، امض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة ، فقاتل معهما أهل عمان ومهرة . وكتب إلى شرحبيل أن يتمهل حتى يأتيه خالد بن الوليد بمن معه من جند الإسلام المظفرين لئلا يقع شرحبيل في مثل ما وقع فيه عكرمة من قبل ، ولكن شرحبيل أراد ما أراد عكرمة ، فلقي صاحبه حتى أدركه البطل العبقري خالد ، وأخذ بيمينه زمام القيادة وأدار المعركة بوحي البطولة وساسها بمهارة السياسي الحكيم .

توجيه خالد إلى حرب مسيلمة

قال شريك الفزاري : كنت ممن حضر بزاخة مع عيينة بن حصن فرزقني الله الإنابة ، فجئت أبا بكر ، فأمرني بالسير إلى خالد ، وكتب معي إليه بوصايا وفي آخرها : إن أظفرك الله بأهل اليمامة فإياك والإبقاء عليهم، أجهز على جريحهم واطلب مدبرهم واحمل أسيرهم على السيف ، وهول فيهم القتل ، وأحرقهم بالنار ، وإياك أن تخالف أمري ، والسلام عليك ؛ فلما انتهى الكتاب إلى خالد اقترأه وقال : سمعاً وطاعة . أترى ماعسى أن يصنع خالد رضي الله عنه ، وقد قدمت له الحوادث نكبة صاحبيه عكرمة وشرحبيل؟

أتراه يندفع مهاجماً معتمداً على قوة السلاح كما اعتمد صاحباه من قبله ورأى بعينيه مصيرها ؟ أم تراه يلجأ إلى العقل يستوحيه التدبير ويستلهمه التفكير ؟

إن خالداً رضى الله عنه كان قائداً من طراز يملك أعصابه متى شاء ، وهو يعرف للروح المعنوية فى الجيوش قيمتها ويقدرها قدرها ، وقد رأى أن أهل اليمامة فازوا على جيش من جيوش المسلمين ؛ والظفر مما يرفع حرارة الروح المعنوية فى الجيوش المحاربة ، فلا بد له من أن يقدم أمام المعركة لونا من حرب الأعصاب حتى يروز قوة عدوه ويخضد شوكته ويوهن معنويته ، وكان أهل اليمامة لما اتصل بهم مسير خالد إليهم بعد الذى صنع الله له فى أمثالهم جزعوا وتحيروا ، واضطرب للأمر عاقلهم محكم ابن طفيل ، وبات يتلوى على فراشه ، وكان خالد يعلم مكان محكم فى قومه ، وكان فى جيش خالد زياد بن لبيد بن بياضة الأنصارى ، وكان زياد صديقاً لمحكم بن طفيل ، فقال له خالد فى بعض الطريق : يازياد لو ألقيت إلى محكم شيئاً تكسره به ، فإنه سيد أهل اليمامة وطاعة القوم ، فبعث إليه زياد بهذه الأبيات من الشعر .

يامحكم بن طفيل قد أتيح لكم	لله در أبيكم حية الوادى
يامحكم بن طفيل إنكم نفر	كالشاء أسلمها الراعى لآساد
مافى مسيلمة الكذاب من عوض	من دار قوم وإخوان وأولاد
فاكفف حنيفة يوما قبل نائحة	تنعى فوارس شاج شجوها باد
لا تأمنوا خالداً بالبرد معتجرا	تحت العجاجة مثل الأغضف العادى
ويل اليمامة ويلا لافراق له	إن جالت الخيل فيها بالقنا الصادى
والله لا تنثنى عنكم أعنتها	حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

ولكن محكم بن الطفيل كان أبعد فى عصبيته مما ظن به زياد البياضى ، فلم يكترث لأبياته ، ولم يرفع لما فيها من تهديد ووعيد رأسه ، بل لقد زادته حمية وتذميراً لقومه ، فقد اندفع يحرضهم على قتال المسلمين ويخطب فيهم بقوله : يامعشر أهل اليمامة إنكم تلقون قوماً يبذلون أنفسهم دون صاحبهم ، فابذلوا أنفسكم دون صاحبكم ، فإن أسداً وغطفان إنما أشار إليهم خالد بذباب السيف فكانوا كالنعام الشاردة .

فهل كان موقف محكم بن الطفيل وتصلبه فى عصبيته الجاهلية مما صد خالداً عن سياسة العقل وحرب الأعصاب ؟ لا ؛ إن خالداً يعرف لهذه الحرب « الباردة » قيمتها فى نتيجة الحرب الدموية إذا نشبت . وها هو ذا يترك زياداً ومحكما . ويعوذ برجل آخر ، هو من سادات أهل اليمامة . أسلم فكتم على قومه إسلامه . وكان راسخ الإيمان قوى العقيدة . عرفه خالد فلم يحجم عن توجيهه فى كسر قومه بنى حنيفة قياماً بحق الإسلام عليه ذلك هو عمير بن صالى اليشكرى . فقال له خالد : تقدم إلى قومك فاكسرهم. فأتاهم ولم يكونوا علموا بإسلامه . فقال : يامعشر أهل اليمامة . أظلكم خالد فى المهاجرين والأنصار . تركت القوم يتتابعون إلى فتح اليمامة و قد قضوا وطراً من أسد وغطفان : وعليا هوازن . وأنتم فى أكفهم . وقولهم لا قوة إلا بالله ؛ إنى رأيت قوماً إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر . وإن غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد ،ولستم والقوم سواء ؛ الإسلام مقبل والشرك مدبر . وصاحبهم نبى وصاحبكم كذاب . ومعهم السرور. ومعكم الغرور . فالآن والسيف فى غمده . والنبل فى جفيره[1] . قبل أن يسل السيف. ويرمى بالسهم سرت إليكم مع القوم عشرا .

وهذا مسلك غير مسلك زياد البياضى مع محكم ، لأن عميراً خاطب العامة بأسلوب يقارب ويباعد ، ويلين ويشتد ، وخطاب عامة الناس أفعل فى تخذيل الهمة من خطاب رجل واحد له مكانه فى قومه ؛ مما يجعله يملك زمام أعصابه فلا تخور .

وقد جرى على هذه الطريقة فى حرب الأعصاب بعد عمير رجل آخر من أشراف بنى حنيفة ، ذلك ثمامة بن أثال الحنفى الذى مشى فى قومه خطيباً يقول : ياأهل اليمامة: اسمعوا منى وأطيعوا أمرى ترشدوا . إنه لايجتمع نبيان بأمر واحد ، إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا نبى بعده ، ولا نبى مرسل معه ، ثم قرأ عليهم «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير» هذا كلام الله عز وجل ، أين هذا من : ياضفدع نقى ، كم تنقين، لا الشرب تمنعين، ولا الماء تكدرين ؟ والله إنكم لترون أن هذا الكلام ما يخرج من إل[2].وتوفى رسول

---

(١) الجفير : الجعبة من الجلد أو الخشب (٢) الإل : من معانيه المناسبة هنا الربوبية والأصل الجيد وقيل هو اسم لله تعالى .

الله صلى الله عليه وسلم وقام بهذا الأمر من بعده رجل هو أفقههم فى أنفسهم لاتأخذه فى الله لومة لائم ، ثم بعث إليكم رجلا لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه ، يقال له « سيف الله ». معه سيوف الله كثيرة ؟ فانظروا فى أمركم .

***

هذه خطوة فى سياسة خالد بن الوليد الحربية التى استنها فى حرب أهل اليمامة ، وهى خطة من أحكم الخطط الحربية فى القديم والحديث ، وقد شهد الناس فى الحرب المعاصرة ما لهذا الأسلوب من أثر عظيم فى تحطيم قوة العدو المعنوية ، وكانت تلجأ إليه الدول المتحاربة فى وقائع كثيرة كلما أعوزتها القوة المادية أو قصر دون إدراك الغاية السلاح ، وكسب الزمن إحدى نتائجه وله أثره الفعال فى تغير الخطط الموضوعة .

مجاعة بن مرارة ومكانته فى قومه

ترك خالد لخطته هذه تفعل فى نفوس القوم فعلها ، ورأى أنه فرغ من مرحلة السياسة وحرب الأعصاب ؛ ونهض إلى السيف يحكمه ، وزحف إلى بنى حنيفة وقدم أمام جيوشه الطلائع ، فأخذت طلائعه جماعة من بنى حنيفة فيهم مجاعة بن مرارة الحنفى من سادتهم ، فلما جاءوا بهم إلى خالد سألهم عن مسيلمة ، ما يقولون فيه ؟ فشهدوا أنه رسول الله ، فقال لمجاعة ما تقول أنت؟ قال : والله ما خرجت إلا فى طلب رجل من بنى نمير ، أصاب فينا دماً ، وما كنت أقرب مسيلمة ، ولقد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما غيرت ولا بدلت ، فأمر بهم خالد فضربت أعناقهم لإصرارهم على أقبح الكفر بقولهم فى كذابهم ، حتى إذا بقى منهم رجل يقال له سارية بن مسيلمة بن عامر ، تقدم إلى خالد فقال له : أيها الرجل إن كنت تريد بأهل اليمامة خيراً أو شراً فاستبق هذا ، يعنى مجاعة بن مرارة ، فإنه عون لك على حربك أو سلمك فاستبقاه خالد فلم يقتله ، واستبقى سارية لنصحه ـ ولكنه أمر بهما فأوثقا فى جوامع حديد ، تحوطا لنفسه ولجيشه ، وكان خالد يقرب مجاعة ويتحدث إليه ، ويستخبره خبر مسيلمة ويضحك عندما يسمع أسجاعه وأرجازه التى زعم أنه يعارض بها القرآن ، ويقول : يا معشر المسلمين اسمعوا إلى عدو الله كيف يعارض القرآن ! ويقول لمجاعة : هات زدنا من كذب الخبيث ، فقال مجاعة :

أخرج لكم حنطة وزوانا(١) ، ورطباو تمرانا ، فقال خالد وهذا كان عندكم حقاً وكنتم تصدقونه ؟ قال مجاعة : لو لم يكن عندنا حقاً لما لقيتك غداً أكثر من عشرة آلاف سيف ، يضاربونك فيه حتى يموت الأعجل ، قال خالد : إذاً يكفيناهم الله ويقر دينه ، فإياه يقاتلون ، ودينه يريدون .

بدء المعركة

تقدم خالد بالمسلمين حتى نزل على كثيب مشرف على أرض اليمامة ، فنضرب به عسكره ، وأقبل مسيلمة فى قومه وألفافه حتى نزلوا مكانا يقال له «عقرباء» ، وقد سلوا سيوفهم ، فظن خالد أنهم صنعوا ذلك ترهيباً للمسلمين ، فقال : يا معشر المسلمين أبشروا ، فقد كفاكم الله عدوكم ، وماسلوا السيوف من بعيد إلا ليرهبونا ، وإن هذا منهم لجبن وفشل . فقال مجاعة ونظر إليهم : كلا والله يا أباسليمان ، ولكنها الهندوانية خشوا من تحطمها ، وهى غداة باردة ، فأبرزوها للشمس لأن تسخن متونها ، فلما دنوا من المسلمين نادوا : إننا لنعتذر من سلنا سيوفنا حين سللناها ، والله ما سللناها ترهيباً لكم ولا جبنا عنكم ، ولكنها كانت الهندوانية ، وكانت غداة باردة ، فخشينا تحطمها فأردنا أن تسخن متونها إلى أن نلقاكم فسترون .

نهض خالد إلى المسلمين فصفهم ، وأعطى رايات الكتائب نفراً من فوارس الأبطال ، فأعطى راية المهاجرين زيد بن الخطاب أخا عمر بن الخطاب ، وأعطى راية الأنصار ثابت بن قيس بن شماس ، وجعل على الميمنة أباحذيفة عتبة بن ربيعة ، وعلى الميسرة شجاع ابن وهب ، وعلى الخيل البراء بن مالك ، ثم أسامة بن زيد . والتقى الجمعان واقتتلوا أشد القتال ، وصبر الفريقان أحر الصبر وأمره ، فقال عكرمة بن أبى جهل — وكان من أهل البلاء فى هذه الواقعة — : حملت بنو حنيفة أول مرة كانت لها الحملة ، وخالد على سريره حتى خلص إليه فجرد سيفه وجعل يسوق بنى حنيفة سوقاً حتى ردهم وقتل منهم قتلى كثيرة ، ثم كرت بنو حنيفة حتى انتهوا إلى فسطاط خالد فجعلوا يضربون الفسطاط بالسيوف ، وأرادوا قتل زوجه أم متمم فأجارها منهم مجاعة بن مرارة الحنفى ، وأثنى عليها بقوله : نعمت الحرة كانت ، وعير قومه فقال لهم : تركتم الرجال وجئتم إلى امرأة

---

(١) الزوان . حب يخالط القمح قال فى اللسان : وهى حبة تسكر .

تقتلونها ؟ وكانت أم متمم أجارته من سيوف المسلمين ، لأن خالداً قال لها استوصى به خيراً .

وكان شرحبيل بن مسيلمة الكذاب يذمر قومه بنى حنيفة ويحمسهم ويستثير حميتهم بقوله : يا بنى حنيفة ؛ اليوم إن هزمتم تستردف النساء سبيات ، وينكحن غير حظيات، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم .

نفحات البطولة الإسلامية

اضطرب الناس ، واعتكر الجو ، وتعاورت الهزيمة الفريقين فخشى أبطال المسلمين عاقبة الأمر ، فصاح ثابت بن قيس : بئس ماعودتم أنفسكم يامعشر المسلمين ؛ اللهم إنى أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء – يعنى أهل اليمامة – وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء – يعنى المسلمين – وتقدم براية الأنصار فى نحر العدو يقاتل حتى قتل ، ثم تقدم زيد بن الخطاب وفى يده راية المهاجرين فقال : لا تحوز[1] بعد الرحال ، والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فأكلمه بحجتى، غضوا أبصاركم ، وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، وأضربوا فى عدوكم وأمضوا قدما ، وقاتل على حاله هذا حتى قتل ، فأخذ الراية سالم مولى أبى حذيفة ، فقال المسلمون : يا سالم إنا نخشى أن نؤتى من قبلك ! فقال : بئس حامل القرآن أنا إذا أتيتم من قبلى ، ثم تقدم وحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه ، وحمى وطيس القتال وكثر القتلى حتى فنى كثير من حملة القرآن وحفاظه ، وقتل من بنى حنيفة عدد عظيم، واختلط حابل الناس بنابلهم، ولم يعرف كرارهم من فرارهم ، وقال المهاجرون والأنصار: إنما نؤتى من قبل الأعراب وأهل البوادى ، وطلبوا إلى أميرهم سيف الله أن يخلصهم

حملة صادقة

فميز الناس بأوصافهم حتى قال بعضهم لبعض : اليوم يستحى من الفرار ، فاشتدت حمية الناس وعظم الأمر ، وثبت بنو حنيفة لوقع السيوف ، ولم يحفلوا بكثرة من قتل منهم، فعرف خالد أن الحرب لا تخف وطأتها ما بقى مسيلمة بينهم فدعاه للمبارزة ، فخرج إليه، فعرض عليه خالد أموراً مما يشتهى ، فأعرض مسيلمة ، متظاهراً بأنه يستشير شيطانه فركب خالد كتفيه حتى أرهقه ، وصاح فى المسلمين : دونكم فلا تقيلوهم ، فحملوا عليهم حملة صادقة حتى أدخلوهم حديقة مسيلمة فرموهم بالنبل ، واقتحموا عليهم الحديقة، وقتلوا

---

(١) التحوز والتحيز : التنحى ومنه قول الله تعالى (أو متحيزا إلى فئة) .

منهم مقتلة عظيمة ، وكان أول من فدى المسلمين بنفسه ، واقتحم باب الحديقة ففتحها للمسلمين فارس المسلمين البراء بن مالك ، وقيل أبو دجانة ، وقيل عباد بن بشر ، وثلاثتهم من الأنصار . وفى حديقة الموت هذه قتل مسيلمة بعد أن كشف لأصحابه قناع ضلالته وعرى لهم خبثة ففت فى أعضادهم ، وكسر شوكة حميتهم ، فقد سألوه وهو منهزم عنهم : أين ما كنت تعدنا ؟ فقال لهم : أما الدين فلا دين ، قاتلوا عن أحسابكم ! !

قتل مسيلمة من قتله ؟

فاستيقن القوم أنهم فى غير شىء ؟ وأنهم قبضوا بأيديهم على الماء . والرواية الصحيحة تقول : إن الذى تولى قتل مسيلمة وحشى مولى المطعم بن عدى قاتل حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء يوم غزوة أحد ، وكان وحشى إذا تحدث عن ذلك يقول : قتلت خير الناس وأنا على جاهليتى وشر الناس وأنا على الإسلام ، وقد تقدم فى حديث نسيبة بنت كعب أن ابنها عبد الله بن زيد هو الذى قتل مسيلمة الكذاب ، ولا يبعد أن يكون عبد الله ووحشى اشتركا فى قتله ، روى البخارى فى الصحيح عن وحشى قال : خرجت مع الناس فإذا رجل قائم فى ثلمة جدار وكأنه جمل أورق ، ثائر الرأس ، فرميته بحربتى فوضعتها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه ، ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته ، فقالت جارية على ظهر بيت : وا أمير المؤمنين قتله العبد الأسود ! !

وروى غير البخارى أن وحشياً قال : لما اختلط الناس فى الحديقة ، وأخذت السيوف بعضها بعضاً نظرت إلى مسيلمة وما أعرفه ، ورجل من الأنصار يريده ، وأنا من ناحية أخرى أريده فهززت من حربتى حتى رضيت منها ، ثم دفعتها عليه ، وضربه الأنصارى فربكم أعلم أينا قتله ، إلا أنى سمعت امرأة من فوق الدير تقول : قتله العبد الحبشى .

بدء النهاية فى المعركة

كان قتل مسيلمة بدءاً لنهاية هذه المعركة القاسية ، فلم يكد يسرى نبأ قتله فى قومه ، حتى انفرط عقدهم ، وانحلت عزائمهم ، ووهنوا أمام المسلمين مع ما نالهم من القتل والجراح ، فتفرق من بقى منهم إلى الحصون ، وتحاجز الناس على النصر والظفر للمسلمين ، والهزيمة والاندحار على أهل اليمامة من الحنفيين .

رأى ذلك مجاعة بن مرارة الحنفى وهو أخيذ[1] فى يد خالد بن الوليد فأقض

---

(١) الأخيذ : الأسير .

مضجعه ، وأقامه وأقعده ، ففكر وقدر ، وأعمل الحيلة ودبر ، وانتهى به تدبيره إلى أن أرسل إلى بقية السيف فى قومه ليلا : أن ألبسوا السلاح النساء والذرية والعبيد ، ثم إذا أصبحتم فقوموا مستقبلى الشمس على حصونكم حتى يأتيكم أمرى .

وبات خالد والمسلمون يدفنون قتلاهم ، ويتكمدون بالنار من شدة ما بهم من الجراح ، حتى إذا أصبح أمر بمجاعة فسيق معه فى الحديد ، وجعل يسبر القتلى ، وهو يريد مسيلمة ، فمر برجل وسيم ، فقال يا مجاعة : أهو هذا ؟ قال : لا هذا والله أكرم منه ؛ هذا محكم بن الطفيل ، ثم قال مجاعة : إن الذى تبتغون رجل ضخم أشعر البطن والظهر ، أبجر بجرته كالقدح ، مطرف إحدى العينين ، وأمر خالد بالبحث عنه بين القتلى وحتى وجدوه فوقف عليه خالد وحمد الله كثيراً ، وأمر به فألقى مع قتلى قومه فى خفير .

خدعة مجاعة

ظن خالد رضى الله عنه أن الهزيمة التى لحقت ببنى حنيفة لم تبق على أحد ممن فيه قوة لقتال منهم ، ولكن خديعة مجاعة الحنفى فوتت على خالد ما كان أمره به أبو بكر من استئصال بنى حنيفة إذا ظفر بهم لسوء صنيعهم بالمسلمين ، وإذا أراد الله أمراً أنفذه وهيأ له أسبابه .

قال خالد رضى الله عنه لمجاعة وهما واقفان على مسيلمة قتيلا : يا مجاعة هذا صاحبكم الذى فعل بكم ما فعل !! فقال مجاعة : قد كان ذلك ياخالد ؟ ولا تظن أن الحرب انقطعت بينك وبين بنى حنيفة وإن قتلت صاحبهم ، إنه والله ماجاءك إلا سرعان الناس ، وإن جماعة الناس وأهل البيوتات لفى الحصون ، فانظر ! فرفع خالد رأسه وهو يقول : قاتلك الله ما تقول ؟ ! قال : أقول الحق ، فنظر خالد فإذا السلاح ، وإذا الحلق على الحصون ، فرأى أمراً غمه وساءه ، ولا سيما وحال المسلمين أمامه يصورهم وقد ملوا القتال بعد أن قتل منهم من قتل ، وعامة من بقى منهم جريح ، وقد لاحت دلائل الرغبة على وجوه كثير منهم فى الوقوف بالمعركة عند هذه النهاية التى توجت رءوس المسلمين بالنصر ودمغت أهل اليمامة بالهزيمة .

غير أن خالد بن الوليد لم يكن بالرجل الذى تهزه الأزمات مهما اشتدت ، ولم يكن بالقائد الذى يغريه النصر بالانسحاب فصاح فى المسلمين : يا خيل الله اركبى ، فاندفع جنوده

الإسلام إلى حومة الوغى يطلبون نصراً يقضى على عدوهم قضاء لا تقوم لهم بعده قائمة ، ولكن مجاعة خشى انكشاف حيلته قبل أن تثمر ما قدر لها من ثمرة تنقذ من قومه من بقيت فيهم من الحياة بقية ، فأسرع إلى خالد يستنزله عن عزيمته بقوله : أيها الرجل إنى لك ناصح ؛ إن السيف أفناك وأفنى غيرك ، فتعال أصالحك عن قومى ، فمال خالد إلى الصلح رقة بالمسلمين ، وقد أصيب منهم أهل السوابق ، وكثرت جراحات سائرهم مع عجف الكراع وطول اللقاء ، فرق لهم وأحب الموادعة ، وقبل الصلح على الصفراء[1] والبيضاء والحلقة[2] والسلاح والكراع[3] ونصف السبى ، فلما فتحت الحصون ، وانجلى الموقف عن خديعة مجاعة ، ولم ير خالد فى الحصون إلا النساء والصبيان والضعفى والعاجزين عن القتال ، قال لمجاعة : ويحك خدعتنى فقال له مجاعة : هم قومى ، ولم أستطع إلا ما صنعت .

الصلح بين التأييد والمعارضة

لقى هذا الصلح فى أول أمره معارضة شديدة من الجانبين ، فعارضه من بنى حنيفة سلمة بن عمير ، وقام يذمر قومه بقوله : قاتلوا عن أحسابكم ، ولا تصالحوا على شىء فإن الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حضر الشتاء .

وهذا كلام رجل مخادع أو مخدوع ينطقه الوتر والضغينة ، ولا يبالى ماوراء ذلك وقد عرف من حال قومه ما عرف مجاعة الذى قال لقومه يرد عليه قوله : يابنى حنيفة أطيعونى واعصوا سلمة فإنه رجل مشئوم قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسيلمة : قبل أن تستردف النساء غير رضيات ، وينكحن غير حظيات فقبل بنو حنيفة قول مجاعة وأجازوا صلحه .

وعارض هذا الصلح من المسلمين فريق من الأنصار بزعامة أسيد بن حضير ، وأبى نائلة ، فإنهما قالا لخالد : اتق الله ولا تقبل الصلح ، فقال خالد والله قد أفناكم السيف ، فقالا : وإنه قد أفنى غيرنا أيضاً ، فقال خالد : فمن بقى منكم جريح ، فقالا : وكذلك من بقى من القوم جرحى ، لاندخل فى الصلح أبداً ، أغد بنا عليهم حتى يظفرنا الله عليهم أو نبيد عن آخرنا ، أحملنا على كتاب أبى بكر : « إن أظفرك الله ببنى حنيفة فلا تبق

---

(١) الصفراء : الذهب ، والبيضاء : الفضة (٢) الحلقة : الدروع (٣) الكراع : الخيل .

عليهم » فقد أظفرنا الله وقتلنا رأسهم ، فمن بقى منهم أكل الشوكة[1] ، وهذا كلام ينطف من سحائب الإيمان ، لا يبالى صاحبه أن يقتل أو يقتل فى سبيل الله ، فهو فائز على أى أمريه اتسكأ ، والإيمان وحده لا يكفى لتوجيه المعارك الحربية ، ولا سيما بعد أن يتنسم الناس شيئاً من روح المهادنة ويسمعوا همساً فى المصالحة ؛ مما يدخل على النفوس لونا من الفتور يستحجبون معه الموادعة ، فلو نشبت بهؤلاء المعركة لم تكن مضمونة النهاية فى قوتها المعنوية ، ومن هنا تشبث خالد وهو أعلم بحال جنده بما كان قد أمضى من الصلح ، ولم تؤثر فيه حماسة الأنصار لرأيهم ، ورأى أنه لا يجوز له أن ينقض ما أبرمه من غير عذر يأتيه من قبل العدو ، ووافقه على رأيه سائر المسلمين .

* * *

كتاب أبى بكر إلى خالد وامضاء الصلح

لم يكد المسلمون يتنفسون بعد إتمام هذا الصلح حتى قدم عليهم مسلمه بن سلامة بن وقش بكتاب من أبى بكر لخالد يقطر دما ، وفيه يقول : « إذا جاءك كتابى فانظر ، فإن أظفرك الله ببنى حنيفة فلا تستبق منهم رجلا جرت عليه المواسى » فعادت الأنصار إلى مقالتها فى معارضة الصلح ، وقالوا لخالد : أمر أبى بكر فوق أمرك . فلم يتزحزح خالد عن رأيه الأول ، وفاء بعهده وذمة المسلمين ، ولكنه لاين الأنصار ، فقال لهم : إنى والله ما صالحت القوم إلا لما رأيت من رقتكم ، ولما نهكت الحرب منكم ، وقوم صالحتهم ومضى الصلح فيما بينى وبينهم ، والله لو لم يعطونا شيئاً ما قاتلتهم وقد أسلموا . وفى هذه الكلمة الخالدية نفحات إسلامية مشرقة ، فهى تأبى أولا إلا أن تخاطب من هؤلاء المتحمسين من جنود الإسلام وجدانهم وعواطفهم ، ثم تأبى ثانياً إلا أن تظهر عزيمة القيادة المسيطرة فى تنفيذ ما أبرمت ، ثم تأبى ثالثا إلا أن تضع هذا العنوان فى وجه تلك الحماسة الإيمانية لتكفكف من غلوائها ، فكيف يقاتل قوما قد أسلموا فأصبح لهم من حق الإخاء الإيمانى ما يردهم إلى موضع الأمن على أنفسهم وأموالهم ؟ وقد رضى الأنصار ما رضيه خالد ورضيه سائر الناس ، فكتب إلى أبى بكر بالصلح الذى تم ، وقال له : « إنى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به ، وحتى عجف الكراع ، ونهك الخف ، ونهك المسلمون بالقتل والجراح » .

---

(١) الشوكة : شدة بأس القتال .

غدرة لم تتم

تم الصلح كما عقده خالد بن الوليد ومجاعة بن مرارة الحنفي ، وأقبل بنو حنيفة على خالد في عسكره يبايعونه على الإسلام ، ويبرأون إليه مما كانوا عليه ، غير أن سلمة ابن عمير وهو حامل لواء المعارضة في الصلح من بني حنيفة كان قد أضمر غدرة بقائد المسلمين ، وأمير الجيوش الإسلامية خالد بن الوليد ، فقال لمجاعة : استأذن لي على خالد أكلمه في حاجة له عندي ونصيحة ، وقد أجمع في نفسه أن يفتك به إن ظفر بالدخول عليه ، فانخدع له مجاعة ، وكلم خالدا ، فأذن له خالد ، والناس في سلم وتسليم وبيعة بالفيئة إلى الله تعالى وإلى دينه القويم ، فأقبل سلمة بن عمير بوجه المريب القلق مشتملا على السيف يريد به ما يريد من فاقرة ، ولكن نور الإيمان كشف لقائد الإسلام عن طوية هذا الغادر ، وكأنما قرأ خالد بفراسة المؤمن على وجه سلمة بن عمير غدرته وسوء قصده ، فلم يكد يراه مقبلا عليه حتى قال : من هذا المقبل ؟ فقال مجاعة : هذا الذي كلمتك فيه وقد أذنت له ، قال خالد:أخرجوه عني ، فأخرجوه ، وكأنما اختلجت نفوسهم بالشك في أمره ، ففتشوه فوجدوا السيف ، فلعنه قومه وسبوه ، وأوثقوه ، وقالوا له : أردت أن تهلك قومك ، وأيم الله ما أردت إلا أن تستأصل بنو حنيفة ، وأيم الله لو أن خالداً أعلم أنك حملت السلاح لقتلك ، وما نأمنه إن بلغه أن يقتل الرجال ، ويسبي النساء بما فعلت ، ويحسب أن ذلك عن ملأ منا .

ولم يجد ذلك مع سلمة شيئاً ، فقد أفلت من قومه وخرج من الحصن الذي أوثقوه فيه ، فعمد إلى عسكر المسلمين قاصداً تنفيذ ما طوى عليه كشحه من غدر وخيانة ، فصاح به عسكر الإسلام ، فقتل نفسه .

رسول خالد إلى أبي بكر

ولما كملت بيعة بني حنيفة على الإسلام ، واستسلم سائرهم أمر خالد بالحصون فألزمها الرجال ، وحلف مجاعة بالله لا يغيب عنه شيئاً مما صالحه عليه ، ولا يعلم أحداً غيب شيئاً إلا رفعه إليه ، ثم فتحت الحصون ، وأخرج ما فيها من السلاح والحلقة والكراع والذهب والفضة وقسمه على الجند ، وعزل الخمس فأرسل به إلى الخليفة ، وكان أبو بكر رضي الله عنه في هم شديد من جراء هذه الموقعة لما كان يعلمه من كلب أهل اليمامة على ضلالهم وشدة شكيمتهم في الحرب ، وجلدهم في القتال ، وأنهم يحاربون وهم في ديارهم وأموالهم وحصونهم ، وذلك أقوى لهم ، فكان يستروح إلى أخبارها بقدر ما يجيء رسول قائده خالد ،

فخرج يوما إلى ظهر الحرة ، ومعه عمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد ، وطلحة ابن عبيد الله ، ونفر من المهاجرين والأنصار ، فلقى أبا خيثمة النجارى رسول خالد إليه ، فقال له ، ولم ينظره حتى يكون هو الذى يحدثه : ما وراءك يا أبا خيثمة ؟ قال: خير ياخليفة رسول الله ، قد فتح الله علينا اليمامة ، وهذا كتاب خالد إليك، فسجد أبو بكر شكرا لله تعالى على هذه النعمة السابغة العظمى ، ثم أخذ يستوصف أبا خيثمة الواقعة ، فجعل يصفها له ويذكر صنيع خالد ، ويسمي من قتل من أهل السوابق وحملة القرآن حتى قال : يا خليفة رسول الله أتينا من قبل الأعراب ، انهزموا بنا وعودونا ما لم نكن نحسن حتى أظفرنا الله بعد .

ولما ذكر أبو خيثمة الصلح الذى أجراه خالد وانتهت به الموقعة قال أبو بكر : ليت خالدا لم يصالحهم وأنه حملهم على السيف ، فما بعد هؤلاء المقتولين يستبقى أهل اليمامة، ولن يزالوا من كذابهم فى بلية إلى يوم القيامة إلا أن يعصمهم الله .

هل وفد خالد على أبى بكر بعد اليمامة

كان إرسال خالد لأبى خيثمة تعجيلا ببشرى الفتح والنصر لعلمه بما كان يساور الخليفة وسائر المؤمنين المقيمين بعاصمة الإسلام من الإشفاق على جند الإسلام الذين يواجهون هذه المعركة القاسية ، ولما استقر به الأمر ، واطمأن إلى النهاية القصوى ؛ بعث بوفد بنى حنيفة إلى أبى بكر ، وهنا تختلف روايات التاريخ ، فبعضها يذكر أن خالداً أرسل الوفد ولبث فى اليمامة ينتظر أمر الخليفة إليه ، فكتب له أبو بكر : « أن سر إلى العراق حتى تدخلها » وبعض الروايات يذكر أن خالداً لما فرغ من بنى حنيفة قفل إلى المدينة ومعه سبعة عشر رجلا من سراواتهم ، فيهم صاحبه مجاعة بن مرارة الحنفى وإخوته ، فدخل بهم المسجد ، وعليه قباء ، عليه صدأ الحديد ، متقلدا بالسيف ، معتما وفى عمامته أسهم ، فمر بعمر بن الخطاب فلم يكلمه ، ودخل على أبى بكر فرأى منه ما يحب ، وسأله أبو بكر عن أهل البلاء فى هذه الوقعة ، فقال خالد : كان البلاء كله للبراء بن مالك والناس له تبع ، ثم قال الصديق للحنفيين : ويحكم ما هذا الذى استنزل منكم ما استنزل؟ قالوا : يا خليفة رسول الله قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، كان أمراً لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ؛ ثم سألهم عن أسجاع مسيلمة فذكروا له شيئاً منها فقال لهم :

« سبحان الله ! ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر . فأين يذهب بكم ؟ » .

ونحن نشك فى رواية قدوم خالد إلى المدينة مع وفد بنى حنيفة ، ونرجح عليها رواية كتب أبى بكر إليه بالسير إلى العراق على رأس جيوشه الظافرة من مقامه باليمامة، لأن رواية قدوم خالد المدينة لم تذكر كيف ترك خالد جيوشه الواترة بين قوم موتورين . مهما قيل عن استسلامهم ، فإنه لم يبلغ أن يكون استسلاماً يحولهم بين عشية وضحاها إلى طبيعة غير طبيعة البشر .

وهذه الرواية لم تذكر من هو القائد الذى أقامه خالد مقامه فى إمارة الجيش مدة غيبته حتى يعود ، مع بعد المسافة وبطء المواصلات واضطراب الأحوال .

وهذه الرواية فيها مشابه من رواية قدوم خالد المدينة بطلب من أبى بكر على إثر قتل مالك بن نويرة ، تلك الرواية التى تصف خالداً فى هيئته وزيه وهو داخل المسجد بما تصفه به هذه الرواية من لبس القباء وعليه صدأ الحديد ، ومن تقلد السيف والتعمم وغرز أسهم فى عمامته ، غير أن تلك الرواية تزيد على هذه بما زعمته من موقف غير كريم وقفه عمر بن الخطاب من خالد بن الوليد ، وقد ناقشنا تلك الرواية فى مكانها ، وأبدينا فيها شكاً ملحاً لا يقيمها بين سائر الروايات على ساق .

فلعل صاحب هذه الرواية من المتكثرين فى روايات التاريخ لا يبالى ما أخذ وما أعطى ، فلفق أو لفق عليه هذه الرواية منتزعة من صاحبتها تلك، وهما من وادى الزيف السحيق .

* * *

زواج خالد بلت مجاعة

انتهى القائد المظفر خالد بن الوليد رضى الله عنه من حرب أهل اليمامة ظافراً منتصراً بعد أشد المحنة ، وأقسى الابتلاء ، ولكن خالداً لم يكن من أولئك الرجال الذين تهزهم قواصم المحن ، أو تزعزعهم عواصف البلايا ، وإنما هو طرز من الرجولية فريد لا تجود به الحياة إلا بعد مرور الحقب ، وتعاقب الأجيال .

لم يكد خالد ينتهى من عمل السيف ، ويطمئن على جرحى المسلمين ، ويقسم بين المجاهدين غنائمهم حتى التفت إلى صاحبه مجاعة بن مرارة الحنفى ، وقد عرف مكانه من

قومه ، ومكان قومه منه ، خاطباً إليه ابنته !! وهذا من أعجب ما ينتظر فى هذا الموقف من قائد حربى خاض معركة ، يصف هو لها وأثرها عليه وعلى جيشه بقوله : « شهدت عشرين زحفاً فلم أر قوماً أصبر لوقع السيوف ، ولا أضرب بها ، ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة » ولقد كثرت فيها جراحه حتى قال عن نفسه : « وما بى حركة من الجراح ، ولقد اقتحمت حتى أيست من الحياة وتيقنت الموت » فكيف اتسعت إذاً مشاعر خالد فى هذا الموقف العصيب إلى هذه العاطفة المشبوبة بالحيوية الدافقة التى تتوجه إليها النفس البشرية وهى — فى غالب الأمر — فارغة من الهم ، بريئة من الآلام فى متعارف طبائع البشر ؟

رجولية بطل وبطولة رجل

أجل إن تاريخ خالد بن الوليد صفحة من خصائص الرجولية الكاملة فى أسمى معانيها ؛ وهو هنا فى هذا الموقف يتجلى ثابت الجنان رابط الجأش، قوى النفس، فوار الحساسية والعواطف ، خصب الحيوية ، والرجل إذا فقد خصوبة الحيوية فقد فقد كثيراً من خصائص الرجولية ، وهذا مقرر عند علماء الاجتماع والأخلاق وذوى المباحث النفسية، وهو ملحوظ فى تاريخ الأبطال وعظماء التاريخ ، وقلما عقد التاريخ فصلا لعبقرية من العبقريات، ولا سيما عبقرية الحروب والبطولة ، إلا وفى ضمن صفحاتها صفحة عن اكتمال الحيوية عند صاحب تلك العبقرية .

وقد فرغ الناس قديماً من الحديث عن صلة الجسم بالعقل ، وجاء العلم الحديث وأقر ما اتفق عليه العلماء الأقدمون من قوة هذه الصلة حتى أصبح قولهم: « العقل السليم فى الجسم السليم » قاعدة من قواعد الحياة الصحيحة القوية ؛ وليس أصدق حجة على سلامة الجسم الذى يستقر فى خلاياه العقل السليم من خصوبة الحيوية ووفور القوة الجنسية التى ناط الله تعالى بها تجدد الحياة فى نماذج النوع المتتابعة بالتوالد .

وقد كان خالد بن الوليد من وفور الحيوية بالموضع الذى يجعله صورة للرجولية بالحية الفوارة بإمداد الحياة . وهو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ألان الدين قناتهم لشريعته وأحكامه ، فكان من القوامين عليها بالقسط ، والشريعة الإسلامية هى الشريعة الفذة التى قدرت وفور الحيوية فى الإنسان حق قدرها ، ولم

تغفل شأنها فى الحياة ، فكانت بذلك متمشية مع الفطرة بعيدة عن التزمت والكبت ، وكانت واقعية أمام الحياة ، وأمام الناس .

ومن أحق من قائد جيوش الإسلام خالد بن الوليد وهو على ماوصفنا من وفور الحيوية أن يكون نموذجاً لطلاقة الشريعة الإسلامية ، وأن يكون عروة من عرى الترابط بين الأسر الإسلامية وبيوتات العرب ، وقد بلغ منهم مآرب للإسلام ، وهو فى أشد الحاجة اليهم ، ليبلغ بهم من الأمم الآخرى ما أراده الإسلام ؟

استجاب خالد رضى الله عنه إلى قوة نفسه ووفور حيويته من طريق هذه الشريعة المطهرة ، ولم يعبأ بما عسى أن يقال برغم صاحبه مجاعة الذى لفت نظره إلى مايتوقعه من القالة عليه بقوله : « مهلا ! انك قاطع ظهرى وظهرك عند صاحبك ، إن القالة عليك كثيرة ، وما أقول هذا رغبة عنك » فأبى خالد أن يستمع إلى قول مجاعة ، ورد عليه نصيحته بقوله : « زوجنى أيها الرجل ، فإن كان أمرى عند صاحبى على ما أحب فلن يفسده ما تخاف على ، وإن كان على ما أكره فليس هذا بأعظم الأمور » .

وهذا كلام تمليه الحكمة الحازمة ، والإرادة القوية التى لا تلين أمام وشاية ، ولا ترهب سعاية ، فلو لم تكن الدولة فى حاجة إلى بطولة خالد لكان خالد فى أشد الحاجة إلى الاعتزاز بنفسه ، وكأن صاحبه مجاعة لم تقنعه هذه الحجة الثائرة ، أو هو أراد أن لا يقتنع ليستفز عزيمة خالد ، ويستثير حميته حرصاً على مصاهرته ؟ فقال له : « قد نصحتك ، ولعل هذا الأمر لا يكون عيبه إلا عليك » .

عتب أبى بكر ودفاع خالد

وقع ما ظنه مجاعة بعد ما أجاب خالداً إلى رغبته وزوجه ابنته ؟ فقد بلغ الخبر أبا بكر فغضب له ، وكتب إلى خالد يعاتبه عتاباً أقرب إلى التعنيف والتقريع منه إلى الملامة والعتاب ، فقال له : « يا خالد ابن أم خالد ! إنك لفارغ تنكح النساء وتعرس بهن وببابك دماء ألف ومائتين من المسلمين لم تجف بعد ، ثم خدعك مجاعة عن رأيك فصالحك عن قومه ، وقد أمكنك الله منهم » فلم تضعف عزيمة خالد أمام هذا التهديد بل كتب إلى الخليفة يدافع عن نفسه ، وأرسل بكتابه إليه مع أبى برزة الأسلمى فقال : « أما بعد فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور ، وقرت بى الدار ، ماتزوجت إلا إلى امرىء لو عملت إليه من المدينة خاطباً لم أبل ؟ دع إنى استثرت خطبتى إليه من

تحت قدمى ، فإن كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو دنيا أعتبتك؟ وأما حسن عزائى عن قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يبقى حياً أو يرد ميتاً لأبقى حزنى الحى ورد الميت ، ولقد اقتحمت حتى أيست من الحياة وأيقنت الموت ، وأما خدعة مجاعة إياى عن رأيى فإنى لم أخطىء رأى يومى ، ولم يكن لى علم بالغيب ، وقد صنع الله للمسلمين خيراً ، أورثهم الأرض وجعل العاقبة للمتقين) .

تحليل وتوضيح

إذا تأمل الباحث فى كتاب أبى بكر إلى قائده البطل ، وفى رد خالد عليه تجلت أمامه العبقرية الخالدية فى أقوى صورها وأسطع مظاهرها ؛ فالخليفة الحليم الرشيد يعيب على قائده أنه فارغ النفس من الهموم ، لا يشغله ما كان حريا أن يشغل غيره ممن يقف فى موقفه ، ويعيب عليه أنه لم يحزن على قتلى المسلمين ، ودماؤهم لا تزال ببابه لم تجف بعد ، حزناً يصرفه عن التفكير فى الزواج والتعريس بالنساء استجابة لعواطفه المشبوبة ، ويعيب عليه أنه خدع عن رأيه فصالح القوم بعد أن أمكنه الله منهم ، وكان يستطيع لو أراد أن يستأصل شأفتهم ، ولا سيما أنه يخطب إلى الرجل الذى خدعه فيرتبط معه برباط المصاهرة بعد الذى كان منه .

جاء رد خالد على هذه المآخذ رداً حازماً فى لين ، صريحاً فى صدق ، قوياً فى هدوء فهو يرى فى رده أن النصر ولو مع التضحية لا يبقى فى النفوس العظيمة آثار الآلام ولواعج الأحزان ، وقد تم للقائد السرور بالنصر المؤزر ، وقرت به الدار ببسط سلطانه على أعدائه ؛ ويؤكد خالد حجته بما يبرر خطبته إلى هذا الرجل الذى خدعه حتى لا تندفع الأوهام السقيمة فى التظنن بالقائد العبقرى كما وقع هذا التظنن فى زواجه بامرأة مالك ابن نويرة ، فهو يعلن أنه قد خطب إلى رجل هو سيد قومه مما يمنعه أن يجعل الخطبة إليه وسيلة من وسائل الاستقرار وتطييب النفوس ، على أن هذه الخطبة سعت إليه ، ولم يحرك لها المطايا ، ولكنه استثارها من تحت قدميه ، ولو عمل إليها من المدينة قصداً لها ما كان عليه فى ذلك ملام ولا عتاب ؛ فإذا كان الخليفة الأعظم كره له ذلك لضرر لحقه فى دينه أو دنياه قبل عتبه ، ولقد أبان خالد أبرع إبانة عن حسن عزائه على قتلى المسلمين ، وأنه حزن عليهم حزنا كان كفيلا أن يرد الحياة إليهم لو كان حزن يرد الحياة إلى ميت ، وكان كفيلا أن يخلد من كان من المسلمين باقياً لو كان الله كتب البقاء والخلود لأحد من الأحياء .

ولم يكن خالد بالقائد الذى يعرض جنده للموت ويقف هو من ورائهم يأمر وينهى، ولكنه كان القائد الذى يقتحم أمام جنده فى طلب الموت واماهم بنفسه ، وليكون لهم المثل الأعلى فى الفداء والتضحية ، والاستهانة بالحياة فى سبيل الحق ، وإذا كان صاحبه مجاعة خدعه فهو لم يخدع والحرب دائرة الرحى ؛ ولم يخطىء رأى يومه حتى يزن(١) بغفلة لا تليق بعباقرة القادة وأبطال العسكريين ، ولم يكن له علم بالغيب فيقرأ ماطواه مجاعة بين جوانحه ، وماقيمة هذه الخديعة بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وباء العدو بالخذلان وذل التسليم ، وتوج الله هامات المسلمين بالنصر ، وأورثهم أرض أعدائهم وجعل لهم عاقبة المتقين ؛ فماذا بقى على القائد العبقرى بعد ذلك ؟

إن من خصائص العبقرية أن تعلو على آفاق العامة والخاصة من الناس فلا تقعدها الأحزان الممضة من الوصول إلى أهدافها ، ولا تبطرها المسرات المبهجة فيبدد الغرور مذخورها من القوى المعنوية الدافقة ، وعبقرية خالد بن الوليد كما تصورها سيرته . طرز من العبقريات الفريدة فى جميع مواقفها .

ولقد كان لرد خالد على أبى بكر هذا الرد الرصين تأثيره القوى فى نفس أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فإنه لما بلغه رق لخالد وعذره ، ووكد له العذر عنده شهادة أبى برزة الأسلمى ، وكان رسول خالد إلى أبى بكر ، فإنه قال : « ياخليفة رسول الله ما يؤبن(٢) خالد بجبن ولا خيانة ، ولقد اقتحم حتى أعذر ، وصبر حتى ظفر ، وماصالح القوم إلا على رضاء ، وما أخطأ رأيه بصلح القوم ، إذ لا يرى النساء فى الحصون إلا رجالا » فقال أبو بكر : « صدقت ؛ لكلامك هذا أولى بعذر خالد من كتابه إلى »

وإنما كان كلام أبى برزة أولى بعذر خالد عند الصديق لأن أبا برزة أبان عن الجهة التى كانت منها الخديعة فاطمأن الصديق إلى الواقع الذى كان لا يستطاع غيره .

رضى الخليفة الموفق عن قائده المظفر فسيره إلى فتح العراق وحرب فارس، والفرس إحدى دولتين كانتا تتبادلان زمام السيطرة على الدنيا يومئذ . وهنا يفرغ التاريخ من سفر البطولة الخالدية فى جزيرة العرب ، وهى مجال أضيق من أن تتسع آفاقه لآيات

---

(١) يزن : يتهم .

(٢) يؤبن : يتهم .

العبقرية فى مثلها العامة الكاملة ونماذجها الفاضلة ، وأبو بكر الصديق أعرف الناس بالرجال ، وهو وأعرف بخالد قائده المختار ، فقصد إلى أن يرمى به الفرس بعد أن أقرع بين الإسلام فى العرب ؛ والفرس كانوا أهيب عند العرب من أن تطمح أنفسهم لحربهم ، ولكن خالد بن الوليد القائد الذى لم تنكس له راية ، ولم يهزم له جيش ، والذى كان الرعب باسمه أسرع إلى قلوب أعداء الإسلام من سيفه إلى أعناقهم ، هو الذى جرأ العرب على الفرس حتى خاضوهم من أوزار الظلم ، واستنقذوهم من آصار الاستبداد حتى تفيئوا وإياهم ظلال السلام والعدل والرحمة فى ساحة الإسلام .

الفصل العاشر

دولة الفرس بعد العرب
فتح العراق

أسس الفتح الإسلامى — مقومات الدولة فى الإسلام — العراق باب فارس — الإسلام يثير فى العرب روح المغالبة — المثنى بن حارثة وفتح العراق — أبوبكر يأمر خالد بغزو فارس — سياسة خالد فى حرب الفرس — من خالد بن الوليد إلى طارق بن زياد — تلاحق الهزائم بالفرس — واقعة «المذار» — واقعة «الولجة» — نهج خالدى فى إثارة الحماسة — واقعة «أليس» — غرور فارسى أجوف — واقعة «أمغيشيا» — عبقرية خالد فى نظر الصديق — فتح الحيرة — حيلة ومكيدة — عزمة خالدية — محاصرة قصور الحيرة — براعة فى المفاوضة — نظرة منبهة إلى عوامل الفتح الإسلامى تحليل — عدل فوق الرحمة — عهد خالد لأهل الحيرة — الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية — أثر فتح الحيرة — أقصوصة طريفة — أقصوصة أخرى — غزو الفرس فى عقر دارهم — تيمن خالد بالفأل — واقعة « الأنبار » — خطة سياسية — فتح دومة الجندل — شهادة خصم — وقائع «الخنافس» و «الحصيد» و « المصيخ » — إنتصار خالد بالرعب — مناوشات وتطهير — واقعة « الفراض » .

أسس الفتح الإسلامى

كانت واقعة اليمامة أعظم وقائع الإسلام بالمرتدين من العرب، وكانت نهاية تلك الحروب الداخلية فى جزيرة العرب ، وبالفراغ منها تم للإسلام إنشاء قاعدة فى بناء دولته الكبرى ، وقد اعتمدت هذه القاعدة على وحدة الغاية ووحدة اللغة ، ووحدة الدين ، ووحدة العنصر القومى ، ووحدة الوطن والمقر .

والإسلام فى طبيعته النظرية، والعملية : شريعة ودولة؛ وقد استقرت أسسه، وكمل بنيانه باعتباره شريعة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا الجانب هو المعنى بقول الله تعالى فى القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » وبقى شطره باعتباره دولة تقوم على حماية الشريعة وتنفيذ نظمها وقوانينها وبسط سلطانها ضماناً لإقرار الحق والعدل بين أبناء المجموعة الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ ديناً فى عنق هذه الأمة العربية الموحدة على أنها هى القاعدة العظمى لدوله الإسلام الكبرى .

ومن هنا ترك الإسلام للأمة أمر نظام الحكم فى الدولة تختاره على مقتضى أطوار الحياة الصالحة فى مدارج الزمن ، بعد أن ضمن لها مقومات البناء وحاطها بسياج من الضمانات القوية الثابتة .

مقومات الدولة فى الإسلام

وقد أغضى الإسلام فى بناء دولته الكبرى على بعض ما اعتمد عليه فى بناء قاعدة هذه الدولة . توسعاً فى ربط الإنسانية ، وفى إهدار المظاهر الضيقة فى روابط الحياة ، فأهدر العنصرية الطائفية والوطنية القومية ، وأحل محلهما العنصرية الإنسانية، والوطنية العالمية ، وأهدر الإخاء القبلى ، وأقام مقامه الإخاء البشرى . وسكت عن عروة اللغة بعد ما أحاط العربية بسياج من الضمانات يجعلها على مر الزمن وثيقة الوجود ضمن الروابط العامة ، وإن لم تكن من أصولها ، وحافظ فى بناء الدوله الإسلامية الكبرى على وحدة الدين والغاية ، ثم مزج بينهما فى عروة واحدة هى عروة « الإخاء » العام التى يدور عليها فلك الشريعة فى الإسلام .

العراق باب فارس

على هذا الأساس الخالد بدأت الفتوحات الإسلامية ، وكان أول ما اتجهت إليه أنظار الخلافة الصديقية فتح العراق لأنه باب فارس إحدى دولتين ملكتا زمام الحياة يومئذ، واعتصمت كلتاهما بالحواجز العنصرية الطائفية والوطنية القومية المتغطرسة . وأهدرتا عروة الإخاء الإنساني فكان لا بد للإسلام من أن يعالج أمر هاتين الدولتين ، ويحطم فيهما هذه الحواجز الخانقة التي اعتمدتا عليها في بسط ما كان لهما من سلطان على جانبي الأرض.

الإسلام يثير في العرب روح المغالبة

والعراق يومئذ عربي اللغة والعنصر ! ولكنه فارسي الحكم ، ومنذ أحس عرب العراق صوت الإسلام يدوى في أرجاء الجزيرة العربية قويا قاهرا تحركت فيهم غريزة المغالبة لهذه الدولة العظيمة المصاقبة لهم، وقد كانت عندهم يوم أن كانوا لا يعتمدون على وحدة سوى وحدة اللغة،فلا يعرفون دينا قيما يجمعهم،ولا يعرفون هدفاً واحداً يقصدون إليه ، — أهيب من موت الفجاءة فلما هز الإسلام فيهم أريحية الكرامة الذاتية ، وبصرهم بأنفسهم ، وأشعرهم بشخصيتهم الأممية وعرفهم أن لهم رسالة في الحياة أسمى وأجل من كل ما عرفوه أو سمعوه ، وأمدهم برابطة الإخاء العام في وحدة الدين والغاية ، لما صنع الإسلام بالعرب هذا الصنيع ضروا بفارس وجرءوا عليها، فناوشوها ونالوا منها ، فإذا أرادتهم كان لهم في فيافيهم الفسيح منطلق أمين، ومهرب ممكين ،حتى إذا عجموا عودها، ورازوا[1] قناتها ، وعرفوا خبيء أمرها،ورأوا سوس الفتن ينخر في عظامها ،وقد مزقت المذاهب والنحل أديمها ، فمن زرادشتية ،إلى مانوية ، إلى مزدكية، فوق ما كان يعانيه الشعب من إذلال حكامه . واستبدادهم به. لم يعد لذلك الجسم الضخم المترامي في أكناف الأرض طولا وعرضا تلك الهيبة التي كانت لفارس لدى العرب قبل الإسلام .

المثنى بن حارثة وفتح العراق

كتب المثنى بن حارثة الشيباني — وكان أحد أولئك الأبطال الذين رازوا قناة فارس وعجموا عودها ، فعلموا علمها — إلى أبي بكر الصديق يستمده بجيش لغزو فارس وفتح بلادها . وكانت أخبار مناوشات المثنى ووقائعه مع الفرس تبلغ أبا بكر فيعجب ويقول: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني ،

---

(١) راز الأمر : جربه .

فكتب له أبو بكر عهدا بالإمارة على من قبله ،وكانت الفرصة مواتية أمام الخليفة لأن بطل الإسلام المظفر ، وقائده الذى لم تهزم له راية ، فاقىء عين الردة ، ورئيس هيئة أركان حرب الخلافة الصديقية خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله كان قد فرغ من مهمته العظمى فى الوطن العربى ورجع العرب إلى حظيرة الإخاء الإسلامى .

* * *

أمر أبى بكر خالدا بغزو فارس

أرسل أبو بكر إلى خالد يأمره بغزو فارس بادئا بثغر أهل الهند والسند ، وهو يومئذ الأبلة ليأمن أن يؤتى المسلمون من خلفهم ، ثم وجه عياض بن غنم رديفا لخالد ، وأمره أن يغزوها من الشمال بادئا بالمصيخ ، وأمرهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ، وأن لا يستعينا بمرتد ،وأن يسيرا بمن يحب الجهاد معهما فى هذا الوجه ، ولا يستكرها أحداً من الناس ، فلما أعلنا ذلك فى الناس انصرف كثير ممن كان معهما ، فاستمدا أبا بكر ، فأمد عياضا بعبد بغوث الحميرى ، وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمى ، فقال له بعض من كان حاضره : أتمد رجلا انفض عنه جنوده برجل واحد ؟ فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا ؛ وقد صدق أبو بكر وكان بصيرا بالرجال ، فلقد كان القعقاع مع خالد جيشاً فى إهاب رجل ؛ ورجلا فى عزيمة جيش .

سياسة خالد فى حرب الفرس

ثم كتب أبو بكر إلى المثنى بن حارثة ومن معه كتابا يأمره فيه بطاعة خالد ، فانحدر المثنى إلى خالد جوادا كريماً مطواعا ؛ وكان جند خالد الذين ساروا معه فى هذا الوجه عشرة آلاف ، ولحقه المثنى فى ثمانية آلاف ، غير أن هذا العدد الذى اجتمع فى جيش المسلمين لم يكن شيئاً إلى جانب العدد الكثيف الذى اجتمع لهرمز قائد الفرس ، فعمد خالد إلى بعض التدبير السياسى ؛ فقسم جيشه إلى ثلاث فرق ، ووجه كل فرقة فى طريق غير التى سلكتها الأخرى ، وجعل المثنى بفرقته طليعة تقدمته إلى العدو ، ثم سرح عدى بن حاتم ، وعاصم بن عمرو على فرقة تبعت فرقة المثنى ، وخرج خالد بعد ذلك ومعه سائر الجيش ، وكان قد وعد أصحابه الذين سيرهم مكانا يقال له « الحفير » عرف باسم ماء لباهلة ، وهو عند أول منزل من البصرة بعد ماعرفت لمن يريد مكة ، وكتب خالد كتابا إلى هرمز يدعوه إلى الإسلام ،أو عقد الذمة ، أو المناجزة فقال : «أما

بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرار الجزية ، وإلافلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » وفى هذه الجملة الأخيرة من كتاب القائد العبقرى مايشرح معجزةالفتح الإسلامى ، وأن هذه المعجزة إنما تمت لأن الإسلام أيقظ فى الأمة العربية خصائص الطبيعة الفياضة بالقوى الروحية التى لا نقيم ورنا للعدد والعدة إذا لم يكونا على جسر من الإيمان واليقين .

بلغ كتاب خالد رضى الله عنه هرمز، وسمع بمسيره إليه فكتب هرمز إلى أزد شير ملك الفرس يعلمه ويستمده ،وتعجل بمن معه وسبق إلى المكان الذى كان جند الإسلام تواعدوه للاجتماع عليه ، فلما علم خالد بمنزل هرمز عدل عن « الحفير » إلى كاظمة ، فابتدر هرمز أيضا . ونزل على الماء واضطر خالد أن ينزل بجيوش المسلمين على غير ماء ، فحدثه بعض أصحابه فى ذلك فقال للناس : «حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » نعم وقد صار الماء بل صار النصر المؤزر والظفر الباهر لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ، جند الإسلام .

من خالد بن الوليد إلى طارق بن زياد

إن القائد العبقرى خالد بن الوليد لم يقحم جنده فى منزل لاماء فيه دون أن يحاول ارتياد أطيب المنازل لهم ، ولكن الفرصة لم تسعفه ، فهل يترك جنوده فريسة لليأس يدلف إلى قلوبهم فيستولى عليها ؟ إن العبقرية لاتعرف اليأس ، ولا يعرف اليأس طريقها ؛ وهى أخصب ماتكون أملا ، وأقوى عملا إذا ادلهمت الأزمات ، فإذا لم يكن الماء فى أيدى المسلمين ، وهم فى جانب ذلك قليل عددهم ، فليستمدوا من إيمانهم قوة ، ومن يقينهم عدة ، ومن أرواحهم أسلحة ،وليجالدوا على الماء عدوهم حتى ينتزعوه منه ، وهذا الذى قدره القائد هو الذى أملته الحياة فى صحائف الواقع التاريخى المجيد.

وإذا كانت هذه الكلمة العظيمة على لسان بطل الإسلام خالد بن الوليد مفتاح العراق وباب فارس ، فقد كانت هى فى إطار آخر على لسان طارق بن زياد مفتاح الأندلس؛ فهل كانت نوابغ خالد ومبادئه موضع دراسة القواد والأبطال ممن جاء بعده؟ نعم؛ فهذا ما نطمئن إليه ، أوهكذا تتلاقى أرواح العبقريين فى ساحات الخلود .

***

تلاحق الهزائم بالفرس

كان هرمز القائد الفارسى أخبث رجل جاور العرب وأغدره ، حتى كان خبثه مثلا شرودا فيما بين محافل العرب وقبائلهم ، فلما رأى جموع المسلمين أخذوا مصافهم للقتال، وقرأ فى وجوههم صدق ماقال قائدهم : إنهم أحرص على الموت من عدوهم على الحياة ، وقرأ فى وجوه أصحابه من العلوج دلائل الجبن والخور قرنهم بالسلاسل لئلا يفروا ؛ ومن ثم سميت هذه الوقعة فى كتب التاريخ وقعة «ذات السلاسل» . ثم دعا هرمز خالدا للمبارزة ، وأضمر له غدرة واطأ عليها أصحابه وعلوجه ، فمشى إليه خالد راجلا فاحتضنه، وحمل العلوج على خالد تنفيذاً لما اتفقوا عليه مع هرمزهم ، فلم يشغل ذلك خالداً عن شدة وطئه على هرمز ، وهنا تحققت فراسة أبى بكر الصديق فى القعقاع بن عمرو حين أمد به وحده خالداً ، فقد حمل على أهل فارس حين رآهم يحملون على قائده خالد وهو مشغول بمبارزة قائد الفرس هرمز ، حتى كشفهم ومكن خالداً من قتل القائد الفارسى وبدأت هزيمة الفرس وركب المسلمون أكتافهم ، وأخذوهم قتلا وأسرا وبعث خالد يبشر أبا بكر بالفتح ، وبعث إليه بالخمس بعد أن قسم الغنائم على أهلها ، وأرسل فيما أرسل سلب الهرمزان ، وفيه قلنسوته المفصصة بالجواهر، وكانت قيمتها مائة ألف ،لأن الهرمزان كان ممن تم شرفه فى فارس. وكانت تلك سنتهم مع أمثاله ، فنفلها أبو بكر قائده خالداً رضى الله عنه .

كان الهرمزان قد كتب إلى ملكه أزد شير بخبر الجيوش الإسلامية قبل أن يتعجل لقاءهم بمن معه ، وكتب إليه يستمده ، فأمده بجيش يعدل فى كثافة عدده جيشه تحت قيادة «قارن بن قرياقس» أحد شجعان الفرس وقرن الهرمزان فى تمام الشرف عندهم.

واقعة « المذار »

ولما قتل الهرمزان وانهزم جيشه لايلوى من نجا منه من القتل أو الأسر على شىء ألتقى فلهم بجيش قارن فى مكان بين واسط والبصرة يقال له : « المذار » فتذامروا وقال بعضهم لبعض . إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا ، فاجتمعوا على تعبئة واحدة ، وبلغ خبر اجتماعهم قائد الإسلام خالد بن الوليد فنهد إلى لقائهم على تعبيته التى لقى عليها جيش الهرمزان ، فاقتتل الفريقان على حنق وحفيظة ، وبرز «قارن» قائد الفرس يدعو للمبارزة، فانهض إليه خالد ليورده ماأورد الهرمزان قبله ، ولكن بطلا آخر من أبطال المسلمين شرى نفسه وفدى قائده فكان أسرع إلى العلج يبارزه ، وذلك هو أبيض الركبان

معقل بن الأعشى ، ولم يكد يحاوله حتى قضى عليه ، فولت جيوش فارس الأدبار ، وكان للمسلمين فيهم مقتلة عظيمة ، يقدر بعض المؤرخين عدد القتلى منهم بثلاثين ألفا سوى من غرق أو أو غل فى الهرب فلم يعثر له على أثر .

واقعة « الولجة »

كبر على الفرس تلاحق الهزائم التى حلت بجيوشهم ، وقتل أشجع أبطالهم على أيدى هؤلاء العرب الذين كانوا لا يجرؤن قبل اليوم على مواقفتهم ؛ فأرسلوا جيشا كثيف العدو قوى العدد بقيادة بطل من أبطالهم يدعى : « الأندرزغر » ثم أمدوه بجيش عليه « بهمن جاذويه » واجتمع الجيشان بمكان يقال له « الولجة » وأعجب قائد الفرس ما رأى من كثرة جنده وتمام أسلحتهم ، وبلغ خالد تجمعهم فنهض إليهم ، وخلف سويد بن مقرن ليحمى ظهره ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق ، سار على رأس فرقة منها لملاقاة العدو ، وجعل من فرقتين كمينا بقيادة بسر بن أبى رهم ، وسعيد بن مرة ، وهذه خطة حربية ماهرة ، تبين حذق خالد ودهاءه فى إدارة دفة الوقائع وملاقاة الأعداء مهما تكاثف عددهم .

التقى الجمعان واستعرت نار الحرب بينهم ، وطال الأمر على الناس ، وعظم الخطب على الفريقين حتى نفد الصبر منهما ، وإذا بالكمين الخالدى يفاجىء العدو فيكتنفهم من جوانبهم ، وخالد بفرقته يأخذهم من بين أيديهم ، حتى دارت عليهم الدائرة فولوا الأدبار منهزمين ، ومضى قائدهم « الأندرزغر » على وجهه من الرعب لا يلوى على شىء ، فمات عطشا .

نهج خالدى فى إثارة الحماسة

ثم قام خالد رضى الله عنه فى المسلمين خطيباً يرغبهم فى فتح بلاد العجم فقال : «ألا ترون إلى الطعام كرفغ[1] التراب ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه » .

هذه كلمة من كلمات القائد العبقرى جليلة الخطر عظيمة الأثر تصور ما أوتى هذا البطل من حكمة سياسية وعرفان بحاجات النفوس ووسائل الدعوة إلى الجهاد والترغيب

---

(١) رفغ التراب : جاء فى اللسان قوله : وجاء فلان بمال كرفغ التراب فى كثرته ، وترابه رفغ وطعام رفغ : لين ، قال بعضهم : أصل الرفغ اللين والسهولة .

فى الفتح ، فهو يصور لجنده الحياة الناعمة ، والرفه الذى يتقلب فيه هؤلاء الأعداء ، ويلفت نظر المسلمين إلى ماهم فيه من بؤس الحياة والحرمان ؛ وهو تقديم بديع يقصد به إلى إعداد النفوس جميعها لاقتحام هذه الرغائب ، سواء فى ذلك المؤمن الصادق والمؤمن الطموح فى نعيم هذه الدنيا، ثم يقفى على ذلك بالإشارة إلى أن الجهاد لله واجب فى سبيله لنشر دينه والدعوة إليه ، ثم هو لاينسى جانب المغالبة فى النفوس البشرية والتنافس فى سعة العيش ، فيلفت نظر جنوده إلى من تخلف عنهم متثاقلا عن الجهاد وفوزهم دونه بهذا الخير العظيم .

واقعة « أليس »

كان جيش « الأندرزغر » قد جمع إلى جندفارس عرب الضاحية ، ومتنصرة بكر ووائل ، وقد أصيب هؤلاء ، بمثل ما أصيب أولئك من القتل والهزيمة ، وكان فيمن قتل من نصارى العرب ابن لجابر بن بجير ، وابن لعبد الأسود العجلى ، وهما رأسان من رءوس العرب المتنصرين الذين ارتضوا ظالمين أن يكونوا مع أهل فارس على بنى أبيهم فغضب لغضبهما من كان على شاكلتهما من قومهما، وكاتبوا الفرس أن يكونوا معهم يدا واحدة على المسلمين . وقاد هؤلاء العرب عبد الأسود العجلى ، وقاد الفرس « بهمن جاذويه » الذى أناب عنه قائدا آخر يقال له «جابان» ورجع « بهمن » إلى أزدشير يجدد به عهدا ويشاوره ، وقدم « جابان » بجند فارس على حلفائهم نصارى العرب فاجتمع عليه منهم نصارى عجل ،وتيم اللات ،وضبيعة ،وعرب الضاحية من أهل الحيرة.

غرور فارسى أجوف

بلغ خالداً أمر تجمع هؤلاء العرب فنهض إليهم على غير علم منه بقدوم « جابان» وجنده من أهل فارس . وقد كانوا عسكروا بمكان يقال له «أليس » فلما طلع عليهم خالد بجيوشه التى كان أعدها لملاقاة متنصرة العرب من حلفاء فارس وحميها ،استقلها أهل فارس وطمعوا فيها بغير قتال ، فقالوا لقائدهم والغرور يملأ جوانبهم الجوفاء . أنعاجلهم أم نغدى الناس ؛ ولانريهم أنا نحفل بهم ، ثم نقاتلهم بعد الفراغ ؟ وهذا كلام لايخرج من قلب يؤمن بالقوى المعنوية فى نماذج الإنسانية الحية ، وإنما هو كلام الكثرة المغترة التى لاتعلم أن كل رجل فى جند الإسلام جيش ، فقال قائد الفرس وهو يكظم غيظه ، وقد جاءته البوادر لطلائع الفشل « إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ،ولكن ظنى أن سيعجلونكم ويعاجلونكم عن الطعام » فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة وتداعوا إليها فوافوها ؛ وإذا عصى الجند قائدهم فذلك بدء الهزيمة الساحقة .

أمر خالد بالنزول فى وجه الجيش الفارسى ، ثم توجه إليهم وطلب مبارزة قائد العرب المنضمين إلى فارس فى حرب الإسلام ، فنادى باسم عبد الأسود العجلى ، ومالك ابن قيس ، وأبن أبجر ، فبرز إليه مالك فقال له خالد : ياابن الخبيثة ماجرأك على من بينهم ، وليس فيك وفاء ؟ وأهوى إليه بضربة كانت فيها نفسه ، ثم كر على أهل فارس فأعجلهم عن طعامهم ، فلم ينالوا منه شيئا ، فقال قائدهم «جابان» يعتب عليهم مخالفتهم له ويذكرهم بمقالته الناصحة ، ويريهم عصيانهم واغترارهم ، ألم أقل لكم ياقوم ؟ أما والله مادخلنى من رئيس وحشة قط حتى كان اليوم ، فقالوا له متجلدين : ندع الطعام حتى نفرغ منهم ونعود إليه ؟ وهذا إمعان فى الغرور بالكثرة العددية التى كانت للفرس بما لا يصح أن يعقد معه نسبة فى التكافؤ العددى بين الجيشين المتحاربين .

ولما رأى قائد الفرس ماهم سادرون فيه من غرور وفشل دعاهم إلى مكيدة يلقون المسلمين إليها فأبوها عليه ، قال لهم : سموا الطعام ، فإن كانت لكم فأهون هالك وإن كانت لهم هلكوا بأكله فعصوه مرة أخرى ، ولم يفعلوا ما أمرهم به والتحم الجيشان واقتتلوا قتالا شديدا ، وزاد فى كلب أهل فارس على القتال ما كانوا يرتقبونه من قدوم قائدهم « بهمن » على مدد لهم ، وارتفعت روح المسلمين فى القتال وشروا أنفسهم لله تعالى ، واشتد حنقهم على الفرس وحلفائهم من متنصرة العرب حتى نذر خالد رضى الله عنه أن يجرى نهرهم بدمائهم ، فقال : اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم أن لا أستبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم .

وحاقت بهم الهزيمة فولوا الأدبار وتبعهم المسلمون يأخذونهم ، فأرسل خالد من ينادى بالناس : الأسر ، الأسر فجاءت بهم الخيل إليه تسوقهم سوقا ، وأمر بضرب أعناقهم حتى غلبت دماؤهم ماء النهر ، فسمى يومئذ نهر الدم .

وكانت هذه الموقعة أشد مالقى خالد بن الوليد فى قتال الفرس ، وفى ذلك يقول : « وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس » .

وقسم خالد الغنائم بين الجنود وعزل الخمس فأرسل به للإمام ، ونفل الجند الطعام الذى كان أهل فارس أعدوه قبل المعركة لأنفسهم فأعجلهم خالد عنه فلم يهنئوا به ، فلما جلس إليه المسلمون — وكان فيهم أعراب حديثو عهد بالترف ورقيق العيش — ورأوا

ما فيه من الرقاق ، قال بعضهم من التعجب : ما هذه الرقاع البيض ؟ فقيل له : هل سمعت برقيق العيش ؟ هو هذا . فسموه الرقاق .

واقعة « أمغيشيا »

انتهى خالد إلى هذا النصر المبين فى هذه المواقع ، فلم يشأ أن يقف بنشوة الظفر التى ثمل بها جنده عند هذا الحد ، بل اندفع بجيوشه إلى الأمام حتى بلغ « أمغيشيا » وهى مصر كالحيرة ، وكانت « أليس » من مسالحها فخشى خالد أن يكون للفرس وحلفائهم من متنصرة العرب جموع بها ، فأراد بتقدمه هذا القضاء على مظان المقاومة ، ولم يكد يطأ بجيوشه أمغيشيا حتى جلا أهلها عنها وتفرقوا فى السواد وتركوا كل شىء من الأموال والأثاث وعتاد الحرب ، فعظمت غنيمة المسلمين حتى بلغ سهم الفارس خمسمائة وألف درهم سوى الأنفال .

عبقرية خالد فى رأى الصديق

وأرسل خالد بالبشرى والخمس إلى أبى بكر الصديق ، ففرح الصديق بنصر الله للمؤمنين فرحا شـديدا ، وخطب الناس مشيدا بفضل خالد وعبقريته الحربية فقـال « يامعشر قريش ! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله[1] ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد » ؟ وهذا القول من أبى بكر — وكان أعلم بالرجال — أعظم شهادة ، وأجل تقدير يناله رجل فى تاريخ الإسـلام ، فالصديق وهو خليفة المسلمين الأعظم لا يرى لخالد رضى الله عنه فى الناس عدلا فى عبقريته وشجاعته ، ولا نظيراً فى بطولته ومهارته ، وحسبك بها لخالد من الصديق .

* * *

فتح الحيرة

لم يكن سيف الله خالد بن الوليد يفرغ من نصر يتوج به هامات المسلمين إلا ليستقبله نصر أعظم وأروع ، ولم يكن الفرس يفيقون من غمرة هزيمة منكرة إلا ليسرعوا أمام البطل المظفر إلى هزيمة أنكر وأوجع .

ها هى ذه أخبار الانتصارات الإسلامية المتوالية تترامى إلى مرزبان « الحيرة » عاصمة الفرس فى العراق ، وقد أصبحت الجيوش الإسلامية منه على قيد وثبة خالدية ، فيتهيأ ويستعد ما وسعه التهيؤ والاستعداد ، ولكن ماقيمة جسم مهما ضخم وطال واستعرض

(١) لحمه المقطع .

وهو خلى من الروح ؟ كذلك كان شأن هؤلاء الفرس فى عديدهم وعددهم .

حيلة ومكيدة

حمل خالد الرجالة والأثقال فى السفن ، وسيرها فى نهر الفرات ، وخرج يقود الخيل ، وكان المرزبان قد خرج بجيوشه حتى عسكر خارج الحيرة ، وأمر ابنه أن يتقدم فيسد الفرات ليفجر الماء إلى الأنهار المتفرعة من الفرات حتى تقف السفن التى تحمل جيوش المسلمين ، وقد تمت هذه الخديعة وجنحت السفن بمن فوقها من الجند وما عليها من الثقل والعتاد ، وبقيت على الأرض فارتاع المسلمون ، وأدرك اللاحون بعد فوات الفرصة ، وقالوا إن أهل فارس فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ، فلا يأتينا إلا بسد الأنهار ، فما عسى المسلمون أن يصنعوا فى هذه المفاجأة التى لم يكن لهم بمثلها عهد ؟

عزمة خالدية

لفتة من لفتات العبقرية الخالدية ، ووثبة من وثبات سيف الله كفيلة بتفريج هذه الأزمة السانحة ، فخالد رضي الله عنه سواء العبقرية فى البديهة ، فلم يترك الفرصة تفلت من يده ، ولم يطل على المسلمين التفكير ، ولكنه سرع ما انفلت فى كتيبة من الخيل نحو ابن المرزبان الذى سد النهر ففجر الماء فيلق خيلا من خيل الفرس تغط فى نوم الغرور والأمان ، لأنه لم يكن ليدور فى خلدهم أن قائد المسلمين يثب عليهم فى هذه الساعة ، ولم تكن إلا جولة حتى قضى عليهم قبل الأخبار والبرد فلقى ابن المرزبان مع جيشه على فم « فرات باد قلى » فالتحم الفريقان فى قتال مرير انجلى عن انفراط عقد الفرس فى هزيمة أتت على آخر رجل فيهم ، وفجر المسلمون الماء وسدوا الأنهار الشارعة فى الفرات ، فارتفعت السفن بأحمالها وسارت باسم الله مجريها ومرساها ميممة الحيرة وسار إليها خالد بمن معه من فرسان المسلمين حتى نزل منزلا بين الخورنق والنجف.

وكان المرزبان قد بلغه ما نزل بابنه وجيشه من القتل والهزيمة المفنية ، فخارت قواه ، وضعفت عزيمته ، ولم يقو على لقاء جيوش الإسلام الظافرة ، فأطلق لنفسه عنان الهرب من غير مواقفة أو قتال ، وذهب لا يلوى على شيء مفزعا مرعوبا ، وزاد فى فزعه ورعبه ما أتت به إليه الأنباء من موت أزدشير ملك فارس ، واختلاف أهل مملكته فيمن يولونه عليهم مكانه .

محاصرة قصور الحيرة

تحصن أهل الحيرة فى قصورهم ، وأقحم خالد خيله فى طرقاتها ، وأجالها فى عرصاتها ، ثم أمر بضرب الحصار عليهم ، وأمر بكل قصر قائدا من قواده على رأس كتيبة من جند

الإسلام ، فكان ضرار بن الأزور محاصرا القصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائى، وكان ضرار بن الخطاب على قصر العدسيين ، وفيه عدى بن عدى قتيل المنذر بن ماء السماء ، وكان ضرار بن مقرن المزنى يحاصر قصر بنى مازن ، وفيه جيرى بن أكال ، وكان المثنى بن حارثة الشيبانى محاصراً قصر ابن بقيلة ، وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وعهد خالد إلى قواده أن يبدؤا أهل القصور بالدعوة إلى الإسلام ، فإن أجابوا قبلوا منهم ، وإن أبوا أجلوهم يوما واحدا ، وقال لهم : لا تمكنوا عدوكم من آذنكم فيتربصوا بكم الدوائر ، ولكن ، ناجزوهم ، ولا تردوا المسلمين عن قتال عدوهم .

وكان أول قائد أنشب القتال بعد الأجل المضروب ضرار بن الأزور ، ودعا أهل القصر الأبيض إلى إحدى ثلاث : الإسلام، أو الجزية ، أو المنابذة ، فاختاروا المنابذة، ورشقوا المسلمين بالنبل ، فقاتلهم المسلمون واقتحموا عليهم الدور والأديار وأكثروا فيهم القتل ، فصاح أهل الأديار من القسيسين والرهبان : يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم! فنادى أهل القصور يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا حتى تبلغونا خالدا .

فأرسلوا إليه ، فكان يخلو بأهل كل قصر منهم ، وبدأ بأصحاب عدى بن عدى فقال لهم : ويحكم ؟ ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟ فقال عدى : بل نحن عرب عاربة ؛ وأخرى متعربة ، فقال خالد : لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا ، فقال عدى : ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية .

براعة فى المفاوضة

قال خالد : اختاروا واحدة من ثلاث ، أن تدخلوا فى ديننا فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم أو قمتم فى دياركم ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة .

فقال عدى : بل نعطيك الجزية ؛ فقال خالد تبالكم ، ويحكم إن الكفر فلاة مضللة ، فأحمق العرب من سلكها ، فلقيه دليلان أحدهما عربى فتركه واستدل الأعجمى. فصالحوه على تسعين ومائتى ألف، وأهدوا له الهدايا فأرسلها مع البشرى بالفتح إلى أبى بكر الصديق ، فقبلها أبو بكر على أن تكون من الجزية ، وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزى ، وخذ بقية ما عليهم فقو به أصحابك .

هنا يجمل بنا أن نقف قليلا إلى جانب هذه المفاوضة بين بطل الإسلام خالد بن الوليد، ومتكلم أهل الحيرة عدى بن عدى ؛ فسنجد فيها من دلائل العبقرية الخالدية وآيات العدل الإسلامى ما يرشدنا إلى كثير من عوامل تيسير فتح هذه الممالك الضخمة على المسلمين فى زمن وجيز ، مع قلة العدد والأهبة الحربية بالقياس إلى عدد أعدائهم وأهبتهم .

يدور كثير من الباحثين فى تاريخ الإسلام حول أمور توهموها عوامل للفتح الإسلامى ؛ وكثير منها لا يستقيم مع طبائع الأشياء والواقع ، وإنما يندفع هؤلاء الباحثون إلى ذلك لأنهم يأبون أن يفهموا ، أو يعتاص عليهم أن يفهموا حقيقة الإسلام ووشائجه بالقوى الكامنة فى ضمير الإنسانية ، هذا الضمير الذى يعتمد عليه الإسلام فى تحريك المشاعر والأحاسيس لترتفع عن حضيض مطالب الجسم الدنيا من الخبز والماء إلى آفاق غير محدودة فى أرجاء هذا الكون العظيم الذى يقول عنه الإسلام فى كتابه الكريم فى معرض الامتنان « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ». فالكون فى نظر الإسلام مخلوق للإنسان ، وإنه شركة بين جميع الناس ، فلا سلطان لفرد أو جماعة أو جيل عليه إلا بمقدار مافى أيديهم من مفاتيح خزائن السموات والأرض . هذا الفهم لحقيقة الإسلام هو الذى حرر العقول والأجسام ودفعها إلى تحطيم الأغلال الفكرية والجسمية، وأقبلت عليه إقبال الظمآن على الماء .

وفى الحق إن شأن الفتح الإسلامى معجزة من معجزات الإسلام، لأن عوامله كلها نبعت من صميم الإسلام كدين وشريعة ودولة ، وانفرجت عنها طبيعته فى نماذج الذين دعوا إليه ، ونقلوه إلى الناس ونقلوا الناس إليه ، وهو نقى المعدن صافى الأديم قبل أن تشوه آدابه وتعاليمه تلك الفلسفات الكافرة الغريبة عن طبيعته ، وقبل أن تفسد نظم الحكم الفاسقة عن جادته نظام دولته وطرائق الحكم فى شريعته .

تحليل براعة خالدية

ولقد كان خالد بن الوليد فى خلافة الصديق مثلا من مثل النماذج العليا فى الدعوة إلى الإسلام ؛ والقارئ المتأمل فى حديث هذه المفاوضة بين خالد وأهل الحيرة ، وما انتهت إليه ، يحس أول كل شىء تلك السياسة الحاذقة التى ساس بها قائد الإسلام الموقف فى بدء لقاء وفود القوم بعد إحكام الحصار عليهم ، فهو لا يلقاهم جميعا لقاء المنتصر المعتز

بالنصر ، ولـكنه يلقى أهل كل قصر وحدهم ، ويرمى أول وفودهم إليه بهذا السهم النافذ إلى حميتهم العنصرية ليوقظ فيهم روح الكرامة والاعتداد من أقرب طريق ، وليثير نفوسهم ضد هذا الاستعباد الفارسى المضروب عليهم ، فقال لمتحدثهم كالمجيب لهم : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون منا ، ونحن إخوانكم فى العروبة ، يجمعنا وإياكم روابط الدم واللسان ، والوطن ووشائج الحياة ، فنحن أحق بكم وبالوحدة معكم من هؤلاء الفرس الذين يدفعون فى ظهوركم لتلقوا المنايا على أيدى إخوتكم ؟ وإن كنتم غير عرب ، فما تنقمون منا وقد جئناكم ناشرين رايات العدل والإخاء الإنسانى ، لا نريد استعباد أحد ولا استعمار بلد ؟ وإنما نبغى إنقاذكم من هذا الاستبداد بكم ، والظلم الذى أهدر إنسانيتكم ونريد إشعاركم بالعدالة الاجتماعية التى هى حق من حقوقكم الطبيعية . فإن دخلتم معنا فى ديننا فأنتم إخوتنا ، ونحن وأنتم على سواء ؟ لكم من الحقوق فى حرية العيش والتمتع بثمرات الحياة مثل ما لنا ، وعليكم من الواجبات نحو خالقكم ونحو إخوانكم فى الأسرة الإنسانية عامة مثل ما علينا ، فلا سيد ولا مسود ، ولكنه إخاء لا يفضل فيه الأخ أخاه إلا بفضل عقله وعلمه وعمله . لا نهيجكم عن مقامكم فنطلب إليكم الهجرة من بلدكم ، ولا نتحكم فيكم فنحتم عليكم الإقامة فى ذياركم ، وإن أبيتم إلا العكوف على دينكم ونحالكم مع السلم والأمان . فلكم علينا حق حمايتكم ، والذود عنكم ، كما نحمى ذمارنا ونذود عن أنفسنا ، ذلك الحق هو جزية تؤخذ منكم على قدر سعتكم وطاقتكم ، ما استطعنا إلى حمايتكم آمنين سبيلا ، فإن عجزنا عن أداء حقوقكم فيما عقدناه لكم فلا جزية لنا عليكم وأمركم مردود عليكم .

هذا منتهى ما يطلب من أمة تريد السلام قائما على رعاية قواعد الحق والعدل والرحمة ، وليس بعد ذلك إلا السيف فى غير هوادة ، وهنا يبرز خالد القائد الحربى ليقذف بهذه الرمية المصمية حتى لا يترك لمعارضيه مجالا فى خديعة ، أو أملا فى نجاة إذا اختاروا لأنفسهم « فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » فهل وراء هذا لون من ألوان الحكمة السياسية يمكن أن يقال إنه فات خالداً الداعى إلى الإسلام ، والقائد البطل الذى يدير دفة حرب لا هوادة فيها ؟

* * *

رضى القوم لأنفسهم بالجزية فلم يتهلل لها وجه القائد العظيم ، وهذه أيضاً فريدة من خصائص النماذج الإنسانية الفاضلة التى صنعها الإسلام فى مهاده الأولى ، لأن المسلمين الأولين لم يكونوا فى انسياحهم فى الأرض يبغون الدنيا وزينتها ، فهم أبناء الشظف والزهادة ، ولكنهم كانوا يبغون تخليص البشرية من أغلال الشرك البليد ، وتطهيرها من أوضار الوثنية الوضعية ، وتحريرها من رق العبودية للأباطرة والملوك والحكام ، ونشر المساواة والعدل بين أبناء البشر ، وتمكين كل فرد أو جماعة من صرف طاقته فى الحياة ليكون جزاؤه وامتيازه على قدر هذه الطاقة التى هيأه لها استعداده ، فكان دخول الأمم فى دين الإسلام أحب إليهم وأرضى لأنفسهم .

ذلك ما أوحى لخالد رضى الله عنه كلمته الأخيرة التى ألقاها إلى قلب عدى بن عدى متحدث أهل الحيرة فى أسف بالغ وإشفاق شديد على ما فوتوه على أنفسهم من خير وهداية قدما إليهم على أيدى إخوانهم وبنى أبيهم من العرب المسلمين .

عدل فوق الرحمة

وليتأمل القارئ فى صنيع خليفة المسلمين أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد بعث له قائد جيوشه ببشرى الفتح وأخماس الغنائم ومعها هدايا المغلوبين ، فلم يرض الخليفة الراشد قبول هذه الهدايا تحت هذا العنوان من قوم مقهورين مغلوبين ، ولكنه رضيها حقا واجباً فيما عاهدوا عليه قائده العظيم ، فكتب إليه : أن احسب لهم هديتهم من جزيتهم .

فهل يتصور المتشدقون ـ بما لعقوه من عصيرفتات منتن من مخلفات الموائد الأجنبية فى الشرق والغرب ، فنقلوها إلى هذا الشرق الإسلامى الأسيف فى قوالب براقة ، وألفاظ خلابة من « ديمقراطية » و « اشتراكية » فى هذا العصر المضطرب ، وهم ينشدون العدل والأمن والسلام ـ عدلا فوق عدل المسلمين الأولين الذين كانوا نماذج حية لروح هذا الدين القويم ؟ !

ليت قادة العالم وزعماء الدول الكبرى يقرؤون دستور الإسلام فى القرآن الكريم ، وسيرة رسوله الأمين ، وتاريخ رجالاته الأولين ليعلموا ـ إن كانوا صادقين ـ على أى أساس يجب أن يقوم العدل الاجتماعى فى الأرض . وعلى أى أساس يتحقق الإخاء والتعاون بين الأمم ؟ !

عهد خالد لأهل الحيرة

صالح خالد رضى الله عنه أهل الحيرة وكتب لهم عهداً سجل مبدأ من مبادئ الإسلام فى تحديد العلاقة بين الغالب والمغلوب ، والقوى والضعيف ، فقال : « هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا ، وعمر بن عدى ، وعمرو بن عبد المسيح ، وأياس بن قبيصة ، وجبرى بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائتى ألف درهم ، تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسيهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا ، تاركا لها ، وعلى المنعة ، فإن لم نمنعهم فلا شئ عليهم حتى نمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة » .

نود للقارئ أن يسرح طرفه فى كتاب خالد مرة ومرة ومرات فإنه سيزداد اقتناعا بما تحدثنا عنه من سمو المبادئ الإسلامية وارتفاع القائمين على تنفيذها فى عهود العزة الإسلامية عن سطحية العنصرية أو القومية الضيقة إلى آفاق العدالة الإنسانية العامة .

وليتأمل فى قوله : إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيسا عن الدنيا » وفى قوله : « وعلى المنعة فإن لم نمنعهم فلا شئ عليهم حتى نمنعهم » ليدرك عدالة الإسلام والمسلمين فى أخذ الجزية ممن رضى بها .

الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية

كان فتح الحيرة عملا حربيا عظيم القيمة ، وسع أمل المسلمين فى فتح بلاد باب فارس ، لمكان هذا البلد الجغرافى والأدبى من العراق والمملكة الفارسية ، فقد اتخذها أمير المسلمين خالد بن الوليد مقراً لقيادته العليا ومركزاً رئيسياً تتاقى منه جيوش الإسلام أوامر الهجوم والدفاع والإمداد والنظم ، وكذلك جعلها قاعدة عامة للتدبير والسياسة التى يقوم عليها تنظيم ماوقع فى يد المسلمين .

بث خالد عماله على الولايات لجباية الخراج والجزاء ، ووجه أمراءه إلى الثغور لحمايتها ، وأقام هو ريثما يتم ما أراده من الاستقرار والنظام ، وترامت أخباره إلى الدهاقين والرؤساء فأقبلوا إليه يصالحونه حتى لم يبق ما بين قرى سواد العراق إلى أطرافه من ليس مولى للمسلمين أو على عهد منهم .

* * *

وقد كان لهذا الفتح إلى جانب ذلك أثره البالغ فى أنفس العرب المغلوبين مع حماتهم من أهل فارس ، فأوهن عزائمهم ، وفل شكيمتهم ، وخضد شوكتهم ، وبخعهم أسفا وتحسرا ، فسجلوا ذلك فى أشعار كثيرة رواها الثقاة من المؤرخين ؛ ولهذه الأشعار قيمة أدبية وتاريخية عظيمة فى تاريخ الأدب فى هذا الجانب من وطن الأمة العربية ، كان عند كثير من الباحثين فى الأدب العربى وتاريخه مظنة تشكيك فى صلته القومية واللغوية بالأمة العربية ، فمن ذلك قول ابن بقيلة :

أبعد المنذرين أرى سواما ... تروح بالخورنق والسدير

وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصا بين مرة والحفير

فصرنا بعد هلك أبى قبيس ... كجرب[1] المعزفى اليوم المطير

تقسمنا القبائل من معد ... علانية كأيسار الجزور

وكنا لا يرام لنا حريم ... فنحن كضرة الضرع الفخور

نؤدى الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قريظة والنضير

كذاك الدهر دولته سجال ... فيوم من مساءة أو سرور

وكذلك كان لهذا الفتح شأنه العظيم فى نفوس المسلمين ، فقوى عزائمهم وشد أزرهم ، وأطمعهم فى عامة دولة الفرس ، وتغنوا بفخره فى أشعارهم ، فمن ذلك قول فارس الأبطال القعقاع بن عمرو :

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة ... وأخرى بأثباج[2] النجاف الكوانف

فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا ... وبالثنى قرنى قارن[3] بالجوارف

ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على الحيرة الروحاء إحدى المصارف

حططناهم منها وقد كاد عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف

رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا ... غبوق المنايا حول تلك المحارف

صبيحة قالوا : نحن قوم تنزلوا ... إلى الريف من أرض العريب المقانف[4]

(١) الجماعة . (٢) اسم مكان . (٣) اسم موضع . (٤) هو من قولهم ارض قنفة : متشققة

أقصوصة طريفة

ويذكر المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر المسلمين بهذا الفتح ، فسأله رجل أن تكون له كرامة بنت عبد المسيح أحد سادات الحيرة ، فقال له : هى لك إذا فتحت عنوة، فلما تم لخالد فتح الحيرة ، ونزل أهلها على حكمه جاءه صاحب الوعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم — وسماه الطبرى « شويلا » وسماه ابن الأثير « خريم بن أوس » وسمى المرأة الشيماء بنت نفيل — يستنجز خالداً الوفاء بذلك الوعد وشهد له جماعة بأن ذلك قد كان ، فجعل خالد فى شروطه على أهل الحيرة تسليم هذه المرأة ، فشق ذلك على قومها ، وخاطروا الرجل ، فأعظموا له الخطر ، فقالت لقومها: لاتخطروه، ولكن اصبروا؛ ماتخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ ! فإنما هذا رجل أحمق ؛ رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إلى الرجل ، فلما كانت فى يده قالت له . ماأربك إلى عجوز كما ترى ؟ ! فادنى ؛ قال : لا ؛ إلا على حكمى ؛ قالت ، وكأنها أنست منه السذاجة والغفلة : فلك حكمك مرسلا ؛ فقال : لست لأم شويل ، إن نقصتك من ألف درهم ، فاستكثرت ذلك لتخدعه ، ثم أتته بها ، فأرسلها ورجعت إلى أهلها ، وتسامع الناس بذلك فلاموه ؛ فقال : ماكنت أدرى أن عدداً يزيد على ألف ، فقال خالد : أردت أمرا وأراد الله غيره ؛ نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك . وفى هذه القصة تتمثل عدالة الإسلام فى قضاء خالد رضى الله عنه .

أقصوصة أخرى

وهذه المرأة — على رواية الطبرى — هى أخت عمرو عبد بن المسيح أحد النفر الذين عاقدهم خالد عن أهل الحيرة ، ويذكر المؤرخون أن عمراً هذا من الدهاة المعمرين ، ويروون له أعاجيب ، ويحكى الطبرى أحدوثة عجيبة جرت بينه وبين خالد بن الوليد ، فقد سأله خالد لما رأى شيخوخته الفانية، ورجوع قومه إليه فى الورد والصدر ، قال له خالد : كم أتت عليك ؟ قال مئوسنين ؛ قال : فما أعجب ما رأيت ؟ ! قال : رأيت القرى منظومة مابين دمشق والحيرة ، تخرج المرأة من الحيرة، فلاتزود إلا رغيفا؛ فتبسم خالد ، وقال هل لك من شيخك إلا عقله ؛ خرفت والله ياعمرو، ثم أقبل خالد على أهل الحيرة . فقال ألم يبلغنى أنكم خبثة ، خدعة مكرة ، فما لكم تتناولون حوائجكم بخرف لايدرى من أين جاء ؛ فتجاهل له عمرو وأحب أن يريه من نفسه مايعرف به عقله ، ويستدل به على صحة ما حدثه به ، فقال : وحقك أيها الأمير إنى لأعرف من أين جئت،

قال : فمن أين جئت ؟ قال : من بطن أمى ؛ قال : فأين تريد ؟ قال : أمامى ، قال : وما هو؟ قال . الآخرة ؛ قال . فمن أين أقصى أثرك ؟ قال . من صلب أبى ؛ قال : ففيم أنت ؟ قال فى ثيابى ؛ قال أتعقل؟ قال: أى والله وأقيد ؛ فوجده حين فره[1] عضا، وكان أهل قريته أعلم به ، فقال خالد : قتلت أرض جاهلها، وقتل أرضا عالمها ، والقوم أعلم بما فيهم ، فقال عمرو : أيها الأمير ؛ النملة أعلم بما فى بيتها من الجمل بما فى بيت النملة .

ومهما يكن أمر هذه القصة فهى لون من الحديث الذى يصور لنا خالداً فى نظر راسمى شخصيته من القدامى ، شخصية مستقصية مفيدة من تجارب غيرها ، ولكنها لا تؤمن إلا بما تعقل .

غزو فارس فى عقر دارهم

أجمع خالد أمره على منازلة الفرس فى ساحات ملكهم بعد أن صفا له الجو فى العراق، وأمن ظهره بانحسار أمر فارس عن العرب فيما بين الحيرة ودجلة ، وكان أهل فارس فى هذه الفترة على خلاف شديد فيمن يولونه عليهم بعد موت كسراهم أزدشير، فانتهز خالد هذه الفرصة وكتب إلى خاصتهم يقول : « من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس : أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك كان شرا لكم ! فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب ، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وكتب إلى عامتهم فقال : « من خالد بن الوليد إلى مرازبة أهل فارس : الحمد لله الذى فض خدمتكم ، وفرق جمعكم، وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزكم، فاذا أتاكم كتابى فأسلموا تسلموا ، أو اعتقدوا منا الذمة . وأجيبوا إلى الجزية ، وإلا والله الذى لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ؛ ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا » .

تيمن خالد بالفأل

ثم دعا خالد برجلين أحدهما عربى حيرى ، والآخر نبطى ، فقال للعربى ما اسمك؟ قال : مرة ، قال : خذ الكتاب وأت به أهل فارس لعل الله أن يمر عليهم عيشهم، أو يسلموا وينيبوا ؛ ثم قال للنبطى ما اسمك ؟ قال : هزقيل ، فقال : اللهم أزهق نفوسهم.

(١) فره : اختبره ، عضا : داهية .

وقد كانت محبة الفأل الحسن من أخلاق النبوة ، ومن نورها يقتبس خالد ، وإخوانه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون ذلك فى خالد على سنن سلامة الفطرة والتطلع إلى معرفة الغيب ، وهذا خلق يشبه أن يكون نحيزة فى نوابغ العبقريين ، وهم غير مختارين فيه ، فأخذه عليهم على أنه جانب من جوانب الضعف فى شخصية العبقرى غفلة عن حقيقة الطبيعة البشرية ، وإغراق فى تقديرها تقديراً يجاوز بها حدودها المرسومة لها فى الحياة .

واقعة « الأنبار »

أرسل خالد رسوليه بالكتابين ، ونهض على تعبئته لغياث عياض بن غنم ، وجعل مقدمته الأقرع بن حابس ، وخلف على الحيرة فارس الأبطال القعقاع بن عمرو ، وسار بالجيش حتى بلغ الأنبار ، فوجد أهلها قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم ، ثم نظر خالد إلى أعدائه بعد أن طاف بالخندق ، وعرف مآتية ، وثغرات الضعف فيه ، فرأى قوما من ألفاف العرب ولفائف النبط . يتغشاهم الفشل ، ويتملكهم الخور والانحلال ، وكان خالد إذا رأى الحرب لم يصبر عنها ، فأنشب القتال وتقدم إلى الرماة من جند الإسلام فقال لهم : « إنى أرى أقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ، ولا توخوا غيرها » فاستجابوا لأمره ، ورموا رشقاً واحداً ثم تابعوا ففقىء لأهل الأنبار ألف عين يومئذ ، فتصايحوا : ذهبت عيون أهل الأنبار .

سياسة ماهرة

هذا لون من ألوان الحرب الخاطفة التى يقصد إليها تقصيراً لأمد القتال ، وتجافياً عن سفك الدماء ما أمكن ذلك ؛ وإرهاباً للعدو حتى يكون فى ذلك تشريد لمن خلفهم بالرعب والفزع ، وإلى هذا النحو قصد خالد من هذه الخطة التى وضعها للهجوم فى أول مرحلته . فنجح وتحققت فراسته ، فلم يكد زعيم الفرس وقائدهم «شير زاذ» يسمع تصايح أصحابه حتى أوفد إلى خالد يطلب منه الصلح ، ولكنه عرض مالم يرضه خالد من الشروط ، فرد عليه وفده خائبا ، وألقى إلى السيف زمام الأمر يقوده إلى نهايته بحده ؛ وكان خالد قد استبطن سر خنادقهم ، ونوافذ حصونهم ، فأتى إلى أضيق مكان ورمى فيه بكل ضعيف من الإبل بعد نحره ، ثم عبر عليها ليلقى عدوه فى مضاربه وراء الخنادق والحصون ، وعندئذ رأى قائد الفرس « شير زاذ » من قائد الإسلام وجنده الجد الذى لا يقوم له هذا الخليط من شذاذ المحميين من العرب وشراد سادتهم من أهل فارس المجمعين

لغير غاية ، فأرسل « شير زاذ » إلى خالد ، وبذل له ماأراد من شروط الصلح على أن يبلغه مأمنه ، فلما أتى « شير زاذ » صاحبه وقرنه « بهمن جاذويه » وأخبره الخبر لامه على فراره وتسليمه ، فقال معتذراً : « إنى كنت فى قوم ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب فسمعتهم مقدمهم علينا يقضون على أنفسهم[1] . وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم ، ثم قاتلهم الجند ففقئوا فيهم وفى أهل الأرض ألف عين ، فعرفت أن المسالمة أسلم » .

أمن أهل الأنبار فى ظل الصلح مع المسلمين ، ورأى خالد فيما رأى منهم أنهم يكتبون بالعربية ويتعلمونها ، فراقه منهم ذلك ، فسألهم : ما أنتم ؟ فقالوا : قوم من العرب ، نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فقال : ممن تعلمتم الكتابة ؟ فقالوا : من إياد ، وأنشدوه لشاعرهم :

قومى إياد لو أنهم أمم[2]   أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم باحة العراق إذا   ساروا جميعا والخط والقلم

* * *

واقعة « عين التمر »

تجمع بقايا العرب الموالين للفرس من قبائل تغلب ، والنمر ، وإياد ، ومن انضم إليهم قريبا من « الأنبار » بعد أن خلصت للمسلمين ، وجعلوا منها قاعدة فرعية لمعسكر المسلمين ، بمكان يقال له : « عين التمر » وكان به « مهران بن بهرام » فى جموع من العجم . وعلى العرب يومئذ « عقة بن أبى عقة » فلما بلغ أمرهم خالداً استخلف على الأنبار « الزبرقان بن بدر » وسار إليهم فى جموع المسلمين حتى كان قريباً منهم ، فانبرى « عقة » مأخوذاً بعزة الجاهلية وحميتها ، وقال لقائد الفرس ابن بهرام : إن العرب أعلم بقتال العرب . فدعنا وخالدا ؛ فاهتبلها الفارسى ، وأجاب عقة فى خبث ودهاء إلى ماأراد ، وقال له : صدقت لعمرى ، لأنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا فى قتال العجم ، فدونكموهم ، وإن احتجتم إلينا أعناكم . فجازت خديعة الفارسى على عقة وقومه ، فجعلوهم فى وجه خالد واتقوا بهم عزائم المسلمين ؛ وكان الفرس لا يرون للعرب قدراً يبلغ بهم أن يكونوا

---

(١) معنى هذه الجملة : إنهم يتحدثون فيما بينهم بقوة عدوهم وضعفهم عند لقائه .
(٢) أمم : جميع :

وإياهم على سواء ، لذلك عز على عامة الفرس فى جيش ابن بهرام صنيع قائدهم مع الزعيم العربى « عقة بن أبى عقة » فقالوا له : ما حملك على أن تقول لهذا « الـكلب » هذا القول ؟ فقال : دعونى ، فإنى لم أرد إلا ما هو خير لـكم وشر لهم ؛ إنه قد جاءكم من قتل ملوككم ، وفل حدكم فاتقيته بهم ، فإن كانت لهم على خالد فهى لـكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون .

بيد أن الأمر انتهى على غير ما قدر قائد الفرس فى غدره المبيت بحلفائه من العرب فخالد بن الوليد لا ينال من شجاعته تهور «عقة » وحمقه فى تشاجعه ، ولا من وقدة ذهنه وومضات عقله مكر ابن بهرام وختله ، فقد ضرب خالد « عقة » ضربة طار لها قلب صاحبه الفارسى من ورائه ، فلم تحمله ساقاه ولا اعتدل به ظهر جواده .

تقدم « عقة » فى جموع من العرب فوقف لخالد على طريق الـكرخ بينه وبين الفرس الذين اعتصموا بحصن « عين التمر » ومشى خالد بجيوشه حتى كان فى وجه « عقة » وأصحابه ، فوجده يعدل صفوف جيشه ، فلم يمهله ، بل انقض عليه كالشهاب الصاعق ، بعد أن ألقى إلى مجنبتيه من جند الإسلام : إنى حامل على « عقة » فاكفونى ما عنده ، فلم يرتد إليهم طرفهم حتى عاد إليهم به أسيراً بين يديه ، وانفرط عقد جند « عقة » وانحل نظامهم ، وانهزموا هزيمة منـكرة ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاءوا ، ولم ينج منهم إلا من أدرك الحصن فاعتصم به .

ولم يكد ما حل بجيش « عقة » يبلغ القائد الفارسى الذى دبر وقدر حتى تساقطت دعائمه فلم يقو على الثبات ، ففر بجيشه يسابق الريح طلباً للنجاة من هول العزائم المسلمة .

اعتصم العرب الذين نجوا بالحصن بعد أن خلا لهم حلفاؤهم من أهل فارس ، وظنوا أن تحصنهم يجعلهم فى مأمن ومنجاة من صوارم المسلمين ، وأن خالداً وجيوشه إن هم إلا قوم من العرب عضهم الجوع فى قفارهم ، فجاءوا يغيرون على ريف العراق لينالوا من خيراته ، ويقنعوا بالغنائم والأسلاب ينهبونها والأموال يسلبونها ، ثم يعودون إلى قفرهم راضين بما أصابوا .

قصور فى التفـكير ، وجهالة بتصاريف الحياة ، وقبوع عند مطالب البطن فى أحط مظاهرها ، وكذلك كان شأن العرب قبل أن يجعل الإسلام منهم أبطال هداية ، وأئمة دين ،

ونماذج للفضيلة ، أخرجهم من ديارهم يدعون إلى توحيد الله ، ونشر راية العدل والرحمة بين عباد الله لا يريدون مغنما ، ولا يبتغون مالا ، من أجابهم إلى الحق والهدى فهو أخوهم ،له مالهم ، وعليه ما عليهم، ومن أبى عناداً ووقف فى طريق الدعوة يصدها عن وجهها أوردوه موارد الحتوف وهم عند الله يؤمئذ أبر خلق الله .

حاصر خالد الحصن ، وجاء بطاغيتهم وقائدهم « عقة » فضرب عنقه وطرحه إليهم على أنظارهم ليفل من حدهم ويطامن من غرورهم ، ويؤيسهم من موقفهم ، فنزلوا على حكمه مكرهين ، وتسلم خالد الحصن ، وغنم جميع ما فيه من أموال وذرارى ، ولقى فى كنيستهم أربعين غلاما محبوسين على تعلم الإنجيل ، فقال لهم : ما أنتم ؟ قالوا : رهن، فقسمهم فى أهل البلاء من جنود الإسلام ؛ فكان من هؤلاء الغلمة المنقذين كثير من العلماء والقواد الأبطال ، والساسة المفكرين من رجالات الإسلام ، فمنهم سيرين والد محمد بن سيرين ثانى اثنين من سادة التابعين ، ومنهم نصير والد موسى بن نصير القائد الأموى فاتح الأندلس بمولاه طارق بن زياد ، ومنهم حمران ، مولى عثمان بن عفان ، وغيرهم من ذوى الأثر الحميد فى دولة الإسلام ، وتاريخ الإسلام .

* * *

فتح دومة الجندل

بعث خالد رضى الله عنه بالفتح والأخماس إلى أبى بكر الصديق مع الوليد بن عقبة، فلما قدم الوليد دار الخلافة وبلغ رسالة قائده رأى الخليفة أن يرسل الوليد « لعياض بن غنم » فلحق الوليد بعياض فلقيه وهو محاصر دومة الجندل ، وأهلها قد أخذوا عليه الطرق فأشجوا عياضاً وشجوا به ، فقال الوليد لعياض : الرأى فى بعض الحالات خير من الجند الكثيف ؛ ابعث إلى خالد فاستمده . وكان الوليد من أعرف الناس بيمن نقيبة خالد وفضل شجاعته ، وبراعة تفلته من المضايق ، وبصره بمنافذ الخروج من الأزمات ، وجراءته على اقتحام الوغى وتفريج كربات المؤمنين ، فأجابه عياض إلى ما رأى ، وأرسل إلى خالد يستغيث به ، فكتب إليه خالد كتابه المشهر فى التاريخ والأدب قال :

« من خالد إلى عياض ؛ إياك أريد » .

لبث قليلا تأتك الحلائب يحملن آسادا عليها القاشب[1]

كتائب يتبعها كتائب .

وهو فيما عرف الأدب العربى أوجز كتاب وأفيده فيما قصد إليه ، وهى ناحية من نواحى العبقرية الخالدية فى ميدان البلاغة العربية ، كانت جديرة أن تجعل أبا سليمان خالد بن الوليد فى أول صف الرعيل الأول من مداره العربية وبلغائها القاويل ، وهى تكشف عن جانب فى العقل العربى حرى بالدرس الواعى ، تلك هى ناحية تركيز المعانى التى تحتاج إلى رسائل مطولة فى صورة من الإيجاز القوى البارع المنتهى إلى غايته من أقرب طريق ؛ وكان هذا واجب الذين يعنون بدراسة الأدب « المقارن » ولاسيما فى العصر العباسى ، عصر الرموز والتوقيعات المنقولة مع التفكير الفارسى ، حتى لا نغمط العقل العربى الخالص حقه فى فراهة البداهة واكتناز التفكير .

شهادة خصم

لم يكد كتاب خالد يلم بساحة عياض حتى كانت صيحات جيوشه صواعق فى آذان أهل دومة الذين استنفروا واستظاهروا بمن غسان وتنوخ وبهراء وكلب ، وكان عليهم « أكيدر ابن عبد الملك » و « الجودى بن ربيعة » فلما دنا منهم بطل الإسلام خالد تفزعت قلوبهم ، وتفرقت كلمتهم . واختلفوا على أنفسهم ؛ فقال « أكيدر » وكان من قبل أخيذا لخالد ، فمن عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأطلقه ، وكتب له كتابا ، نخاس[2] بعهده وخان ذمته وغدر مرتداً عن الإسلام : « أنا أعلم الناس بخالد ؛ لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحد فى حرب ؛ ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم » فأبوا عليه رأيه ، فانخذل عنهم ، وقال : لن أمالئكم على حرب خالد ، فشأنكم ؛ ثم فر هاربا حذراً أن يراه خالد رضى الله عنه .

وإذا أدار الباحث نظره فيما قاله أكيدر فى وصف خالد رأى رجلا يتحدث عن رجل خبره وعرف أمره عن تجربة واحتكاك ، فهو قد راز خالداً قبل يومه هذا ،

(١) الحلائب : جمع ، مفرده حلوبة وهى الناقة المحلوبة اللبن ، والقاشب من قولهم : سيف قشيب أى حديث عهد بالجلاء .

(٢) خاس بالعهد : نقضه .

فعرك خالد أديمه فى حرب له على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، فعرف عن خالد هذا الذى تحدث به إلى قومه فى صراحة لا ترحم، فهو يصف خالداً بيمن النقيبة، ومحالفة التوفيق، وأنه أقوى الناس فى الحرب، وأحدهم فى ميادينها، وأنه موهوب بما أكسبه فى نفوس أعدائه هيبة وجلالا، فلا يراه قوم إلا رعبوا منه وانهزموا أمامه؛ ولو كانوا فى كثرة الحصى، وهذه نعوت تجلت فى تاريخ خالد ووقائعه. ثم إن « أكيدر » لا يداهن عن نفسه، ولا يستطيع أن يمكن خالداً من النظر إليه لمكان غدره بالمسلمين؛ وخيانته لعهد النبى صلى الله عليه وسلم، وارتداده عن الإسلام فيفر هاربا ويلاحقه رسول خالد، فيجىء به إليه ويضرب عنقه.

اتخذ خالد خطة الالتفاف حول أهل دومة ومشايعيهم من بهراء وكلب وتنوخ، فجعلهم جميعاً بين فكى « كماشة » ذراعها الأولى عسكره، والثانية عسكر عياض بن غنم، واشتبك القتال فى الجانبين، فأخذ خالد صاحبه أكيدر وانهزم الجودى بن ربيعة لا يلوى على شىء، ومكن الله عياضا ممن كانوا فى وجهه فرعبلهم، فطار منهم من استطاع إلى الحصن يعتصمون به حتى امتلأ ولم يتسع لسائرهم، فغلقوا الأبواب دون إخوانهم، وبقى من بقى منهم خارج الحصن تحت ظلال السيوف المسلة، ولم يبرح خالد عن محاصرة الحصن حتى اقتلع أبوابه، واقتحم على من فيه فألحقهم بإخوانهم.

* * *

وقائع « خنافس » و « الحصيد »

كان قتل « عقة بن أبى عقة » غصة تأخذ على عرب الجزيرة أنفاسهم، فهم متربصون، حتى إذا رأوا خالداً قد تباعد به المنزل عن الحيرة والأنبار وهما أعظم مسالح المسلمين فى هذا الجانب من دولة الإسلام؛ هموا بالغدر به، وكاتبوا الأعاجم، واتعدوا معهم مكانا يقال له « خنافس » بالقرب من الأنبار، فلما شعر الزبرقان بن بدر خليفة خالد على الأنبار استمد القعقاع بن عمرو، وكان على الحيرة، فأمده القعقاع بجيش تحت قيادة أعبد بن فدكى السعدى؛ وعروة بن الجعد البارقى؛ تقدما حتى وقفا فى وجه قائدى الفرس « روزبة » و « زرمهر » ومنعاهما من التقدم حتى بلغ الخبر خالداً؛ وكان رجع من دومة إلى الحيرة، فأرسل القعقاع وأبا ليلى بن فدكى إلى قائدى الفرس، ثم

بلغه أن قوما من العرب عليهم الهذيل بن عمران ، وربيعة بن بجير خرجوا يريدون الفرس لينضموا إليهم فى محاربة المسلمين أخذاً بثأر «عقة» فنهض إليهم خالد ، واستخلف عياضا على الحيرة ، وعبى جيشه فجعل على مقدمته الأقرع بن حابس ، وسار حتى لقى القعقاع وأبا ليلى ، ووجه القعقاع إلى «الحصيد» فى أطراف العراق . وجعله أميراً على الناس فى هذا الوجه . ووجه أبا ليلى إلى « الخنافس » ليدفعوا فى ظهور الأعداء من كل جانب حتى يتجمعوا فيتسنى لخالد ضربهم ضربة حاسمة ، ولكن الفرس وألفاف العرب معهم فطنوا إلى مايراد بهم فآثروا الفرار عن اللقاء ، وجبنوا فلم يجتمعوا ، وفزعوا فلم يثبتوا .

واقعة «المصيخ»

أصاب القعقاع بن عمرو أهل « الحصيد » وهرب أهل «الخنافس» من وجه أبى ليلى بن فدكى ، فأبلغا خالداً انتصارهما فيما وجههما إليه ، فكتب إليهما خالد ، وإلى أعبد ابن فدكى ، وعروة بن الجعد ، يواعدهم ساعة من ليلة بعينها يجتمع فيها معهم بمكان يقال له « المصيخ » بين حوران والقلت ، وكان خالد مقيما بعين التمر ، ومنها نهض للقاء أصحابه فلما كانت الليلة الموعودة وافى خالد أصحابه فى الساعة التى عينها لهم ، وفيها وافوه بعددهم وعتادهم ، فاجتمعوا هناك بالمصيخ ، وكان قد نزل به قوم من تغلب عليهم هذيل بن عمران ، فبيتهم خالد وأصحابه من ثلاثة أنحاء ، فلم يفلت منهم سوى قائدهم الهذيل مع نفر قليل من خاصته .

وفى هذه الوقعة أصيب عبد العزى بن أبى رهم ، ولبيد بن جرير وكانا قد أسلما وكتب لهما أبو بكر كتابا بإسلامهما ، فلما بلغ أبا بكر قتلهما ، وبلغه قول عبد العزى عند قتله :

أقول إذا طرق الصباح بغارة سبحانك اللهم رب محمد
سبحان ربى لا إله غيره رب البلاد ورب من يتورد

جعل يردد قوله : سبحانك اللهم رب محمد ؛ ثم وداهما وأوصى بأولادهما ، وقال : أما إن ذلك ليس على ؛ كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب فى ديارهم .

وقد كان قتل هذين الرجلين مما يأخذه عمر بن الخطاب على خالد مضافا إلى قتل مالك بن نويرة فيما يقول بعض الرواة .

وقارىء هذه البحوث قد عرف شأن قصة مالك بن نويرة وموقف الفاروق فيها ، وأغاليط الرواة ، وزيف الروايات ، وبراءة خالد من إثمه إن كان فيه إثم ؛ وهنا يستشف القارىء من قولة أبى بكر رضى الله عنه فى شأن هذين الرجلين عذراً وجيها لخالد وجيشه ، وأنه ليس على أحد فى قتلهما حوب أو ملام ، بل إن أبا بكر نفسه يذهب إلى أبعد من ذلك ، فينفى عن نفسه مسئولية قتلهما باعتباره الإمام الأعظم ، فلو كان على أحد تبعة لكان عليه منها نصيب ، ولكن كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب .

انتصار خالد بالرعب

وكان خالد رضى الله عنه ممن ينتصر باسمه كما ينتصر بسيفه . يسبقه اسمه إلى أعدائه قبل مواقعتهم ، فيعمل الرعب فى قلوبهم ماتعمله الصواعق ، ويشيع الفزع بينهم فتنحل قواهم ، وتنهار عزائمهم . روى الطبرى عن عدى بن حاتم أنه قال : أغرنا على أهل المصيخ وإذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، وإذا حوله بنوه وامرأته ، وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف ، يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة . وفى أعجاز الليل ؟ ! فقال : اشربوا شرب وداع ، فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها : هذا خالد بعين التمر ، وقد بلغه جمعنا ، وليس بتاركنا ، ثم قال :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر … بعيد انتفاخ القوم بالعكر الدثر (١)
وقبل منايانا المصيبة بالقدر … لحين لعمرى لايزيد ولا يحرى (٢)

ويروى ياقوت فى معجم البلدان : أن ربيعة لما تجمعت إلى الهذيل بن عمران غضبا لعقة بن أبى عقة لتأخذ بثأره من خالد وجيشه ، نهاهم حرقوص بن النعمان عن مكاشفة خالد ، فعصوه ، فرجع إلى أهله وهو يقول :

ألا فاسقيانى قبل جيش أبى بكر … لعل منايانا قريب ولا ندرى
ألا فاسقيانى بالزجاج وكررا … علينا كميت اللون صافية تجرى
أظن خيول المسلمين وخالدا … ستطرقكم عند الصباح على البشر
فهل لكم بالسير قبل قتالهم … وقبل خروج المعصرات من الخدر

---

(١) العكر : الإبل الكثيرة ، والدثر : الكثير من المال .
(٢) يحرى : ينقص ، قال فى اللسان : حرى الشىء يحرى حريا : نقص .

أريني سـلاحي يا أميمة إنني أخاف بيات القوم أو مطلع الفجر

مناوشات وتطهير

عرف خالد رضي الله عنه بعد إيقاعه بأهل المصيخ أن ربيعة بن بجير التغلبي في حشود من العرب والفرس مقيم بالثني ، وهو جبل يأخذ في عرض الفرات من أرض الشام ، فتقدم إلى قائديه القعقاع وأبي ليلى أن يسبقاه إلى الثني ؛ وواعدهم ليلة معينة فيها يلتقون ، ورسم لهم خطة الهجوم على غرار ما صنع بأهل المصيخ من الإحاطة بالعدو ، وأخذه من ثلاثة أوجه ، وتم لهم ما أرادوا فلم يفلت من أصحاب ربيعة بن بجير أحد ، وكثرت غنائم المسلمين في هذه الوقائع فقسمها خالد على جنده ، وبعث بالخمس إلى أبي بكر مع النعمان بن عوف الشيباني ، وكانت في السبي ابنة لربيعة بن بجير ، فاشتراها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فجاءت منه بولديه عمرو ورقية .

كان الهذيل بن عمران قد لجأ بعد فراره إلى مكان يقال له « البشر » وهو جبل يمتد مع الثني ، وكان بالبشر رجل يقال « عتاب » تجمع إليه عسكر ضخم ؛ يريد حرب المسلمين ومنازلتهم ، فبلغ خبره خالداً رضي الله عنه فقضى على من تجمع إليه ، ولم ينج منهم أحد ، ثم عطف خالد إلى هلال بن عقة ، وكان متربصا بالرضاب ، وهو موضع الرصافة قبل أن يبنيها هشام بن عبد الملك ، فلم يكد يسمع أصحاب هلال بدنو خالد حتى ارفضوا عنه ، وخلوه وحده فزايل الرضاب ، فاستولى عليه خالد دون قتال .

واقعة « الفراض »

نظر خالد إلى ما صار في يده من سواد العراق ، فرآه أصلح معسكر يثب منه إلى قلب فارس ، بيد أنه رأى من ورائه الفراض[1] ، والتخوم ، وأطراف العراق والجزيرة مما يلي الشام ؛ وفي الشام الروم لا تزال شوكة لو خلفها وراء ظهره واتجه إلى قلب فارس ؛ لم يأمن شوكتها ، وكان فيما أوصاه أبو بكر حينما وجهه لفتح العراق : حماية ظهره أبدا ، فتوجه على تعبيته إلى الفراض ، وتسامعت بمسيره الروم في شامها ، واستعدت للقائه حشود من الفرس ، ولفائف من تغلب ، وإياد والنمر ، وراسلوا الروم ، وكلهم حردان[2] حاقد على المسلمين ، قد شوى الغيظ أكبادهم ، وأنضج لهب الحفيظة

---

(١) الفراض جمع فرضة ، وهي موارد الاستقاء من الأنهار ويراد هنا ما حولها من الأماكن الآهلة بالناس .

(٢) حردان : غاضب .

قلوبهم ، فقد وطىء المسلمون رقابهم، ونزعوا نواصى أشرافهم، فتمثلوا مصارع ساداتهم بأيدى هؤلاء المسلمين من العرب الذين كانت فارس تراهم فى مكان الخول والأتباع ، فأصبحوا بهذا الدين الجديد وإذا هم سادة فاتحون غلابون ، لا يصدهم صاد ، ولا يردهم عن البلاد والعباد راد .

تجمع من هؤلاء وأولئك جيوش جرارة ، وواجهوا جيوش المسلمين ، يفصل بينهم الفرات ، فقال الأحلاف للمسلمين ، إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم ، فقال خالد ابن الوليد : لا ، ولكن اعبروا أسفل منا، فأدرك الروم من هذه الكلمة الحكيمة سر تضعضع الفرس أمام هذا البطل المسلم ، فقالوا : احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم ، ووالله لينصرن ، ولنخذلن .!!

نعم ، ولقد صدقوا ، فخالد بن الوليد أشجع الناس فى حرب ، وقلما يصبر على الحرب إذا رآها ، ولكنه العقل الذى لا يطيش ، والرجل الذى لا تستفزه الخدع ، والبطل الذى لا يلفت من يده زمام الرأى ، فلم يثره العجب بسابقات الظفر ليدفع بجنده إلى مضايق لا تؤمن مغباتها ، ومداخل لا تعرف مخارجها ، وتقدمات قد لا تسلم عواقبها ، فتصبر ، وأبى أن يعبر إلى عدوه ، وطلب إليهم أن يعبروا هم أسفل منه ليقاتل المسلمون أعداءهم فى مكانهم الذى اختاروه لجولاتهم ، وأثقالهم على بصيرة وتقدير .

عبر الأحلاف أسفل من المسلمين حتى تم جمعهم ، ثم قالت الروم لفارس : امتازوا حتى نعرف اليوم من أينا يكون الثبات أو التولى ، وهذه أولى خطوات الهزيمة ، لأن انعدام الثقة بين الجنود سهم نافذ يوجهه الله إلى قلب من يريد خذلانه من جنود الباطل ، وإلا فماذا بقى من الروح المعنوية لجيش تجمع من لفائف الأجناس والعناصر ، تحالفوا على الشك بعضهم فى بعض ؟ وهل يبقى الشك لدى الجندى عزمة إقدام؟ وأين هذا من موقف خالد يوم اليمامة ، وقد عرف من الأعراب الذين تجمعوا معه ممن كانوا قد ارتدوا أنهم لا يقاتلون عن عقيدة ، ولكنهم جاءوا لطلب الغنيمة ، فخشى المسلمون أن يؤتوا من قبلهم ، فقالوا لقائدهم : أخلصنا ، فنحى أولئك الأعراب المزعزعين عن تلقى حر السلاح، وجعل الصدارة لأهل الصبر واليقين من المهاجرين والأنصار ، ورضى من الأعراب تكثير سواد المسلمين وقيامهم بما تقوم به فرق العمال فى الحروب الحديثة .

امتار الأحلاف ، فكان الفرس بلوائهم ، وكان أخلاط العرب بلوائهم ، وكان الروم بلوائهم ، واقتتل الجمعان قتالا مريراً ، وتبدت لخالد رضى الله عنه بشائر النصر يعقد بلواء المسلمين ، فقال لجنوده : ألحوا عليهم ، ولا ترفهوا عنهم . فجعل خيالة المسلمين وفرسانهم يأخذونهم زمرا ، يرقل الفارس[1] المسلم إلى الزمرة من الأحلاف فيحشرهم برماح أصحابه حتى إذا سقطوا فى حبالتهم أتوا على أنفسهم ، فانجلت المعركة بهزيمة ساحقة لفارس ومن لف لفها من الأعراب ، ونصر حاسم يعقد بنواصى المسلمين ، ونذير يأتى به الله تعالى طليعة للروم .

وكانت هذه الواقعة آخر واقعات خالد بن الوليد رضى الله عنه مع الفرس بالعراق وقد كثرت فيها قتلى الروم وفارس ، وأتباعهم من العرب ، حتى قدرها بعض المؤرخين بمائة ألف قتيل .

ومهما يكن أمر هذا التقدير فى ميزان التصحيح فإن الثابت الذى لا يمترى فيه أن فارس لم تقم لها شوكة حربية يخشاها الإسلام بعد هذه الموقعة .

(١) يرقل : هو من أرقل إذا أسرع .

عزمة خالدين

كان خالد رضى الله عنه قد اتخذ الحيرة قاعدته الكبرى بالعراق ، ينشر منها راياته إذا غزا ، ويرجع إليها إذا ثوى ، ولما انتهى من وقعة الفراض ، ودانت له تخوم الشام أذن فى الناس بالرحيل إلى مستقره ، وقاعدته مصر العراق (الحيرة) ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش ، وجعل شجرة بن الأعز ساقة له ، وأظهر فى الناس أنه سيكون فى الساقة .

تحرك الجيش بثقله وعتاده ، وانطوى خالد رضى الله عنه على مغامرة من أخطر المغامرات ، فقد عزم أن يأتى مكة ويحج مع الناس ، ثم يدخل الحيرة مع الجيش فى الساقة ، وخالد إذا عزم ألقى بين عينيه الوصول إلى هدفه مهما تسكن العواقب فى طريقه ، فخرج فى جماعة من خاصة أصحابه مسامتا مكة ، يعتسف البلاد اعتسافا ، ويقتحم السبل اقتحاما ، فتأتى له ما لم يتأت للخريت الحاذق ، وجاز من دروب الصحراء أصعبها ، وقطع من طرقها أعجبها ، حتى أسلمه ذلك إلى عرفات ، فحج ثم عاد إلى جيشه ، فدخل معه الحيرة ، فما توافى اخرهم حتى وافاهم خالد مع رفاقه فى كتيبة ساقة الجيش ، ولم يشعر بمغامرة خالد وحجه أحد لولا أن رأوه فى سمات الحج محلقا ومقصرا .

ترامى نبأ هذه المغامرة الخطيرة إلى مسامع الخليفة فأعظم ذلك ، وكتب إلى خالد يعاتبه ، ويشغله ويشغل به ، فاستنفره إلى غوث إخوانه بالشام .

الفصل الحادي عشر

دولة الروم بعد الفرس والعرب

مقدمات غزو الشام ــ مشاورة أبي بكر لأهل الرأي ــ تأمير خالد بن سعيد ثم عزله ــ عقد الألوية وطموح ابن العاص ــ رأى أبي بكر وعمر في طموح عمرو ــ لواء يزيد بن أبي سفيان ووصية أبي بكر له ــ لواء شرحبيل بن حسنة ــ لواء أبي عبيدة ــ ابتهاج أبي بكر بكتائب المجاهدين ــ فزع الروم ورأى هرقل ــ مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم ــ بعث خالد بن الوليد أميراً على الأمراء ــ كتاب أبي بكر إلى خالد ــ بين خالد والمثنى ــ مغامرة خالدية ــ نظرة وعبرة ــ بين خالد وأبي عبيدة ــ أدب رفيع ــ جولات في الطريق ــ سياسة حكيمة ــ زمام الإمارة في يد خالد ــ إيمان ــ قصة جرجة القائد الرومي ــ هزيمة الروم ــ نبل عبقري ــ نظرة عابرة في قصة جرجة ــ ترتيب الوقائع الشامية ــ طريقة أخرى في ترتيب الوقائع ــ نظر وترجيح ــ نتيجة .

مقدمات غزو الشام

كان غزو المسلمين للروم فى الشام قد بدأ فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم . ففى السنة الثامنة للهجرة جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة بقيادة زيد بن حارثة. ثم انتهت قيادة الجيش باتفاق المسلمين إلى خالد بن الوليد الذى تجلت عبقريته الحربية فى إنقاذ جيش المسلمين من نكبة كادت تقضى عليه بعد أن قتل قواده الثلاثة الذين عينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن من بينهم خالد بن الوليد . وفى السنة التاسعة تجهز النبى صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين ألفا لغزو الروم، وسار إليهم يقود المسلمين حتى بلغ تبوك، فلم يلق قتالا ، وعاد بالمسلمين سالمين غانمين . وقبيل وفاته صلى الله عليه وسلم جهز جيش أسامة بن زيد ، وأوعب فيه الناس. ولكنه لم يخرج إلى هذا الوجه الذى جهزه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى خلافة أبى بكر. فالمسلمون كانوا قد مرنوا على غزو الروم، وكان فتح الشام أملا يملأ صدورهم ، فلما قام بالخلافة أبو بكر الصديق، وفرغ من أهل الردة واستقام له العرب ، فكر فى إتمام ما بدأه النبى صلى الله عليه وسلم ، وعناه غزو الروم وفتح الشام .

مشاورة أبى بكر لأهل الرأى

روى عن عبد الله بن أبى أوفى الخزاعى : أن أبا بكر لما أراد أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعليا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيده بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم . وشاورهم وكلهم استصوبوا رأى أبى بكر ، وقالوا : ما رأيت من الرأى فامضه ، فإنا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ، وعلى فى القوم لا يتكلم ، فقال له أبو بكر: ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : أرى أنك مبارك ، ميمون النقيبة ، فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله تعالى ، قال أبو بكر : بشرك الله بخير، ومن أين علمت هذا؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون » قال أبو بكر: سبحان الله! ما أحسن هذا الحديث ! لقد سررتنى ، سرك الله فى الدنيا والآخرة .

تأمير خالد ابن سعيد ثم عزله

ثم قام أبو بكر فخطب الناس ورغبهم فى الجهاد ، ثم أمر بلالا فأذن فى الناس : انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، وأمير الناس خالد بن سعيد . وكان

خالد بن سعيد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن . فلما ولاه أبو بكر الجند الذى استنفر إلى الشام أتى عمر أبا بكر ومنعه من تأمير خالد بن سعيد على الناس، فعزله عن الإمارة العامة وجعله رداء بتيماء .

قال أبو جعفر الطبرى : وكان سبب عزل أبى بكر خالد بن سعيد أن خالداً حين قدم من اليمن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تربص ببيعة أبى بكر شهرين يقول : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يعزلنى حتى قبضه الله ، وقد لقى خالد بن سعيد على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، فقال : يابنى عبد مناف لقد طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم ؟ فأما أبو بكر فلم يحفلها عليه ، وأما عمر فاضطغنها عليه . ثم بعث أبو بكر الجنود إلى الشام وكان أول من استعمل على ربع منهـــا خالد بن سعيد ، فأخذ عمر يقول : أتؤمره وقد صنع ما صنع ، وقال ما قال ؟ فلم يزل بأبى بكر حتى عزله . وفى رواية أن عمر لما سمع منه الكلمة المفرقة لشمل الجماعة الإسلامية قال له : فض الله فاك ، والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثم لا يضر إلا نفسه ، ثم نهى عمر أبا بكر عن توليته وقال : إنه لمخذول ، وإنه لضعيف التروئة[1] ، ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدل بها وخائض فيها ، فلا تستنصر به فلم يحتمل أبو بكر عليه وجعله رداء بتيماء ، أطاع عمر فى بعض أمره وعصاه فى بعضه .

عقد الألوية وطموح عمرو ابن العاص

تتابع الناس مستجيبين، فنفروا من كل فج يطلبون الجهاد فى هذا الوجه . وعقد أبو بكر الألوية للأمراء وأوعب معهم الناس ، فعقد لواء لعمرو بن العاص بعد أن استقدمه من عمان وكان والياً عليها من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم من قبل أبى بكر وفاء لعدة كان وعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ، فكتب إليه أبو بكر يقول : «إنى كنت قد رددتك إلى العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة ، وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ، ثم وليته ، وقد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك » . فكتب إليه عمر : « إنى سهم من سهام الإسلام،

(١) التروئة : التفكر فى عواقب الأمور .

وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها . فأنظر أشدها وأخشنها وأفضلها فارم به» .وكان عمرو بن العاص يرغب فى الإمارة العامة على جيوش الإسلام فى الشام كلها . فأبى عليه ذلك أبو بكر . ذكر الديار بكرى:أن أبا بكر جمع أشراف قريش من المهاجرين وغيرهم من أهل مكة ، ثم دعا بأشراف الأنصار وذوى السابقة منهم ،ثم دعا بعمرو بن العاص فقال له : ياعمرو هؤلاء أشراف قومك يخرجون مجاهدين فأخرج فعسكر حتى أندب الناس معك .

موقف الصديق والفاروق من طموح عمرو

فقال عمرو : ياخليفة رسول الله . أنا وال على الناس ؟فقال نعم،أنت الوالى على من أبعث معك من ههنا ، قال : لا ، بل وال على من أقدم عليه من المسلمين ! قال : لا ، ولكنك أحد الأمراء ، فإن جمعتكم حرب فأبو عبيدة أميركم ؛ فسكت عنه ، ثم خرج فعسكر ، فاجتمع إليه ناس كثير.وكان معه أشراف قريش ، فلما حضر خروجه جاء إلى عمر بن الخطاب ، فقال : يا أبا حفص : إنك قد عرفت بصرى بالحرب ،ويمن نقيبتى فى الغزو ، وقد رأيت منزلتى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد علمت أن أبا بكر ليس يعصيك ، فأشر عليه أن يولينى هذه الجنود التى بالشام ،فإنى أرجو أن يفتح الله على يدى هذه البلاد ، وأن يريكم والمسلمين من ذلك ماتسرون به . فقال له عمر :لاأكذبك ما كنت أكلمه فى ذلك لأنه لايوافقنى أن يبعثك على أبى عبيدة ، وأبو عبيدة أفضل منك منزلة ، قال عمرو : فإنه لاينقص أبا عبيدة شيئا من فضله أن ألى عليه ،فقال له عمر بن الخطاب : ويحك ياعمر وإنك والله ماتطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا ، فاتق الله ، ولا تطلب بشىء من سعيك إلا وجه الله، وأخرج فى هذا الجيش ، فإنك إن يكن عليك أمير فى هذه المرة ، فما أسرع ماتكون إن شاء الله اميراً ليس فوقك أحد. فرضى عمرو وخرج على رأس جيوشه التى حشدها له أبو بكر ، وخرج معه يشيعه ويوصيه فقال له : ياعمرو إنك ذو رأى وتجربة للأمور،وبصر بالحرب ،وقد خرجت فى أشراف قومك ورجال من صلحاء المسلمين ، وأنت قادم على إخوانك فلا تألهم نصيحة ولا تدخر عنهم صالح مشورة ، فرب رأى لك محمود فى الحرب مبارك فى عواقب الأمور : ثم أمره أن يجعل وجهه فلسطين من أرض الشام .

لواء يزيد بن أبى سفيان ووصية أبى بكر له

وعقد لواء ليزيد بن أبى سفيان وأوصاه فقال : «إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد « بن سعيد » فإياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها ، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم ، وأبدأهم بالخير ، وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها ، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم ، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون . ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك، وأنزلهم فى ثروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم. ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك ، وإذا استشرت فاصدق فى الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك ، واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار ، وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك ؛ وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه فى غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فانها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها . ولا تسرع إليها . ولا تخذلها مدفعا ، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم ، ولا تجالس العباثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس ، واجتنب الغلول ، فانه يقرب الفقر ، ويدفع النصر ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له »»

قال ابن الأثير : وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر . ثم دعا أبو بكر ربيعة بن عامر بن لؤى، فعقد له، ثم قال له : أنت مع يزيد بن أبى سفيان لا تعصه ولا تخالفه ، ثم قال ليزيد : إن رأيت أن توليه مقدمتك فافعل ، فانه من فرسان العرب وصلحاء قومك ، وأرجو أن يكون من عباد الله الصالحين ، ثم خرج أبو بكر يودع يزيد وهو يمشى ويزيد راكب ، فقال له : ياخليفة رسول الله ، إما أن تركب، وإما أن

تأذن لى فأمشى معك . فانى أكره أن أركب وأنت تمشى ، فقال أبو بكر : ما أنا براكب وما أنت بنازل ، إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله .

لواء شرحبيل ابن حسنة

وعقد أبو بكر لواء لشرحبيل بن حسنة، وسيره إلى الأردن، وكان شرحبيل جاء إلى أبى بكر ، وأبو بكر يحدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد . فقال له : ياخليفة رسول الله : أحدثت نفسك أن تبعث إلى الشام جندا ؟ قال : نعم ، حدثت نفسى بذلك وما يطلع عليه أحد ، وما سألتنى إلا لشىء ، فأخبره شرحبيل أنه رأى ذلك فى نومه، فقال له أبو بكر : نامت عينك ؛ هذه بشرى وهو الفتح — إن شاء الله — لاشك فيه ، وأنت أحد أمرائى ، فاذا سار يزيد بن أبى سفيان فأقم ثلاثا ، ثم تيسر للمسير ، ففعل ذلك شرحبيل ، فلما مضى اليوم الثالث أتاه من الغد يودعه ، فأوصاه أبو بكر بمثل ما أوصى به يزيد بن أبى سفيان .

لواء أبى عبيدة بن الجراح

وعقد أبو بكر لواء لأمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح ، وجعل وجهه « حمص » وجعله أمير الناس إن اجتمعوا ، وأبى أن يؤمر عليه عمرو بن العاص ، مع إلحاح عمرو فى ذلك ، وعسكر أبو عبيدة خارج المدينة يصلى بجنده وينتظر أن يسرحه أبو بكر حتى قدمت عليه جموع العرب بقادتها وفرسانها ، فلما تتام حشدهم خرج أبو بكر فى رجال من المسلمين على رواحلهم حتى أتى معسكر أبى عبيدة ، فماشاه إلى ثنية الوداع وأوصاه وناصحه . وأوصاه بقيس بن مكشوح المرادى ؛ وكان من فرسان العرب المؤلفة قلوبهم ، فقال له: إنه قد صحبك رجل عظيم الشرف ، فارس من فرسان العرب لا أظن له عظيم حسبة ، ولا كثير نية فى الجهاد ، وليس بالمسلمين غنى عن مشورته ورأيه وبأسه فى الحرب ، فأدنه وألطفه وأره أنك غير مستغن عنه ولا مستهين بأمره ، فانك تستخرج منه بذلك نصيحته لك وجهده ووجده على عدوك ، ثم دعا أبو بكر قيسا ، فقال له : إنى بعثتك مع أبى عبيدة الأمين الذى إذا ظلم كظم ، وإذا أسىء إليه غفر ، وإذا قطع وصل ، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين ، فلا تعصين له أمرا ، ولا تخالفن له رأيا ، فانه لن يأمرك إلا بخير ، وقد أمرته أن يسمع منك ، ولا تأمره إلا بتقوى الله ، لقد كنا نسمع أنك شريف بئيس مجرب ، وذلك فى زمان الشرك والجاهلية الجهلاء ، فاجعل بأسك وشدتك ونجدتك اليوم فى الإسلام على من كفر بالله وعبد غيره، فقد جعل الله فيه الأجر العظيم ؛ والعز للمسلمين .

سرور أبي بكر بكتائب المجاهدين

وكان أبو بكر رضى الله عنه لا يسره شيء ما يسره قدوم جمع من المسلمين يريدون الجهاد فى هذا الوجه . قال عمرو بن محصن : لم يكن أبو بكر رضى الله عنه يسأم توجيه الجنود إلى الشام وإمداد الأمراء الذين بعثهم بالرجال بعد الرجال إرادة إعزاز الإسلام وإذلال أهل الشرك . وقال أبو سعيد المقبرى : لما بلغ أبا بكر جمع الأعاجم لم يكن شيء أعجب إليه من قدوم المجاهد عليه من أرض العرب . فكانوا كلما قدموا عليه سرح الأول فالأول . ولما قدم عليه حمزة بن مالك الهمدانى فى جمع عظيم من قومه : ورأى أبو بكر عددهم وعدتهم سره ذلك وقال : الحمد لله على صنيعه للمسلمين . ما يزال الله تعالى يرتاح لهم بمدد من أنفسهم يشد به ظهورهم ويقصم به ظهور عدوهم .

فزع الروم ورأى هرقل

سارت جيوش المسلمين حتى نزل كل جيش منها مكانا يشرف منه على الروم، وتسامعت الروم بحلول المسلمين بساحتهم وتمثل عقلاؤهم الخطر الذى أحدق بهم . وكان هرقل مقيما ببيت المقدس بعد انتصاره على الفرس وتحريره من نيرهم . فأتاه الخبر بقرب جنود الإسلام منه . فجمع إليه خاصته وأصحاب مجلسه . وفيهم أخوه « تزارق » فقال لهم : أرى من الرأى ألا تقاتلوا هؤلاء القوم . وأن تصالحوهم فو الله لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم فى جبال الروم . فأبوا عليه رأيه . وردوا عليه قوله وتغلبت العامة على الخاصة وذوى الرأى . وأخذتهم العزة بالإثم . فاضطر هرقل أن ينزل على رأيهم و يسير بهم لقتال المسلمين. فنزل حمص واجتمع له فيها جيش كثيف فرقه كتائب. وجعل فى وجه كل أمير من أمراء المسلمين جيشاً يفوق عدده عدد جيش الإسلام وتزيد عدتهم على عدتهم. وكان قد ترامى إلى هرقل أن خالد بن الوليد قد طلع على «سوى» وانتسف أهله وأموالهم . وعمد إلى بصرى فافتتحها. وهو فى طريقه لغوث إخوانه أمراء الشام . فقال هرقل لجلسائه :ألم أقل لكم لا تقاتلوهم فإنه لا قوام لكم مع هؤلاء القوم . إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم(١) فلا يقوم لهم أحد حتى يبلى . فقال له قومه : قاتل عن دينك ولا تجبن الناس . واقض الذى عليك؟ فلما رأى هرقل ذلك منهم جمع إليه أهل البلاد وأشراف الروم ومن كان على دينهم من

(١) ثبارهم : حرصهم على التواثب فى الحرب .

العرب فقال لهم : ياأهل هذا الدين إن الله قد كان إليكم محسنا ، وكان لدينكم معزا وله ناصرا على الأمم الخالية ، وعلى كسرى والمجوس والترك وعلى من سواهم من الأمم ، وذلك أنكم كنتم تعملون بكتاب ربكم الذى كان أمره رشدا ، فلما بدلتم وغيرتم ذلك أطمع فيكم قوماً والله ما كنا نعبأ بهم ، ولا نخاف أن نبتلى بهم ، وقد ساروا إليكم حفاة عراة جياعا قد اضطرهم إلى بلادكم قحط المطر وجدوبة الأرض وسوء الحال ، فسيروا إليهم وقاتلوهم عن دينكم وبلادكم وأبنائكم ونسائكم وأنا شاخص عنكم وممدكم بالخيول والرجال .

وعن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص قال : لما مضت جنود أبى بكر إلى الشام بلغ ذلك هرقل ملك الروم وهو بفلسطين ، وقيل له . قد أتتك العرب وجمعت لك جموعا عظيمة ، وهم يزعمون أن نبيهم الذى بعث إليهم أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هذه البلاد ، وقد جاءوك وهم لا يشكون أن هذا يكون ، وجاءوك بأبنائهم ونسائهم تصديقا لمقالة نبيهم يقولون : لو دخلناها وافتتحناها نزلناها بأولادنا ونسائنا ، فقال هرقل : ذلك أشد لشوكتهم ، إذا قاتل القوم على تصديق فما أشد على من كابدهم أن يزيلهم أو يصدهم .

مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم

فلما رأى أمراء المسلمين اجتماع الروم لهم رأوا أن يتشاوروا فيما يصنعون ، فكان فيما أشار عليهم به عمرو بن العاص : « إن الرأى لمثلنا الاجتماع ، وذلك أن اجتماع مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة » وكتبوا إلى أبى بكر ، ثم اتعدوا جميعا « اليرموك » ووافاهم كتاب أبى بكر بالاجتماع على مثل ما أشار به عمرو بن العاص ، فقال لهم : « أن اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصل كل رجل منكم بأصحابه » .

بعث خالد بن الوليد أميرا على الأمراء

اجتمع الروم ونزلوا واديا عسكروا على ضفته وجعلوه خندقا بينهم وبين المسلمين ، فحصرهم المسلمون شهر صفر والربيعين لا يقدر أحد الفريقين على أن ينال نيلا من الآخر ، فلما طال الأمر على المسلمين كتبوا إلى الخليفة يخبرونه بجموع الروم وكثرتهم ويستمدونه ، ولم يكد كتاب الامراء يقع إلى أبى بكر حتى طاف بخاطره فاقىء عين الردة ، وفاتح العراق ، ومدوخ فارس سيف الله وسيف رسوله القائد المظفر خالد بن الوليد ، فاستنار وجه

أبي بكر لهذا الخاطر وقال يخاطب نفسه : «خالد لها؛ والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

لله أبو بكر ! ماأعرفه بالرجال ! وأخبره بالعبقريات يوجهها إلى حيث تملك مجالها من الحياة ، وتملك منها الحياة ماتشاء من خصائص البطولة فى ميادينها .

أولئك الأمراء الذين عقدلهم أبو بكر ألوية الإمارة فى غزوة الشام من أقدر رجالات الإسلام وأشجعهم وأدهاهم وأعلمهم بمداخل الغمرات فى الحروب ؛ وقفوا بإزاء الروم ثلاثة أشهر ، وهم مجتمعون متساندون لم ينالوا منهم نيلا ، ولا أنشبوا معهم قتالا حتى أعياهم الانتظار ، وأملهم الاصطبار ، وهالهم حشد الروم ، وتكاثر أعدادهم ؛ فكتبوا إلى الخليفة يخبرونه ويستمدونه ! وفى عاصمة الإسلام من جنود الإسلام مدد وأمداد وفيها أبطال وقواد ، ولكن أبا بكر الصديق يعلم أن النصر لم يكن معقوداً بكثافة الجنود ، وإنما ينزل الله نصره على من يشاء من عباده الذين حباهم بخصائص من مقومات العبقريات فى الأفراد ، موزعة على وفق الاستعداد .

أليست هذه الجموع التى جمعها الروم ووقف أمراء المسلمين بإزائها يستمدون الخليفة قد جمع الفرس من قبل أمثالها لخالد بن الوليد فرعبلها[1] ، ونكل بها ، وهزمها شر هزيمة وأنكرها ؟ أو ليس هؤلاء الروم كانوا قد تجمعوا من قبل مع الفرس وتجييشهم من فلال العرب فى حشود أضخم من هذه الحشود التى ينفرد بها الروم وحدهم ، ووقفوا فى وقعة الفراض أمام خالد بن الوليد قائداً وحده فانتصر عليهم نصراً مؤزراً ، وظفر بهم ظفراً مشى حديثه فى فارس فبخعها ، وفى الروم فأرعبها ؟ بلى ! فماذا إذا ؟ أفتقف الفتوح الإسلامية أمام تكاثف جيوش الروم وفى المسلمين سيف الله ؟ لا ، لن تقف ، بل خالد لها ، إذا كان للشيطان نفخة غرور فى أنوف الروم خدعتهم عن جند الله ، وأبطال الإسلام ، فلينسينهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وساوس الشيطان بسيف الله خالد ابن الوليد .

كتاب أبي بكر بالإمارة إلى خالد

كتب أبو بكر إلى خالد مرجعه من حجته التى غامر فيها تلك المغامرة الخطيرة يعاتبه ويهنئه ، ويذكره ويعظه ثم يستفزه إلى غوث إخوته أمراء الشام ليتم نعمة الله عليه

(١) رعبلها : مزقها وفرقها .

بفتح الشام كما فتح العراق ويكسر شوكة الروم كما كسر قناة الفرس، فقال له: «أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا، وأياك أن تعود لمثل مافعلت، فإنه لم يشجِ الجموع بعون الله أحد من الناس شجيك، ولم ينزع الشجي أحد من الناس نزعك، فليهنك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتنسخر وتذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن، وهو ولى الجزاء» ثم قال له: «دع العراق واخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امض مخففاً فى أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك ورحمة الله».

بين خالد والمثنى

وفى رواية أن أبا بكر أمر خالد بالخروج فى شطر الناس وأن يخلف على الشطر الثانى المثنى بن حارثة، وقال أبو بكر لخالد: لاتأخذ مجدا إلا خلفت لهم مجدا، فإذا فتح الله عليك فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك، وأحضر خالد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأثر بهم على المثنى، وترك للمثنى أعدادهم من أهل الغناء ممن لم يكن له صحبة، ثم نظر فيمن بقى، فاختلج من كان قدم على النبى صلى الله عليه وسلم، وافدا أو غير وافد، وترك المثنى أعدادهم من أهل الغناء، ثم قسم الجند نصفين فقال المثنى والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة وإبقاء النصف أو بعض النصف، فو الله ما أرجوا النصر إلا بهم فأنى تعرينى منهم.

وإذا كان المثنى قد تشدد فى التمسك بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه يرجو النصر بهم، فخالد أحق بالتشدد فى التمسك بهم أن يكونوا معه فيما ندب إليه من غوث المسلمين بالشام وقد كلب عليهم الروم وجمعوا لهم؟ لأن خالدا أعرف بالصحابة وصبرهم فى الحرب وحبهم للموت فى سبيل الله، وقد صحبوه فى حروب الردة فقمعها بهم، وكانوا معه فى حرب الفرس بالعراق ففتح بهم البلاد ودوخ فارس وطامن من غرورها على العرب فأنى له أن يترك واحداً منهم يستطيع أن يجعله من بين أبطاله وشجعان جيشه؟ لذلك حاول أرضاء المثنى باعاضته منهم كل فارس من أبناء البيوتات ورجالات القبائل حتى رضى المثنى وأخذ حاجته من الرجال، وشيع خالدا وودعه ودعا له ولأصحابه.

والتأمل فى كتاب أبى بكر إلى خالد يقرأ فى أثناء سطوره وحنايا عباراته اصدق آيات تقدير العبقرية الخالدية ، ويرى المكان الذى تبوأه خالد بن الوليد فى الخلافة الصديقية ، وقد حقق الله للصديق جميع ما أمله فى سيف الله خالد بن الوليد .

* * *

مغامرة جريئة

قرأ خالد رضى الله عنه كتاب الخليفة بالمسير إلى الشام ، فعز عليه ترك العراق إلى الشام ، ولكنه وهو الرجل العسكرى لايعرف لغير الطاعة فى نفسه سبيلا ، فنهض للسمع والطاعة ، وخلف على العراق بأمر الخليفة المثنى بن حارثةالشيبانى، وفصل بمن معه من أبطال الإسلام وجنده من الحيرة إلىدومة ، ثم طعن فى البرية ، وطلب حذاق الأدلاء وقال لهم : « كيف لى بطريق أخرج فيه عن وراء جموع الروم ؟ فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين » فكلهم قالوا : لانعرف إلا طريقا لايحمل الجيوش ، يأخذه الفذ الراكب ، فإياك أنتغرر بالمسلمين ، فأبىخالد إلاأن ينفذ رأيه؛ وطلب الخريت ، فدل على رافع بن عمير الطائى ، فقال له : فى ذلك، فقال رافع إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ؛والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه،ومايسلكها إلا مغرر ، إنها لخمس ليال جياد ، لا يُصاب فيهاماء مع مضلتها ، فقال له خالد:ويحك! إنه والله لابد لى من ذلك ، إنه قد أتتنى عزمة فمر بأمرك .

ثم قام خالد فى الناس ليشحذ عزائمهم ، ويقوى إيمانهم ، فقال « لايختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم ، وأعلموا أن المعونة تأتى علىقدر النية ، والأجر على قدر الحسبة، وإن المسلم لاينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله » .

هذا مظهر من مظاهر الخلائقالإيمانية التىعرضنا لها فىحديثنا عن شخصية خالد رضى الله عنه ، ورأينا أنها عنصر من عناصر عبقريته . وهل ثمت إيمانأقوى وأعظم من هذا الإيمان الذى يرى أنه لاينبغى للمسلم أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله؟

وقد أحدثت هذه الكلمات فى نفوس المسلمين ماقصد إليه خالد منها فقالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ، والتفت خالد إلى رافع بن عمير يستنطقه ، فقالرافع : استكثروا من الماء من استطاع منكم أن يصرأذن ناقته علىماءفليفعل،فإنها المهالك إلا مادفع الله ، ثم قال لخالد : أبغنى عشرين جزورا عظاما سمانا مسان، فأتاه

بهن ، فعمد إليهن فظمأهن ، حتى إذا أجهدهن العطش أوردهن فشربن حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشافرهن ، ثم كعمهن لئلا يجترون ، ثم قال لخالد سر ، فسار خالد معه مغذا بالخيول والأثقال ، فكلما نزل منزلا ، اقتط أربعا من تلك الشرف ، فأخذ ما فى أكراشها فمزجه بما كان من اللبان فسقاه الخيل ، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء ، فلما كان آخر يوم من المفازة خشى خالد على أصحابه أن يفضحهم حر الشمس فأراد أن يطمئنهم فقال لرافع : ويحك يارافع ماعندك ؟ قال خير ؛ أدركت الرى إن شاء الله ، وشجعهم وهو متحير أرمد ، فلما دنا من مكان يعرفه قال للناس انظروا هل ترون شجرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا ما نراها : قال رافع : إنا لله وإنا إليه راجعون !! هلكتم والله إذاً وهلكت ــ لا أبا لكم ــ انظروا . فطلبوها فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية ، فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع ، ثم قال : احفروا فى أصلها فحفروا فنبع الماء ، وشربوا حتى روى الناس واتصلت بعد ذلك المنازل .

وهذه المفازة التى غامر خالد بنفسه وجيوشه فى قطعها من العراق إلى الشام ليخرج على الروم فلا يحبسه دونهم شىء هى المعروفة الآن ببادية الشام ، وهى اليوم طريق السيارات بين دمشق وبغداد .

قال المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام فى بحث له بعنوان « مهد العرب » : وفى هذا الجانب طريق السيارات بين دمشق وبغداد اليوم وهو زهاء ثمانمائة وستين كيلا تقطعها السيارات فى عشرين ساعة مع الاستراحة ، وهى البادية التى اخترقها سيدنا خالد بن الوليد بجيشه فى السنة الثانية عشرة من الهجرة : إذ سار من العراق مدداً لجيوش العرب فى الشام فرمى بنفسه وجيشه فى بادية لا ماء فيها ، وأتى الروم من مأمنهم ، وفجأهم بما لم يحتسبوا ، وقد قطعها فى خمسة أيام .

* * *

نظرة وعبرة

العبقريات لا تعرف الحدود . ولا تعترف بقيمة الحواجز المادية التى تصادفها فى طريقها إلى غاياتها النبيلة . فصارمات العزائم عند العباقرة أمضى من صوارم المرهفات . وبطل الإسلام خالد بن الوليد واحد من أفذاذ العباقرة الذين استنارت صفحات التاريخ

بأسمائهم ؛ وقد كانت مواقفه فى حياته كلها ولا سيما المرحلة الإسلامية منها شواهد على ما تستطيع أن تصنعه العبقرية مما يراه سواد الناس أدخل فى مراتب المستحيل ، وموقف خالد رضى الله عنه فى سفره من العراق إلى الشام بجحافله وأثقالها بعد تلك المغامرة الجريئة التى خرج فيها إلى الحج ثم عاد إلى الحيرة فدخلها مع ساقة الجيش ، من أعجب مارواه التاريخ من مغامرات القواد والأبطال .

جاء كتاب أبى بكر إلى خالد ، يعاتبه على ما كان منه من مخاطرة قاسية ، ثم هنأه على ما أصاب من توفيق الله ، وانتهز الصديق هذه الفرصة المواتية ، ورمى الروم بسيف الله لينسيهم وساوس الشيطان ؛ وهذا لون من الأدب الرفيع أخذ به الصديق قائده البطل بعد أن سجل له جلائل أعماله ومظاهر عبقريته بقوله : « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك . فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل مافعلت ، فإنه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ، فلتهنئك أبا سليمان النية والحظوة » وهذه سياسة فى الحزم والحكمة معروفة عن أبى بكر الصديق فى خلافته وما جرى فيها من الأحداث العظام ، وكان بهذه السياسة أعرف رجل بالرجال وأخبر إمام بأمة أعطته مقادها ، وأعز خليفة فى عزمة وسلطان مبسوط بالعدل القاهر والرحمة الحانية .

صدع القائد البطل بأمر الخليفة الراشد ، بيد أنه خشى إن هو أخذ إلى وجهه سمت الناس أن يلقى العدو مواجهة فيحبسه من غياث المسلمين ؛ فماذا إذن ؟ !

فكر القائد البطل ، ورأى أنه لابد له من أن يأتى الشام من طريق لا يحول بينه وبين المسلمين فى أثنائه شىء . ولو كان فى ذلك أعظم المخاطر وأشد العقبات ، فليلق أمره إلى حذاق الأدلاء ، ومهرة الخريتين ، ولكنهم جميعا حذروه وخوفوه على نفسه وعلى جيشه لأنهم لا يعرفون طريقا يدفع به إلى وجهه من وراء عدوه إلا طريقا واحدا ، الراكب الفذ لو سلكه لكان مغررا بنفسه ، فكيف بهذه الجحافل وأثقالها ؟ !

ومتى خضع خالد بن الوليد للعقبات والمصاعب تحول بينه وبين أهدافه ومقاصده ؟ ! إن العبقرية لا تعرف المحال ، فليكن ماتريد ، ثم ليكن ما شاء الله ؛ « ويحك يارافع ابن عمير ؟ إنه والله لابد لى من ذلك » وليس العجيب أن يعزم خالد على تخطى الصعاب

فيصدق فى عزمه ، ولكن العجيب حقا أن تسرى روحه الجياشة بغوارب القوى القاهرة إلى جيشه فيستجيب له فى ثقة لا تعرف التردد ، وإيمان بيمن نقيبته ورعاية الله تعالى له ، فهو إذ يقول لجنده مشجعا : « إن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » يجيبونه بقلوب مخلصة وألسنة صادقة : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك »

بين خالد وأبى عبيدة

نشط خالد وازداد يقينه قوة إيمان بما رأى من ارتفاع روح جيشه الباسل ، واستجاب إلى الخريت رافع بن عمير الطائى ، وصدق الله فى عزمته ، ثم فكر فى شأن المسلمين بالشام وقد ضايقهم الروم بكثافة عددهم وكثرة عتادهم ، وفكر فى أمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح وهو يقود جنود الإسلام ، فرأى أن تكون بشراهم بإمداده وغياثه لهم رسول السكينة إلى قلوبهم ، ورأى إذ ولاه الخليفة الأعظم القيادة العامة ، ووجه أميراً على الأمراء بالشام أن يشعر الأمين أباعبيدة أنه أعرف بمكانه وقدره بين المسلمين ، وأن رأيه إلى رأيه ينتهى ، فبعث بكتابين أحدهما إلى عامة المسلمين بالشام يقول لهم فيه : « أما بعد فإن كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى بالمسير إليكم ، وقد شمرت وانكمشت[1] ، وكأن قد أظلت عليكم خيلى ورجلى ، فأبشروا بانجاز موعود الله وحسن ثواب الله ، عصمنا الله وإياكم باليقين ، وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين » .

وأرسل ثانيهما إلى أبى عبيدة خاصة . وفيه يقول : « أما بعد فإنى أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة فى دار الدنيا من كل سوء ، وقد أتانى كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى بالمسير إلى الشام ، وبالقيام على جندها والتولى لأمرها ، والله ماطلبت ذلك قط ، ولا أردته إذ وليته ، فأنت على حالك التى كنت عليها ، لا نعصيك ولا نخالفك ، ولا نقطع أمرا دونك ، فأنت سيد المسلمين ، لا ننكر فضلك ، ولا نستغنى عن رأيك ، تمم الله مابنا وبك من إحسان ، ورحمنا وإياك من صلى النار ، والسلام عليك ورحمة الله » .

ولما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال : « بارك الله لخليفة رسول الله فيما رأى ، وحيا الله خالدا » .

---

(١) الانكماش : الجد فى الأمر والسرعة فى طلبه .

أدب رفيع

ولابد لنا من الالتفات قليلا إلى هذه الآداب الرفيعة فى حديث القائدين العظيمين ، فخالد بن الوليد رأى أنه ولى القيادة العامة، وأصبح أمير أمراء الشام ، وفيهم أبو عبيدة، وهو من سادة السابقين الأولين ، وله بين الناس مقام ملحوظ فلا يسوغ فى شرعة المكارم وأدب البطولة الإسلامية أن يفاجئه[1] خالد بالأمر ، فليكتب إليه يطلعه على الحقيقة ويعرفه أنه لايزال فى مكانه من التبجيل والاحترام ، وأنه سيد المسلمين فى هذا الوجه ، وأنه لايقطع أمرا دونه .

وهذا الأدب الرفيع هو الذى عامل به أبو عبيدة خالدا حينما أتم الفلك دورته الخالدية ، وعاد القائد البطل جنديا يعمل فى ظل إمارة أبى عبيدة بأمر الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فى مطلع خلافته ؛ فقد روى ابن كثير فى تاريخه أن خالداً قال لأبى عبيدة حين أبلغه أمر عمر بعزله ، وكان أبو عبيدة قد أخر إخبار خالد بأمر عزله حتى يفرغ خالد من الاشتباك فى إحدى المواقع ؛ ولم يخبره به فور مجيئه . « يرحمك الله ! مامنعك أن تعلمنى حين جاءك ؟! » فأجابه الأمين أبو عبيدة : « إنى كرهت أن أكسر عليك حربك ؛ وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ؛ وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ؛ وإنما نحن أخوان ، وما يضير الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه » .

جولات فى الطريق

وكان أبو بكر رضى الله عنه كتب إلى أبى عبيدة يعلمه بتولية خالد الإمارة العامة لظنه أنه أفطن فى الحرب ، ولم يكن ذلك ليقلل من مكانة أبى عبيدة عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له فى كتابه « أما بعد : فانى وليت خالداً قتال العدو بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنى لم أبعثه عليك أن لاتكون عندى خيرا منه، ولكنى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ؛ أراد الله بنا وبك خيرا » .

وكان هذا اللون من الأخلاق الكريمة والأدب الرحيم الذى صورت فى إطاره أعمال رجالات الإسلام الأولين من أقوى دعائم نهضة المسلمين ورفعة شأنهم يوم أن كانوا حرصاء على التسامى عن المنافسة فى سلطان الدنيا .

لم يكن خالد رضى الله عنه وهو فى طريقه إلى ماندب إليه يكتفى بأنه يعتسف المهالك اعتسافا ، ويطوى المضلات للوصول إلى هدفه طيا ، بل كان لايمر على بلد من بلدان

(١) المغافصة : المفاجأة .

التمرك إلا وقف عنده وقفة لا يطيلها ، ولكنها وقفة كانت تنتهي دائما بغنم في صلح أو نصر في جولة ، فقد روى أنه مر في طريقه على « تدمر » فتحصن منه أهلها فأحاط بهم وحاصرهم من كل جانب فلم يقدر عليهم ، وخشى أن يطول مقامة عليهم فيشغله عن مقصده الأعظم ، فترحل عنهم ، وقال لهم : « والله لو كنتم في السحاب لأنزلنا كم وظهرنا عليكم ، ماجئنا كم إلا ونحن نعلم أنكم ستفتحون علينا ، وإن أنتم لم تصالحون هذه المرة لأرجعن إليكم لو قد انصرفت من وجهي هذا ، ثم لا أرحل عنكم حتى أقتل مقاتلكم وأسبي ذراريكم » فلما فصل عنهم قال عقلاؤهم : إنا لانرى هؤلاء القوم إلا الذين كنا نتحدث أنهم يظهرون علينا فافتحوا لهم ، فبعثوا إلى خالد فصالحوه .

وعن سراقة بن عبد الأعلى أن خالداً في طريقه ذلك مر على « حوران » فهابوه فتحرز أكثرهم منه فأغار عليهم وأستاق الأموال وقتل الرجال ، وأقام عليهم أياما فبعثوا إلى من حولهم ليمدوهم من مكانين : من بعلبك — وهي أرض دمشق — ومن بصرى وهي مدينة « حوران » ، فلما رأى خالد المددين قد أقبلا خرج وصف بالمسلمين ، ثم تجرد في مائتي فارس فحمل على مدد بعلبك ، وهم أكثر من ألفين ، فما وقفوا له حتى أنهزموا ودخلوا المدينة ، ثم انصرف يوجف في أصحابه وجيفا حتى إذا كان بحذاء مدد بصرى ، إنهم لأكثر من ألفين ، حمل عليهم فما ثبتوا له فواقا حتى هزمهم فدخلوا المدينة ، وخرج أهل المدينة فرموا المسلمين بالنشاب فانصرف عنهم خالد وأصحابه حتى إذا كان الغد خرجوا إليه ليقاتلوه فعجزوا وأظهره الله عليهم فصالحوه .

وكان في أهل « حوران » علج يتشجع ، وكان فيمن شهد هذه الموقعة مشركا فحدث بحديثها عمرو بن محصن قال : والله لخرجنا إليهم بعد ماجاءنا مدد أهل بعلبك وأهل بصرى بيوم ، وإنا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم ، فما هو إلا أن دنونا منهم فثاروا في وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد ، فانهزمنا أقبح الهزيمة وقتلونا شر مقتلة ، فما عدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم ، ولقد رأيت رجلا منا كنا نعده بألف رجل قال : لئن رأيت أميرهم لأقتلنه ، فلما رأى خالدا قيل له : هذا خالد أمير القوم فحمل عليه ، وإنا لنرجو لبأسه أن يقتله ، فما هو إلا أن دنا منه فضرب خالد فرسه فأقدمه عليه ثم استعرض وجهه بالسيف فأطار قحف رأسه ودخلنا مدينتنا ، فما كان لنا هم إلا الصلح حتى صالحناهم .

سياسة حكيمة

قدم خالد اليرموك فى عشرة آلاف — كما تقول بعض الروايات — فتم بهم عدد المسلمين أربعين ألفا ، وكان المسلمون قبل قدوم خالد عليهم يقاتلون أعداءهم متساندين ، كل أمير منهم يقصد إلى ناحية ليغزوها ، ويبث غاراته فيها ، وكانوا إذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا له وصلى كل أمير بأصحابه وجنده ، وإذا احتاج أحد الأمراء إلى معاضدة من أحد إخوانه سارع إلى إنجاده ، ولكن خالداً رضى الله عنه لما وصل إليهم بجيوش العراق ، ورأى كثرة الروم ، واجتماعهم وخروجهم على تعبية لم ير الناس مثلها ، لم يشأ أن يفتح على الأمراء بابا ربما لم يقع من أنفسهم — بادئ الرأى — موقع الرضا والتسليم ، ذلك أن يعرض عليهم إمارته العامة التى ولاه الخليفة إياها ، واكتفى بإعلام أبى عبيدة لأنه بمنزلة أمير الأمراء قبل ورود خالد عليهم ، فقد قال لهم أبو بكر عند بعثهم : «فإذا قدمتم البلد ، ولقيتم العدو فاجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح» بل لجأ خالد إلى أسلوب يمكنه من الإشراف التام على إدارة الحرب ، ويرضى عنه أصحابه فيمشون معه قدما فى عزائم صارمة ، فقال لهم : «هل لكم يا معشر الرؤساء فى أمر يعز الله به الدين ، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه» ؟ قالوا : نعم ، فخطب الناس بعد أن استأنس من رضاء الأمراء بصفة عامة فقال : «إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية(1) على تساند(2) وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته» .

قال الأمراء : فهات ؛ فما الرأى ؟ ! قال خالد : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله ، الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ، ولا عند خليفة

(1) تعبئة الجيش : تجهيزه وتهيئته للقتال .
(2) التساند : أن يعمل الجيش تحت رايات شتى لا تجمعهم راية أمير واحد .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا ، والآخر بعد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعونى إليكم اليوم » .

رضى الأمراء هذا الرأى فأمروا خالداً عليهم ، وهم يرون أنها كخرجاتهم إذ كانوا على تساندهم ، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه ، وأن من لم يكن منهم أميراً اليوم فسيكون أميراً غدا .

زمام الإمارة فى يد خالد

تسلم خالد بن الوليد زمام القيادة ورأى الروم قد خرجت على تعبية لم ير الراءون مثلها قط ، فخرج لهم فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك ، فجعل جيشه كراديس[1] ، وقال لجنوده : إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس ، فجعل القلب كراديس ، وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح ، وجعل الميمنة كراديس ، وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل ، وجعل الميسرة كراديس ، وعليها يزيد بن أبى سفيان ، وأقام على كل كردوس بطلا من شجعان المسلمين وفرسانهم من أضراب القعقاع وعكرمه ، وعياض بن غنم ، وعبدالرحمن بن خالد ، وكان عبدالرحمن يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، وأقام على القضاء أبا الدردا ، وعلى القصص[2] أباسفيان ابن حرب ، وأمر المقداد بقراءة سورة الجهاد ، وهى الأنفال ، وكان فى هذا الجيش نحو ألف رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيهم زهاء مائة من أهل بدر ، وكان أبوسفيان يسير فى الكراديس ويقف عليها وهو يقول : الله ، الله ، إنكم قادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وهكذا أعد البطل خالد جيشه لمواقفة حشود الروم إعداداً روحيا ونظاميا لم يسبق للمسلمين أن خرجوا فى مثله ، وكان عدوهم فى كثرة تزيد على خمسة أضعافهم فى أقل تقدير المقدرين ، وسمع سيف الله خالد رجلا من صفوف الناس يقول : ما أكثر الروم وأقل

---

(١) الكراديس : الكتائب ، قال فى القاموس : وكردس الخيل : جعلها كتيبة .
(٢) القصص هنا لون من الوعظ التاريخى يقصد إلى تحميس الجند وبث الحمية فى قلوبهم .

المسلمين فزجره خالد ورد عليه رداً يجعل من كل جندى من جنود الإسلام جيشا فى إهاب رجل فقال : بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر – يعنى فرسه – وكان قد حفى فى قدمته من العراق – براء من توجيه(1) ، وأنهم أضعفوا فى العدد!! قال قيس بن حازم – وكان مع خالد فى جيشه – : كنا نظن أن الكثير من المشركين والقليل عند خالد سواء، لأنه كان لا يملأ صدره منهم شئ ، ولا يبالى بمن لقى منهم لجراءته عليهم .

أمر خالد القعقاع بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، وكانا على مجنبتى القلب فأنشبا القتال ، فبرز القعقاع وهو يرتجز .

يا ليتنى ألقاك فى الطراد قبل اعترام الجحفل الوراد

وأنت فى حلبتك الوراد

وخرج عكرمة وهو يقول :

قد علمت الجوارى أنى على مكرمة أحامى

إيمان

والتحم الناس وتطارد الفرسان واقتتلوا قتالا مريرا لم ير الناس مثله ، قال الطبرى وتابعه ابن الأثير ؛ فإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة فأخذته الخيول ، وسألوه الخبر فلم يخبرهم إلا بسلامة ، وأخبرهم عن أمداد ، وإنما جاء بموت أبى بكر رحمه الله وتأمير أبى عبيده ، فأبلغوه خالداً فأخبره خبر أبى بكر سره إليه ، وأخبره بالذى أخبر به الجند، فقال له خالد : أحسنت فقف، وأخذ الكتاب وجعله فى كنانته وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند ، فوقف محمية بن زنيم – وكان هو الرسول – مع خالد .

قصة جرجة

وخرج جرجة وهو قائد رومى – حتى كان بين الصفين ، ونادى : ليخرج إلى خالد فخرج إليه خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فوقف القائد الرومى بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد آمن أحدهما صاحبه ، فقال جرجة : يا خالد : أصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل ، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا ، قال : فيم

(1) توجيه : حفاؤه من شدة المشى ووعورة الطريق .

سميت سيف الله ؟ قال إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا منه ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه فقال : « أنت سيف من سيوف الله ، سله الله على المشركين » قال جرجة : صدقتني ، ثم قال له : ياخالد ، أخبرني ألى ماتدعوني ؟ قال : إلى شهادة : أن لا إله إلا الله . وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ؛ قال : فمن لم يجبكم ؟ قال : فالجزية ونمنعهم ، قال : فإن لم يعطها ؟ قال نؤذنه بحرب ، ثم نقاتله ، قال : فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا ؛ فقال : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم ، وأفضل . قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال : إنا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى مارأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا مارأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال القائد الرومى : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ، ولم تألفنى ؟ قال خالد : بالله لقد صدقتك وما بى إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لولى ماسألت عنه فقال : صدقتنى ، وقلب الترس ومال مع خالد ، وقال . علمنى الإسلام ، فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ، ثم صلى ركعتين ، وحملت الروم مع انقلاب جرجة إلى خالد ، وهم يرون أنها حملة من قائدهم . فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية ، وكان عليهم عكرمة والحارث بن هشام ، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين ، فتنادى الناس وثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم ، فزحف خالد بالمسلمين على الروم حتى تصافحوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرجه من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ثم أصيب جرجه ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما وصلى الناس الأولى والعصر إيماء ، وتضعضع الروم .

هزيمة الروم

ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، وكان مقاتلهم واسع المطرد ، ضيق الهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم فى مصافهم ، وخرجت خيلهم تشتد بهم فى الصحراء ، وأخر الناس الصلاة حتى صلوا بعد الفتح .

ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يحرجوها ، فذهبت فتفرقت فى البلاد ، وأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم ، فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة[1] حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم ، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من جشعت نفسه فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فتهافت فى الواقوصة عشرون ومائة ألف ، ثمانون ألف مقترن ، وأربعون ألف مطلق ، سوى من قتل فى المعركة من الخيل والرجل ، فكان سهم الفارس يومئذ ألف وخمسمائة ، وتجلل قائد الروم « الفيقار » وتجلل معه أشراف الروم برانسهم ثم جلسوا وقالوا : لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية ، فأصيبوا فى تزملهم .

نبل عبقرى

والذى نلاحظه على هذا الحديث كما ساقه أبو جعفر الطبرى من طريق سيف وتابعه عليه ابن الأثير أن الخبر بموت أبى بكر الصديق ، واستخلاف عمر بن الخطاب ، وعزل خالد بن الوليد عن الإمارة العامة على جند الشام ، وتولية عمله وإمارته أبا عبيدة بن الجراح ؟ وصل إلى علم خالد أول الناس ، والقتال بين المسلمين والروم على أشد ما يكون قتال بين جيشين أجمع كل جيش منهما على إفناء عدوه . فما الذى كان من خالد وهو القائد المعزول ؛ وفى يده زمام المعركة ؟ لقد تصرف خالد أحكم وأحسن تصرف ، فقد استحسن عمل الرسول الذى حمل إليه كتاب عزله فى كتمانه هذه الأنباء عن خاصة الناس وعامتهم ، حتى أبلغ الكتاب إليه ، فجعله خالد فى كنانته ؟ وخشى إن هو أظهر ما اشتمل عليه أن ينتشر له أمر الجند ، وينتقض نظامهم ، وتشيع فيهم الفوضى ، وهذا أمر معروف النتائج .

وسواء أكان الكتاب الذى ورد به هذا البريد باسم القائد الجديد أبى عبيدة بن الجراح

---

(١) الواقوصة : مكان عرف باسم عين فيه ، وذكره البلاذرى بالياء فقال : الياقوصة : واد فمه الفوارة .

وهو مانرجحه ، ونتأول تسليمه لخالد نزولا على حكم الموقف، لأنه الأمير فى نظر الذين أخذوا البريد ، فكان طبيعيا أن يدفعوه إليه ، أم كان باسم القائد المعزول خالد بن الوليد، فإن تصرف خالد ذلك التصرف الذى انتهى بالمعركة إلى نصر المسلمين نصرا مؤزرا يدل على أن هذا القائد البطل قد منح من الخصائص النفسية والقوى المعنوية قدرا لا يقدر فى الحياة إلا لأفذاذ العباقرة الموهوبين ، فأى قوة نفسية هذه التى مكنت خالدا من ضبط أعصابه بعد إذ عرف إنه معزول عن الإمارة ومؤمن عليه بعد أن كان أمير اليس فوقه أمير ، والنصر بين يديه لو شاء لأدار به وجه التاريخ ؟ ! إنها قوة الإيمان وقوة العقيدة المسلمة التى لاتدع فى قلب صاحبها حظا لغير الإخلاص .

يجب لكى نقدر هذا الموقف قدره الحق أن نكون واقعيين ، ويجب أن ننظر إلى خالد على أنه رجل له طبيعة البشر ، فإذا استطاع أن يرتفع بنفسه عن مقتضيات البشرية وقد توافرت عنده أعظم دوافعها ، كان ذلك ضربا من العبقرية المتسامية بخصائصها عن مزالق التنافس البشرى الرخيص .

نظرة عابرة فى قصة جرجة

أما حديث « جرجة » القائد الرومى على سياقته بتفاصيله فى الرواية ، فقد يكون فى هذه التفاصيل شىء من الصنعة والإضافات التى لاتذهب بالقصه كلها ، بل لعله يبقى منها القدر الذى يدل على سريان الإيمان إلى القلوب فى لحظات استنارتها بنور الهداية ومسها بنفحة من نفحات الرحمة الإلهية ، ويدل على فهم القائد العبقرى خالد بن الوليد لنوازع النفوس التى يقفها الشك لحظات بين الجحود والإيمان مذهولة مأخوذة تنتظر يداً رحيمة تدفعها إلى منهل اليقين .

* * *

ترتيب الوقائع الشامية

تختلف الروايات اختلافا واسع المدى فى ترتيب وقائع الفتح الشامى ، وهى تبعا لذلك تختلف فى تعيين الوقائع التى أدارها خالد بن الوليد، وهو أمير الأمراء، وفى تعيين وقت عزله عن الإمارة العامة وعمله جنديا فى الجيش بعد ذلك .

وسياقنا لواقعة اليرموك بالصورة التى أثبتناها طريقة فريق من المؤرخين فى طليعتهم أبو جعفر الطبرى من رواية سيف وتابعه ابن الأثير ، وهى طريقة واضحة فى أن

خالد بن الوليد لم يشهد من الوقائع العظيمة فى الشام وهو أمير الأمراء سوى هذه الواقعة، وأن الخبر بعزله ووفاة أبى بكر واستخلاف عمر بن الخطاب ، وتولية أبى عبيدة بن الجراح الإمارة العامة ، كل ذلك جاء به البريد ومعركة اليرموك على أشدها، وانتهت هذه الأنباء إلى خالد فكتمها حرصا على سلامة نظام الجيش وقوته حتى انتهى بالمعركة إلى نهايتها العظيمة ، فأسلم زمام القيادة العامة إلى القائد الجديد أمين الأمة أبى عبيدة بن الجراح ، وعاد خالد يعمل تحت لوائه قائد فرقة فى الموضع الذى كان عليه أبو عبيدة ـ كما تقول بعض الروايات ـ وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بقدر خالد وبصره بالحرب ويمن نقيبته وتجربته ، فلم ينزل به عن مكانه من الرأى وتقديمه لتفريج المضايق عن المسلمين ، وبقى خالد جنديا عبقرى البطولة علوى الإخلاص كما كان عبقرى القيادة سامى الإمارة ، لم تفتر له عزيمة ، ولم يخب له رأى ، فكان فى حاليه خالد بن الوليد سيف الله وبطل الإسلام .

طريقة أخرى فى ترتيب الوقائع

وهناك طريقة أخرى فى سياقة الوقائع لفريق آخر من المؤرخين تقدم وقعة «أجنادين» و « مرج الصفر » وحصار دمشق على اليرموك وتجعل خالداً فى جميع هذه الوقائع أمير الأمراء ، وترى أن البريد بموت أبى بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وتولية أبى عبيدة إنما جاء والمسلمون على حصار دمشق ؛ وهذه الطريقة اختارها الديار بكرى فى « تاريخ الخميس » .

وتلخيص ماذكره أن خالد بن الوليد وأبا عبيده بن الجراح التقيا فى « الغوطة » فأتاهما الخبر أن «وردان» صاحب حمص قد جمع الجموع يريد أن يقتطع شرحبيل بن حسنة ، وهو ببصرى ،وأن جموعا من الروم قد نزلت «أجناذين » فأفظعهما ذلك فتشاروا فى الأمر ؛ فقال أبو عبيدة أرى : « أن نسير حتى نقدم على شرحبيل قبل أن ينتهى إليه العدو الذى صمد صمده ، فاذا اجتمعنا سرنا إليه حتى نلقاه » .

فقال له خالد . : « إن جمع الروم هذا بأجنادين ، وإن نحن سرنا إلى شرحبيل تبعنا هؤلاء من قريب، ولكن أرى أن نصمد[1] صمد عظيمهم وأن نبعث إلى شرحبيل فنحذره

(١) الصمد : القصد

مسير العدو إليه ونأمره فيوافينا بأجنادين ، ونبعث إلى يزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص فيوافيانا بأجنادين ثم نناهض عدونا » فقال له أبو عبيدة : « هذا رأى حسن فأمضه على بركة الله » وكان خالد مبارك الولاية ميمون النقيبة مجربا بصيرا بالحروب مظفرا .

فلما أراد الشخوص من أرض دمشق إلى الروم الذين اجتمعوا بأجنادين ، كتب نسخة واحدة إلى الأمراء قال فيها : «أما بعد فإنه قد نزل بأجنادين جمع من جموع الروم غير ذى قوة ولا عدة والله قاصمهم، وقاطع دابرهم وجاعل دائرة السوء عليهم، وشخصت إليكم يوم سرحت رسولى إليكم فاذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوكم بأحسن عدتكم وأصح نيتكم ضاعف الله لكم أجوركم وحط أوزاركم والسلام » ثم أرسل الكتب إلى الأمراء الثلاثة مع نفر من النبط كانوا عيونا للمسلمين، وكان المسلمون يرضخون لهم ، ودعا خالد رسوله إلى شرحبيل فقال له : كيف علمك بالطرق؟ قال : كما تريد ، قال : فادفع إليه هذا الكتاب وحذره الجيش الذى ذكر لنا أنه يريده ، وخذ به وبأصحابه طريقا تعدل به عن طريق العدو الذى شخص إليه ، وتأتى به حتى تقدمه علينا بأجنادين . قال : نعم ، فخرج الرسول إلى الأمراء ، وخرج خالد وأبو عبيدة بالناس إلى أهل أجنادين . فلم يرعهم إلا أهل دمشق فى آثارهم ، والحقوا أبا عبيدة وهو فى أخريات الناس فنزل إليهم فى مائتى فارس من أصحابه فقاتلهم قتالا شديدا ؛ وأتى الخبر خالدا وهو فى مقدمة الناس فى الفرسان والخيل، فعطف بهم راجعا وعجل بالخيل حتى انتهى إلى أبى عبيدة وأصحابه فحمل بالخيل على الروم فانهزموا أمامه ، وتعقبهم ثلاثة أميال حتى دخلوا دمشق فانصرف عنهم، ومضى بالناس نحو الجابية .

وكان رسول خالد إلى شرحبيل قد أدركه وليس بينه وبين الجيش الذى سار إليه من حمص إلا مسيرة يوم وشرحبيل لا يشعر به فدفع إليه الكتاب فقام شرحبيل فى الناس فقال لهم : « أيها الناس اشخصوا إلى أميركم فانه قد توجه إلى عدو المسلمين بأجنادين وقد كتب إلى يأمرنى بموافاته هناك » ثم خرج بالناس حتى وافى المسلمين بأجنادين مع يزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص فى جندهما، وعاد جيش وردان الرومى بعد فشله فى اللحاق بشرحبيل والتقى المسلمون بالروم بأجنادين وتزاحف الجمعان وأقبل خالد بن الوليد

يسير في الناس لايقر في مكان واحد وهو يقول : اتقوا الله عباد الله ، وقاتلوا في الله من كفر بالله ولاتنكصوا على أعقابكم ولاتهابوا عدوكم ولكن أقدموا كاقدام الأسد ، وينجلي الرعب وأنتم أحرار كرام قد أوتيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة ؟ ولا يهولنكم ماترون من كثرتهم فان الله منزل رجزه وعقابه بهم » .

وكان خالد رضى الله عنه قد أمر نساء المسلمين أن يكن من وراء الناس يحرضن الرجال على القتال ، وكان من رأيه مدافعة العدو وأن يؤخر القتال إلى صلاة الظهر عند مهب الأرياح ، وتلك الساعة هي التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب القتال فيها فأعجله الأرباح الروم فحملوا على المسلمين ورموهم بالنشاب فنادى سعيد بن زيد وكان على الخيل : ياخالد علام نستهدف لهؤلاء الأعلاج وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست الخيل ؟ فقال خالد للمسلمين : احملوا رحمكم الله على اسم الله فحمل وحمل معه الناس على عدوهم فما واقفوهم فواقا فهزمهم الله وأباح أكتافهم للمسلمين يقتلونهم كيف شاءوا ، واستشهد من المسلمين نفر من ذوى النجدة والبأس ، وكتب خالد إلى أبي بكر بالفتح فقال : «لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين ، سلام عليك فاني أخبرك أيها الصديق : أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعا جمة بأجنادين وقد رفعوا صليبهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لايفرون حتى يفنونا أو يخرجونا من بلادهم فخرجنا واثقين بالله متوكلين على الله فطاعناهم بالرماح شيئا ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها مقدار نحر جزور ، ثم إن الله أنزل نصره وأنجز وعده ، وهزم الكافرين فقتلناهم في كل فج وشعب وغائط فالحمد لله على إعزاز دينه وإذلال عدوه ، وحسن الصنيع لأوليائه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وقدوا في هذا الكتاب أبا بكر في مرضه الذى توفى فيه ، فلما قرأه أعجبه ذلك وقال « الحمد لله الذى نصر المسلمين وأقر عيني بذلك » .

قال سهل بن سعد : وكانت وقعة أجنادين هذه أول وقعة عظيمة كانت بالشام ، وكانت سنة ثلاث عشرة في جمادى الأولى لليلتين بقيتا منه يوم السبت نصف النهار قبل وفاة أبي بكر رضى الله عنه بأربع وعشرين ليلة .

وعن ابن اسحاق أن قائد الروم المسمى « القلنقار » أو كما في ابن الأثير تبعا للطبرى

«القبقلار» بعث رجلا من عرب الروم وقال له : ادخل فى هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتنى بخبرهم ، فدخل فى الناس رجل عربى لاينكر عليه ، فأقام فيهم يوما وليلة ثم أتاه ، فقال له : ماوراءك ؟ فقال له : بالليل رهبان وبالنهار فرسان ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده ولو زنى لرجم لإقامة الحق فيهم . فقال له القائد الرومى : لئن كنت صدقتنى لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ، ولوددت أن الله يخلى بينى وبينهم فلا يضرنى عليهم ولا ينصرهم على . ثم تزاحف الناس فاقتتلوا قتالا شديدا فاستبسل فيه المسلمون فلما رأى « القلنقار » ذلك قال لقومه : لفوا رأسى بثوب . فقالوا له : لم ؟ قال : هذا يوم بئيس ما أحب أن أراه . مارأيت لى من الدنيا يوما أشد من هذا . فقتل وهو متلفف .

وقد ذكرنا نحو هذا فى وقعة اليرموك برواية الطبرى . فهل اشتبه الأمر على الرواة أو تعدد الحادث ؟ قد يساعد اختلاف الأسماء هنا وهناك على ترجيح تعدد الحادث ؛ ولسنا على شىء من اليقين فى هذا .

ثم إن خالد أمر الناس أن يسيروا إلى دمشق فنزلها مما يلى الباب الشرقى فى دير هناك على نحو ميل منها يعرف بدير خالد لنزوله به . ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، ونزل يزيد بن أبى سفيان على باب آخر فأحاطوا بها وحاصروها حصارا شديدا حتى رماهم أهلها بالنشاب . ورشقوهم بالحجارة . وإذا بالخبر يأتى إلى خالد أن هذا جيش رومى قد أتاكم فنهض خالد على تعبيته فقدم الأثقال والنساء وخرج معهن يزيد بن أبى سفيان ووقف خالد وأبو عبيدة من وراء الناس . ثم اقبلوا نحو ذلك الجيش فاذا هو قائد رومى يدعى «دربخان» بعثه ملك الروم فى عدد من أهل الباس والنجدة من جنود الروم ليغيث أهل دمشق ، فصمد المسلمون صمدهم والتقوا بهم فى « مرج الصفر » سنة أربع عشرة وخرج إليهم أهل القوة من أهل دمشق وحمص فكانوا عددا عظيما . فلما نظر إليهم خالد عبى لهم أصحابه كتعبيته يوم « أجنادين » وأمر سعيد بن زيد ـ وكان على الخيل ـ فحمل على معظم جمع الروم فانتقض حبل نظامهم وحمل المسلمون معه فهزموهم وظفروا بهم فقتلوا كل قتلة .

قال أبو أمامة : وكان بين أجنادين ومرج الصفر عشرون يوما فحسبت ذلك فوجدته

يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة قبل وفاة أبى بكر بأربعة أيام .

ثم إن المسلمين أقبلوا عودهم على بدئهم حتى نزلوا دمشق على منازلهم التى كانوا عليها فى حصار دمشق . وكانوا يغزون ماحولهم من البلدان فكلما أصاب رجل منهم نفلا جاء به حتى يلقيه فى القبض لايستحل أن يأخذ منه شيئا . حتى إن الرجل ليجيء بالكبة الغزل والكبة الصوف من والشعر . أو المسلة أو الإبرة فيلقيها فى القبض لا يستحل أن يأخذها . فسأل صاحب دمشق بعض عيونه من أعمال المسلمين وسيرتهم فوصفهم له بهذه الصفة بالأمانة ووصفهم بالصلاة بالليل وطول القيام فقال : هؤلاء رهبان بالليل أسد بالنهار . والله مالهؤلاء طاقة . ومالى فى قتالهم خير . ثم راود المسلمين على الصلح . فأخذ لا يعطيهم مايرضيهم ولايتابعونه على مايسأل وهو فى ذلك لا يمنعه من الصلح والفراغ منه إلا أنه قد بلغه أن قيصر يجمع الجموع لحرب المسلمين وبينما هم كذلك إذ بلغ المسلمين الخبر بوفاة أبى بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وصرف خالد بن الوليد عن الإمارة وقيادة الجيوش بأبى عبيدة بن الجراح .

وهذه الطريقة التى اختارها الديار بكرى غير مستقيمة النسج لأنها تذكر أن واقعة « مرج الصفر » كانت سنة أربع عشرة وتجعل ذلك قبل وفاة أبى بكر وهذا غلط لاريب فيه لأن وفاة أبى بكر رضى الله تعالى عنه كانت سنة ثلاث عشرة فاما أن تكون واقعة المرج المحدث عنها بامارة خالد بن الوليد وقعت سنة ثلاث عشرة ، ويصح حينئذ أنها كانت قبل وفاة أبى بكر . وهذا هو الراجح عندنا لأن تفاصيل المعركة كما ترويها الرواية تشعرنا بامارة خالد فيها وهذا قطعا كان فى حياة أبى بكر ؛ وإما أن تكون هذه الواقعة جرت فى سنة أربع عشرة كما تقول الرواية . وحينئذ لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل وفاة أبى بكر رضى الله عنه .

والذى يرجح لدى البحث أن دمشق حوصرت أكثر من مرة واحدة قبل فتحها صلحا أو عنوة ، وأن واقعة فى « مرج الصفر » جرت بين المسلمين والروم أكثر من مرة واحدة كانت واحدة منها بعد الحصار الأول على يد خالد بن سعيد فقتل فيها هو أو ابنه ، وكانت واحدة أخرى منها على يد خالد بن الوليد وهى التى تذكر الرواية أنها كانت قبل وفاة أبى بكر بأربعة أيام ؛ ومن مرج الصفر توجه خالد بن الوليد إلى اليرموك فواجه

حشود الروم ، وثمة جاء الخبر بوفاة أبى بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبى عبيدة ، ثم كان حصار دمشق الذى فتحت عليه بإمارة أبى عبيدة وتدبير خالد بن الوليد .

ويرشح ذلك قول الطبرى : ثم كانت « مرج الصفر » استشهد فيها خالد بن سعيد وعدة من المسلمين ، وقيل إن المقتول فى هذه الغزوة كان إبنا لخالد بن سعيد ، وأن خالدا انحاز حين قتل ابنه ، فوجه أبو بكر خالد بن الوليد أميرا على الأمراء الذين بالشام .

فهذا صريح فى أن واقعة وقعت فى مرج الصفر قبل أن يوجه خالد بن الوليد أميرا على الأمراء الذين بالشام .

ثم قال أبو جعفر الطبرى : ولما بلغ غسان خروج خالد على سوى وانتسافها، وغارته على مصيخ بهراء وانتسافها ، فاجتمعوا بمرج راهط وبلغ ذلك خالدا وقد خلف ثغور الروم وجنودها مما يلى العراق فصار بينهم وبين اليرموك ، صمد لهم فخرج من سوى بعد ما رجع إليها يسبى بهراء فنزل الرمانتين — علمين على الطريق — ثم نزل الكثب حتى صار إلى دمشق ثم مرج الصفر فلقى غسان وعليهم الحارث بن الأيهم فانتسف عسكرهم وعيالاتهم ونزل بالمرج أياما وبعث بالأخماس مع بلال بن الحارث المزنى ثم خرج من المرج حتى نزل قناة بصرى فكانت أول مدينة افتتحت بالشام على يدى خالد فيمن معه من جنود العراق وخرج منها فوافى المسلمين بالواقوصة .

فهذا أيضا صريح فى أن خالد بن الوليد صار إلى دمشق فحاصرها ثم إلى مرج الصفر ، ونزل المرج أياما ومن المرج كتب لأبى بكر ، وأرسل إليه بالأخماس، وأنه خرج من المرج إلى بصرى فافتتحها وخرج منها إلى اليرموك التى يقول بعض المؤرخين : إن غزوتها كانت فى رجب أى من سنة ثلاث عشرة — وإذا كانت وفاة أبى بكر وقعت فى جمادى الآخرة على أرجح الروايتين فمعقول أن يكون البريد الذى حمل خبر وفاة أبى بكر واستخلاف عمر وصرف خالد بن الوليد بأبى عبيدة قد استغرق هذا الأمد فيما بين وقعة مرج الصفر على يدى خالد بن الوليد ووقعة اليرموك التى وصل البريد وهى لا تزال محتدمة .

وقريب من مختار الديار بكرى رواية الطبرى من طريق محمد بن اسحاق قال : لما فرغ المسلمون من أجنادين ساروا إلى « فحل » من أرض الأردن وقد اجتمعت فيها

رافضة الروم والمسلمون على أمرائهم وخالد على مقدمة الناس ، ثم نهضوا إلى الروم وهم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم ودخل المسلمون فحل ، ولحقت رافضة الروم بدمشق ، فكانت فحل فى ذى القعدة سنة ثلاث عشرة على ستة أشهر من خلافة عمر ، وأقام تلك الحجة للناس عبد الرحمن بن عوف ، ثم ساروا إلى دمشق وكان عمر عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق فاقتتلوا قتالا شديدا ثم هزم الله الروم وأصاب منهم المسلمون ودخلت الروم دمشق فغلقوا أبوابها وخيم المسلمون عليها فرابطوها حتى فتحت دمشق ، وأعطوا الجزية ، وقد قدم الكتاب على أبى عبيدة بإمارته وعزل خالد ، فاستحى أبو عبيدة أن يقرىء الكتاب خالدا حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يدى خالد وكتب الكتاب باسمه .

وأبعد هذه الروايات زعم الواقدى أن واقعة اليرموك كانت سنة خمس عشرة وأنها آخر الوقائع .

نتيجة

ومهما يكن من أمر ترتيب هذه الوقائع تقديما وتأخيرا فإنه لا يمس الحقيقة الكبرى فى نصيب البطل العبقرى خالد بن الوليد من فخر هذه الوقائع أميرا وقائدا وجنديا ، فالرواة الذين يروون عزل خالد فى واقعة اليرموك ، ويقولون : إنها كانت أولى الوقائع الكبرى فى فتوح الشام . ويقولون إن خالدا رضى الله عنه شهد ما بعدها من الوقائع قائد كتيبة أو جنديا من جنود الإسلام ، يعقدون بناصيته فخر ما تم من نصر للمسلمين فى هذه الوقائع ، ويردونه إلى تدبيره وشجاعته .

يقول ابن الأثير فى فتح دمشق وهو يلخص ما عند الطبرى : لما هزم الله أهل اليرموك استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشر بن كعب الحميرى ، وسار حتى نزل بالصفر فأتاه الخبر أن المنهزمين اجتمعوا بفحل ، وأتاه الخبر أيضاً بأن المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فكتب ، إلى عمر فى ذلك فأجابه عمر بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام ، وبيت ملكهم ، وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بإزائهم ، وإذا فتح دمشق سار إلى فحل ، فإذا فتحت عليهم سار هو وخالد إلى حمص ، وترك شرحبيل بن حسنة وعمرا بالأردن وفلسطين ، فأرسل أبو عبيدة إلى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها ، وبثق الروم الماء حول فحل فوحلت الأرض فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور

بالشام أهل فحل ، ثم أهل دمشق ، وبعث أبوعبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق ، وأرسل جندا آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين ، وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها « نسطاس » فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو على ناحية ، وكان هرقل قريبا من حمص فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارا شديدا وقاتلوهم بالزحف والمجانيق ، وجاءت خيول هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون ، وولد للبطريق الذى على أهل دمشق مولود فصنع طعاماً فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم ، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالدفإنه كان لاينام ولاينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شىء ، عيونه ذاكية وهو معنى بما يليه قد اتخذ حبالا كهيئة السلالم وأوهاقا[1] ، فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع ابن عمرو ومذعور بن عدى وأمثاله من أصحابه ، وقالوا إذا سمعتم تكبيرا على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب ، فلما وصل هو وأصحابه إلى السور وألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف وكان ذلك المكان أحصن مكان بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك بذلك المكان من يحميه ، وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لايدرون ما الحال ، وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصدو أبا عبيدة وبذلوا له الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ، ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة ، فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا قتلا ونهبا وهذا صفحا وتسكينا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح .

وليس فتح دمشق وشجاعة خالد وتدبيره فيه بأحق بالتسجيل من موقفه فى فتح « قنسرين » ذلك الموقف الذى انتزع من عمر بن الخطاب كلمته البارعة فى تقريظ خالد بما يرد الحقائق إلى منابعها الأصيلة من التاريخ ويبهرج الزائف من الروايات الدخيلة فى تاريخ الإسلام .

---

(١) الأوهاق . جمع مفرده وهق ، وهو الحبل يكون فى آخره عقدة سهلة الحل .

قال أبو جعفر الطبرى: وبعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد إلى قنسرين ، فلما نزل بالحاضر زحف إليهم الروم وعليهم « ميناس » وهو رأس الروم وأعظمهم فيهم بعد هرقل فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس ومن معه مقتلة لم يقتلوا مثلها ، فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق أحد ، وأما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد : أنهم عرب وأنهم حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه فقال لهم خالد : إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا ، فنظروا فى أمرهم وذكروا مالقى أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا على تخريب المدينة فأخربها وأبطأت حمص وقنسرين وخنس هرقل إلى القسطنطينية ، وكتب أبو عبيدة بهذ الفتح إلى عمر وذكر له فعل خالد وكلته لأهل قنسرين فقال عمر كلمته الخالدة : « أمر خالد نفسه . يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى »

وشهد خالد رضى الله عنه فتح بيت القدس، وكان مع أبى عبيدة فى لقاء عمر بن الخطاب بالجابية وشهد على كتاب صلح أهل إيلياء الذى عقده عمر لهم فى قدمته على بلدهم .

الفصل الثاني عشر

عزل خالد

لماذا عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد

سؤال — خوالد خالد — بين الباحث والمؤرخ — مفاجأة — إعظام التاريخ عزل خالد — خالد عدل عمر — اختلاف الروايات فى أسباب العزل — الرواية الأولى — نقد وتحليل — الرواية الثانية — موازنة وتمحيص — الرواية الثالثة وبهرجتها — الرواية الرابعة وتزييفها — الرواية الخامسة ونقدها — رواية راجحة .

سؤال

هذا هو السؤال الذى يتراءى لكل من يقرأ سيرة القائد المظفر بطل الإسلام خالد ابن الوليد حتى تنتهى به إلى تلك النهاية الوادعة التى ختمت بها حياة أعظم قائد حربى فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ الحياة .

وفى الحق إنه سؤال يبدو طبيعيا ، ليس فى طاقة قارىء هذه السيرة دفعه ولا مدافعته إلا إذا استبانت له الحقائق التاريخية فى صورتها الفصيحة بعيدة عن شوائب الروايات الواهنة وأغاليط القصص السقيمة ، مع النظر إلى مقومات شخصيتى الفاروق وخالد بن الوليد فى خطوطها الأولى نظرا بريئاً من « الرتوش » التى تحاط بها الصور فتنأى بها عن هيكلها الخالد الذى لا يحول .

* * *

خوالد خالد

أسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه سنة ثمان — على أرجح الروايات — فكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يعدل به أحدا فيما حزبه ، خرج فى غزوة « مؤتة » وهى أولى خرجاته الإسلامية — جنديا فعاد منها قائدا قد أمره المسلمون عليهم ، وأثنى على تأميره النبى صلى الله عليه وسلم ، وسماه « سيف الله » وسمى عمله فى إنقاذ جيش المسلمين فتحا على ما رواه البخارى فى صحيحه .

وأمره النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة « الفتح » على جميع جند القبائل ممن عدا المهاجرين والأنصار ، وأرسله أمير سرية لتحطيم «العزى» وأمير أخرى لتحطيم «اللات» وبعثه للتثبت من بنى المصطلق بعد فعلة الوليد بن عقبة ، وأمره على عامة بنى سليم فى غزوة « حنين » وسيره فى ألف رجل طليعة فى حصار ثقيف : وأرسله إلى « دومة الجندل » ففتحها وأخذ صاحبها الأكيد أسيرا ، ولما كانت غزوة « تبوك » جعله النبى صلى الله عليه وسلم على الفرسان والخيل ، وبعثه إلى «نجران» هاديا ومعلما ، وأرسله إلى بنى جذيمة فأوقع بهم متأولا فبرىء النبى صلى الله عليه وسلم من عمله ، ولم يعزله ولم يغضب عليه ، ولكنه أرضى بنى جذيمة .

وهكذا ظل خالد بن الوليد رضى الله عنه حياة النبى صلى الله عليه وسلم منذ أسلم وهو فى مكان الصدارة من جنود الإسلام لم يتزحزح عن الإمارة وقيادة الجيوش حتى

انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وهو عنه راض وبه حفى .

ثم قام بأمر المسلمين الصديق الأعظم أبو بكر فتولى الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففاجأته ردة العرب وهو فى قلة من المسلمين فما بين المسجدين فشمر لحرب العرب حتى يعيدهم إلى رسن الإسلام ، فعقد الألوية وعبأ الجيوش ، فكان قائده الأول فى هذه الحرب الضروس خالد بن الوليد الذى هزم طليحة الأسدى ومسيلمة الكذاب ، وأرهب سجاح ، وفرق جموع « أم زمل » وأوقع ببنى يربوع ، وقتل زعيمهم مالك ابن نويرة ، فقال عنه بعض من شهد مقتله إنه أخطأ فى قتله ، ولكن أبا بكر الصديق لم يعزله ، وقبل منه حجته ، وأرضى بنى يربوع ، ثم وجه أبو بكر قائده المظفر لفتح العراق ورعبلة فارس ، فتم على يديه ذلك ؛ ولما تضايق المسلمون بالشام وتكاثرت عليهم أمداد الروم ، وهاب الأمراء أن يقدموا استمدوا الصديق ، فلم ير لهذا الموقف أحمد من خالد بن الوليد ينسى به الروم وساوس الشيطان ، فوجهه أميرا على الأمراء فخاضها مع الرومان كما خاضها مع الفرس ، وفتح الله عليه أبواب الشام من اليرموك إلى أجنادين إلى دمشق إلى فحل إلى حمص إلى المرج وإلى ماشاء الله من بلاد وأمم دخلت فى الإسلام أو كانت تحت ظله وحمايته بفضل عبقرية خالد بن الوليد .

فلماذا بدأ عمر بن الخطاب عمله فى دولة الإسلام بعزل هذا القائد المظفر الذى لم تنكس له راية ولم يسقط له لواء ؟ أليس عجيبا ألا يرد هذا السؤال ؟ بلى ! !

* * *

بين الباحث والمؤرخ

يختلف الباحثون والمؤرخون فى أسباب هذا العزل ، وسبيل المؤرخ فى هذا أيسر من سبيل الباحث ، ولاسيما طريقة القدامى من المؤرخين التى تعتمد على سرد الروايات معزوة إلى الرواة ؛ أو إلى كتب التاريخ ، ولا تبالى أن يضرب بعض تلك الروايات وجه بعض .

وليت الأمر وقف عند عزل خالد عن الإمارة العامة أو إمارة الأمراء كما سماها أبو بكر الصديق فى كتابه إلى خالد ، بل ليته وقف عند عزل خالد عن قيادة كتيبة فتبقى له بعض خواص الإمارة ، بل ليته وقف عند حد إبقاء خالد جنديا مجاهدا يعمل

تحت إمرة إخوانه من الأمراء والقواد ، بل إن عزل خالد انتهى إلى إبعاده عن ساحة الجهاد العملى إبعادا كلياً حتى مات تلك الميتة التى قدرت له وهو أبعد الناس عن الرغبة فى هدوئها ووداعتها .

وأما سبيل الباحث الذى يريد أن يحقق الحوادث ليتعرف الواقع منها من المتخيل ، والصادق من المنحول ، والثابت من المصنوع ، ففيها من العسر والتكاؤد ما يحوج الباحث إلى التجمل بالصبر والمصابرة ، والتوقف قبل المهاجمة ، مع التأمل والتفكير .

مفاجأة

كان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قد ولى خالد بن الوليد إمارة أمراء الشام فجعله القائد العام على جند الشام كله ، فتوجه خالد إلى عمله الجديد ، وأدرك المسلمين باليرموك وهم متضايقون بالروم ، وتسلم زمام القيادة ورتب جيوشه وأنشب المعركة والتحم زحف المسلمين بزحوف المشركين ، وتراءت للناس بشائر النصر تلمع فى نواصى المسلمين وإذا بالبريد يفجؤهم بموت أبى بكر واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة وتوليتها أباعبيدة بن الجراح ، وجعل خالد مكانه قائد فرقة ، ومع البريد كتاب من الخليفة الجديد عمر بن الخطاب إلى القائد الجديد أبى عبيدة ابن الجراح يقول فيه : « أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ماسواه الذى هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك ، لاتقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم ، وتعلم كيف مأتاه ، ولاتبعث سرية إلا فى كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة وقد أبلاك الله بى ، وأبلانى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا ، وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم » .

ثم يأمره أن يسير أهل العراق إلى عراقهم تنفيذا لسياسة أبى بكر وأمره ، فقد قال لعمر بعد أن عهد إليه بالخلافة : « وإن فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم » وهنا يذكر أبو جعفر الطبرى أن عمر بن الخطاب قال : « كان أبو بكر قد علم أنه يسوءنى أن أؤمر خالدا على حرب العراق حين أمرنى بصرف أصحابه وترك ذكره »

وهذه كلمة حق من رجل كان الحق آثرعنده من الدنيا بحذافيرها،فقدكان يشيرعلى أبى بكر بعزله فيأبى عليه أشد الإباء ويقول : لاأشيم سيفاسله الله على الكافرين، فكان عمر يقول : أما والله لئن صير الله هذا الأمر إلى لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلما أن الله هو الذى نصر ليسا هما ؛ فلما تولى عمر الخلافة أسرع إلى عزل خالد وقال : ماصدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر لم أنفذه .

إعظام التاريخ عزل خالد

والمؤرخون قد وضعوا قضية عزل خالد بن الوليد موضعها من التاريخ ، فكم من قائد عزل عن مرتبته فلم يحس له الناس بأثر ، ولم يذكر التاريخ عنه كلمة ؟ وهؤلاء جماعة من الأمراء والولاة والقادة والفرسان من أضراب سعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص ، وأبى موسى الأشعرى ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، والمثنى ابن حارثة ، والبراء بن مالك عزلهم عمر بن الخطاب نفسه فلم يعقد التاريخ لعزلهم قضية وإنما اكتفى بأن يشير إلى الشىء من هذا عند مناسبته .

خالد عدل عمر

أما عزل خالد بن الوليد فقد أعظمه التاريخ وراح يبحث له عن أسباب يرده إليها، لأن خالد بن الوليد له فى نظر التاريخ الإسلامى مقام ليس لأحد من أبطال الإسلام نظيره ، وقد عرفنا احتفاء النبى صلى الله عليه وسلم به وتقديمه على الأجلاء من السابقين، وأنه ما كان يعدل به أحدا من أصحابه فيما حزبه .

ولقد كان أبو بكر الصديق يرى فى خالد بن الوليد عدلا لعمر بن الخطاب، وعمر هو من هو فى الإسلام كله وعند أبى بكر خاصة ؛ ذكر أبو جعفر الطبرى : أن أبا بكر قال فى حديث جرى له فى مرضه الذى توفى فيه مع عبد الرحمن بن عوف : « وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق. فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله » بل إن عمر بن الخطاب نفسه كان يرى هذا الرأى فى خالد ، وأنه عدله ونظيره فى دولة الإسلام ، وأن أحدا من الناس لا يجزى جزاء خالد سوى عمر . روى ابن حجر فى الإصابة عن الإمام مالك بن أنس قال : قال عمر لأبى بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئا إلا بأمرك ؛ فكتب إليه بذلك . فأجابه خالد : إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله .

فقال أبو بكر : فمن يجزى عنى جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا ؛ قال :فأنت ؛فتجهز عمر حتى أنيخ الظهر فى الدار ؛ فمشى أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبى بكر؛ فقالوا : ماشأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ؟ ومالك عزلت خالدا وقد كفاك ؟ قال: فما أصنع ؟ قالوا : تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله ففعل .

اختلاف الروايات فى أسباب العزل

بيد أن طريقة قدامى المؤرخين ـ كما قلنا ـ لايعنيها البحث فى ربط الأحداث بأسبابها المعقولة . وإنما عنايتها مصروفة إلى الرواية تسردها سردا . والقصة تزجيها إزجاء . ولا عليها أن تكون الرواية أو القصة صحيحة أو مولدة . ومن هنا تعددت الروايات واختلفت طرائق المؤرخين فى سبب عزل خالد بن الوليد .

الرواية الأولى

ا ـ يقول الطبرى فى حوادث السنة الثالثة عشرة . « وأما ابن اسحاق فإنه قال فى أمر عزل خالد وعزل عمر إياه . إنما نزع عمر خالدا فى كلام كان خالد تكلم به ـ فيما يزعمون ـ ولم يزل عمر عليه ساخطاً ولأمره كارها فى زمان أبى بكر كاه لوقعته بابن نويرة . وما كان يعمل به فى حربه . فلما استخلف عمر كان أول ماتكلم به عزله . فقال : لايلى لى عملا أبدا ؛ فكتب عمر إلى أبى عبيدة : إن خالد أكذب نفسه فهو أمير على ماهو عليه . وإن هو لم يكذب نفسه فأنت الأمير على ماهو عليه . ثم انزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله نصفين . فلما ذكر أبو عبيدة ذلك لخالد قال : أنظرنى أستشير أختى فى أمرى . ففعل أبو عبيدة . فدخل خالد على أخته فاطمة بنت الوليد . وكانت عند الحارث بن هشام . فذكر لها ذلك . فقالت : والله لايحبك عمر أبدا . وما يريد إلا أن تكذب نفسك ثم ينزعك . فقبل رأسها . وقال: صدقت والله فتم على أمره . وأبى أن يكذب نفسه . فقام بلال مولى أبى بكر إلى أبى عبيدة فقال : ما أمرت به فى خالد ؟ قال أمرت أن أنزع عمامته وأقاسمه ماله، فقاسمه ماله حتى بقيت نعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا ، فقال خالد . أجل ، ماأنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع مابدا لك ، فأخذ نعلا وأعطاه نعلا ،ثم قدم خالد على عمر المدينة حين عزله » .

ثم تابع ابن اسحاق حديثه عن خالد ولا حقه فى المدينة بعد عزله ، فقال:« كان عمر كلما مر بخالد قال . ياخالد أخرج مال الله من تحت استك : فيقول والله ماعندى من مال ، فلما أكثر عليه عمر قال له خالد : يا أمير المؤمنين ؛ ماقيمة ما أصبت

فى سلطانكم ؟ أربعين ألف درهم ؟ فقال عمر : قد أخذت ذلك منك بأربعين ألف درهم ، قال : هو لك ؛ قال : قد أخذته ، ولم يكن لخالد إلا عدة ورقيق، فحسب ذلك فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصفه عمر ذلك ، فأعطاه أربعين ألف درهم ، وأخذ المال ، فقيل له : يا أمير المؤمنين : لو رددت على خالد ماله ؟ فقال : إنما أنا تاجر المسلمين ، والله لا أرده عليه أبدا . فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك » .

نقد وتحليل

هذه رواية كثيرة التعاريج والنتوءات وكأنها تنادى على نفسها بالزيف والتلفيق.

ومن حق البحث أن نقف معها لنعرف مداخلها ، ونكشف عن مواضع الريبة ومظان التلفيق والزيف فيها حتى يكون فى هذا النحو من النظر فى روايات التاريخ منبهة للناشئة المثقفة فلا تخدع عن عقولها بتصديق كل مادون القدامى من روايات وأقاصيص . ومحمد بن اسحاق راوى هذه الأقصوصة تكلم فيه حذاق الناقدين من صيارفة الجرح والتعديل بما يكفى لإسقاط رواياته من حساب الاعتبار والتعويل ، مع ذلك فإ نا نقطع النظر عنه لأن رواية التاريخ لم يقصد إليها قصد نقد الرواة فهو كغيره من رواة السير والتاريخ وقد يكون فى بابه من أمثلهم ، وإنما ننظر فى الرواية وما اشتملت عليه لنعرف قيمتها من الواقع التاريخى .

أولا : تزعم هذه الرواية أن عمر بن الخطاب إنما نزع خالد بن الوليد بسبب كلام تكلم به خالد ، ونحن نسأل ، ماذلك الكلام الذى تكلم به خالد فاستحق به العزل من القيادة العليا لجيوش الإسلام فى وقت كان النصر معقودا بناصيته ؟ أفكان ذلك الكلام كلاما يمس الدين أو نظام الحكم ؟ أم كان كلاما يمس عمر بن الخطاب فى شخصه ؟ ليس فى شىء من الروايات مايبين لنا ذلك الكلام حتى يمكن النظر فيه وفيما يقتضيه ، فهو أمر مجهول لا يصلح للتعويل عليه فى قضية تاريخية من عظمات الأحداث فى الإسلام ، ولم يعرف فى تاريخ خالد بن الوليد منذ دلف إلى الإسلام أنه وقف موقفا ينكره الإسلام، ولا حفظت عنه كلمة تخدش عقيدته ،ولم يعرف عنه أنه انحاز إلى جهة من الجهات التى تنازعت الخلافة وسلطان الحكم فى الإسلام .

ثانياً : تقول هذه الرواية . ولم يزل عمر عليه ساخطا ولأمره كارها فى زمان أبى بكر كله لوقعته بابن نويرة ، وما كان يعمل به فى حربه .

وهذان سببان جديدان تذكرهما الرواية لعزل خالد ، فأما وقعة خالد بمالك بن نويرة وموقف عمر بن الخطاب منه فقد عرفت حديثه بما له وما عليه فى فصل مضى . وأما ما كان يعمل به خالد فى حربه فإنما يعنى به ميله إلى الاستقلال المطلق فى تصرفاته فى دائرة عمله وإمارته ، وهو أمر جرى أن يكون سبباً للعزل ، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فى موضعه ، والذى ننبه إليه هنا أن هذه الرواة واضحة التلفيق ، جمعت الغث إلى السمين ، والجدير بالصحة إلى العليل السقيم .

ثالثا : تزعم هذه الرواية : أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة يقول له : إن خالد أ كذب نفسه فهو فى مكانه أمير الأمراء كما جعله أبو بكر الصديق ، وإن لم يكذب نفسه ، فهو معزول عن الإمارة ، محال إلى المحاكمة ، وأية محاكمة ؟ محاكمة من لون لم يعرفه آحاد الناس وعامتهم فى الإسلام ، بله قادتهم وخاصتهم ، لا بل قائد القواد ، وبطل الإسلام ، وأمير الأمراء خالد بن الوليد ، محاكمة ليس فيها تحقيق ، وإنما هى ضرب من التنكيل والامتهان ، وأى تنكيل أشد وأقسى من أن ينتزع لواء النصر وهو يرفرف على هامة القائد المظفر ، ثم يطوح به إلى حضيض التهمة والخيانة ؟ وأى امتهان أمض لنفس البطل من أن يقاد على سمع جنوده وبصرهم كما يقاد الجمل المخشوش . ثم تنزع عمامته عن رأسه ، ونزع العمامة عن الرأس فى نظر المآثر العربية ضرب من المثلة شنيع ؟ وأى كرامة تبقى لقائد يراه جنوده فى موقف كهذا يقاسم ماله بأمر أمير المؤمنين ؟ أليس هذا تسجيلا للخيانة ؟

رابعا : تزعم هذه الرواية : أن خالد بن الوليد استمهل أبا عبيدة حتى يستشير أخته فاطمة بنت الوليد ، فأشارت عليه بأن هذه مكيدة من عمر بن الخطاب نصب حبائلها ليوقع بها خالدا فى إكذاب نفسه ثم ينزعه من عمله لأن عمر فى زعم هذه الرواية يبغض خالدا ولا يحبه أبدا ، فهو لا يريد تحقيق قضية ولا يريد معرفة حق ، ولكنه يريد نكاية بخالد ، فهو يحتال عليه ويمكر به حتى يكذب نفسه ثم ينزعه ، وقد صدق خالد أخته فاطمة وأمعن فى تصديقها فقبل رأسها وأبى أن يمكن لحيلة عمر ومكره به أن ينالا منه ، فلم يكذب نفسه .

أليس هذا طرزاً من القصص الخبيث الذى يقصد به الحط من شأن الفاروق عمر ابن الخطاب فى عدله الذى سار فى الآفاق مسير ضوء النهار مع أشعة الشمس ؟ ويقصد

به النيل من بطل الإسلام وقائده المظفر خالد بن الوليد ؟ ثم هل لنا أن نسأل فى أى شىء يكذب خالد نفسه أو لا يكذبها ؟ ألا قالت لنا هذه الرواية الزائفة عن حقيقة ذلك الشىء لنعرف ما هو ؟ وبأى الأشياء يلتحق ؟ أبا لدين أم بالدنيا ؟ وما قيمته وخطره ؟ ليس فى الرواية ما يكشف عن هذه المعميات المقصود تعميتها لتوقع فى الأنفس أشياء وأشياء حول أشخاص هم من أفخر مفاخر الإسلام .

ومتى عرف عن خالد أنه استشار أختا أو أما ؟ ولكن الرواية الزائفة تريد أن توقع فى الأذهان أن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ليسا كما عرفهما تاريخ الإسلام الصحيح فى مكانهما من الدين ورسوخ الإيمان ، والترفع عن الشبهات ؛ بله المنكرات ، هى تريد أن تقول للناس : إن عمر بن الخطاب يبغض خالدا بغضا ينزع إلى عرق جاهلى تعرفه أسرة خالد حتى نساؤها ؛ فهو لا يريد بما صنع مع خالد — إن كان قد صنع معه شيئاً — الإسلام وتنفيذ أوامره ؛ وإنما هو يريد إلى شفاء نفسه من حزازات قديمة موروثة ؛ أليس هذا من أعجب العجب ؟ عمر بن الخطاب النموذج الأعلى لروح الإسلام ممزوجة بفضائله العليا ومقوماته الإنسانية ؛ وعناصره الاجتماعية ؛ وآدابه السامية ؛ تصوره هذه الرواية مع أعظم قائد وأشجع بطل عرفه الإسلام خالد بن الوليد بهذه الصورة التى لا تتماسك إلا على أساس أن عظيمى الإسلام فاروقه وسيفه لم يكونا من هذا الإسلام كما يعرفهما المسلمون من طريق وثيق الأخبار (عن الصادق المصدوق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) ومن طريق حياة عمر وخالد فى الإسلام .

خامسا : تقول هذه الرواية : إن بلالا مولى أبى بكر رضى الله عنهما قام إلى خالد ونزع عمامته وقاسمه ماله ، فاستكان خالد حتى أخذ مالا يصلح الا بما أعطى ؛ ثم تقول : إن خالدا بعد هذا الذى صنع به قدم على عمر المدينة ؛ فهل ترك عمر خالدا بعد قدومه عليه ؟ تأبى هذه الرواية أن يتركه يستروح أنفاس الراحة ؛ ولكنها تلقى على لسان عمر كلمة متشفية عابثة تجعلها ديدنه كلما لقى خالدا فتقول : كان عمر كلما مر بخالد يقول : يا خالد أخرج مال الله من تحت استك ؟ ؟ فهل عرف الناس فى ألفاظ عمر بن الخطاب وكلماته وزواجره مثل هذا الهجر من القول ؟

والعجيب فى هذه الرواية أنها ما حاولت أن تجعل من خالد بن الوليد إلا رجلا مستكينا مستسلما ، فهو قد استكان واستسلم لبلال ينزع عنه عمامته ويقاسمه ماله ، وهو

هنا يستكين ويرد على هذه الكلمة التى تزعمها هذه الرواية على لسان عمر ردا يأباه كثير من آحاد الناس ليس فيهم شىء من شجاعة خالد بن الوليد ، فلما أكثر عمر على خالد استقصى خالد استبراء نفسه بين يدى عمر ، فقوم على نفسه جميع ما يملك من عدة ورقيق وهما كل مال عند خالد ـ كما صرحت به الرواية متواضعة ـ بأربعين ألف درهم ، فاشتراها منه عمر بما قوم ، فلما حسبت بلغت قيمتها ثمانين ألف درهم ، فأعطى خالدا أربعين ألفا ودفع إلى بيت مال المسلمين عدة خالد ورقيقه ، فكان بعض الناس يقول لعمر : يا أمير المؤمنين ، لو رددت إلى خالد ماله ؟ فيأبى عمر ويحتج بأنه تاجر المسلمين وقد ربح لهم فى صفقة ربحا فلا يرده .

وليت شعرى هل وقفت هذه الرواية الزائفة الملفقة عند هذا الحد ، فلم تكشف الغطاء عن خبث الفكرة التى صنعتها ؟ إن هذا لم يقدر لها ، بل قدر لها شىء آخر ، قدر لها أن تضع العنوان فى آخر المقال ، وأن تختم بما يفصل ما أجملت فى أطوائها من أغراض ومقاصد لا تتطلب فى إدراكها كثيراً من التفكير ، وهكذا تجىء نهايتها واضحة صريحة فى غير لبس أو غموض فتقول : فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك . أفهمتم أيها العقلاء من عمر بن الخطاب ؟ ومن خالد بن الوليد فى هذه الروايات الملفقة ؟ مسكين أيها التاريخ !! متى تقلب صفحاتك بقلم نافد عليم ؟ ومتى تنقى من هذا الغلس والبله والتضليل ؟

والذى يظهر من نسج هذه الرواية الملفقة أنها تعنى أن عزل خالد عن الإمارة العامة وعن مطلق العمل فى الجيوش الإسلامية ، ومطالبته بإكذاب نفسه ومقاسمته ماله ، كل ذلك كان دفعة واحدة أول خلافة عمر بن الخطاب ، وهذا مصادم بما هو ثابت من أن خالدا رضى الله عنه عزل أول مرة فى السنة الثالثة عشرة من إمارة الأمراء ، وقيادة عامة جيوش الإسلام بالشام ، وتولى عمله أمين الأمة أبو عبيدة فى قيادة فرقته ، وبقى خالد يجاهد تحت راية أبى عبيدة بأمر عمر بن الخطاب ، حتى فتح قنسرين وأبدى فى فتحها من فنون الشجاعة وضروب السياسة ما جعل عمر بن الخطاب يقول فيه كلمته المشهورة « أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم منى بالرجال » ولما تم لخالد فتح قنسرين تولى عليها ، وفى السنة السابعة عشرة أدرب هو وعياض ابن غنم فأصابا شيئاً كثيراً من الغنائم ، فانتجعهما رواد المكارم ، فأعطى خالد وأغدق العطاء ، فبلغ ذلك من فعله عمر بن الخطاب ، فأمر بعزله عن مطلق العمل فى جيوش الإسلام . وكان خالد وعياض قد توجها

من الجابية مرجع عمر إلى المدينة وعلى حمص أبو عبيـــدة وخالد تحت رايته على قنسرين .

الرواية الثانية

٢ — قال أبو جعفر الطبرى من رواية سيف : « وأدرب سنة سبع عشرة خالد وعياض ، فسارا فأصابا أموالا عظيمة ، ولما قفل خالد ، وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة انتجعه رجال فانتجع خالدا رجال من أهل الآفاق ، فكان الأشعث بن قيس ممن انتجع خالدا بقنسرين فأجازه بعشرة آلاف ، وكان عمر لا يخفى عليه شىء فى عمله ، كتب إليه من العراق بخروج من خرج ومن الشام بجائزة من أجيز فيها ، فدعا البريد وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالدا ويعقله بعمامته ، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث ؟ أمن ماله ؟ أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، وأعزله على كل حال ، واضمم إليك عمله .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد ؛ فقدم عليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام البريد فقال : يا خالد ! أمن مالك أجزت بعشرة آلاف ؟ أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً ؛ فقام بلال إليه ، فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته ، وقال : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ قال ؟ لا ، بل من مالى ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ؛ ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا .

وأقام خالد متحيرا لا يدرى أمعزول أم غير معزول ، وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذى قد كان ، فكتب إليه بالإقبال ، فأتى خالد أبا عبيدة فقال : رحمك الله !! ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمتنى أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ، فقال أبو عبيدة : إنى والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بدا ، وقد علمت أن ذلك يروعك ، فرجع خالد إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه ، وقال : لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر ، فقال عمر من أين هذا الثراء ؟ قال من الأنفال والسهمان ، ما زاد على الستين ألفا فلك ، فقوم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفا ، فأدخلها بيت المال ، ثم قال يا خالد : يا خالد والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ؛ ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء . »

موازنة وتمحيص

هذه رواية أخرى يسوقها أبو جعفر الطبرى فى صدد الحديث عن أسباب عزل عمر خالد بن الوليد عزلا نهائيا عن العمل فى الجيوش الإسلامية قاطبة ، ونحن إذا أمعنا النظر فى هذه الرواية ازددنا يقينا بما بنينا عليه منهجنا فى تصوير رجالات الإسلام وإخراج سيرتهم للناس لتكون لهم فيها القدوة الصالحة والعبرة النافعة ؛ فالميزان الذى استقام لنا هو تعرف الشخصية فى خطوطها الأولى ومقوماتها الأصيلة ، ورد كل مايرد من رواية أو قصة إلى هذه الخطوط ، وتلك المقومات ، فما كان متفقا منها مع تلك الخطوط والمقومات قبلناه ، ومالم يتفق مع شىء منها شككنا فيه حتى يظهر لنا مايزيفه.

هما روايتان يذكرهما شيخ المؤرخين أبو جعفر الطبرى من طريقين مختلفى الإسناد والرواة ، ومختلفى الحوادث وأسلوب الأداء ؛ وقد أريناك ما فى الرواية الأولى من تلفيق وزيف يبعدان بها عن أن تكون حديثا فى سيرة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، لأنها اشتملت على الوان لاتوائم الخطوط الأولى والمقومات الأصيلة لهاتين الشخصيتين الظيمتين فى تاريخ الإسلام .

أما هذه الرواية الثانية فإنها تتحدث عن عزل خالد عن عمله الذى وليه وهو تحت إمرة أبى عبيدة ، وهذا هو العزل الثانى الذى أبعد به خالد بن الوليد عن الجهاد مع الجيوش الإسلامية إبعادا كاملا ، أما العزل الأول فهو العزل عن الإمارة العامة كما عرفت ، وهذا لم تتعرض له هذه الرواية .

بيد أنها ذكرت فى صدد الحديث عن أسباب العزل الثانى مالفقته الرواية الأولى مع غيره بأسلوبها وجعلته سببا لعزل لاندرى متى كان ؟ ولا عن أى عمل كان ؟ والرواية الثانية تعين وقت العزل الذى تتحدث عنه وتذكر له سببه بأسلوب لايردها عن حياة عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما ، فأولا : تذكر هذه الرواية أن خالدا كان واليا على قنسرين تحت إمرة أبى عبيدة وأنه توغل هو وصاحبه عياض بن غنم فى أرض العدو فغنما أموالا عظيمة وبلغ الناس كثره ما أصابا من الأموال فانتجعها أهل الآفاق ، وكان فيمن انتجع خالدا رجل من رءوس العرب هو الأشعث بن قيس زعيم كندة . فأجازه خالد بعشرة آلاف درهم .

إلى هنا ليس فى الأمر شىء يختلف مع طبيعة الوقائع والأشخاص ، فخالد وهو بطل الإسلام وربيب الجهاد ، وقائد جيوش الإسلام المظفرة ، لاتستقر نفسه إلا فى وجه عدو يجالده أو بلد يفتحه ، وقد أصبحت الشام فى يد المسلمين ، وعلى أرباعها وأمهات مدنها

أمراء وقادة من أنفسهم ، فعلى حمص أبو عبيدة ، وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان، وعلى الأردن معاوية أخوه ، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز ، وعلى الأهراء عمرو بن عبسة وعلى السواحل عبدالله بن قيس وعلى قنسرين خالد بن الوليد، فهل مما يوافق طبيعة خالد أن تطيب نفسه بالموادعة ويركن إلى الراحة ، وحسبه أنه وال على قنسرين ؟ ما أظن أن أحدا ممن قرأ شيئا من سيرة خالد بن الوليد ، أو عرف شيئا من خلائق هذا البطل العبقرى يفهم أنه يرضى بغير الجهاد مراحا ، وهو الذى يقول : «ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد» فإدراب خالد وتوغله فى أرض العدو خليقة من خلائق ابن الوليد مفطور عليها ، وظفره وغنمه عادة عودة الله إياها ، وقصد الناس له طالبين لرفده، وقد سمعوا بما أصاب من الغنائم والأموال ، وإغداقه العطايا عليهم ، وإجازته سيدا من سادات العرب بما أنزله منزلته ، ليس فى شىء منها ماتنكره طبيعة الحياة والأشخاص.

ثانيا : تذكر هذه الرواية أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — وكان لا يخفى عليه شىء من عمله — بلغه إدراب خالد ، وإجازته الأشعث بهذا القدر العظيم من المال، فكتب إلى القائد العام أبى عبيدة يأمره أن يحقق مع خالد فى مصدر هذا المال الذى أعطى منه الأشعث هذا العطاء الغامر ، وخالد وال من ولاة المسلمين ، يجرى عليه من سلطان الخلافة الإسلامية مايجرى على غيره من العمال والولاة ، والخلافة الإسلامية على عهد الراشدين ، سلطان مبسوط بالعدل بين الأفراد والجماعات ، ومدرسة لتخريج نماذج من الفضائل فى صور حية متحركة ، تمشى بين الناس مثلا لتطبيق شرائع الإسلام مكيفة بروحه ومعناه .

فمن حق الخليفة الراشد أن يعرف وجه كل تصرف من تصرفات ولاته وعماله، لأن شريعة الإسلام التى بسطت سلطانه عليهم تجعله مسئولا عن أعماله، وهذا وال من ولاته أعطى رجلا واحدا لا تشفع له سابقة جهاد عطاء كان يكفى أن يقيم أود عشرات من الأسر الإسلامية فى ذلك الزمان ، وكان يكفى أن يجهز سرية تغدو مجاهدة فى سبيل الله، فلا بد أن يسأل هذا الوالى عن مصدر هذا المال الذى تصرف فيه هذا التصرف، نعم إن كان من مال المسلمين أفاءه الله عليهم فى جهادهم ، فلا حق للوالى أن يجاوز فيه ماخوله الله من سلطان يبلغ الحقوق لأربابها ؟ فإن فعل فإنه لم يؤد أمانة الولاية التى وليها ؟ وحينئذ يكون قد خلع عن نفسه ماسربله الله من سلطان .

وإن كان ذلك المال الذى أعطى منه ذلك العطاء ملكا للوالى فمن حق الخلافة الراشدة بما خولها من حق الإشراف على تخريج النماذج العليا للفضائل الإنسانية أن تمد نظرها إلى تصرفات الأفراد ، ولا سيما أفراد أرادهم الإسلام للأسوة لتطبيقها على سنن الشريعة ، لا من وجهة الحظر والإباحة ، ولكن من وجهة الكامل والأكمل ، والفاضل والأفضل ، ولا يتم نموذج الفضيلة إنسانا فى الإسلام إلا إذا ترك بعض المباح خشية الوقوع فى المكروه .

فتصرف خالد بن الوليد فى إجازته للأشعث بعشرة آلاف لا يخرج فى نظر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أن يكون واحدا من أمرين كلاهما يفوت مقصد القدوة فى خالد ، باعتباره نموذجا أعلى للفضيلة فى الإسلام ، وذلك هو الشرط فى الولاية عند الخلافة العمرية الراشدة فلم يبق إلا أن يعزل خالدا عن عمله على كل حال ، وهو عزل ليس عده مفخرة فى تاريخ ابن الخطاب بأحق من عده مفخرة فى سيرة ابن الوليد .

ثالثا : ذكرت هذه الرواية قصة إقامة خالد ، ونزع قلنسوته ، وعقله بعمامته ، ولم تذكر مقاسمته ماله ، ولكنها أفرغت ذلك فى قالب يختلف معدنه عن معدن قالب الرواية الأولى ، فهذه الرواية ترى أن أبا عبيدة استقدم خالدا وجلس للناس على المنبر وهو ساكت لا يتكلم ، وقد تولى البريد استجواب خالد فلم يجبه خالد فقام بلال وبين لخالد أن أمير المؤمنين هو الذى أمر باستجوابه على الصورة التى يجب لحق السمع والطاعة أن تتحقق . فنفذ بلال الأمر وسأل خالدا فأجابه ، فأسرع إلى تعميمه بيديه تعظيما لحق الولاء بعد أداء حق السمع والطاعة .

وقد تكون هذه القصة كلها دخيلة على الرواية فلم يقم خالد ، ولم تنزع عنه قلنسوته ولا عقل بعمامته ، وقد تكون من الواقع التاريخى . وحينئذ فهى على شدتها لون من ألوان الزجر الذى تملكه على الناس الخلافة الراشدة ، منتزعا من البيئة التى تعطيه صورته التى يخرج بها إلى حيز التنفيذ ، وقد يخفف من شدة هذا الزجر ما أحيط به فى هذه الرواية من مظاهر التكريم للبطل العظيم ، فموقف أبى عبيدة وسكوته وتركه الأمر إلى رسول أمير المؤمنين يتولاه ، مظهر من الإكبار لم يفت خالدا إدراكه ، وكأنه فى سكوته وعدم رده على أسئلة البريد يستطاع موقف قائده وأميره ، أبى عبيدة ؛ فلما

رأى أنه يضيق بهذا التحقيق ، ويقف منه موقفا سلبيا هو منتهى مايمكن أن يبلغه من المجاملة ، سارع إلى إجابة بلال الذى كان فى تصرفه مثلا للتربية الإسلامية الفاضلة ، فهو قد رأى أن الخليفة قد أمر فى أحد ولاته بأمر واجب التنفيذ ، ولكنه يرى أن الأمير العام يقف من أمر الخلافة موقف الانتظار ، والأمر جد خطير ، لأنه يتعلق بسلطان الخلافة ، فلم يطق أن يسكت ، فقام إلى خالد ونفذ فيه أمر أمير المؤمنين ، فرأى منه السمع والطاعة ، ثم عاد إليه يعظمه ويكرمه ، وكأنه يعتذر إليه بقوله : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

رابعاً : تذكر هذه الرواية أن أبا عبيدة رضى الله تعالى عنه كان مثلا كريما فى تكريم قائده وأميره بالأمس وجنديه اليوم ، فقد أبت عليه مكارمه أن يسرع إلى خالد فيخبره بعزله ، وبقى خالد لايدرى من أمره شيئا ، أمعزول أم غير معزول حتى طال الأمر على أمير المؤمنين ففطن إلى ماوقع ، فكتب إلى خالد مباشرة بالإقبال عليه ، وهنا فهم خالد حقيقة ما كان ينطوى عليه قائده وأميره أمين الأمة أبو عبيدة من التعظيم له والتجافى عن إبلاغه مايسوء إليه ويؤلمه ، وقد قدر خالد ذلك أحسن تقدير ، فأتى أبا عبيدة فقال له : « رحمك الله ! ! ما أردت إلى ماصنعت ؟ كتمتنى أمرا كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم » وهى كلمة عاتبة عتب الصديق الذى آنس من صديقه العطف والرحمة عند محنة ليس فى استطاعته دفعها عن صديقه وكأنما كبر على خالد أن يرى نفسه فى موقف مما يظن به الحاجة إلى الرثاء والعطف والاسترحام ، فرد عليه الأمين أبو عبيدة مفصحا عن مدى ماتبلغه استطاعته فى موقفه منه بقوله : « إنى والله ما كنت لأروعك ماوجدت لذلك بدا » .

خامساً : تذكر هذه الرواية أن خالدا رجع إلى قنسرين مقر عمله فخطب فيها مودعا وتحمل منها إلى حمص ، فخطب أهلها وودعهم ، ثم خرج إلى المدينة حتى قدم على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فعاتبه أجمل عتاب بقوله : « وبالله إنك فى أمرى غير مجمل ياعمر » وشكاه إلى جماعة المسلمين ، وهم مسلطة العليا التى بها تم إليها من ولتهم الأمة سلطانها ، ولقد قبل أمير المؤمنين عتاب القائد البطل أحسن قبول ، ولكن بعد أن أتم تحقيق القضية استيفاء لحق القوامة على سلطان المسلمين ، وهو أقدس من كل حق بعده ، وليس فى نظر الخلافة الراشدة حق فوقه .

قال عمر لخالد : من أين هذا الثراء ؟ قال خالد : من الأنفال والسهمان ؟ وهذا السؤال وجوابه يتصلان أشد الاتصال بأصل القضية التى جرى فيها التحقيق وانتهت بعزل القائد العبقرى ، فقد كان رده على سؤال بلال عن اجازة الأشعث أنها من ماله الخاص ، وبلغ ذلك عمر ، وكأنه استعظم أن يكون هـذا العطاء الغامر من مال يملكه ملكا خالصا أمير الجيوش الإسلامية فى دولة الخلافة الراشدة ، لأنه عطاء لا يجود به إلا ذو ثراء مذكور ؛ وخالد بن الوليد إذا كان من بيت شهر فى قريش بكثرة المال وسعة الثراء ، فإن ما آل إليه من ذلك المال — إن كان — لم يكن ليعد به من أصحاب الثراء ، فلا بد إذاً من معرفة مصدر هـذه الثروة الخاصة ، وصاحبُها كان قائد الجيوش الإسلامية وأميرها ، وتحت يده جنود المسلمين وغنائمهم ، وما أفاء الله عليهم ؛ والخلافة الراشدة مسئولة عن بث روح الطمأنينة فى نفوس الأفراد والجماعات ، على أن سلطان العدالة مبسوط على الناس أجمعين ، لافرق فى ذلك بين أمير ومأمور ، ولا بين قائد عظيم وفرد من عامة المسلمين ، وقد أجاب خالد أمير المؤمنين عن سؤاله جواب المطمئن إلى سلطان الإسلام فى عدالة عمر ، وقد جعله نموذجه الأول فى ضرب المثل للحياة ، ولم يقل كما يقول متشرعو الاحتيال : لا يسأل المالك من أين ملك ؟ بل قال — وهو القائد المظفر — إن هذا المال من الأنفال والسهمان ؛ ولعل خالدا ظن أن القالة فى ماله أكثرت عليه ، فأراد أن يدفع هذا دفعا عمليا فقوم على نفسه جميع ما يملك بستين ألفا ، فإن زاد شىء عن ذلك فهو لبيت مال المسلمين ، فلما قوم عمر عروض خالد خرجت إليه عشرون[1] ألفاً فأدخلها بيت المال ، فلم يرفع خالد إليها رأسه ، ولا تطلعت لها نفسه ، ولكن عمر رضى الله عنه لم يقف بخالد عند هذا الحد الذى أراح به الحق إلى مكانه ، بل التفت إليه أكرم التفاتة ، وأعتبه بأجمل أسلوب ، فقال له : « ياخالد والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء » وليس فى استطاعة أحد أن يزعم أن عمر تملق خالدا بهذه الكلمة الفاصلة ، لأن عمر هو عمر بن الخطاب ، وليس عمرا آخر ، وابن الخطاب إذا قال كلمة كان كل معنى تحت كل حرف منها مقصودا له ،

---

(١) لعل هذه الزيادة جاءت نتيجة لتعظيم الناس آثار خالد فتنافسوها فى الشراء فزادت أثمانها على قيمتها فى التعامل . كما يحدث دائما فى آثار العظماء .

يريد أن يفهمه الناس عنه ، وهذه الكلمة مدحضة لكثير من الروايات الزائفة فى قصة عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد .

الرواية الثالثة وبهرجتها

٣ — قال ابن عساكر فى سبب عزل عمر خالدا : إنهما تسارعا وهما غلامان فكسر خالد ساق عمر ، فما زال بينهما البغض حتى تولى عمر فعزله .

هذه رواية نذكرها دليلا على مبلغ تفاهة القصاص الذين يتعلقون بالسخف ، ثم يحملونه على التاريخ فيجرى على ألسنة المؤرخين وفى كتبهم ، وإلا فما قيمة هذه الأقصوصة حتى يذكرها مؤرخ عظيم كابن عساكر ، فهل من المعقول أن يظل أثر لعبة بين طفلين فى الجاهلية بعد أن أكرمهما الله بالإسلام ، فكان أحدهما ثانى اثنين فى الإسلام كله بعد رسول الله ﷺ ، وكان الآخر منهما أعظم ما أخرج الإسلام كله من قواد الحروب والجهاد فى سبيل الله ، فينتهى بهما وهما فى ذروة الحياة ليس فوقهما فى مكانهما أحد إلى هذا الصغار الذى يأنف منه آحاد الناس؟ هذا كلام فارغ ما كان ينبغى أن يسطر ، ولكنا أردنا بذكره أن ننبه على ما حمله التاريخ من أوزار هو فى حاجة إلى أن تماط عنه حتى لا تضيع فيما بينها الحقائق .

الرواية الرابعة وتزييفها

٤ — قال ابن الأثير تحت عنوان «عزل خالد بن الوليد» بعد أن ذكر قصة إدرابه هو وعياض بن غنم : « ودخل خالد الحمام فتدلك بغسل فيه خمر فكتب إليه عمر : بلغنى أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه ومسه فلا تمسوها أجسادكم ؛ فكتب إليه خالد : إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر ، فكتب إليه عمر : إن آل المغيرة ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه » .

وسياق ابن الأثير لهذه القصة تحت العنوان المتقدم يفيد أنه يراها سببا من أسباب عزل خالد ، وهو فى ذلك قد خالف أصله الطبرى فى سياقته وبعض ألفاظه ، فالطبرى ذكر هذه القصة بعيدة عن عنوان العزل وأسبابه ، فهى عنده ليست من أسباب العزل مطلقا ، بل ربما كان فى عبارته ما يفيد أنها لم تتصل بالعزل من قرب أو بعد ، قال أبو جعفر : وبلغ عمر أن خالدا دخل الحمام فتدلك بعد النورة بثخين عصفر معجون بخمر ، فكتب إليه : « بلغنى أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنه كما

حرم ظاهر الإثم وباطنه ، وقد حرم مس الخمر إلا أن تغسل كما حرم شربها فلا تمسوها أجسادكم فإنها نجس ، وإن فعلتم فلا تعودوا » ، فكتب إليه خالد « إنا قتلناها فعادت غسولا غير خمر » فكتب إليه عمر : « إنى أظن آل المغيرة قد ابتلوا بالجفاء فلا أماتكم الله عليه » فهذا واضح فى أن عمر ألقى إلى خالد مابلغه ، وذكره بحكم الشريعة فى الخمر ، ونهى خالدا عن العود إن كان قد وقع منه مابلغه عنه ، وذاد خالد عن نفسه بأنه قتل الخمر فأفسد خمريتها حتى عادت غسولا غير خمر ، فلم يبق حرج فى استعمالها تدليكا ، وكأنما رأى عمر أن فى هذا الرد شيئا من صلابة الرأى فرد على خالد بأن هذه نحيزة معروفة فى آل المغيرة يسأل الله أن يجنبها خالداً فلا يموت عليها ، فأين فى ذلك حديث العزل ؟ وهى بعدُ قصة تعوزها الحجة على صدقها .

الرواية الخامسة ونقدها

٥ — قال أبو جعفر الطبرى : كتب عمر إلى الأمصار : إنى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بِعَرض فتنة » وقد ذكر أبو جعفر نحو هذا فى حديث قنسرين ، فقال : « ولما بلغ عمر ذلك — أى عمل خالد فى فتح قنسرين قال : « أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى » وقد كان عزله والمثنى ، وقال : إنى لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموها فخشيت أن يوكلوا إليهما » فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه .

وهاتان الروايتان تتفقان فى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عزل خالدا عن عمله وبين للناس سبب ذلك بأنه رأى الناس فتنوا بخالد تعظما له ، فخاف عليهم الفتنة فيه وأن يوكلوا إليه ويبتلوا به فيغير الله مابهم من النصر والظفر على أعدائهم ، فأحب عمر أن يثبت عقيدة المؤمنين فى الله تعالى ، فيعلموا أن خالدا رضى الله عنه إنما هو رجل صنعه الإسلام الذى صنع غيره ، فإذا لم يكن خالد وكان الإيمان الراسخ فى جند الإسلام تحت إمرة من كانوا من القواد والأبطال كان النصر والظفر على الأعداء بحالها ، فالله تعالى هو الذى يؤيد جنده وينزل النصر عليهم سواء أكانوا تحت راية خالد وقيادته أم كانوا تحت راية غيره من أبطال الإسلام .

وتختلف الروايتان فى أمور :

أولا : فى طريقهما إسنادا ، فالرواية الأولى من طريق شعيب عن سيف عن عبد الله بن المستور عن أبيه عن عدى بن سهل ؛ والرواية الثانية من طريق أبى عثمان وجارية .

ثانياً : الرواية الأولى تخص خالدا ولاتذكر معه غيره ، والرواية الثانية تذكر مع خالد قائدا آخر ، هو المثنى بن حارثة الشيبانى صاحب الجولة الأولى فى فتح العراق ، وترى أن فتنة الناس التى خشيها عمر كانت بهما ، لأن الناس عظموهما فعزلهما لا عن ريبة ، ولكن تثبيتا لقوة الإيمان فى أنفس المؤمنين .

ثالثاً : تقول الرواية الأولى . إن عمر كتب بذلك إلى الامصار ، والرواية الثانية لا تذكر الكتابة إلى الأمصار ، وإنما تقول : قال . إنى لم أعزلهما عن ريبة .

رابعاً : تنفى الرواية الأولى أن يكون سبب العزل سخطة من الخلافة العمرية على القائد البطل ، وتنفى أن يكون سبب العزل خيانة نسبت إليه ، بل ترى أن سبب العزل فتنة الناس بخالد ، نخاف عمر أن يوكلوا إليه ويبلوا به فاحب أن يعلم الناس أن الله هو الصانع حتى لا يكونوا معرضين للفتنة بشخصية القائد مما قد يؤدى إلى ضعف النفوس وفتورها فى الجهاد وملاقاة الأعداء اتكالا على أن النصر معقود بناصية خالد وهو قائدهم ؛ وقد يؤدى افتتان الناس إلى منفذ للشيطان يصل به إلى بعض النفوس الثائرة أو التى تثور إذا تحركت عندها عوامل خفية عند أدنى المناسبات فيكون الخطر على الدولة ونظامها . وتنفى الرواية الثانية أن يكون سبب العزل ريبة فى القائدين العظيمين وترى أن سبب العزل تعظيم الناس للقائدين ، وخشية عمر أن يوكلوا إليهما .

فهل لنا أن نقول : إن هذا الاختلاف يفيد تكرر هذه القصة ؟ وهذا يتمشى مع تكرر العزل كما دلت عليه الروايات الثابتة ، وعلى ذلك تكون الرواية الأولى من هاتين الروايتين أنسب بالعزل الأخير الذى أبعد به خالد عن الجيوش الإسلامية إطلاقا . والرواية الثانية تكون أنسب بالعزل الأول الذى كان عن الإمارة العامة .

وقد يؤيد هذا متابعة الطبرى للرواية الأولى من طريق سيف عن مبشر عن سالم قال : لما قدم خالد على عمر قال عمر متمثلا :

صنعت ولم يصنع كصنعك صانع   وما يصنع الأقوام فالله صانع

فأغرمه شيئاً ثم عوضه ؛ وكتب فيه إلى الناس بهذا الكتاب ليعذره وليبصرهم . فإن حديث الأغرام كان بعد إدراب خالد ، وإجازته الأشعث بعشرة آلاف ؛ وذلك فى السنة السابعة عشرة .

وقد ذكرت الرواية الأولى ابن الأثير فى ضمن ما ذكره تحت عنوان « عزل خالد ابن الوليد » فقال : وكتب عمر إلى الأمصار : « وإنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وإلا يكونوا بعرض فتنة » وعوضه عما أخذ منه .

٦ ــ قال ابن حجر فى الإصابة : وكان سبب عمر عزل خالداً ما ذكره الزبير بن بكار رواية راجحة قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه فى أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبى بكر حسابا ، وكان فيه تقدم على أبى بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته فكره ذلك أبو بكر ، وعرض الدية على متمم بن نويرة ، وأمر خالداً بطلاق امرأة مالك ، ولم ير أن يعزله .

وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد ، وكان أثيراً عند أبى بكر بعثه إلى طليحة فهزم طليحة ومن معه ، ثم مضى إلى مسيلمة فقتل الله مسيلمة .

ثم ذكر الزبير بن بكار أن عمر قال لأبى بكر : اكتب إلى خالد لا يعطى شيئاً إلا بأمرك ، فكتب أبو بكر بذلك إلى خالد ، فأجابه : أما أن تدعنى وعمل وإلا فشأنك بعملك ، فأشار عليه عمر بعزله . . . فلما ولى عمر كتب إلى خالد : أن لا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبى بكر ، فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه فعزله ، ثم كان يدعوه إلى أن يعمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما شاء ، فيأبى عمر .

قال الزبير : ولما حضرت خالداً الوفاة أوصى إلى عمر فتولى عمر وصيته ، وسمع راجزاً يذكر خالداً ، فقال : رحم الله خالداً ، فقال له طلحة بن عبيد الله :

لا أعرفنك بعد الموت تندبنى   وفى حياتى ما زودتنى زادى

فقال عمر : إنى ما عتبت على خالد إلا فى تقدمه وما كان يصنع فى المال .

وروى البخارى فى تاريخه من طريق ناشرة بن سمى قال : خطب عمر واعتذر من عزل خالد ، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : عزلت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لما دفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك .

ورواية الإصابة هذه تفيد أن سبب العزل يرجع إلى ما كان فى خلق خالد وسياسته من التقدم والاستقلال ، بفعله أموراً لا يراها أبو بكر نحو قتله مالك بن نويرة ونكاحه امرأته وتصرفه فى المال بقسمه فى أهل الغنائم دون أن يرفع حساباً إلى الخليفة ، وأن عمر كان ينكر على خالد هذا الاستقلال المطلق فى تصرفاته ويشير على أبى بكر بعزله ، فلم ير أبو بكر عزل خالد لأنه لم يجد فى الناس من يجزى جزاءه سوى عمر وهو فى حاجة إليه يبقى إلى جانبه ، يعينه ويؤازره .

فلما تولى عمر الخلافة رأى من الحق عليه أن يعزل خالداً لما كان يرى أن يعزله لأجله أبو بكر أو يعدل خالد عن سياسته الاستقلالية ، فلا يعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمر الخليفة ، فأبى خالد إلا أن يدعه وعمله على ما كان عليه فى عهد أبى بكر ، فرأى عمر أنه لم يصدق الله إن كان قد أشار على أبى بكر بعزل خالد إن لم يتقيد بالرجوع فى أمر المال إلى رأى الخليفة ، ثم لا يعزله هو وقد أصبح صاحب السلطان ، فعزله لهذا ؛ ثم كان يدعوه إلى أن يوليه فيأبى خالد إلا على ما كان عليه من الاستقلال المطلق ، فيأبى عمر إلا أن يرجع فى أمر المال إلى الخليفة ، ويؤكد هذا قول عمر فى رده على طلحة بن عبيد الله : ما عتبت على خالد إلا فى تقدمه وما كان يصنع فى المال .

وقد اشتملت هذه الرواية على أمثل ما يقال فى هذا الباب ، وهو حديث البخارى فى التاريخ . وإذا كان قد أجمل فيه اعتذار عمر فإن الرواية التى تذكر أن عمر كتب إلى الأمصار أنه لم يعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة هى التى يحمل عليها هذا الإجمال .

وليس معنى اعتذار عمر أنه رأى خطأ فى عمله فاعتذر عنه ، وإنما معناه أن عمر رضى الله عنه كان يقدر أكمل تقدير ما لهذا الحادث الجليل الذى ابتدأ به عمله فى الدولة

الإسلامية من أثر فى نفوس المسلمين ، ولا سيما أولئك الذين جاهدوا تحت لواء خالد رضى الله عنه ، فقادهم من نصر إلى نصر ومن فتح إلى فتح ، فأراد أمير المؤمنين عمر أن يذكر للناس وجه سياسته وتصرفه فى هذا الحادث حتى تطمئن قلوبهم ويفيئوا من غمرة إعظام الأشخاص والاتكال عليهم مهما بلغوا من العظمة إلى اليقين بالله تعالى ، وأنه هو الصانع وما الأشخاص والأشياء إلا مظاهر لصنعه وتدبيره وآثار قدرته وحكمته.

تلك هى أهم الروايات التى تداولها المؤرخون خلفاً عن سلف ، وإليها تنتهى أسباب عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد رضى الله عنهما .

الفصل الثالث عشر

رأى الدكتور هيكل في عزل خالد وبواعثه

عرض وتحليل ونقد

هيكل وأثر البحث الحديث فى الناشئة ـ أثر الأفكار الغربية فى فهم الإسلام وتاريخه ـ إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة ـ تزيد فى التاريخ ـ نقد وتزييف ـ غضبة أبى بكر على خالد وسببها ـ تعقيب غير موفق ـ مجانة نواسية لاتحسب فى تحقيق التاريخ ـ أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى تصوير هيكل ـ إلحاح فى أقصوصة ابن نويرة ـ منطق مدخول ـ « الغاية تبرر الوسيلة » سياسة عمرية فى نظر هيكل ـ أحقاد جاهلية حركت عمر نحو خالد فى رأى هيكل ـ اضطراب البحث ـ هيكل يقرر أن عمر بن الخطاب تأثر بشعوره الخاص نحو خالد ـ عود إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » عمر بن الخطاب يتملق الرأى العام فى تصوير هيكل ـ هيكل يشك فى صدق حزن عمر على خالد .

هيكل وأثر البحث الحديث فى الناشئة

رأينا قبل أن بحرر رأينا فى قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن اليد أن نعرض إلى ما كتبه فى هذه القضية التاريخية باحث معاصر له مكانة خاصة عند مثقفى هذا الجيل فى الشرق العربى وبلدان الإسلام، ولآرائه فى البحث تأثير على أفكار المتعلمين ، ولها سيرورة مع الأثير إلى كل عقل يشدو حقائق التاريخ الإسلامى مصوغة فى أسلوب يلائم ذوق الناشئة من الجيل الجديد .

وفى الحق إنى لأحس إحساسا قويا بأثر هذا الاتجاه الإسلامى فى البحث من كبار باحثينا عند ناشئتنا التى كانت ولا تزال فى حاجة ماسة إلى منبة قوى جذاب ينبهها إلى تاريخ الإسلام ، أشخاصه وحوادثه ، ويوجهها إلى النظر فيه لتجد بين صفحاته من أعلام الدنيا وعباقرة الحياة وكبريات الحوادث والأحداث الإسلامية ماهو جدير بالدرس والبحث لتستبين من أطوائه أبيغ العبر وأهدى السبل ، ولتعلم أن للإسلام أعلامه وعباقرته وأن لتاريخه آياته وعبره ، فلا تعيش فى أحضانه بوجدان لا يحسه وضمير لا يشعر به وعقل لا يعرفه وأرواح تنكره .

أثر الأفكار الغربية فى فهم الإسلام وتاريخه

بيد أن هذا الإحساس ينهد معه إحساس آخر فيه شىء من الأسف : والألم ،ذلك أن بعض هذه البحوث تستوحى باحثى الغرب فى فهم مسائل الإسلام ، وتأخذ الإسلام عن غير مصادره وتصوغه فى غير أسلوبه ، أو هى بعبارة أخرى تسلك مسلك الاستعمار الإقصادى الذى يأخذ الخامات من أرضنا وبلادنا إلى أرضه وبلاده ، ثم نستردها منه وقد حاكها على منواله وصبغها بأصباغه ثم طبع عليها بخاتمه ، فكانت شيئا حرآخذيدا علينا ، لا تعرفه طبيعتنا ولا تستسيغه عقولنا ، إلى أن نجرده من كل ماطرأ عليه بعيدا عن بيئتنا .

ومن هنا يتضح خطر الاستشراق والمستشرقين ،رسوء أثر الاستغراب والمستغربين على عقول الناشئة من شباب الإسلام وأبناء المسلمين . وهذا الخطر كامن فى كثير من هذه البحوث التى أحسنت — قاصدة أو غير قاصدة — فأخذت بأعضاد الشباب إلى النظر فى تاريخ الإسلام ،وأساءت لأنها أرت هذا الشباب الإسلام بأسلوب وطرائق غريبة عن

الإسلام فكان من اللازم أن تجرد أقلام إسلامية المظهر والمخبر تمشى إلى هذه البحوث بالنقد الممحص الذى يرد الحقائق إلى أصولها ، ويترك الأصابع الأجنبية ومايتصل بها مجردة فى أيدى أصحابها حتى يستطيع الشباب الإسلامى فهم الإسلام بروح الإسلام ، وبأسلوبه المنتزع من طبيعته وبيئته .

ومن عجب أمر هذه البحوث المطعمة «بميكروب» الفكر الغربى فى دراسة تاريخ الإسلام أنها تأخذ طريقها فى يسر وسرعة إلى أيدى الناس فى كتب ومقالات وإذاعات وأحاديث تجر على جامعيها مغانم فادحة ، وتعود على العلم والإسلام وأبنائه بمفاسد فاضحة ، ثم لاتجد من بين علماء الإسلام وحملة أقلامه من ينهض ليكشف عن سوأة هذا الاتجاه الخطير على أفكار الناشئة الا قليلا ممن عصمة الله ووفقه .

ولست أدرى ماسبب هذا التعامى ؟ أهو الكسل البليد عن القراءة والتعمق فيها؟ ولكن هذه الكتب تأخذ طريقها الى مكتبات البيوت والمدارس والمعاهد؟ أفيكون اقتناء هذه الكتب فى تلك المكتبات لمجرد الزينة والتجمل ؟ أم هو لون من النفاق العلمى يجامل به هؤلاء الذين وسمت تلك الكتب بأسمائهم ، وهم من أولى الحول والطول — كانوا — فى دنيانا اللعوب .

قد يكون هذا أو ذاك وليس أحدهما بأرجح فى ميزان الشر والنكر من صاحبه!

* * *

عرض الدكتور « محمد حسين هيكل » لهذه القضية ، قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وأسبابها فى كتابيه « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » عرضا مجملا فى كتابه الأول ومفصلا بعض التفصيل فى كتابه الثانى ، وقد ذهب فيها مذهبا نرى — ونحن بصدد دراسة خالد — أنه لايحسن السكوت عليه ، بل ان حق العلم والتاريخ وحق الإسلام يوجبان التنبيه على مافيه من أمور ، بعضها يتصل بجوهر الموضوع ، وبعضها من قبيل « الرتوش » والأصباغ والزخرف الذى يستهوى نفوسا لم تعمق فى دراسة الإسلام وتاريخه ، وحياة رجالاته الأولين .

إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة

يتكىء الدكتور هيكل فى تحقيق أسباب عزل خالد على أقصوصة مالك بن نويرة وزواج خالد امرأته بعد قتله ، وفى هذا الصدد يحاول الدكتور أن يبرز قصة مالك فى أسلوب شعرى ، إذا حاز إعجاب الشعراء والقصاص من المتأدبين وذوى العواطف الجامحة ، فليس بمستطيع أن ينال رضاء الواقع التاريخى الذى يجب أن يكون له المكان الأول فى كتابة سيرة رجالات الإسلام، وكأنما شعر الدكتور بهذا ونحوه ، فحاول أن يرى قارئه أنه لا يقف عند هذا الأسلوب ، فهو فى كتابه «الصديق أبوبكر» بعد أن ذكر عبارة ابن خلكان فى الحديث الذى دار بين خالد بن الوليد ، ومالك بن نويره ، وفيه يراد مالك خالد ، ويقول له : فقد كان صاحبك يقول ذلك — يعنى النبي صلى الله عليه وسلم — فيقول له خالد : أو ماتراه لك صاحبا ؟ والله لقد هممت بقتلك ؛ فقال مالك : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ فقال خالد : والله لأقتلنك .

تزيد فى التاريخ

يقول الدكتور هيكل: يرجح بعضهم هذه الرواية على غيرها ، على أن هؤلاء الذين يرجحونها يرونها ناقصة ، ويرون أنها إن لم تكمل ناقضةُ تصرف ابن الوليد فى أمر «قرة بن هبيرة» و «الفجاءة السلمى» و «أبو شجرة» وأمثالهم ، فهو قد بعث بهؤلاء إلى أبى بكر ليرى فيهم رأيه ؛ ولم يكن مالك بن نويرة أعظم من أيهم إثما ، ولا أكبر جريرة . . . وتتمة القصة فى رأيهم أن خالدا تزوج « أم تميم » زوجة مالك فى يوم مقتله ، وقبل أن يجفف التراب دمه ، مخالفا بذلك كل تقاليد العرب[1] وهم يرون أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته ، وأن يجعلوا هذا الزواج سبب ذلك القتل ؛ ولعلهم فى ذلك على حق ، ولعلهم مخطئون .

نقد وتزييف

ومن حق البحث أن يتساءل فى هدوء هامس ؛ من يكون هؤلاء الذين رأوا أن هذه الرواية ناقصة بعد ترجيحها ؟ وكيف كان فى رأيهم — إن كان لهم وجود — أن تتمة القصة هو زواج خالد من امرأة مالك ؟ وكيف أثبتوا أن هذا الزواج — بهذا العنوان ، عنوان زواج خا — كان فى يوم مقتل مالك ، وقبل أن يجفف دمه التراب ؟ وأنى لهم أن يربطوا بين مقتل مالك وزواج خالد من امرأته لولم يفرضوا أن بطل الإسلام خالد بن

---

(١) لو كان الكاتب يكتب بروح تفهم الإسلام وتعتقده لقال : مخالفا بذلك كل نصوص الشريعة الإسلامية فى تحتيم عدة المتوفى عنها زوجها بنص القرآن الكريم ؟ !

الوليد من طراز هذا الشباب المتابع المترف الذى يختال على الأرض لتلقط الشهوات الرخيصة التافهة ، لا يشغله جد فى أمر ، ولا يردعه دين عن موبقة ؟ وكيف مع ترجيحهم الرواية التى تنادى بكفر مالك بن نويرة بنفيه النبوة عن رسول الله ﷺ جعلوا هذا الزواج من امرأة هذا المرتد سبب ذلك القتل ؟ أفلا كان يكفى عند هؤلاء كفر مالك مرتدا فى الرواية المرجحة عندهم سببا لمقتله ؟

قد يبدو أنه ليس هناك أحد من الباحثين سوى الدكتور هيكل وأضرابه من تلاميذ المستشرقين يرى أن هذه الروايه التى حكاها ابن خلكان ناقصة ؛ وقد يبدو أنه لليس هناك أحد من القدامى سوى نواسى الأدباء رأى أن تتمة هذه الروايه هو زواج امرأة مالك وأن هذا الزواج هو سبب ذلك القتل ، ولو كان للمنطق حكم على أقلام هؤلاء الباحثين لكانت النتيجة أن يقول من رجح هذه الروايه : إن خالدا قتل مالكا لانه فهم منه عند محاولته الحديث البراءة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس له بصاحب ، فراءه خالد فأكد مالك عقيدته ! فلم يبق لدى خالد شك فى ردته وكفره ، فقتله ، ثم تزوج امرأته بعد تمام عدتها زواجا شرعيا ؛ فقامت عند بعض الناس شبهة فى هذا الزواج الذى أقدم عليه خالد وكان معيبا عند العرب ، وحينئذ يكون كل ذنب خالد عند هؤلاء أنه لم يحفل بعادات الجاهلية ؛ ورأى أن له أسوة فى رسول الله ﷺ ، فيما ثبت ثبوتا قاطعا من أنه قتل زوج صفية بنت حيي وتزوج بها ، فأصبحت من أمهات المؤمنين .

غبضة أبي بكر على خالد وسببها

وليس صحيحا أن أبا بكر الصديق غضب على خالد فى هذا الزواج لتعاير العرب به وكراهتها له ، فما كان أبو بكر — وهو سيد المسلمين علما وفضلا وديانة — بالذى يحفل بأمر الجاهلية وعادات العرب . وهو يعلم أن رسول الله ﷺ خالف تلك العادة وهدمها ، وإنما غضب أبو بكر على قائده فى زواجه من امرأة مالك بن نويرة لأنه كان يرى أن فى هذا الزواج مشغلة للقائد عن عظائم الأمور التى يتطلبها موقف المسلمين فى ذلك الحين ولما تتكشف حال المسلمين من أعدائهم المتربصين ، وهو لون من السياسة كشف عنه أبو بكر عند زواج خالد بينت مجاعة بن مراراة الحنفى بعد انتصار خالد فى حرب اليمامة فعتب عليه أبو بكر ولامه على هذا الزواج ، ودفع خالد عن نفسه هذا اللوم ولم يعتب الخليفة .

تعقيب غير موفق

ثم ماقيمة هذا التعقيب الذى عقب به الدكتور هيكل ، وماذا يقصد منه ؟ أيقصد أن يدخل على نفوس قرائه أن خالد بن الوليد لايبعد عليه أن يقتل مالك بن نويرة ليتروج من امرأته دون أن يكون مالك مستحقا للقتل بكفره فى نظر خالد ، وأن عمر ابن الخطاب عزل خالد بسبب هذا القتل ؟ وإذا جاز هذا فماذا أبقى الدكتور هيكل لخالد بن الوليد من حرمات الإسلام ، وهو أحد أعلام الصحابة ، وسيف الله وبطل الإسلام ؟

وهل كان عزل خالد عن إمارة الجيش كفاء هذه الجريمة النكراء ؟ أو أن عمر ابن الخطاب جبن فتراجع عن تنفيذ ماتوجبه الشريعة ، وهو بمقتضى منصب الخلافة القوام عليها ؟

مجانة نواسية لاتحسب فى تحقيق التاريخ

وماذا يقصد الدكتور هيكل من إيراد كلام اليعقوبى وكلام صاحب الأغانى، وهو كلام سخيف لا ينبغى لباحث يؤرخ لعباقرة الإسلام ورجالاته أن يعول عليه، فهو فوق أنه لا يعتمد على أساس صحيح يصور خالد بن الوليد ـ وهو من أعظم رجالات الإسلام ـ فى صورة من لايبالى بسفك الدماء الحرام فى سبيل شهواته ولذائذه ؟ ألا ترى إلى حديث الهوى والساقين فى عبارة الأغانى ؟ ولا يستطيع الدكتور هيكل أن يتفلت من هذه الورطة بقوله بعد سوقه لعبارتى اليعقوبى وأبى الفرج الأصفهانى : « وقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعد صورا أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ » وقوله : « لسنا نقف عند ما نسجته فنون الأدب من هذه التفاصيل « لأن ذلك ينهار انهيارا تاما بقوله : « ولكن الثابت الذى لاريب فيه أن ليلى أعجبت خالدا، وأنه لذلك أمسكها من بعد ، ولم يسرحها مع ماجره عليه زواجها من متاعب » .

أفليس هذا إمعانا فى النواسية الماجنة بتصوير بطل الإسلام خالد بن الوليد فى الصورة التى اختارها له النواسيون من أضراب أبى الفرج ورواته ؟ ومن أين استقى الدكتور هيكل هذا الثابت الذى لاريب فيه ؟ أليس عمدته فى ذلك كتاب الأغانى ومن نقل عنه من ضعفاء المؤرخين ؟ ومما يؤكد تورط الدكتور هيكل فى أسر هذا الاتجاه النواسى الخليع أنه آخر مارآه صورة أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ — عن حديث الإعجاب والهوى وجمال السيقان فى روايتى اليعقوبى وصاحب الأغانى ،

وهذا السياق يقيد طبعا أن الإعجاب والهوى وحسن الساقين من الوقائع التاريخية فى هذا الحادث ، وليست من الصور التى نسجتها الروايات التى هى أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ ؛ فليقل لنا الدكتور هيكل ماهو السبب فى تأخير هذه العبارة، وفصلها بعنوان خاص ؟

أبو بكر وعمر ابن الخطاب فى تصوير الدكتور هيكل

لا ، بل إن الدكتور هيكل أصر إصرارا عارما على أن يرسخ فى أذهان قرائه إن سبب عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد هو قتله مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ، وهو فى سبيل هذا الإصرار العارم يرد نصا قاطعا كتب به عمر بن الخطاب إلى الأمصار ، وخطب به الناس معتذرا إليهم ومبينا وجه صنيعه مع بطل الإسلام ، وفى ذلك يقول الدكتور : « وقد عاتبه خالد على ذلك حين رجع إلى المدينة فكان جواب عمر : ماعزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن الناس بك ، فخشيت أن تفتتن بالناس ؛ وهذه حجة لها قيمتها ؛ لكن إجماع المؤرخين منعقد على أن عمر بقى متأثرا برأيه فى موقف خالد من مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ، وأن هذا الرأى كان له أثره من بعد فى عزل خالد » .

هذا كلام الدكتور هيكل بنصه وفصه ؛ والقارىء لايحتاج إلى كثير من الذكاء ليفهم منه أن الأمر لايخرج عن أن يكون عمر فى كلمته التى يرد بها على عتاب خالد غير جاد فيها ، بل قصد إلى نفاق خالد ومخادعته ، أو هو لايقصد منها إلى معنى يفهمه العقلاء ، ولعل الدكتور رمى إلى أكثر من ذلك ، لأنه يذكر أن إجماع المؤرخين منعقد على أنه كانت فى نفس عمر ريبة جامحة فى خالد ، تطعنه فى دينه ورجوليته وبطولته ومروءته ، فعمر فى رأى الدكتور هيكل غير صادق فى كلمته ، وأنه قالها وهو يضمر فى نفسه غير معناها ، ولا ينقذ الدكتور هيكل من هذا التورط قوله عقب كلمة عمر : « وهذه حجة لها قيمتها » لأن الاستدراك عليها لا يترك مجالا للإنقاذ ، وينادى بأن هذه الكلمة وقعت هكذا بين عبارات الدكتور لغرض لم تستطع أن تؤدى إليه ، وهذا الاتجاه فى تصوير المسألة هو رأى الدكتور هيكل صراحة فى عمر وموقفه من هذه القضية ، فهو يقول : « الرأى عندى فى هذا الخلاف — يقصد إلى خلاف أبى بكر وعمر فى شأن خالد — أنه كان اختلافا فى السياسة التى يجب أن تتبع فى هذا الموقف ، وهو اختلاف يتفق وطبائع

الرجلين أبى بكر وعمر ، أما عمر وكان مثال العدل الصارم فكان يرى أن خالدا عدا على امرىء مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها ؛ فلا يصح بقاؤه فى الجيش حتى لا يعود لمثلها ، فيفسد أمر المسلمين ويسىء إلى مكانتهم بين العرب ، ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى ، ولو صح أنه تأول فأخطأ فى أمر مالك ، وهذا مالا يجيزه عمر — فحسبه ماصنع مع زوجته ليقام عليه الحد » .

وليت الأمر فى تصوير الدكتور هيكل وقف به عند هذا الحد ، ولكنه تخطى عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد إلى أبى بكر الصديق ، فجعله رجلا لا يبالى بإقامة حدود الله تعالى ، بل جعله رجلا يهدر كرامه الشريعة الإسلامية ، ويعبث بحدودها ، فهو — فى نظر هيكل — يرى أن تطبيق الشريعة لا يتناول النوابغ والعظماء ، وإنما يطبق على العامة والدهماء ، ويقول فى ذلك : « أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور — أى قتل المسلمين عدوانا وظلما وغصب زوجاتهم — وزن ، وماقتل رجل أو طائفة من الرجال لخطأ فى التأويل أو لغير خطأ والخطر محيط بالدولة كلها ..؟ وما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها — على خلاف نص القرآن — إذا وقع من فاتح غزا فحق له بحكم الغزو أن تكون له سبايا ، يصبحن ملك يمينه !! إن التزمت فى تطبيق التشريع لا يجب أن ينال النوابغ والعظماء من أمثال خالد ، أفمن أجل مقتل مالك بن نويره ، أم من أجل ليلى الجميلة التى فتنت خالدا يعزل خالد ؟ »

أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رجلان لم تعرف الحياة فى تاريخها مثلهما سموا وجلالا فى اتباع الأنبياء والمرسلين ، فهما المعجزة الكبرى بعد القرآن الكريم للإسلام ، وتربية نبى الإسلام للرجال وتخريجهم نماذج لمظاهر الوجود العليا ، يصورهما الدكتور هيكل بهذه الصورة التى نقلناها للقارىء ، فماذا بقى لهما فى صفحات الفضائل الإنسانية ؟ أتلك « الرتوش » الشعريه التى تنساب لغير معنى فى العبارات الرقراقة ، والأساليب المحبرة ؟ ؟

وإن كل فضيلة وراء هذا التصوير تنتهى إلى رذيلة ؟ أفكان هذا مقصودا للدكتور

أم كان من جموح القلم حين يفقد الكاتب السيطرة على أعصابه وتفكيره ؟ لعل الذين يفهمون هذا من صنيع الدكتور على حق ، ولعلهم مخطئون !

ولنترك كتاب « الصديق أبو بكر » ولنمض إلى كتاب « الفاروق عمر » فلعله ألصق بالموضوع ، ولعل الدكتور هيكل كان فيه أصرح وأنطق بما يعتقده فى هذه القضية ، وأحب أن أنبه إلى أن الأسلوب الشعرى أشيع وأظهر فى كتاب عمر منه فى كتاب أبى بكر ، ولعل ذلك كان عن قصد من الدكتور ، ولعله كان من غير قصد ، وحسن الظن يقتضينا القول بأن كتاب « عمر » عالج بعض القضايا الإسلامية الخطيرة التى لا تواتيها الصراحة إلا ملفوفة فى عبارات شعرية يتخفف بها الأسلوب من أثقال الريبة والتوجس .

لقد أريناك أن الدكتور هيكل كان يقبض بكلتا يديه على حديث الهوى فى رواية النواسيين ، ويرى فيه مفتاح قضية عزل خالد بن الوليد ، ولم نكن متجنين فى ذلك ، ولكنا كنا أمام عبارات واضحة فى غرضها ومرماها فأثبتناها بصورتها التى وضعها عليها كاتبها ، وهذا كتاب « الفاروق عمر » يسعفنا بما يزيد فى براءتنا من تهمة التجنى على رجل يعد فى طليعة كتاب الشرق المعاصرين ، ومن حق البحث الذى يكتبه فى الموضوعات الإسلامية وكتبه فى تصوير حياة عظماء التاريخ الإسلامى على أهل العلم أن يجيلوا فيها النظر الناقد ، وأن يذيعوا هذا النقد بين شباب الإسلام ما أمكنتهم الفرصة لتكون وقاية ، عسى أن يتسرب إلى عقولهم الغضة وأفئدتهم الصافية .

إلحاح فى قصة مالك ابن نويرة

فى كتاب « الصديق أبو بكر » اعتمد الدكتور هيكل فى بيان سبب عزل خالد على قصة مالك بن نويرة وزواج خالد من امرأته ، وروى هناك قصة النواسيين التى تجعل من خالد رضى الله عنه مدنفا تيمه العشق وأضناه الغرام بليلى امرأة مالك بن نويرة التى كان يهواها — فى زعم النواسيين — فى الجاهلية ، ورشح الدكتور ذلك بأحدوثة جمال ساقيها التى جاءت على لسان أحد الخلعاء من رواة أبى الفرج فى أغانيه ، وفى كتاب « الفاروق عمر » يذكر الدكتور هيكل حديث الهوى والغرام غير مسند إلى كتاب الأغانى أو غيره — ولهذا الصنيع اسم خاص عند علمائنا فيقول الدكتور : « غضب أبو قتادة الأنصارى لقتل مالك بن نويرة بعد ما أظهر إسلامه ، وظنها حيلة من خالد

ليتزوج ليلى الجميلة ، وكان يقال إنه يهواها فى الجاهلية » ثم يصور موقف عمر من خالد بعد أن زجر أبو بكر أبا قتادة ورده إلى قائده جنديا يسمع ويطيع ، وبعد أن حسم أبو بكر إلحاح عمر بكلمته القاطعة لا ياعمر ! ! ما كنت لأشيم سيفا سله الله على الكافرين ، بقوله « فقد كان عمر ثائراً بخالد ثورة جعلته يبالغ فى النيل منه فيجمع من حوله متمما وأبا قتادة ومن لف لفهما ، ويستنشد متمما شعره فى رثاء مالك ، ويظهر الرضا عنه وعما يقول . وكيف لعمر أن تطيب نفسه فيسكت عن رجل قتل أمرأ مسلما ونزا على امرأته فوجب رجمه » وقوله : لم يتزحزح عمر عن رأيه فيما صنع خالد ، وفى وجوب عزله ، وكان لهذا الإصرار أثره من بعد ، حين تولى عمر إمارة المسلمين فقد عزل خالدا عن إدارة الجيش أول ماتولى ، ثم عزله من بعد ذلك عن عمله فى الجيش كله » .

منطق مدخول

أهذا منطق العقل ؟ أم منطق العاطفة التى تهوى الاستشراق والمستشرقين ؟ أم هو منطق الحرية الفكرية والتحليل العلمى كما يفهمه فريق من الباحثين والكتاب المعاصرين فى هذا الشرق المسكين ؟ .

عمر بن الخطاب يرى — كما تزعم بعض الروايات التى رضيها الدكتور هيكل — أن خالد بن الوليد قتل رجلا مسلما محرم الدم لأخبث غرض ، ونزا على امرأته التى كان يهواها فى الجاهلية ، أو التى أعجب خالد بحسن ساقيها كما يزعمه خلعاء النواسيين ، ويطلب عمر من الخليفة أبى بكر الصديق فى إلحاح صارم أن يقتل خالداً قصاصاً بمالك ، أو يرجمه حدا للزنا بامرأته ، فيهدر الخليفة حدود الله ويعطل أحكام الشريعة ؟ ثم يتولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبى بكر ويصبح سلطان الإسلام والمسلمين بين يديه ، فيكتفى من خالد صاحب تلك الآثام والجرائم التى أقامت عمر وأقعدته — فى زعم روايات مريضة رضيها الدكتور هيكل — على عهد أبى بكر ثم لا يصنع عمر بعد ذلك كله شيئا إلا أن يعزل خالدا عن الإمارة ؟ ثم عن الجندية العامة فى الجيش كله ؟ .

هذا كلام له خبىء   معناه ليست لنا عقول

فأين ما كان يطالب به عمر أبا بكر من إقامته الحد على خالد قصاصا أو رجما ؟ وما الذى جعل عمر — وهو من هو — يسكت على نفسه فى أمر لم يرض أن يسكت عنه

لأبى بكر ؟ ولكن لاعجب أن يكون عمر بن الخطاب هكذا فى رأى الدكتور هيكل لأن عمر يقول للناس ويكتب إلى الأمصار الإسلامية مبينا فى صراحة لالبس فيها : إن السبب فى عزله خالدا لايرجع إلى ريبة فى خالد ،ولكنه عزله لأنه رأى الناس افتتنوا به فخشى أن يوكلوا إليه ؛ فيقول الدكتور هيكل يرد على عمر بن الخطاب : لا ، يا أمير المؤمنين، فإن إجماع المؤرخين منعقد على أنك عزلت خالدا لأنه قتل اور أمسلما، ونزا على امرأته التى يقال : إنه كان يهواها فى الجاهلية .

هذا لون من ألوان المنطق العلمى الذى تجرى عليه كتب الدكتور هيكل فى البحوث الإسلامية . أفكنا مخطئين أو متجنين حينما قلنا إنه يجب التنبيه على هذا النحو من أساليب البحث ليكون قارئوه على بصيرة من أمرهم وأمره ، وعمدة هذا اللون من منطق الدكتور هيكل إهدار كل رواية تاريخية تبرز أدب الإسلام فى نماذجه الإنسانية الحية من رجالاته الذين رباهم فى مدرسة النبوة تربية ترتفع بهم عن وصمات الأخلاق تحنثا بالمكارم وتكرما عن الشبهات .

« الغاية تبرر الوسيلة » سياسة عمرية فى نظر هيكل

وهناك لون آخر من المنطق يسرى فى كتاب « الفاروق عمر » نرى من حق البحث أن نعرض له ؛ وعمدة هذا اللون تسقط الروايات التى تجعل من عظماء الإسلام وعباقرته جماعة من الناس تعيش فى ظل مبدأ لايقيم وزنا للقيم الخلقية ورقابة الضمير ذلك هو مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » فعمر بن الخطاب عظيم العظماء فى الإسلام بعد أبى ، يثور فى ظل الإسلام نعبقرى الإسلام وبطل أبطاله خالد بن الوليد ، فيتسقط له هنات يحصيها عليه ، ويطالب بإنزال أشد العقوبات به ، ويحرص الخليفة على قتله أو رجمه ؛ ثم يعزله عن إمارة الجيوش الإسلامية لإحن وأحقاد جاهلية ؛ فأى قيمة لهذا الإسلام أمام هذا المنطق الهيكلى أعظم من أنه كان وسيلة مكنت عمر بن الخطاب من الكيد لخصمه فى الجاهلية خالد بن الوليد ؟ وأى قيمة للأخلاق والفضائل أمام هذا المنطق « العصرى » اذا حالت دون اشباع أحقاد الجاهلية واحنها فى ظل هذا الإسلام ؟

أحقاد جاهلية هى التى حركت عمر نحو خالد فى نظر الدكتور هيكل

يقول الدكتور فى هذا اللون من المنطق : « يرى بعضهم عجبا أن يثور عمر بخالد كل هذه الثورة ، وخالد خال عمر ، وخالد سيف الله ، وناصر دينه ، وقد يزيل من هذا العجب ما يرويه بعض المؤرخين من أن عمر كان سىء الرأى فى خالد من قبل إسلامه ، وكان سىء الرأى فيه حياته » وهنا ساق الدكتور فى الهامش كلمة لليعقوبى ذكرها فى تاريخه يقول فيها : « كان عمر سىء الرأى فى خالد لقول كان قاله فى عمر » وكأنما أدركت الدكتور بقية من الحياء العلمى حجزته أن يدون هذه الكلمة الفارغة فى صلب الكتاب، ولكنها لا بد أن تذكر لأنها تغض من العظمة العمرية السامقة ، وليكن ذكرها فى الهامش، ولعل هذه الكلمة التى لا تدل ألفاظها على معنى فى موضوعها ، والتى تلقفها اليعقوبى من رواية لمحمد بن إسحاق صاحب المغازى هى التى يعنيها الدكتور هيكل بقوله: «ما يرويه بعض المؤرخين » ،وفى الإبهام إيهام. وعلى هذه الكلمة بنى الدكتور ذلك الحكم القاطع بأن عمر بن الخطاب كان سىء الرأى فى خالد قبل إسلامه ، وظل سىء الرأى فيه حياته ، والدكتور يؤكد ذلك فى غير تحفظ بقوله :ومهما يكن من شىء فالثابت أن ابن الخطاب لم يحبب خالدا » وإن كان عمر نفسه وعينه يقول لخالد ــ فيما رواه الدكتور ورضيه ــ حين عاتبه : « والله ياخالد إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب » وماذا على الدكتور هيكل إذا قال يرد على عمر بن الخطاب : لا ، يا أمير المؤمنين . ليس صحيحا أن خالدا عليك كريم ، وليس صدقا أن خالدا إليك حبيب ، فإن الثابت ــ على رغم قولك أنك لم تحبب خالدا ، وأن بعض المؤرخين ــ اليعقوبى أوغيره ــ قال إنك سىء الرأى فى خالد ؟ . .

ومن عجيب التحليل العلمى «العصرى» أن تكون عبارة اليعقوبى ــ كما نقلها الدكتور هيكل ــ مطلقة مجملة فيفصلها هيكل كما يشاء ويهوى ، ليجعل سوء رأى عمر فى خالد راجعا إلى ما قبل الإسلام ، أى إلى إحن واحقاد حاهلية موروثة . وهنا يصعق «الاستشراق » بكلتا يديه إعجابا بما أثمر وأينع ، فقد نجح أحد تلاميذه فى هدم قاعدة « أثر الإسلام فى تهذيب النفس » لأن عمر بن الخطاب وهو التلميذ الأول فى حساب التاريخ الإسلامى تكيفا بآداب الإسلام ،قد ثبت أنه عاش فى ظل هذا الإسلام على إحن الجاهلية وأحقادها . .

ويتابع الدكتور هيكل هذا الاتجاه فيقول : « لقد عرف الناس جميعا سوء رأى عمر فى خالد بن الوليد ، وحرصه فى حادث بن نويره على أن يقيد أبو بكر منه ،

ولم يتغير رأى عمر فى خالد من بعد هذا الحادث « ويقول : « يتساءل الناس إلى يومنا هذا عن السر فى عزل عمر خالدا ... أحقا أن مقتل مالك بن نويرة وتزوج خالد من امرأته بقى له من الأثر فى نفس عمر ماحمله على هذا التصرف ، أم خشى عمر أن يفتتن خالد بالناس كما افتتنوا به لانتصاره المتصل فى الحرب ، وقد يجر افتتانه على الدولة شرا . يرى بعضهم هذا الرأى الأخير ، ويذكرون أن خالدا رجع إلى المدينة يسأل عمر عن ماحمله على عزله فأجابه : « ماعزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس ، فخشيت أن تفتتن بالناس » قال الدكتور : « وهذه رواية لاسند لها ، فالثابت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة بعد عزله وأنه بقى بالشام يتابع غزواته بإمرة أبى عبيدة حتى عزله عمر عن كل عمله بالجيش فى السنة السابعة عشرة من الهجرة ، ولا أحسب كذلك أن مقتل مالك ابن نويرة كان سبب العزل ، وعندى — الدكتور هيكل — أن عمر إنما عزل خالدا لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة قبل خلافة عمر ولا أثناءها » .

اضطراب فى البحث

أحب لقارىء هذا البحث أن يكون أقوى ذاكرة ممن جمع معلومات كتابى « الصديق أبو بكر » و « الفاروق عمر » لأن قوة الذاكرة قد تعيننا على أن نضع يدنا على مقدار العناية بالبحث فى هذين الكتابين ونعرف قيمتها من الصدق العلمى ، وندرك ما بين الكتابين من اتفاق أو اختلاف فى الموضوع الواحد ، فالدكتور هيكل ينفى فى كتاب « الفاروق عمر » أن يكون مقتل مالك بن نويرة سببا فى عزل خالد ، ويرى أن رواية اعتذار عمر عن عزل خالد بقوله لخالد ، « ماعزلتك لريبة فيك » لاسند لها ، لأن الثابت فى نظر هيكل أن خالد لم يذهب إلى المدينة بعد عزله .

والدكتور هيكل عينه ونفسه يثبت فى كتاب « الصديق أبو بكر » أن مقتل مالك ابن نويره وزواج خالد من امرأته كان سببا فى عزله بإجماع المؤرخين — فى نظره طبعا — والدكتور هيكل عينه ونفسه أيضا فى كتاب « الصديق أبو بكر » يجعل كلمة عمر التى اعتذر بها إلى خالد فى قوله : « ماعزلتك لريبة فيك » حجة لها قيمتها لا رواية لاسند لها

وأما حديث ذهاب خالد إلى المدينة ولقائه عمر ومعاتبته واعتذار عمر فقد رواه جمع من المؤرخين الأثبات ، وقد سقنا رواياتهم فيما قدمنا من حديث ، وبعض الرواة عين وقت ذهاب خالد إلى المدينة ، فجعله بعد عزله عن عمله كله بالجيش وهو العزل الثانى ، وكان قدومه إلى المدينة بطلب من عمر ، فأنى يستقيم للدكتور هيكل قوله : « فالثابت أن خالدا لم يذهب إلى المدينة » .

أهكذا يهجم العلماء على العلم والتاريخ ؟ .

لا ، بل إن الدكتور هيكل يثبت فى كتاب « الفاروق عمر » ذهاب خالد إلى المدينة ، فيقول فيه : « بينما كان ذلك يجرى بحمص كان عمر ينتظر بالمدينة مقدم خالد عليه معزولا عن عمله ... فلما طال به الانتظار وأبطأ خالد عليه ظن الذى كان وأدرك أن أبا عبيدة فى لينه وتودده وتواضعه قدر ماينزل بنفس خالد من الهم إذ يعرف المصير الذى أراد له أمير المؤمنين ... فكتب إلى خالد يستقدمه ... لم يبق لخالد إلا أن يرجع الى المدينة معزولا يلقى أمير المؤمنين ، فخرج يريد قنسرين ... فلما بلغها كظم غيظه وتجمل وخطب أهل عمله ، وذكر مجيد فعاله معهم ولم يذكر عمر لهم بسوء ، ثم ودعهم وعاد بأهله ومتاعه الى حمص فخطب أهلها وودعهم وفصل عنهم منصرفا الى المدينة ، فلما بلغها ولقى أصحابه بها ألفى أمر عمر فيه قد سبقه اليهم ... ثم انه لقى عمر فقال له : « لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك فى أمرى غير مجمل ياعمر »..

ولعل عمر انما قسا على خالد وبالغ فى القسوة عليه بعد عوده الى المدينة معزولا ، لأنه رأى جماعة من المتعصبين لخالد يحاولون اثارة الفتنة » هذا كلام الدكتور هيكل .

أفبعد هذا ياسدنة العلم وغطارفة البحث الحر يبقى صحيحا قول الدكتور هيكل : « فالثابت أن خالدا لم يذهب الى المدينة » ؟ ؟

أفبعد هذا يازعماء التحليل العلمى يبقى قول عمر لخالد : ماعزلتك لريبة فيك . رواية لا سند لها ؟ . أم يجب أن يقال : فالثابت أن بعض الباحثين لم يتثبت فى بحثه فخلط وأثبت مانفى ، ونفى ما أثبت فى موضوع واحد ، ومسألة واحدة . . وهذا ان دل على شىء فإنما يدل على مايسود هذه الكتب « المفخمة » وعلى مقدار مافيها من ضحالة البحث وتفاهة مايزعمونه تحقيقا علميا وبحثا عن وقائع التاريخ .

والدكتور هيكل يقول فى كتاب « الفاروق عمر » : « وعندى أن عمر إنما عزل خالدا لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة » والدكتور هيكل يقول فى كتاب « الصديق أبو بكر » : « الرأى عندى فى هذا الخلاف أنه كان اختلافا فى السياسة ... أما عمر — وكان مثال العدل الصارم — فكان يرى أن خالدا عدا على امرىء مسلم ، ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها فلا يصح بقاؤه فى قيادة الجيش » .

أفرأيت إلى موازين العلم والتاريخ التي تكتب بها حياة عباقرة الإسلام؟ وقد شرح الدكتور هيكل « الثقة » التي لم تكن قائمة بين عمر وخالد ، فأدى ذلك إلى أن يعزل عمر خالدا عن العمل في جيوش المسلمين ، شرحا رجع بها حديث سوء رأى عمر في خالد وقد أريناك خبيء أمره والدكتور هيكل يؤكد ذلك باعتراض يفترضه فيصوره في قوله : « إن الخليفة لا يلي الدولة لحسابه ، بل لحساب المسلمين جميعا، فكان من الواجب لذلك على عمر أن ينسى ما بينه وبين خالد » . أفهمتم هذا الدرس الذي يلقيه محمد حسين هيكل على عمر بن الخطاب ليعرفه الواجب عليه في سياسة الدولة ؟؟ أولى لك يا دكتور فأولى ، ثم أولى لك فأولى . ومن غيرك لها . . ؟؟

وهذا الذي كان بين عمر وخالد ، وكان يجب على عمر – وقد أصبح خليفة للمسلمين أن ينساه ، هو أحقاد جاهلية ، وإحن شخصية في زعم رواية ميتة ارتضاها الدكتور هيكل ، وبنى عليها حكمه القاطع بأنها كانت سببا في عزل عمر خالدا .

هيكل يقرر أن عمر بن الخطاب تأثر بشعوره الخاص نحو خالد

ولكن الدكتور هيكل لا يرضيه إلا أن يكون حفيا بعمر بن الخطاب ، يلتمس له المعاذير في فلسفة الحياة وشاعرية الأسلوب ، فيقول : « وهذا الاعتراض له وجاهته – ولكن في المنطق النظري – وهذه الوجاهة تتضاءل كل التضاؤل أمام الواقع من أمر هذه الحياة ، فنحن معشر هذا الناس — وعمر بن الخطاب واحد من هذا الناس طبعا — لا نتصرف في شئون الحياة بعقولنا وحدها ، بل إن لعواطفنا علينا سلطانا أي سلطان » .

وهكذا راح الدكتور يبسط نظريته هذه في أسلوب شاعري يلف المعاني لفا ثم ينفلت منها انفلات الرقطاء من مضايق الأحجار إلى النتيجة المقصودة فيقول : « ولا ريب أن قد تأثر عمر بشعوره نحو خالد ، ولعله كذلك قد ظن أن خالدا حسده على الخلافة » ؟

أفرأيتم إلى التحليل العلمي والتحقيق التاريخي في مؤلفات الباحثين العصريين ؟ هذا التحليل ، وذلك التحقيق الذي سداه ولحمته هدم ما بناه الإسلام من شخصيات فارعة العظمة ، وتشكيك الناس في حقائق التاريخ التي تصور عظماء الإسلام في حقيقتهم العليا من الحياة .

لكن الحق يأبى أن يظل ملفوفا فى دثار الأباطيل ، فهذا هو الدكتورهيكل عينه يقول فى كتاب « الفاروق عمر » : « وكان العدل فى فطرة عمر منذنشأته ، ثم نمت فكرة العدل فى نفسه حتى بلغت الكمال ، لأنه سما بعقله وقلبه فوق شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها عليه سلطانا » فأيهما نصدق ؟ أتصدق الدكتور هيكل الذى يقررأن عمر ابن الخطاب تأثر شعوره فلم يقم للعقل ولا للعدل وزنا ، بل تصرف مع بطل الإسلام وسيف الله تصرفا أملته شهوات هذه الحياة الدنيا ؟ أم نصدق الدكتور هيكل الذى يقرر وقائع التاريخ الصحيحة ، فيجرى على قلمه بقصد أو بغيرقصد : أن عمر سما بعقله وقلبه على شهوات هذه الحياة فلم يجعل لها سلطانا عليه ؟ !

إلى هنا كان الدكتور هيكل قدبلغ المدى الذى كان يريد أن يبلغه ، وهو أن عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد إنما كان إرضاء لشهوة نفسيه وحقد شخصى، يضرب بعروقه إلى ثرى الجاهلية الجهلاء : وقد ظل عمر حياته يتسقط لخالد الأخطاء التوافه وهنات الهفوات ، ويتلمس له السقطات ، ويحصى عليه السيئات ، فيرمية بقتل امرىء مسلم حرام الدم ، ويرميه بنزوه على امرأته ، ويطالب بالقصاص منه أو رجمه، وإذا لم يظفر بكيد لخالد على يدى أبى بكر ، فليكن أول عمل له فى دولة الإسلام عزل خالد عن إمارة الجيوش الإسلامية ؟ بل عزله عن الجندية فى تلك الجيوش التى قادها من نصر إلى نصر ، وإنما يصنع عمر ذلك الصنيع ببطل الإسلام سيف الله خالدبن الوليد لأن عمر واحد من هذا الناس الذين لعواطفهم عليهم سلطان يقسرهم على أن يهدموا قواعد العدل والصدق والمروءة والرجولية ومقتضيات الخلق الكريم، بله الدين، ودين الإسلام وشرائعه .

لو كان هؤلاء الباحثون يكتبون بروح إسلامية لقالوا فى سماحة ويسر إن لعمر ابن الخطاب سياسة معروفة فى عزل الولاة والأمراء ، اختطها فى خلافته ، فقد عزل جماعة من الولاة والأمراء بعد أن حاكمهم ، لأن عمر كان يحرص على تركيز السلطة كلها فى يديه ، ويحب من أمرائه أن يرجعوا إليه فى الصغير والكبير والقليل والكثير فأبى عليه خالد ذلك فعزله .

ولكن الدكتور هيكل يأبى أن يرد عزل خالد إلى هذه الخطة فى سياسة الحكم، بل يحب أن يكون مرده سوء رأى عمر فى خالد وفقدان الثقة الذى يجعل عمر ينسى العقل والدين والمروءة فيتصرف نحو خالد تحت تأثير العواطف الحاقدة وسلطانها والإحن الموروثة ونزواتها، ولا يفوت الدكتور أن يختم نتيجته بهذه الكلمة الدافعة « وبذلك تكشف السر فى عزل خالد وتكشف مكان هذا السر من نفس عمر » .

لم يشأ الدكتور هيكل أن تكون عبقرية عمر بن الخطاب بلونها الذى أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نعته بها ، ولا بالمعنى الذى عرفه الإسلام فى عليا الفضائل ورفيع الأخلاق إذا تكاملت فى رجل ، ولا بالمعنى الذى أراده المسلمون وعرفوه واقعا مشهودا فى تكييف عمر بروح الإسلام حسا ومعنى ، ولا بصورتها التى اتفق الناس عليها فى الشرق والغرب من عدل فى الحكم وحكمة فى السياسة كانت تستهدف روح الإسلام مما جعلها مضرب المثل فى اقتدار هذا الدين القيم على صنع النماذج الحية للفضائل الإنسانية فى شخصيات الرجال .

ولكن الدكتور هيكل شاء أن يضفى على عمر بن الخطاب لوناً من العبقرية إن لا يكن الإسلام يعرفه فإن الحياة غير الإسلامية تعرفه لعظمائها ، فهو لون ينظم عمر فى سلك هؤلاء الغطارفة الذين تدوى بأسمائهم أرجاء الفضاء وآفاق الأرض من ساسة « قرنهم » العشرين ، أو ليس من الوسائل التى تذرع بها هؤلاء الساسة فى كسب الرأى العام إلى جانبهم أن يذيعوا فى الناس إذاعة لا تعبر تعبيرا صادقا عن آرائهم فى بعض الأحداث والحوادث خشية أن يثور الناس على تلك الآراء ؟ أو إرادة تسكين الخواطر وتهدئة النفوس ، فكانوا بذلك عبقريين وعظماء ؟؟ فحسب عمر بن الخطاب عظيم عظماء الإسلام أن يجد كاتباً عصرياً يجعله ندا لسائس سواس الإنجليز أو الأمريكان أو حتى البلاشفة ولا عليه أن يعيش كما عاشوا فى ظل حياة من الكذب والنفاق والخداع ، وكانوا بعد ذلك عباقرة عظماء ! ! .

عود إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة »

لقد كان لعمر بن الخطاب — فى رأى الدكتور هيكل — من هذه العبقرية « المنافقة » حظ وأى حظ ، وإذا شئت أن تزداد علما بحظ عمر من هذه العبقرية فاسمع إلى الدكتور هيكل يقول فى فصل عقده تحت عنوان « مصير خالد بعد اخضاع الشام » من كتاب

« الفاروق عمر » : « واطمأن عمر اذ برت يمينه ألا يلى له خالد عملاً أبدا؟ ثم لم تثر لعزل خالد عاصفة ، ولم يمالىء خالد أحدا على اثارتها ، فغلب جانب البر فيه جانب الشدة والبأس ، فأذاع فى الأمصار « انى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا اليه ، ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ؛ وألا يكونوا بعرض فتنة » قال الدكتور هيكل معقبا : » أفتعبر هذه الإذاعة تعبيرا صادقاً عن رأى عمر فى خالد ، وتشهد أنه اقتنع بأن الرجل لم يرتكب اثم الخيانة ، ولا اثم الإسراف حين أجاز الأشعث بعشرة آلاف ؟ أم اذاعه سياسية قصدبها ابن الخطاب الى تسكين الخواطر التى لمارت لما أصاب سيف الله تعصبا له واعجابا به وخشية أن يجرى عمر فى سياسته على تغليب الهوى والأخذ بالظنة فى أمر بناة « الامبراطورية » الناشئة !؟ أغلب الظن أنها كانت اذاعة سياسية أريد بها الاعتذار عن أمر أوشك حين وقوعه أن يحدث حدثا » .

هذا نص كلام الدكتور هيكل ، ولو أردنا أن نضع النقط تحت الحروف أو فوقها لكان معنى كلام الدكتور الذى لامعنى له سواه ، أن عمر بن الخطاب أذاع فى الناس كلاما لم يقصد الصدق فيه ، وعند علماء الأخلاق قدر عظيم من النعوت والأوصاف التى تنطبق على صاحب هذا الخلق فى الناس ، فهل الى ذلك قصد مؤلف كتاب « الفاروق عمر » ؟ . لعل من يفهمون ذلك من كلام الدكتور على حق فيما يفهمون، ولعلهم مخطئون ؟ . ولكنهم ان أخطأوا وأمنعوا فى الخطأ فلن يكونوا مخطئين حين يفهمون أن الدكتور هيكلا وأضرابه لايفهمون الإسلام بروح الإسلام، وإنما يكتبون عن الإسلام بأقلام غريبه عن الإسلام أو على الأقل يكتبون بروح تتعبد بتقليد أساتذتهم المستشرقين . ألا ترى الى هذا اللفظ الضخم الذى اجتلبه الدكتور هيكل من الغرب ليزين به سيرة عمر بن الخطاب اذ يسمى الدولة فى عهده، وهو الخليفة الثانى فى الإسلام « الإمبراطورية » الناشئة ؟ والقارىء المسلم لابد أن يجفل لسماع هذا الوصف ، لالغرابته على لغة الإسلام ، بل لغرابته على حقيقة الإسلام كما يعرفها ذوو العلم من المسلمين الأحرار ، ولكن السطحيين من أغرار المسلمين . والمتعمقين فى الاستشراق من عبيد

التقليد الغربى يهشون لهذا الوصف . ويرون أنه إبداع فى التعبير الفخم المفخم لشأن الدولة فى شخص « إمبراطورها» عمر بن الخطاب .

ونعود إلى كلام الدكتور هيكل انجدة يذكر بقصد أو بغير قصد فى شىء من الصراحة السهوانة أنه يعتمد ويصحح رواية اعتذار عمر عن عزله خالدا وإذاعته فى الأمصار أنه لم يعزله لريبة أو خيانة ، وكان قد سبق له أنه قال : إنها رواية لاسند لها . وهكذا يكون التحقيق العلمى فى وقائع التاريخ ؟ !

ويمضى الدكتور هيكل فى هذا اللون من منطقة «العصرى» فيشكك فى كل رواية تاريخية تحمل معنى كريما فى تصرف من تصرفات عمر بن الخطاب نحو خالد بن الوليد فلم يرض الدكتور لقلمة أن تفلت منه بمنجى عن الشك والتشكيك روايات تحكى أن عمر بن الخطاب حزن لموت خالد ، وخالد قريب لعمر قرابة دانية فهو ابن عم أمه على التحقيق وخاله فى عرف الناس ، وخالد بعد ذلك سيف الله وبطل الإسلام ، يقول فيه عمر نفسه : « إنه كان ليحب الشرف وأهله ، وإن كان الشامت بهلتعرضا لمقت الله» ويقول فيه : «كان والله سدادا لنحوال العدو ، ميمون النقيبة » فيقول له على : فلم عزلته ؟ فيقوو عمر : ندمت على ماكان منى . ويسمع عمر أم خالد تندبه بقولها :

أنت خير من ألف ألف من القو م إذا ما كبت وجوه الرجال

فيقول لها صدقت ، والله إنه لكان كذلك . ويقول فيه : « على مثله تبكى البواكى » .

ولكن الدكتور هيكل بعد أن يستعرض هذه العبارات الدامعة الدامية الصادقة فى حزنها يقول : « أفكان عمر صادق الحزن على خالد حين خرج عن مألوف رأيه فترك نسوة قريش يندبنه ، ثم أظهر الندم على عزله ، وقال فيه كل ما قال؟ أم اقتضته مروءته أن يكون مجملا مع ابن خاله فى مماله ، ولم يكن مجملا معه فى حياته ، فترك النسوة يبكين لعل فى البكاء ما يخفف لوعتهن ، وقال ما قال ليعزى به بنى خالد وأهله ، والله أعلم بالسرائر » .

ياقوم إلا تكونوا تتقون الله فاتقوا المروءة ، وإلا تكن مروءة فاتقوا الشيطان . ثم ألا بقية من حياء ؟ عمر بن الخطاب المحسود من أجله الإسلام يقوم فى محسد الأبطال

كلمات باكية يصف بها بعض حزنه فيأتى « محمد حسين هيكل » ليشكك فى حزنه ، ويشكك فى صدقه ؟

هذا فى الحق بلاء من البلاء . .

الحق أن قارىء كتاب «الفاروق عمر» يخرج من قراءته بصورة لعمر بن الخطاب عبقرى الاسلام وفاروقه وثانى خلفائه الراشدين ، جديدة كل الجدة على معارف المسلمين التاريخية ، تنكرها عقولهم وتنفر منها قلوبهم ، فهل الى هذا النشاز من الحديث قصد الدكتور هيكل ؟ وهل الى هذا النكر من لغو القول أراد ؟ لعل من يفهم هذا على حق ولعلهم مخطئون .

ولسنا ندرى ما الذى جعل عمر بن الخطاب يشغل مكانه الممتاز من نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، ويحتل مكانه الخطير فى دنيا الإسلام وفى تاريخه ،ويتبوأ مكانه العظيم فى قلوب المسلمين منذ دخل فى الإسلام الى يوم الناس هذا والى أن تقوم الساعة ، اذا كان — فى تصوير الدكتور هكل — لا يعرف الصدق حتى فى مقام الموت الذى يسمو بمن مات الى مقام السيرة المبرأة عن الشماتة والحقد ؟ . وأية فضيلة من الفضائل الإنسانية بله الفضائل الإسلامية تبقى بعد ذلك صادقة الوجود فى شخصية عمر بن الخطاب الذى يصوره للناس مؤلف كتاب « الفاروق عمر » ؟ ؟ .

الى هنا ونغض من عنان القلم ليقف ، فليس من قصدنا أن نتعرض الآن لغير قضية عزل خالد فى كتابى الدكتور هيكل . وأسلوبه فيهما نموذج للطرائق التى عالج بها الدكتور هيكل القضايا الإسلامية فى كتبه التى نعتقد أنها من وجهة النظر الاسلامى فى حاجة الى نظرات فاحصة ممحصة، وفى ظننا أننا قد استطعنا بهذا العوض لقضية العزل أن نضع فى يد القارىء مايرده عن الاندفاع وراء الأسلوب الشعرى مأخوذا بجمال التعبير وسبحات الخيال عن حقائق الحوادث من وقائع التاريخ ، وبذلك نكشف السر فى اتجاه الدكتور هيكل ، ذلك الاتجاه فى تصوير قضية عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، ونكشف مكان هذا السر من نفس مؤلف كتابى « الصديق أبو بكر » « والفاروق عمر » ونحن فى طريقنا الى جولة محتسبة فى كتاب « حياة محمد » للدكتور الأديب .

الفصل الرابع عشر

تحرير قصة عزل خالد

وتحقيق أسبابه

العزل عن الإمارة العامة — بين عمر وأبى عبيدة — بين خالد وأبى عبيدة — العزل عن الجندية إطلاقاً — تحرير وضع القصة — ليس لقصة ابن نويرة مدخل فى العزل — تزييف أبطولة الحقد الجاهلى — رأى الأستاذ العقاد — الأسباب الجدية للعزل — حق الحاكم على ولاته — سياسة عمر وأبى بكر — ليست الحوادث أكبر من عقولنا — صلابة الطبع عند عمر وعند خالد — افتراق فى السلوك والأعمال اصطدام بين طبيعتين — وقف الطبيعة الخالدية ضرورة سياسية — حقيقة دوافع العزل — فتح الباب أمام الكفايات — بدء التصادم بين عمر وخالد — خالد يأبى أن تقيد حريته فى دائرة عمله — تقدير عمر لعبقرية خالد — طبيعة لاتغالب — العزل الثانى وأثره — اعتذار عمر — سياسة عمرية عامة — تسامى العبقريات عن الصغائر — عظمة خالدية — مظاهر الولاء بين عمر وخالد .

العزل عن الإمارة العامة

عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد مرتين ـ المرة الأولى عزله عن القيادة العامة وإمارة الأمراء بالشام ، وكانت هذه المرة فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة غداة تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبى بكر الصديق ، وكان الكتاب بهذا العزو أول كتاب كتبه عمر مستهلا به عمله فى سياسة الدولة ، وولى مكان خالد أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح .

بين عمر وأبى عبيدة

وكان أبو عبيدة حبيبا إلى عمر قريبا إلى طباعه وخلائقه المكسوبة ولا سيما خليقة التخشن والزهادة فى الدنيا والتجافى عن مظاهرها ، وهى أظهر خلائق عمر الإسلامية التى نبعث منها عظمته فى العدل والسياسة ، واستطارت جهارته فى الحق قولا وعملا ، وأمر أمير المؤمنين عمر قائده أبا عبيدة أن يسرح جند العراق الذين قدموا إلى الشام فى حملة خالد إلى عراقهم تنفيذا لوصية أبى بكر قبل وفاته ، وأمره أن يحتبس منهم من يحتاج إليه ، وقال له : وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى لك عنه .

وكان أبو عبيدة من أعرف الناس بحق خالد وأعظمهم تقديراً لعبقريته وفضل عقله وشجاعته وكان به حفيا ، فقد أخفى عليه كتاب عزله إجلالا له أن يدخل عليه ما يسوؤه ويروعه حتى علم به خالد من غيره فعاتبه على ذلك .

بين خالد وأبى عبيدة

وكان خالد يعظم أبا عبيدة ويعرف له فضله وسابقته ، ورفعة مكانه فى الإسلام . روى الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير قال : استعمل عمر أبا عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد ، فقال خالد : بعث عليكم أمين هذه الأمة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ، فقال أبو عبيدة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خالد سيف من سيوف الله . بنعم فتى العشيرة » . ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه خالدا على جيوش الشام شق عليه فراق العراق وكانوا هابوه هيبة شديدة وكان إذا نزل بقوم عذابا من عذاب الله عليهم وليثا من الليوث . فلما قرأ كتاب أبى بكر ورأى أنه ولاه على أبى عبيد ، وعلى الشام تسخى بنفسه وقال : أما إذ ولاتى أبى عبيدة فإن فى الشام من العراق خلفا . وكتب إلى أبى عبيدة من بين الأمراء تمييزا له كتابا يعلمه بأمر أبى بكر له أن يقوم على جند الشام ويتولى أمرهم ، فكان مما قاله خالد فى كتابه لأبى عبيدة : « فأنت على حالك التى كنت عليها لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع أمرا دونك ، فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك » .

وكان ابو بكر قد كتب إلى أبي عبيدة يخبره بإمارة خالد عليه وعلى الأمراء الذين معه ، وأمره بالسمع والطاعة لأمره ، وقال له : فإني لم أبعثه عليك ألا تكون خيرا منه عندى، وأمره بالسمع والطاعة لأمره ، وقال له : فإني لم أبعثه عليك ألا تكون خيرا منه عندى ولكنى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . فقابل ذلك أبو عبيدة بالغبطة والابتهاج، وشكر لأبى بكر صنيعه وجزاه الخير وهتف محييا القائد العبقرى بطل الإسلام خالد بن الوليد .

وقد ظل هذا الود القائم على التقدير الصادق والاحترام والثقة متبادلا بين القائدين العظيمين لم تكدره شوائب الأثرة التى تصطدم بين المتنافسين على التعظم ببحبح الرياسة وسلطان الأمارة . بل زاده الايثار الصادق الذى قامت عليه صداقتهما قوة ورسوخاً .

ومن الشواهد على هذه الروح العالية ماروى أن أبا عبيدة دفع كتاب توليته وعزل خالد إلى خالد بعد وصوله اليه بنحو عشرين يوما : فلما قرأه خالد أعظم ذلك فأقبل حتى دخل على أبى عبيدة فقال له: يغفر الله لك: أتاك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمنى وأنت تصلى خلفى والسلطان سلطانك ؟ فقال أبو عبيدة : وأنت يغفر الله لك ، ما كنت لأعلمك ذلك حتى تعلمه من عند غيرى ، وما كنت لأكسر عليك حزنك حتى ينقضى ذلك كله ، ثم قد كنت أعلمك ان شاء الله ، وما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل ، وان ماترى سيصير الى زوال وانقطاع ، وانما نحن اخوان وقوام بأمر الله عز وجل، ومايضير الرجل أن يلى عليه أخوه فى دينه ودنياه ، بل يعلم الوالى أنه يكاد يكون أدناهما الى الفتنة وأوقعة فى الخطيئة لما تعرض من المهلكة الا من عصم الله عز وجل، وقليل ماهم » .

العزل عن الجندية اطلاقا

وقد ظل خالد رضى الله عنه قائد فرقة يعمل تحت امرة أبى عبيدة حتى فتح الله عليه « قنسرين » فولاه أبو عبيدة عليها ، وكتب الى أمير المؤمنين يصف له الفتح وبلاء خالد فيه ، فقال عمر قولته المشهورة : « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو . كان أعلم بالرجال منى » .

وقد يتبادر الى بعض الأفهام من قول عمر : « أمر خالد نفسه » أن خالدا اقتحم إلى هذا الفتح اقتحاما دون أن تكون هناك خطة موضوعة تحت سمع وبصر القائد العام أبى عبيدة . وهذا بعيد جدا أن يكون من خالد وأن يقبله أبو عبيدة ويرضى به ، وانما يريد عمر رضى الله عنه : أن خالدا فيما أتى به من أفانين الشجاعة وضروب

البطولة قد وضع نفسه فى موضعها الذى ألفته فى المواقع الخطيرة من الاقدام والمخاطرة ، ولم ينزل به عن خوالده ألا يكون أمير الأمراء ، وقائدا ليس عليه أمير، ومن هنا كانت خصيصة أبى بكر فى أعلميته بخصائص الرجال .

وكأنما يعنى عمر بذلك أن استمساك أبى بكر بخالد وعدم موافقته على عزله برغم الالحاح عليه إنما كان عن يقين فى مقدرة خالد وعبقريته العسكرية التى لا يغنى غناءه فيها إلا آحاد الأفذاذ من أبطال الأمم ، وخالد هو خالد فى عبقريته وبطولته ، سواء أكان أميرا أم جنديا يعمل تحت راية الأمراء ، فتأميره حق يفرضه الموقف لخصائصه التى لا تتغير بتغيير العنوان .

وفى « قنسرين » جاء العزل الثانى لخالد ، وذلك فى السنة السابعة عشرة ، فقد بلغ أمير المؤمنين أن خالدا وعياض بن غنم أدربا فى بلاد الروم وتوغلا فى دروبها ورجعا بغنائم عظيمة ، وأن خالدا أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف، فكتب أمير المؤمنين إلى قائده العام أبى عبيدة يأمره بالتحقيق مع خالد فى مصدر المال الذى أجاز منه الأشعث تلك الاجازة الغامرة ، وعزله عن العمل فى الجيش إطلاقا ، واستقدمه إلى المدينه .

أخذ أبو عبيدة كتاب أمير المؤمنين فتحير فى الأمر ، لحرصه أشد الحرص على أن لا يحزن خالداً أو يسىء إليه ، ولحرصه أشد الحرص على تحقيق واجب السمع والطاعة لأمر أمير المؤمنين ، فروى ثم رأى أن حق الطاعة آكد من حق خالد فى مودته وصادق جهاده، ولاسيما بعد محنة العزل الأول فقد رأى منه أنبل وأشرف ما تنطوى عليه نفس إنسانية من كريم الخلائق ، ورأى منه أصدق آيات الشجاعة وأروع مظاهر العقرية ، فلم تضعف نفسه ولم تفتر عزيمته وقد أصبح قائد فرقة بعد أن كان أمير الأمراء .

ولكن أبا عبيدة لم يكن أقل نبلا وكرما من خالد . فقد كان فى موقفه هذا حفيا بخالد أبلغ ما تكون الحفاوة ،معظما له أرفع ما يكون التعظيم . لم يرض أن يلى التحقيق مع خالد بل جلس للناس على المنبر ، واستدعى خالدا، وترك بريدالخلافة يتولى التحقيق وترك بلالا مولى أبى بكر يقوم بالتنفيذ ، وانتهى الأمر ببراءة خالد أن يكون مد يده إلى غنائم المسلمين فأجاز منها بعشرة آلاف ، ثم ترحل خالد إلى المدينة فودع أهل عمله ،

وقدم على أمير المؤمنين وعاتبه أجمل عتاب ، فأعتبه عمر أكرم إعتاب وقال له : «والله ياخالد انك على لكريم وإنك إلى لحبيب ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء» .

تحرير وضع القصة

هذه هى وقائع التاريخ التى لا تختلف فيها رواية عن رواية ، ولا يمارى فيها باحث استشرق أو استغرب ، وعلى ضوئها فى بساطتها بعيدة عن « الرتوش » وشاعرية الأساليب يجب أن يجرى البحث عن أسباب عزل عمر خالدا أولا وثانيا ، ليعلم الناس حقيقة الدوافع العليا فى تصرفات رجل كان الحقيقة الكبرى فى معجزات التكوين الانسانى مكيفا بروح الاسلام ، ذلك الفحل لا يقدع أنفه ، الفاروق عمر بن الخطاب ، أول حاكم فى الإسلام جعل الشريعة الإسلامية عملا فى واقع الحياة ، كان هو نفسه نموذجه الأعلى فى أمثلة التطبيق وشواهد التكييف . وإذا أردنا أن نحرر قضية العزل فى وضعها الصحيح جاءت على هذه الصورة :

أولا : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قائد جيوش الشام خالد بن الوليد عن الإمارة العامة لتلك الجيوش ، وأنزله إلى مرتبة قائد فرقة ، فعمل تحت إمرة القائد الجديد أبى عبيدة بن الجراح زهاء أربع سنوات .

ثانياً : عزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحد قواد الكتائب خالد بن الوليد عن عمله فى الجيش كله ، وحاكمه فى تصرف من المالية .

فما ذلك العزل أولا وثانياً ؟

وما أثر ذلك فى نفسى الرجلين العظيمين ؟

ليس لقصة ابن نويرة مدخل فى العزل

ليس من المعقول بداهة أن يكون سبب العزل الأول ما زعمه بعض الرواة وتهالك عليه بعض الباحثين من قصة مالك بن نويرة ، وزواج خالد امرأته لأمرين :

الأول : أننا زيفنا الروايات التى تعزو إلى عمر بن الخطاب مقاولات فى هذه القصة لا تتفق مطلقا مع واقع التاريخ ، ولا تتفق كذلك مع أخلاق الرجلين العظيمين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد .

الثانى : أن ذلك — على الصورة المزعومة معزوة إلى عمر — لو كان هو السبب أو بعض السبب الذى حمل عمر على عزل خالد لما كان هناك وجه مطلقا فى إبقاء خالد أمير فرقة فى

الجيش ، كان يقوم بأمرها أعظم القواد بعد خالد ، وكان هو الذى خلف خالدا فى الإمارة العامة ، بل كان الواجب يقضى بعزل خالد عزلا نهائيا عن الجيش كله ، ثم إقادته بمالك بن نويرة ، أو رجمه لنزوه على امرأته

وإذا كانت إقامة الحد على وجهيه قد فاتت بحكم أبى بكر وتأوله لفعل ، خالد فالذى لا يفهم ولا يعقل هو عزل عمر بن الخطاب صاحب تلك المقالات المزعومة خالد ابن الوليد صاحب تلك الأفاعيل المزعومة أيضا ، عزلا جزئيا بتنزيله من منصب الإمارة العامة فقط ، وإبقائه عاملا فى الجيش ، بل أميرا من أمرائه ، وقائدا من قواده ، وعمر — فى زعم ضعفة الرواة ونواسى الباحثين — يتهم خالدا فى دينه وأخلاقه ومروءته ورجولته بتلك التهمة الخطيرة ، وهى قتله رجلا مسلما معصوم الدم لينزو على امرأته ، فلا يصلح لحمل شرف الجندية فى جيوش الإسلام ، بله منصب الإمارة فيها ، لأن صاحب هذا الخلق لا يؤمن على دم أو عرض أو مال .

وهذه الروايات السقيمة المهلهلة التى هلل بها بعض الباحثين تنسب إلى عمر بن الخطاب أقوالا توعد بها خالدا إذا صار إليه أمر الخلافة ، وها هو ذا يصبح خليفة المسلمين ، بيده سلطان الإسلام ، يقضى به ما يشاء على من شاء ، فلا ترفع بالإنكار عليه رأس ، ولا تطرف به عين ، فأين ذهبت تلك الإيعادات المرعدة ، والأقاويل المهددة؟ أيجوز فى زعم هؤلاء أن يزن عمر بن الخطاب ، وهو من هو فى الجاهلية والإسلام ، بالجبن عن إقصاء خالد وعزله عزلا كليا ما دام يتهمه بتلك التهمة الخطيرة؟ وهذا العزل الكلى أدنى ما يستوجبه الحق والعدل ، لو صحت تلك التهمة على خالد ، أو لو صح اعتقاد عمر صحتها ؟ أم يقول هؤلاء : إن عمر بن الخطاب كانت له قبل أن يلى الخلافة سياسية فى فهم الدين وتطبيق الشريعة ومعاملة الأشخاص ، والحكم على الأشياء ، نسيها أو تناساها بعد أن أصبح خليفة المسلمين ؟ لم لا ؟ أفليس كذلك يصنع الحكام والوزراء فى الشرق والغرب فى هذا العصر التقدمى ؟ بلى ؟ أوليس عمر واحدا من هذا الناس الذين لعواطفهم سلطان عليهم يغلب على عقولهم فى تصرفاتهم فى شئون الحياة ، ولو كانت تلك التصرفات لحساب المسلمين — كما يقول بعض الباحثين ؟

أم الأمر لا هذا ولا ذاك ، ولـكنها روايات زائفة صنعها أعداء الإسلام وتلقاها ضعفاء الرواة ، وقبلها من تلقوا تاريخ الإسلام بعيدا عن روح الإسلام ومصادر الإســـلام ؟

تزييف أبطــولة الحقد الجاهلى

وإذا كان باطلا من الباطل أن يكون مقتل مالك بن نويرة ومايستتبعه من سخف نواسى له مدخل أى مدخل فى أسباب العزل الأول أى عزل خالد عن الإمارة العامة، فأشد منه إيغالا فى الزيف والعبث مازعمته بعض الروايات وفرطحه بعض الباحثين من رد أسباب العزل إلى حقد قديم وضغائن جاهلية ، سواء أكان مردها ــ فى زعم رواتها ومقلديهم ــ تلك الأقصوصة الصبيانية فى اصطراع عمر وخالد وهما طفلان يلعبان مع لداتهما من الأطفال ، أم كان مردها إحنا أسرية وأحقادا قبلية . لأن ذلك يبطله مايبطل مدخلية مالك بن نويرة وزواج امرأته فى أسباب العزل .

وإلا فهل قال لنا أصحاب نظرية الحقد الجاهلى بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد لماذا أبقى عمر على خالد قائدا فى قواد الجيوش الإسلامية ، وأميرا من أمرائها وهو يحقد عليه حقدا موروثا منذ الجاهلية ، وقد واتته الفرصة أحسن ما تكون ليضرب خصمه القديم ضربة تشفى نفسه من أحقادها ؟ لعلهم يقولون : إن عمر ذهب فى ذلك مذهب كبار الساسة بعيدى النظر وعميقى الغور فى الدهاء ، فهو يعلم مكانة خالد فى الجيش فلم يهجم على عزله نهائيا ليبعده عن العمل إطلاقا ،خشية ثورة الجيش انتصارا لقائده العبقرى سيف الله خالد بن الوليد ، ولكن الدكتور هيكل يتبرع بالرد على هؤلاء فيقول : « إن خالدا لم يحقق ماندبه أبو بكر لتحقيقه » وإذن فهو لايزال فى غمرة الامتحان فلا ثورة تخشى ، بل يقول الدكتور هيكل : «إن عمر عزل خالدا فى موقف لايظلمه فيه من يأمر بعزله » أفلا كان هذا الموقف أنسب بالعزل النهائى مادام الباعث على العزل أحقادا جاهلية وسوء رأى لايتصل بالاسلام من قريب أو بعيد ؟

رأى للاستاذ العقاد

يقول صاحب « عبقرية خالد » : « وأبعد شىء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة فى نفس عمر أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء؛ أو لغير سبب من تلك الأسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة .

« وأسخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم كما سبق وهم بعض المؤرخين أن

عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة ، مرجعها إلى الصراع بينهما فى أيام الصبا وأن خالدا صرع عمر وكسر ساقه ، فلم يزل بقية حياته واجدا عليه ، وأجهل الناس بأخلاق عمر من يجمح به الوهم إلى ظن من هذه الظنون .

« فليس بين رجال التاريخ من هو أصعب مخطئة من عمر بن الخطاب ؛ لأنه ليس بينهم جميعا من هو أشد حسابا لنفسه ومراجعة لنياته منه ، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس فى نفسه نية ذحل أو ثأر قديم لكان أثر هذا الاحساس أن يؤجل عزل خالد ، ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه » .

ويقول فى كتاب «عبقرية عمر» : « على هذا الوجه وحده ينبغى أن نلتمس التأويل فى محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل ، وقل فى محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه ، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره ، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين .

« ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة فى موضع التأويل الكثير والمناقشة الحادمة كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضى الله عنه .

« ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذا عن خطته مع جميع القادة والولاة لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان ينتظرا أن يصنعه سواء كان القائد خالدا أو كان رجلا غيره . . . وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيف ، أو ينفى المعامله الخاصة التى تكيل للناس بكيلين ، وتزن بميزانين ، وتنظر إليهم بنظرين مختلفين .

« عزل عمر خالدا وهو سيف الاسلام وبطل الجزيرة والشام ، وإذا كان لا بد لخالد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب ... هو على قدر عزله بلا مراء وهو قدر كبير .

« فقال أناس : منافسة الند للند ، والشبيه للشبيه ، وقال أناس : عزله لغير خطأ أتاه ، وقال أناس إنها ترة قديمة ، ولولاها ما كان الخطأ الجديد يستوجب عزله ، وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده .

« والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى

حدسهم ، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خلق ، وخلق ، توحى الظن بالتنافس والملاحاة ، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خلقته تلتبس على بعض الناس ، فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد .

« فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله ، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته ، وأمسك عن الخوض فى أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى ، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة، ويعلمهم « أنه لم يعزله لسخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به » ... قال : « فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » « ولما سأله خالد فى ذلك قال له ؟ « إن الناس فتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس»

« فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فليخبط ماشاء ، وله شبهة فيه ، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه ، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالدا بميزان غير الذى حاسب به جميع القادة والولاة ، وإن المدهش الحق أن يبقيه فى الولاية والقيادة بعد ماأخذه عليه، لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين »

وهذا كلام جيد جدا ، يقوم على تحقيق فى البحث ودراسة الشخصيات من طريق تعرف خصائصها الثابتة حتى تكون تلك الخصائص ميزاناً صادقا لنقد الروايات المتضاربة ، ومن ثم يكون الباحث بمنجاة من الحيرة فى التصويب والتزييف ، ويكون أيضا أقرب إلى العصمة عن الانزلاق إلى تلقف الأقاصيص والروايات التى قد توافق هوى خفيا فى النفس ، وإن كانت تخالف وقائع التاريخ . وخاصة هذا المنهج ـ فى نظرنا ـ استقراء مقومات الشخصية عن طريق واقعها التاريخى ، والموازنة بين الروايات على أساس تلك المقومات ، ولا يتم الاستقراء والموازنة إلا بعد الإحاطة بجميع ماردده التاريخ حول تلك الشخصية فى سيرتها من الحياة ، وهو منهج فى دراسة الشخصيات يعطيك الحقائق التاريخية من أقرب طرائقها ، حتى ليخيل إليك قبل التأمل أن البحث يعوزه الاستقصاء الروائى ، ولو كانت النتيجة لاتتغير . وهو منهج ـ كما فهمناه ـ يزيدنا إيمانا بما أسسنا عليه طريقتنا فى هذه البحوث .

الأسباب الجدية للعزل

وإذا انتهى البحث إلى إقصاء قصة مالك بن نويرة ولواحقها من العذر النواسى ، وكذلك إقصاء قصة الحقد الجاهلى عن أن تكون واحدة منها لها مدخل من قريب أو بعيد فى أسباب عزل عمر خالدا فلنبحث عن الأسباب الجدية التى أدت إلى ذلك العزل ، ومن هنا يتصل الكلام فى العزل الأول بالكلام فى العزل الثانى ، ويصبحا أمام البحث حادثاً واحدا ظهر فى صورتين .

حق الحاكم على ولاته

كان من اليسير أن نقول إن من حق كل حاكم جديد يقوم بأعباء الحكم فى أمة من الأمم ألا يلتزم بالعمل مع عمال سلفه فى الحكم ، وألا يلتزم نظمه وطرائقه فى الحكم ، مادام قائما فى حكمه على حدود النصوص التى لامدخل للاجتهاد فيها ، لأن لكل حاكم عقلا وتفكيراً وتوجيها ، وتقديراً للأمور ، وفهماً للحوادث والأشياء ، ووزناً للأشخاص ، يختلف كثيراً أو قليلا عن حظ سلفه من هذه الأمور ، وهذا الاختلاف بين الحاكمين فى سياسة الحكم ، له يد كبرى فيما يطرأ على الأمم من تقلبات ، وما يمر بها من أطوار اجتماعية ، تنقلها من مرحلة فى التاريخ السياسى والاجتماعى إلى مرحلة أخرى ، تعلو بها أو تسفل تبعاً لروح الحاكم واستعداد الأمة إلى أن تبلغ مداها المقدر لها فى الحياة ، ثم يعتريها الفناء على صورة من الصور التى تجدد بها الجماعات والأمم .

سياسة عمر وأبى بكر

تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبى بكر الصديق ، وهما من طبيعتين مختلفتين فى خصائص الحاكمين ، تمثل كل طبيعة منهما لونا من السلطان والحكم فى سياسة الأمة ، ولكنه لون لا يخرج بصاحبه عن طبيعة الإسلام وروحه كما فهمه ورآه وسمعه تطبيقا عملياً من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر الطبرى : أن أبا بكر دعا فى مرضه الذى توفى فيه عبد الرحمن بن عوف ، وقال له : أخبرنى عن عمر بن الخطاب ؟ قال عبد الرحمن : ماتسألنى عن أمر إلا وأنت أعلمنا به ، قال أبو بكر : وإن ؟ قال عبد الرحمن : هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة ، قال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقا » وهذا تصوير دقيق صادق لاختلاف طبيعتى الخليفتين ، وكانت مظاهر اختلافهما تبدو فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فيحسم الأمر بما يريه الله تعالى ، ومن أوضح شواهده موقف الشيخين فى قصة أسرى بدر ، وموقفهما فى صلح الحديبية . ذكر القرطبى من رواية يزيد بن هارون عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم .

بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يارسول الله قومك وأهلك ؛ استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم ، فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحمك ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئا ؛ فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر رضى الله عنه ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ؛ وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ومثلك ياعمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك ياعمر مثل موسى عليه السلام إذ قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق » .

ولما تولى أبو بكر الخلافة وأصبح فى يده حكم الأمة وسياستها وازره عمر أصدق المؤازرة ، ولكنه كان يختلف معه فى بعض الأمر فيرجع إليه أبو بكر تارة وتارة ، ويرده إلى سلطان الحكم مرة ومرة ؛ اختلفا فى قتال المرتدين ، فكان أبو بكر يوجبه ويتشدد فيه ، وكان عمر لايراه ، فرده أبو بكر إلى رأيه فى حزم وقوة ، وكان من أظهر مواضع اختلافهما مدى السلطة التى تعطى للعمال والولاة والقواد فى الأنحاء التى يكونون عليها حاكمين باسم الخلافة . فأبو بكر كان من سنته مع عماله وأمراء عماله أن يترك لهم حرية التصرف كاملة فى حدود النظام العام للدولة مشروطا ذلك بتحقيق العدل كاملا بين الأفراد والجماعات ، ثم لايبالى أن يكون لواء العدل منشورا بيده أو بيد عماله وولاته ، فللوالى حق يستمده من سلطان الخلافة فى تدبير أمر ولايته دون رجوع فى الجزئيات إلى أمر الخليفة ، وكان أبو بكر لايرى أن يكسر على الولاة سلطانهم فى مال أو غيره مادام العدل قائما فى رعيتهم .

وأما عمر بن الخطاب فكان يرى أنه يجب على الخليفة أن يحدد لأمرائه وولاته طريقة سيرهم فى حكم ولاياتهم ، ويحتم عليهم أن يردوا إليه ما يحدث حتى يكون هو الذى ينظر فيه ثم يأمرهم بأمره ، وعليهم التنفيذ ، لأنه يرى أن الخليفة مسئول عن عمله وعن عمل ولاته فى الرعية مسئولية لا يرفعها عنه أنه اجتهد فى اختيار الوالى . فلما تولى الخلافة خطب الناس ، فقال : « إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ، وأبقانى بعد صاحبى فوالله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجزء والأمانة ، ولئن أحسنوا — الولاة — لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم » وكان يقول : لو أن عناقا بشط العراق ضاعت لحسبت أنى مسئول عنها ، وكان يقول . أيما عامل لى ظلم أحدا وبلغتنى مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته ، ويقول . أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما على؟ قالوا : نعم قال . لا ، حتى أنظر فى عمله ، أعمل بما أمرته أم لا ؟

ثم نظر عمر فرأى عمال أبى بكر وأمراءه يسيرون على السيرة التى عودهم إياها أبو بكر من الاستقلال فى الرأى وحرية التصرف فيما تحت أيديهم من عمل الدولة وأموالها ، فأراد أن يكفهم ، ويعدل بهم إلى سيرته ومذهبه ، فرضى بعضهم وأبى آخرون ، وكان ممن أبى عليه ذلك خالد بن الوليد .

روى ابن حجر فى الإصابة عن مالك بن أنس . أن عمر لما ولى الخلافة كتب إلى خالد ألا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى ، فكتب إليه خالد إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك ، فقال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه ، فعزله ، ثم كان يدعوه إلى العمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما شاء فيأبى عليه .

فعزل عمر خالدا من وجهة سياسة الحكم وحق الحاكم فى تصريف شئون الدولة ومسئوليته عنها ، طبيعى يقع كل يوم مثله فى الحياة . ولا يبدو فيه شىء غريب يحتاج إلى بيان أسباب تجاذبها رويات وآراء وميول وأهواء ونزعات . فعمر بن الخطاب خليفة المسلمين فى عصر كان الناس فيه ناسا لا يزالون يستروحون روح النبوة . له من الحقوق الأولية أن يختار من الولاة والقادة من ينسجم معه فى سياسته ومذهبه فى الحكم ليعمل فى سلطانه ما دامت الأمة غنية بالكفايات الراجحة . فليس لعامل ولا قائد أن يتأبد فى

منصبه ، ولاسيما اذا اختلفت مناهج السياسة بين الحاكم والولاة ، ما كان هناك من يغنى غناءه ويجزى عنه .

وقد أثبت الواقع التاريخى أن عمر رضى الله عنه كان موفقا أتم التوفيق وقد نجح فى سياسته هذه نجاحا منقطع النظير ، فعزل وولى ، فلم يكن من ولاه أقل كفاية ممن عزله ، ومرد ذلك لروح التربية الإسلامية التى قامت على أن تضمن دائما للأمة رصيدا مذخورا من البطولة والكفاية السياسية الفاضلة . وكان يسيرا على البحث أن يذهب فى قصة عزل خالد هذا المذهب ولكن التاريخ شاء وشاء معه ميل فى بعض الناس أن ينظر لهذه القصة نظرا يبعد بها عن البساطة واليسر ؛ ويدخل بها فى مضائق « التعليل » الذى لا يرضى بتبرئة عمر الا بتأثيم خالد ، ولا بتبرئة خالد الا بتأثيم عمر ، كأنما التأثيم ضربة لازب لواحد من الرجلين العبقريين .

ولسنا ندرى ما الذى يضير الحياة اذا انتهى البحث بالرجلين العظيمين الى مكانهما من السمو والعبقرية ؟ لا شىء سوى أن البحث حينئذ لا يكون — فى نظر تلامذة الاستشراق — بحثا « حديثا » مشمولا برعاية « الحرية الفكرية » . وأهون بذلك — عندنا — ذاهبا مع همسات النسائم أو لفحات السمائم إذا بلغ بنا البحث مستقره من اليقين .

ليست الحوادث أكبر من عقولنا

فليمض البحث فى طريقه ، ولينظر إلى عزل خالد كحادث يجب أن يوضع موضع المحاكمة ، ولنباعد من تفكيرنا أننا أصغر من أن نحكم بين فذى العبقرية الإسلامية عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ؛ لأننا فى الحق إنما نحكم على حادث من حوادث التاريخ ولا نحاكم عمر ولا خالدا ؛ ولأنه لا يضير عمر ولا يضير خالدا أن يكشف البحث عن وجه الحق فى حادث يرتبط بهما ، وإنما يضيرنا نحن ويضير التاريخ معنا أن نسكت عن الحادث التاريخى تتجاذبه الأهواء والروايات الزائفة كما يضيرنا ويضير التاريخ معنا أن نخطىء فى تقدير عمر وخالد . فالحادث كيفما كان ليس أكبر من تفكيرنا ، لأن إسلامنا الذى هو مادة الفكر للشخصية الإسلامية ، فتح للعقل البشرى أبواب البحث فى الوجود كله على مصاريعها ، ولا شك أن الوجود أعظم من الحوادث والأشخاص . بل

إن الإسلام رقى بالعقل البشرى إلى معارج أسمى من هذا الوجود المنظور ، رقى به إلى النظر فى جلال الله وصفاته القدسية .

فالذين يقفون بالعقل الإسلامى عند سفح الحوادث التاريخية استكبارا للشخصيات المرتبطة بها يغلطون ، فيخلطون بين الحوادث والناس ؛ وينزلون بذلك العقل عن منزلته ولا يقدرونه حق قدره ، بل هم يخطئون فى فهم روح الإسلام بوضعهم حوادثه التاريخية وأشخاصه موضع القداسة التقليدية التى تخشى البحث وتفرق من النقد ، وهذا طرف فى الاتجاه ليس بأقل خطرا من الطرف الآخر الذى لا يرى أن يرفع حادثاً أو شخصاً عن مزالق التأثيم والتجريح ، وليس هذا ولا ذاك من النصفة فى البحث المستقيم .

صلابة الطبع عند عمر وخالد

كان بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد تقارب شديد فى الطبائع الأصيلة الثابتة ، وكان بينهما اختلاف شديد فى الأخلاق المكسوبة ، فيجمعهما الصلابة ، والأيد فى الطبع المركوز ، ويفرق بينهما السلوك فى الحياة .

وصلابة الطبع عند عمر تجلت فى مواقف عديدة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد تجلت فى موقفه من الإسرار بالدعوة ، وفى طريقة إعلان إسلامه للملأ من قريش وفى الطريقة التى هاجر بها من مكة إلى المدينة ، وفى موقفه من أسارى بدر ورأيه فيهم ، وفى موقفه من النبى صلى الله عليه وسلم وقد تهيأ للصلاة على عبد الله بن أبى بن سلول ، وفى موقفه من صلح الحديبية وحديثه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مع أبى بكر فى شأن هذا الصلح حتى قال عمر نفسه : مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ . مخافة كلامى الذى تكلمت به .

وتجلت صلابة طبعه فى موقفه من أمهات المؤمنين وكن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبن إليه ويكثرن عليه فى النفقة وزينة الحياة الدنيا . وفى موقفه فى بيعة أبى بكر من الأنصار وبنى هاشم وفيهم على وبجانبه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فى كل موقف من هذه المواقف مثل من أمثلة الطبع الصليب والأيد الذى لا يلين عند عمر . وقصة إسلامه مثل كامل يجمع بين مثلين فى تصوير صلابة الطبع . مثل

فى مبدئها يصور عمر فى جاهليته المتغطرسة . ومثل فى نهايتها يصوره فى إسلامه الشامخ بعزة الإيمان وقوة الاعتداد بالعقيدة التى دان لها بقلبه وعقله وروحه وجسمه .

وقد كان هذا الخلق فى عمر معروفا مشهورا حتى قال طلحة بن عبيد الله لأبى بكر حين عهد إلى عمر : استخلفت على الناس عمر . وقد رأيت مايلقى الناس منه وأنت معه . فكيف به إذا خلا بهم ؟ .

ووصفه عبد الرحمن بن عوف حين سأله أبو بكر عنه فقال : هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل . ولكن فيه غلظة . وكان عمر نفسه يحس هذا الشعور نحوه من الناس . فكان يقول على ملئهم : اللهم إنى غليظ فلينى . وبلغ من هيبة الناس له أن الرجال تفرقوا عن مجالسهم بالأفنية لما تولى الخلافة حتى ينظروا ما يكون من أمره ، فخطب الناس فقال : « بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا . ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه . فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكنت عبده وخادمه . وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة . وكان كما قال الله « بالمؤمنين رءوفا رحيما » فكنت بين يديه سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض . والحمد لله على ذلك كثيرا . وأنا به أسعد . ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه فكنت خادمه وعونه . أخلط شدتى بلينه . فأكون سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض والحمد لله على ذلك كثيرا . وأنا به أسعد . ثم إنى وليت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت . ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن بالحق . وإنى بعد شدتى فى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف والكفاف » .

أما صلابة الطبع وقوة الأيد عند خالد بن الوليد . فقد كانت حياته كلها مثلا واحدا لها

فهو رجل نهد على الحرب لم يفارقها فى جاهلية أو إسلام . شب وفى يده أعنة الخيل . وقيادة الجند ، ألفت نفسه القتل والقتال فى الهجوم والدفاع وألفت نفسه الدماء تسيل . والرءوس عن الأعناق تميل . وهو الذى يقول لما رأى صبر أهل «أليس» وشدة كلبهم فى حربه : « اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا استبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » ولما نزل أهل « قنسرين » على رأيه — وكانوا قد اعتاصوا عليه وتأبوا — فطلبوا منه الصلح . أباه عليهم إلا على إخراب مدينتهم فأخربها ولما أمره أبو بكر بالتوقف عن الهجوم . وهو فى الحيرة . ليستجم جنده ويدبر أمر مافتح من البلاد . ويحمى ظهره . أقام سنة لايقاتل . فقال . ألا إنها سنة كأنها سنة نساء .

وقد فرقت الحياة بين عمر وخالد فى السلوك والأعمال .

افتراق فى السلوك والأعمال

فعمر بن الخطاب كان مع النبى ﷺ وزيرا ومشيرا . وكان مع أبى بكر سندا ومعينا . ثم كان بعده خليفة يرعى أمور المسلمين ويسوسهم بسلطان الله . فهو رجل سياسة وتفكير

أما خالد فسلوكه فى الحياة وعمله فيها لم يختلفا فى شىء عن طبعه الأصيل . فقد ظل حياته فى الإسلام كما كان فى الجاهلية قائدا عسكريا . يخوض الغمرات ويقتحم الميادين يقاتل ويقتل . وهى حياة تتجاوب مع ماله من طبع صليب وخلق أيد . ينفر من القيود . ويميل إلى الحرية . ولم يتعود أن يؤمر فيطيع . ولكنه تعود أن يأمر فيطاع . يقوم أمره على السرعة الحاسمة والضربة القاصمة . لا يتلبث للعقبات يداورها أو يحاول التفادى منها ولكنه يواجهها مواجهة المحارب حتى يهزمها . صريح صراحة يحسبها من لم يرزه جفوة وغلظة . تزدهيه الشدائد وتطربه ويحرص على الموت فى مظانه ويطلبه يصف نفسه ويذكر أحب شىء إليه فى الحياة فيقول : « ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب . أو أبشر فيها بغلام . أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح فيها العدو . فعليكم بالجهاد » .

وهو إذ يعزم السير إلى مالك بن نويرة بالبطاح بعد فراغه من أسد وغطفان . وتتوقف الأنصار عن متابعته . وهم كتيبة الإسلام فى الصبر عند اللقاء لايثنيه توقفهم

س عزيمته . ولكنه يمضى قدما فيقولون له : مابهذا عهد إلينا الخليفة . بل عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا . فيجيبهم جوابا ينتزعه من طبعه الأصيل فى تقديس الاستقلال فى الرأى وحرية التصرف فيقول : « إن يك عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمضى . وأنا الأمير . وإلى تنتهى الأخبار . ولو أنه لم يأتنى له كتاب ولا أمر ثم رأيت فرصة فكنت إن أعلمته فاتتنى لم أعلمه حتى انتهزها . وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا به لم ندع أن نرى أفضل مايحضرنا ثم نعمل به » وفى خطبته التى جمع بها الأمراء يوم اليرموك تحت لوائه لون من ألوان ذلك الطبع الأصيل .

أما سلوك عمر فى حياته فكان يتطلب منه طبيعته الصلبية . فوجه ذلك إلى قهر رغائبه من الحياة الدنيا وزينتها . واشتد فى ذلك بما يناسب ماانتهى إليه أمره من تبوئه أرفع مكان فى الإسلام يرنو إليه أعظم أملا فى تاريخ الحياة . فكان يرى أنه المثل الأعلى فى التأسى به . ولو خاض غمرات الدنيا لخاض وراءه الناس . فملك أمره . وساس نفسه قبل أن يسوس الناس . وكان يرى أن يكون ولاته وأمراؤه فى أقطار الاسلام على سنته زهادة فى الدنيا وتجافيا عن زخارفها . وكان يقول لهم : « يامعشر الأمراء : إن هذا المال لو رأينا أنه يحل لنا لأحللناه لكم . فأما إذ لم يحل لنا وظلفنا[1] أنفسنا عنه فاظلفوا عنه أنفسكم » فكان حريصا أشد الحرص على تعرف أحوالهم والاطلاع على تصرفاتهم اطلاعا كاملا وتقييدهم بأوامره .

وليس من شك فى أن للبيئة الخاصة . أى البيت والأسرة . أثرا فى سلوك كل من عمر وخالد . فعمر بن الخطاب لم ينهد فى بيت ثراء وسعة فى الرزق وكثرة فى المال . بل شب على التقشف وخشونة العيش . فلما بلغ فى الاسلام مابلغ راض نفسه على أشد مما كان عليه فى بيئته الخاصة . بيته وأسرته . استجابة لمقتضيات منصبه من التأسى به باعتباره مثلا أعلى للفضيلة الاسلامية .

(١) ظلف نفسه : منعها .

أما خالد فقد نهد فى بيئة يكنفها ثراء المال وعز الجاه ، وهما من أهم أسباب الاعتداد بالنفس الذى يبدو لأول نظرة أنه لون من ألوان الزهو والخيلاء ، ينال المتعة من أدنى سبلها ، فلما بلغ فى الإسلام ما بلغ لم يجد ما يمنعه وهو فى مكانه من الإسلام أن يستجيب للمتعة إذا رضى عنها الإسلام وقرت بها عين شريعته ، فإذا انضم هذا إلى خصائص خالد الذاتية عرفنا مقدار ما بين الرجلين العظيمين من تباعد فى وسائل الاتفاق .

وأدنى ما بينهما فى التمثيل أن عمر بن الخطاب يمنع نفسه طعاماً شهيا ليس فيه أدنى شبهة مخافة أن يقال له يوم القيامة « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » . وخالد بن الوليد لا يبالى أن يدخل الحمام فيتدلك بغسل فيه خمر فتتنها وأذهب خمريتها ، أو أن يعرس ببنت مجاعة بن مرارة الحنفى ، وجراحه لا تزال تنطف دما من سيوف قومها .

اصطدام بين طبيعتين

ومن هنا بدأت طلائع الافتراق بين عمر وخالد ، لأن طبيعة خالد العسكرية ظلت على صلابتها وإلفها للاستقلال الكامل وحرية التصرف فى عمله الذى أسند إليه ، وعمر لا يرضيه ذلك استجابة لطبيعته وسلوكه فى الحياة ، فكان اصطدامهما أشبه باصدام الحديد بالحديد ، لأنه اصطدام طبيعتين من نوع واحد اتجها فى الحياة اتجاهاً مختلفاً ، فأرادت كل طبيعة منهما الاحتفاظ بخصائصها ، وقد كانا فى مكانين من الدولة ليس فوقهما مكان ، فعمر خليفة المسلمين وخالد قائد جيوش المسلمين ، فلا مفر إذاً من أن تقف إحدى الطبيعتين عن سيرها ليفرغ الأفق للأخرى حتى تأخذ مجالها الحيوى فى النهوض بالأمة .

وقف الطبيعة الخالدية

وكان طبيعيا بمقتضى منصبى الرجلين العظيمين أن تقف الطبيعة الخالدية لتترك المجال للفاروق ، لأن خالدا كان قد بلغ مداه فى مكانه من الدولة ؟ أما عمر فكان قد بدأ أشواطه ، ولما يبلغ المدى المقدر له فى مكانه من الدولة ، ومن عجائب التوفيق فى تاريخ هذه الأمة أن عمر بن الخطاب لم يعوض فى مكانه إذ خلا منه ، ولكن خالدا لم يفرغ مكانه من مثله أيام عمر ، وكأنما كانت عبقرية خالد الغامرة حجابا انسدل دون عبقريات فياضة بالبطولة ، حتى إذا وقفها ابن الخطاب وهى مستولية على الغاية القصوى فى العظمة انكشف الحجاب وتراءت شمائل فى القيادة العسكرية لعديد من أبطال الإسلام ، كانو كلهم خالد بن الوليد فى قوته وبطشه وظفره ويمن نقيبته .

حقيقة دوافع العزل

فحقيقة المسألة فى دوافع عزل عمر خالداً أن طبيعتى الرجلين العظيمين كانت من نوع يعسر معه أن تستجيب إحداهما للأخرى ، وليس هناك شك ولا تخون ولا سوء رأى، ولا ضغائن جاهلية ، ولا اتهام بانتهاك حرمات الشريعة، وشرائع الحق والعدل والتقوى، وإنما هناك قوة مسيطرة بسطت الخلافة الراشدة سلطانها على الأمة الإسلامية فى شخص عمر بن الخطاب ؛ صادفت هذه القوة أمامها قوة أخرى مسيطرة بسطت الوقائع المظفرة سلطانها على الأمة الأسلامية فى شخص خالد بن الوليد ، وحق الخلافة فى بسط سلطانها مستمد من الأمة بوحى الدين والشريعة ، وحق القيادة الظافرة فى بسط سلطانها مستمد من الوقائع فى ميادين القتال ، والأمة قد استوحت دينها وشريعتها فمنحت حق السيطرة عليها بسلطان الخلافة الراشدة لعمر بن الخطاب ، وهذا حق لا يتعدد ، فليس من الجائز أن تمنح هذا الحق لغير عمر مادامت يد عمر مبسوطة به فى كفاية وغناء ، بيد أن حق الوقائع المظفرة فى منح السيطرة للقيادة الناجحة حق يتعدد بتعدد الكفايات والاستعداد ، أو هو حق يجب أن يتعدد ، ويأبى التفرد عند الأمم الناهضة ، فالأمة الحية الناهضة تتسع لعشرات الأبطال من الفواد ذوى الوقائع الظافرة، ولكنها لا تتسع لغير خليفة واحد يسوس أمرها بميزان واحد من العدل .

فتح الباب أمام الكفايات

وإذا كان خالد بن الوليد قوة باهرة من الكفاية والغناء فى باب البطولة والقيادة العسكرية ، فليس من الخير لأمة ناشئة ناهضة أن توكل إلى كفاية رجل وغنائه مهما بلغ من العبقرية ، بل الخير كل الخير أن يفتح الباب لغيره من أهل الكفايات والغناء حتى يكون للأمة رصيد من البطولة تنفق منه عند الحاجة .

وقد يتساءل البحث أليس من الخير للأمة أن تتجمع لها هذه الكفايات فى العمل متياسرة لتكون نتائج أعمالها فى سواد عظمتها مجتمعة ؟ !

قلنا نعم ، إذا أمن الاصطدام بين القوى المسيطرة على مقومات الدولة، والعاملة على تشييد صرح الإسلام ، ولكن الاصطدام وقع بين أعلى قوتين فى الدولة ، قوة الخلافة والحكم ممثلة فى الطبيعة العمرية ، وقوة القيادة العسكرية ممثلة فى الطبيعة الخالدية ، وما من شك فى أن هذا الاصطدام بين هاتين القوتين لو مد فى حبله لأدى إلى كارثة لا يعلم مدى ما تصيب من كيان الأمة ونظام الدولة إلا الله تعالى ، فكان من الخير والمصلحة تنحى إحدى الكفايات عن مكانها ليتخرج فى ميدانها أقرانها .

بدء التصادم بين عمر وخالد

وقد بدأ التصادم بين عمر وخالد فى خلافة أبى بكر ، لأن عمر — وكان وزير أبى بكر — كان يريد أن يطبق سياسته المستمدة من طبيعته فى سلطان أبى بكر ، ولا نقصد — طبعاً — هنا إلى شىء مما تناقلته روايات زائفة محمولا على لسان عمر فى قصة مالك ابن نويرة ، ولا إلى ما تخيله النواسيون فى أقصوصة زواج خالد بامرأة مالك بعد قتله بكفره وإلحاده — وإنما نقصد إلى ما هو ثابت فى روايات هى أرجح عندنا ميزانا ، لأنها لا تخرج بالخلاف بين الرجلين العظيمين عن حقيقته الجديه إلى ضرب من السخف الصبيانى أو عبث الفارغين من أرباب البطالة المترفين ، بل هى روايات ترد الخلاف بينهما إلى خلاف بين طبيعتين قويتين ، وقوتين عظيمتين مما يلائم حياة عمر وحياة خالد فى خطوطهما الأصيلة الثابتة الخالدة .

قال ابن حجر فى الإصابة : وكان سبب عزل عمر خالداً ما ذكره الزبير بن بكار قال : كان خالد إذا صار إليه المال قسمه فى أهل الغنائم ، ولم يرفع إلى أبى بكر حسابا ، وكان فيه تقدم على أبى بكر ، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر ؛ أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته ، فكره ذلك أبو بكر ، وعرض الدية على متمم بن نويرة ، وأمر خالداً بطلاق امرأة مالك ، ولم ير أن يعزله ؛ وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد .

فالذى كرهه عمر من خالد هو قسم المال فى أهل الغنائم ، دون أن يرفع إلى الخليفة حساباً بما صنع ، وأنه كان يفعل أشياء لا يراها الخليفة ، مثل قتل مالك بن نويرة وزواجه بامرأته ، وقد أسلفنا وجه ماصنع أبو بكر فى مؤاساة متمم أخى مالك بإعطائه شيئاً من قبيل الترضية ، وتسمية ذلك فى عبارات الرواة دية توسعة فى اللفظ ، وفى أمر أبى بكر خالداً بطلاق امرأة مالك إقرار لصحة هذا الزواج ، وإلا فما معنى الطلاق لو لم يسبقه زواج صحيح ؟ ! وما معنى إقرار صحة الزواج لو لم يكن قتل مالك فى نظر الخليفة — على الأقل — لا تأثيم فيه على خالد ؟ ! وإنما أمر أبو بكر خالداً بطلاق امرأة مالك تأديباً وزجراً له على تقدمه فى أمور لها منافذ من التأويل . .

خالد يأبى أن تقيد حريته فى دائرة عمله

فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة وأصبح مسئولا عن كل حركة فى الدولة الإسلامية كتب إلى خالد يأمره ألا يتصرف فى شىء من المال قل أو كثر إلا بأمره وإذنه ، فرد عليه خالد أمره وجعل حريته عدل منصبه ، وكتب إليه بمثل ما كتب إلى

أبى بكر : إما أن يدعه وعمله مطلق اليد ، مستقل الرأى ، حر التصرف فى دائرة عمله ، وإلا فشأنه وعمله يولى عليه من يشاء ، فأبى عليه عمر ، وقال : ماصدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه ، فعزله عن الإمارة العامة ، وجعله أميراً على فرقة أكبر القواد وأمثل الأمراء وقائد القواد .

وقد عرف الناس ما بين عمر وأبى عبيدة من انسجام كامل فى السلوك والأخلاق المكسوبة ، على مابينهما من اختلاف فى الطبع الأصيل ، لأن أبا عبيدة كان من لون الطبيعة الصديقيه لينا ورحمة ، ودعة ودماثة ، وهذا الاختلاف كان عوناً على الانسجام فى السلوك والأعمال ، فقد كان أبو عبيدة رجل سلم وتسليم ، مالم تنتهك حرمات الله ، لايبالى الدنيا وسلطانها وزخارفها ، ومن ثم كان عمر شديد الإعجاب به والحب له .

تقدير عمر لعبقرية خالد

وفى هذا التصرف من عمر حكمة سياسية عظيمة نعتقد أنه قصد إليها ؛ ذلك أنه أظهر بهذا التصرف الحكيم تقديره الصادق لعبقرية خالد الحربية ، ولا شك أن عمر فى منصب الخلافة إنما يعمل لحساب المصلحة العامة التى تستهدف خير الإسلام والمسلمين ، وأظهر خلائق عمر بن الخطاب العملية التى انفرد بها فى التاريخ أنه جعل من شخصه وأسرته « وسيلة إيضاح » لتحقيق المصلحة العامة فى نصوص الشريعة الإسلامية من وجهة التطبيق العملى .

والمصلحة العامة التى استهدفها عمر هى التى جعلته يقف بعزل خالد عند عزله عن الإمارة العامة ، ويترك له مجال العمل — فيما هو من خصائص عبقريته — متسعا . لأن الباعث الحق على العزل هو تجنب اصطدام القوتين الأساسيتين فى نظام الدولة بالحد من حرية خالد ، وخاصة فى التصرف المالى ، وكان أهم الأعمال عند عمر ، فيكفيه أن يجعل فوقه أمير يرجع إليه ، فلعله بذلك يضمن عدم اندفاعه فيما لا يوافق سياسة الخلافة الجديدة .

وفى استمرار خالد يعمل قائداً تحت لواء أبى عبيدة وإمرته زهاء أربع سنوات بالروح التى كان يعمل بها وهو أمير الأمراء ، فتبلغ عمر عجائبه ومعجزات شجاعته فيثنى عليه ويقرظه أبلغ تقريظ ، ويمجده أعظم تمجيد ، أوضح دليل وأبلغه على أن عمر

رضى الله عنه ، إنما قصد بتنحية خالد عن الإمارة العامة الحد من طبيعته الفوارة المندفعة لينسجم معه فى سياسته العامة فى وقت بدأت تستقر فيه معالم الدولة ، فهى فى حاجة إلى أناة مسالمة ، فإن لم تغن أغنت عنها كتائب الأبطال من جند الإسلام .

ولذلك لم تحدث تلك التنحية أثرا فى نفوس المسلمين ، ولم يرفع أحد رأسه بإنكارها والاحتجاج عليها ، لأنهم رأوها عملا من أعمال الخلافة التى تقصد منها إلى حفظ التوازن بين القوى العاملة فى بناء الدولة ، ولم يروا فيها عملا يقصد إلى الحط من شأن القائد البطل خالد بن الوليد ، ولا إلى حرمان جيوش المسلمين من عبقريته الجياشة المظفرة لأن خالدا لا يزال فى مكانه من ميدان الجهاد ، وهو إذا كان «رسميا» قد وضع تحت إمرة أبى عبيدة فإن ذلك لم يغير من مكانه فى إدارة دفة الحرب ، فأبو عبيدة يعرف قدره ، فكان لا يخطو إلا برأيه ، وكان عمر نفسه حريصا على أن يقف أبو عبيدة من خالد موقف التقدير لعبقريته ، فقد أمره أن يحبس خالدا عن الرجوع إلى العراق مع جنده الذين وفدوا معه ، لإغاثة جند الشام ، وقال له : «إنه لا غنى بك عنه»

ولم يكتف عمر بذلك ، بل كان يرى أن يلازم خالد أبا عبيدة ، فيكون معه أينما توجه ؛ ذكر أبو جعفر الطبرى : أن أبا عبيدة كتب إلى عمر يستشيره أيبدأ بالهجوم على « فحل » وفيها جموع المنهزمين من الروم ، أم يبدأ بدمشق وقد أمدها هرقل بمدد من أهل حمص ؟ فكتب إليه عمر يقول : « أما بعد فابدءوا بدمشق ، فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام ، وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل « فحل » بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ؛ فإن فتحها الله عليكم قبل دمشق فذاك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على «فحل» فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شرحبيل وعمرا ، وأخلهما بالأردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته » . فهذا الحرص من عمر بن الخطاب على أن يكون خالد إلى جانب أبى عبيدة يلازمه من بين الأمراء ، وأبو عبيدة هو القائد العام وتحت

لوائه القوة العظمى فى جيوش الشام دليل قاطع على سمو المكانة التى يحتلها خالد بن الوليد فى تقدير عمر ووزنه .

طبيعة لاتغالب

بيد أن طبيعة خالد العسكرية لم تسكن إلى روح الهدوء التى ساد بها أبو عبيدة الجيوش الإسلامية ، فقد كثر فى عهده الصلح والمسالمة . وقلت عنوة الفتوحات والمغالبة، فانتهز خالد فرصة ولايته على « قنسرين » — وكان فتحها إحدى معجزاته الحربية ، وكانت كلمة عمر التى قرظه بها حين أبلغه أبو عبيدة شأن خالد فى فتحها قدمشت إلى مسامعه ، ورأى فيها شهادة من عمر بفضل أبى بكر فى موقفه من خالد « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم منى بالرجال » — فعاد إليه طموحه ، وجاشت نفسه بغوارب البطولة ، فخرج هو وعياض بن غنم فى صائفة فأوغلوا فى دروب الروم ، وغنموا غنائم كثيرة عادوا بها إلى ولاياتهم ، فانتجعهم طلاب الجدى وروّاد الجود ، فأعطى خالد فأغدق ، وكان ممن غمره خالد بعطائه الأشعث بن قيس الكندى ، أجازه بعشرة آلاف درهم ، فبلغ أمر هذا العطاء عمر بن الخطاب — وكان لا يخفى عليه شىء من أمر الناس — فأعظمه ورأى فيه مظهرا من طبع خالد الأصيل ، وجنوحا إلى ما كان يكره منه من التقدم وحرية التصرف فى المال ، والاندفاع بالمسلمين فى الإدراب ، وتبين لعمر أن ما صنع مع خالد من العزل عن القيادة العامة لم يكن حاسما لأمره وعاد الأمر كما بدأ ، فهل من المصلحة العامة أن يسكت عمر بن الخطاب ، فيتجدد ما كان يخشاه من اصطدام بعدما أقر فى الأمة سياسته وأشرب الناس مذهبه فى الحكم ، والتزمه أمراؤه وولاته .

رأى عمر أنه ليس من المصلحة فى شىء أن يسكت على تصرف خالد ، وأنه لابد له من حسم الأمر بصورة قاطعة تقف بخالد موقفا ينأى به عن مباشرة عمل يعرضه للاصطدام بالسياسة العامة فى الدولة ، وتكون زجرا عاما يمشى فى الناس فيحسبون لمثله حسابا .

العزل الثانى وأثره

أصدر عمر أمره بعزل خالد نهائيا عن العمل فى الجيش كله ، ولم يكتف بذلك بل أمر بمحاكمة خالد والتحقيق معه ، واستقدمه إلى المدينة ، وهذا هو العزل الثانى،

وهو يحمل معه سببه صريحاً ، وتمت المحاكمة والتحقيق ، وقد ناقشنا الشكل الذى قالت الروايات إن المحاكمة جرت عليه ، وهو شكل إن صح فتأويله ما عرف فى طبع عمر ، وأغلب الظن أن عمر رأى أن خالداً فى قوة رجوليته أقوى على احتمال شدته الزاجرة من غيره ، فضرب به للناس مثلا حتى لا تحدثهم أنفسهم بمخالفة السياسة العامة التى وضعها وسارت عليها الخلافة العمرية لنظام الدولة الإسلامية الناشئة .

اعتذار عمر

وهذا العزل الثانى هو الذى تحركت له بعض النفوس بالعطف على خالد والإشفاق على جيوش الإسلام ، وقد أبعد عنها قائدها المظفر سيف الله خالد بن الوليد ، وأحس عمر هذه الحركة ، فأراد أن يبين للناس الدوافع التى حملته على هذا التصرف مع خالد ، فكتب إلى الأمصار ما خطب به الناس فقال : « إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ، ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولما قال له طلحة بن عبيد الله : مالك عزلت خالداً ؟ قال له : ما عتبت على خالد إلا فى المال ؛ وخطب الناس فقال : « إنى أعتذر إليكم من عزل خالد بن الوليد ، فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطى ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة » .

والمتأمل فى اعتذار عمر وتصرف خالد فى المال ، يرى لخالد وهو فى موقفه الحربى أصدق العذر وأقومه ، لأنه قائد يحرص على النصر بكل مايستطيع من بذل فى الأنفس أو المال ، وما قيمة المال إذا كان ثمناً للنصر ؟ وخالد وهو يباشر الحرب يعلم أن فيمن معه من ذوى البأس من لم تكن له كبير نية فى الجهاد ولم تخلص نيته لمحض ثواب الله ، فهذا فى حاجة إلى ما يقوى عزيمته ، ويثير حماسته من هذا المال ، ولم تشرع الأنفال واختصاص المقاتلين فى الجهاد بسلب المقتولين مهما عظم قدره إلا لمثل هؤلاء ، فكان خالد يعطى ذا البأس ، وذا الشرف ، وذا اللسان على هذا الأساس القويم وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى من غنائم الحرب ذا البأس ، وذا الشرف وذا اللسان ، ولما رجع من حنين ظافراً أعطى الطلقاء من رءوس قريش ، وأعطى أشراف الأعراب من أضراب الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، والعباس بن مرداس وغيرهم مائة ، مائة ، وخمسين ، خمسين وترك سادة المسلمين من المهاجرين والأنصار .

وكأنما كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يرى أن الإسلام قد استقر وضرب بجرانه، فلا حاجة به إلى تألف الناس بالدنيا فليوكل الناس إلى إيمانهم وضمائرهم حتى تؤدى التربية الإسلامية رسالتها وتحدث أثرها فى تخريج نماذج للفضيلة فى أرقى معانيها .

سياسة عمر عامة

كانت هذه السياسة هى سياسة عمر مع ولاته وأمرائه عامة لم ينفرد بها خالد بن الوليد ؛ ولكن التاريخ — كما قلنا — أفرده بفصل منه إعظاما له .

وقد ورد أن عمر أشرك المثنى بن حارثة الشيبانى مع خالد بن الوليد فى سبب واحد لعزلهما ؛ روى ابن عساكر : أن عمر رضى الله عنه كان يقول قبل خلافته : « أما والله لئن صير الله هذا الأمر إلىّ لأعزلن المثنى بن حارثة عن العراق ، وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلما أن الله هو الذى نصر ، ليساهما » . وكذلك عزل زياد بن أبيه ، واعتذر بنحو عذره فى عزل خالد والمثنى؛ قال ابن الأثير فى أسد الغابة : لما عزل عمر زيادا قال له : يا أمير المؤمنين ! أخبر الناس أنك لم تعزلنى لخزاية ؛ فقال عمر : « ما عزلتك لخزية ، ولكنى كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك » . وعزل المغيرة ابن شعبة عن كتابة أبى موسى الأشعرى ، فقال له المغيرة : أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « لا عن واحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على العامة » .

وهذا المذهب فى تربية الأمم من أحكم المذاهب وأفضلها ، فإن الأمة إذا وكلت إلى عبقرية فرد أو أفراد ، وحملها الراعى على فضل عقل بعض أبنائها ماتت فيها جذوة التنافس ، وارتاحت إلى الكسل والتواكل ، وضعفت عن سلسلة العبقرية وفضل العقل ؛ وهذا أمر مشهود محسوس فى واقعنا من الحياة حتى أصبح من أكبر عيوب الشرق أن زعماءه وقادة الإصلاح فيه لا يعنون بتدريب من يخلفهم فى مراكزهم ، ويركزون جهودهم حول أشخاصهم ، وإن سمحت الحياة بآحاد من ذوى الاستعداد الفكرى الرفيع من طينة غير طينة الزعماء والقادة تنكر لهم هؤلاء ، وأبوا عليهم تسديدهم وإرشادهم وتشجيعهم ، حتى إذا فقدت الأمة قادتها تولى أمرها من ليس هناك .

تسامى العبقريات عن الصغائر

أما أثر هذا الحادث فى نفسى الرجلين العظيمين : عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد فكان نفحة من نفحات التربية الإسلامية التى جعلت من رجال الصدر الأول مدرسة لتخرج نماذج حية للفضائل الإنسانية فى مثلها العليا .

تلقى خالد رضى الله عنه أمر العزل الأول راضياً أحسن ما يكون الرضا ، وسلم الأمر إلى القائد الجديد أجمل ما يكون التسليم ، وعمل تحت إمرته نحوا من أربع سنوات ، فلم يعرف عنه أنه اختلف عليه مرة واحدة .

ولا ينكر فضل أبى عبيدة وسمو أخلاقه فى تخفيف وقع الحادث على خالد ، فقد كان لحفاوته به وعرفانه لقدره ، وملازمة صحبته ، والأخذ بمشورته وإعظامه لآرائه وتقديمه فى الوقائع التى حدثت بعد إمارته الجديدة ، أحسن الأثر فى صفاء قلبه صفاء جعله يصنع من معجزات العبقرية والشجاعة ، ويظهر من براعة التفكير والسياسة ما أربى على عجائبه وهو أمير الأمراء ، وعمله فى فتح دمشق وقنسرين وفحل شاهد صدق على روحه السامية التى قابل بها حادث العزل ، وكان فى حاليه سيف الله خالد بن الوليد .

أما العزل الثانى فقد تلقاه خالد فى رضاء أسيف ، وأسف خالد لم يكن على فائت من سلطان الدنيا ، ولو كان أسف خالد على عظمة زائلة لكان موضع ذلك الأسف العزل الأول ، وقد ثبت أن سلوك خالد يوم العزل الأول يقطع بأنه لم يأسف على شىء ، لأنه ببقائه جنديا يصول فى مجال عبقريته قد بقى له كل شىء يحرص عليه فى هذه الحياة .

وإنما كان أسفه على حرمانه من ميادين الجهاد ، وهى مطارح آماله ومسارح عبقريته ، ومظاهر طموحه ، فهو رجل حبيب إليه الحرب حباً لم يترك عنده موضعا للذة فى سواها ، فهى قرة عينه ، ومضمار أنسه ، وملهى نفسه ، فمن حقه أن يأسف وأن يحزن إذ يرى أنه أبعد عنها فلا يشهدها ولا تشهده ، ومن حقه أن يأسف إذ يرى ثمرات عبقريته وهى يانعة يتعهدها غيره ، وهو منها بمكان لا يرتضيه العباقرة من أبطال الجهاد وعشاق الحروب .

عظمة خالدية

يؤمن التاريخ إيمانا لا ريبة فيه أن خالد بن الوليد كان يوم عزله قد بلغ قمة العظمة التى ليس فوقها لأمثاله من العباقرة مكان ، وأنه بلغ من قلوب المسلمين ومحبتهم وتعظيمهم مكانا جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلن إلى الناس أنه يخشى عليهم الفتنة به ،

وبلغ من قلوب أعدائه أن كان ينصر عليهم بالرعب منه ،ورجل هذا شأنه كان يستطيع لو قال برأسه هكذا لأشعل نار الثورة في كل مكان يذكر فيه اسمه من أقطار الإسلام والمسلمين ، لكن خالد بن الوليد رجل ملأ الإيمان قلبه ، وامتزجت روح الإسلام بلحمه ودمه ، واستنارت روحه بنور النبوة وهديها ،فهو منذ آمن بالله ورسوله شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . فكان جندياً من جنود الإسلام أبت عليه طبيعة الجندية وحبه العميق للإسلام أن يكون سببا لوقف تياره المندفع بالفتوحات التي كان قطب رحاها ، وقائد قواها وبطل أبطالها .

عزل عمر خالدا في المرة الثانية ، واستقدمه إلى المدينه ، فخطب خالد أهل عمله مودعا، فكان أقصى ما سمحت به نفسه في إظهار أسفه على هذا العزل الذى فرق بين القائد وجنوده أن قال للناس : « إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بثنية[1] وعسلا عزلنى » فقام إليه رجل فقال : اصبر أيها الأمير ، فإنها الفتنة . فقال خالد : « أما وابن الخطاب حى فلا » وهذا لون من الإيمان القاهر الغلاب ، لم يرزقه إلا المصطفون من أخصاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : فأية قوة روحية سيطرت على أعصاب خالد في هذا الموقف الخطير ؟ وأى إلهام ألقى على لسان خالد ذلك الرد الهادىء الحكيم ؟

إنها قوة الإيمان ، ووحى الإيمان بعظمة الإسلام الذى يسمو بصاحبه إلى آفاق لايحسب فيها للأشخاص والأشياء حساب ، آفاق لاتعرف الغل ولاالضغينة ، ولكنها مشارق للإخاء والمحبة والإخلاص ، فالأشخاص فانية . والأشياء زائلة ، والحوادث منقضية ، والإسلام خالد لايزول .

سكن الناس وهدأت نفوسهم بعد أن سمعوا كلمة خالد في توطيد قواعد الخلافة العمرية ، وعرفوا أن قائدهم المعزول ليس من طراز الرجال الذين يبنون عروش عظمتهم من أشلاء الفتن والثورات الهدامة ، وإنما هو طرز في الرجال من أولئك العباقرة الذين

---

(١) البثنية . الأرض السهلة اللينة . قال في لسان العرب : وقول خالد بن الوليد لما عزله عمر من الشام حين خطب الناس فقال : إن عمر استعملني على الشام وهو له مهم ، فلما ألقى الشام بوانيه وصار بثنية وعسلا عزلنى واستعمل غيرى : فيه قولان، قيل البثنية حنطة منسوبة إلى بلدة معروفة بالشام ... والآخر أنه أراد البثنية الناعمة من الرملة اللينة . أى سكن وذهبت شوكته ،

خلقوا للبناء والتشييد ، فإن أرادتهم الحياة على هدم ما بنوا تساموا بأنفسهم أن يذلها الغرور المفتون .

نحمل خالد إلى المدينة فقدمها حتى لقى أمير المؤمنين ، فعاتبه عتاب الأسيف ، فقال له : « لقد شكوتك إلى المسلمين ، وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر» فأعتبه أمير المؤمنين أحسن إعتاب واكرمه ، فقال له : «والله يا خالد إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء أبداً » .

وفى الطبرى : أن خالداً لما قدم على عمر قال عمر متمثلا :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع   وما يصنع الأقوام فالله صانع

مظاهر الحب والتقدير

وحسبنا فى إخلاص عمر لخالد ومحبته له وتقديره لكفاءته ماورد فى حديث الثورى ، وقد قيل لعمر : استخلف ، فقال : ولو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته ، ثم قدمت على ربى ؛ فقال لى : من استخلفت على أمة محمد؟ ! لقلت : سمعت عبدك وخليلك يقول : خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين .

ولما بلغ عمر موت خالد قال : «قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق ، وليته بقى ما بقى فى الحمى حجر ، كان والله سداداً لنحور العدو ، ميمون النقيبة » وروى ابن عساكر : أن هشام البخترى دخل على عمر فى ناس من بنى مخزوم ، وكان هشام شاعراً ، فقال له عمر : أنشدنى ما قلت فى خالد ، فلما أنشده قال له : قصرت فى الثناء على أبى سليمان رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله ثم تمثل بقول بعض الشعراء :

فقل الذى يبقى خلاف الذى مضى   تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد
فما عيش من قد عاش بعدى بنافعى   ولا موت من قد مات يوماً بمخلد

رحم الله أبا سليمان ! ما عند الله خير له مما كان فيه ، ولقد مات فقيداً وعاش حميداً ، ولكن الدهر ليس بقائل[1] » .

---

(١) ليس بقائل : أى ليس بتارك أحداً يخلد فى هذه الدنيا ، فهو من الإقالة فى المعنى ، مادته : قاله قيلا ، قال فى اللسان : وحكى اللحيانى أن قلته لغة ضعيفة .

هذا موقف عمر من خالد بعد عزله عن العمل فى جيوش الإسلام ، وهو موقف غنى عن كل تعليق ، أما موقف خالد من عمر فقد سقنا كثيراً من دلائل شرفه ونبله وإخلاصه ، وحسبنا أن نختتم هذا الفصل بحديث يرويه ابن عساكر ، وفيه يبسط خالد بن الوليد نفسه حجة عمر بن الخطاب فى عزله بأبلغ بيان وأوضح معذرة ، قال: « دخل أبو الدرداء على خالد فى مرضه الذى مات منه ، فقال له خالد : يا أبا الدرداء، لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها ؟ فقال أبو الدرداء : وأنا والله أرى ذلك ، فقال خالد : « قد وجدت عليه فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا ، وحضرنى من الله حاضر عرفت ان عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، كنت وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلىّ من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل ، وأخذت فرد نعل ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد بدراً ، وكان يغلظ علىّ وكانت غلظته على غيرى نحواً من غلظته علىّ ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لايبالى قريباً ولا لوم لائم فى غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر على عنده ، وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت فى حرب ومكايدة ، وكنت شاهداً وكان غائباً ، فكنت أعطى على ذلك فخالفه ذلك من أمرى » .

فهل رأى الناس احتجاجاً أفضل وأبين من هذا ؟

ولم يكتف خالد بذلك فى إخلاصه لعمر ، بل ختم حياته بالوصية إلى عمر فقال : « وقد جعلت وصيتى وتركتى وإنفاذ عهدى إلى عمر بن الخطاب » .

نهاية عبقرى

يستشعر الباحث فى سيرة خالد بن الوليد قوة خفية فى حياة هذا البطل العظيم أرفع فى معناها الدافع من القوى المشهودة فيه كعبقرى من عباقرة التاريخ ، فهو رجل عسكرى من الطراز الأول فى العبقرية العسكرية له جميع خصائصها ومزاياها .

فإذا ذكر التاريخ العسكرى بطولة الإسكندر وهانيبال ونابليون مثلا للنبوغ الحربى المظفر جاء اسم خالد بن الوليد فى السطر الأول من صفحة العبقرية العسكرية على أنه كلمة الإعجاز المنزلة من سماء الأمة العربية لتحدى الطبائع فى أجناس البشرية .

وسيرة خالد بن الوليد كتاب من أسلوب الإسلام ومنطقه فى تربية الرجال ، يجب أن تتعبد الأمة الإسلامية فى شتى أقطارها بآياته وسوره فى هذا العصر الذى لا يعرف لغير القوة معنى فى هذه الحياة .

والتعبد بسير الأبطال ضرب من إعادة الحياة إليهم فى أشباههم من سلالة دمائهم ، فإذا أرادت الأمم الإسلامية أن تحيا حياة كريمة فعليها أن تتطهر من دنس الضعف والاستضعاف فى صوره كلها ، ولا سيما تلك الصورة الخبيثة التى تغلف لها فى أغلفة «التسامح» على ألسنة العبيد وربائب الاستعباد من المزورين على طبيعة الإسلام وتاريخه فى النسب الجغرافى الدعى ، ولتدخل بعد هذا التطهر إلى محراب البطولة ، وبيدها كتاب « خالد بن الوليد » على طرته قول الله تعالى «فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »

عدل وقوة هما جماع سياسة الإسلام ! !

فى سيرة خالد بن الوليد أمران : أمر ينبع من الطبع العربى كخصيصة على امتياز هذا الجنس من البشر فى ولادة البطولة المقدامة ، ومثل خالد فى هذا مثل غيره من

أبطال التاريخ العربى قبل الإسلام ، وسواء فى ذلك التاريخ الأسطورى فى نحو سيرة « عنتر » العبسى وأضرابه ، والتاريخ الواقعى فى نحو سيرة عمرو بن ود العامرى وأقرانه من فوارس الشجعان .

والأمر الثانى فى سيرة خالد ينبع من طبيعة الإسلام، وروحه وتربيته ، الإسلام فى نصاعته وقوته كما فهمه أبو بكر الصديق غبّ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تألبت عليه العرب قاطبة مرتدين عن دين الله ؛ وكما فهمه عمر بن الخطاب عملا فى حياة الناس الواقعية ، يسود حركاتهم وسكناتهم ، ويدخل معهم فى بيوتهم ، ويصنع لهم صغار الأمور وكبارها ، فإذا خرجوا به نماذج فى أشخاصهم إلى حياة الناس كانوا به مثلا بأوضاعهم المختلفة فى شئون الحياة على خلائقه وآدابه التى يريد أن تكون عليها أمته فى عالمها الواقعى .

لا الإسلام الذى وجهته الفتن العاصفة على مشيئتها أو مشيئة الفاتنين المفتونين من أحلاسها بعد عهد الخلفاء الراشدين .

ولا الإسلام الذى اتخذه المستبدون أداة إذلال للأمة ، وإفساد لأخلاقها ومسخ لطبيعتها .

ولا الإسلام الذى ادعاه مفرطحو الرءوس ، عراض الأكمام والجيوب ، فجعلوه ذريعة للترهل الأبله والنفاق الذليل .

فهم خالد الإسلام ذلك الفهم العميق دون تفلسف أو شطح فى التأويل . ولكنه فهم كانت الفطرة الصافية والطبيعة القوية، والبطولة الجريئة من أعظم وسائله ، فكان نموذجا للعبقرية فريدا فى خصائصه المكسوبة التى وجهته فى وقائعه الإسلامية ، ومن هنا كانت الميزة العظمى لخالد على أقرانه من أبطال التاريخ العربى قبل الإسلام ، فكثير منهم واجه من الوقائع مثل ما واجه خالد ، ولكنهم لم يظفروا بمثل ما ظفر خالد ، وكثير منهم لهم عوائق وعقبات فلم يخلصوا منها بمثل ما خلص خالد .

وليس من الحق أن يزعم زاعم أن خالدا كان أقواهم بنية ، وأصلبهم عوداً ، وأشجعهم جنانا وأجرأهم إقداما، فكل ذلك كان لأولئك منه حظ لا يقل — إن لم يزد —

عن حظ خالد ، ولأبطال الأساطير تصوير من صنع الخيال .

وإنما امتاز خالد على أقرانه بتقمصه روح الإسلام من وجهها القاهر الغلاب منذ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفث فى روعه يوم إسلامه وحى البطولة الإسلامية ، فلم يعدل به فيما حزبه أحداً من أصحابه ، وهنالك آمن خالد بالله ورسوله إيماناً سما به عن الحياة ، فما كان يكترث لشىء فيها أو يأسى على فائت منها ، فكان مبدؤه الذى عاش فى إسلامه عليه تلك الكلمة الخالدة التى ألقى بها إلى جنوده فى موقف لا يقفه ولا يقدم عليه إلا خالد بن الوليد فى إسلامه : « إن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » .

وعلى هـذا المبدأ ، وبهذه العقيدة كان خالد يخوض وقائع الجهاد مثلا مضروبا لجنده ، فلم تنكس له راية ، ولا سقط له لواء ، ولا عرف الهزيمة منذ كان قائداً مستقلا ، وعلى هذا المبدأ وبهذه العقيدة ودع خالد جنده وودع ميادين الجهاد يوم عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن عمله فى الجيش كله إلى حيث يختم كتاب حياته بفصل من الإعجاز لا يوحى به إلهاما إلا لمن كان على إيمان خالد وثقته فى الله تعالى ، وصادق حبه للإسلام .

إيمان يذهب بخالد فى التضحية والإيثار مذهبا لم تعرفه الحياة لغيره من الأبطال ، إيمان يسوقه إلى نهاية تنكرها حياته ، وينكرها هو على نفسه ، فهو قد اقتحم وخاطر ، وقاتل وقتل ، وإذا به يودع المدينة عائداً إلى حمص — على أرجح الروايات — مرابطا بها أكثر من أربع سنوات ، ثم يأتيه الموت وهو على فراشه ، فيبكى ؛ إى وربى إن البطل خالد بن الوليد بكى ساعة حضرته الوفاة؟! مم تبكى أيها البطل المغوار؟ أتهاب الموت وتخشى الردى ؟ وأنت الذى طالما فرّ من لقائك الموت ، وأوردت الأبطال موارد الردى ؟! لا ، وعبقرية خالد ! ما بكى خالد خشية الموت أو خوف الردى ، ولكنه بكى لأنه يموت بغير السيف فى حومة الوغى .

بكى خالد وهو يقول : « لقد حضرت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء » ! !

« ولقد طلبت القتل فى مظانه ، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى » .

« وما من عمل أرجى عندى بعد لا إله إلا الله من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين بتها وأنا متترس والسماء تنهل علىّ وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار ، فعليكم بالجهاد » .

حياة عريضة ملء سمع الدنيا وبصرها ، ونهاية هادئة هدوء الإيمان إذا استقر فى قلوب الصديقين .

رضوان الله وسلامه على خالد فى العبقريين .

تم والحمد لله .

« المؤلف »

صادق إبراهيم عرجون

الفهرس

	صفحة
المقدمة	٣ — ٥
تمهيد	٧ — ١٢

الفصل الأول

خالد قبل إسلامه

من ص ١٥ إلى ص ٢٨

مطالع الحديث عن الشخصيات	١٥
البيئة العامة وأثرها فى حياة الأفراد	١٥
موطن خالد	١٦
قبيلة خالد	١٦
بيت خالد وأسرته	١٨
مكانة أبيه فى قريش وموقفه من دعوة الإسلام	١٩
إخوة خالد ومن أسلم منهم	٢١
مكانة خالد فى الجاهلية وموقفه من الإسلام	٢١
فى غزوتى أحد والخندق	٢٢

الفصل الثانى

خالد فى طريقه إلى الإسلام

من ص ٣١ إلى ص ٤٥

متى أسلم خالد ؟	٣١
كتاب أخيه الوليد إليه وأثره فى نفسه	٣٤
رؤيا صادقة	٣٤

صفحة

خروجه إلى رسول الله وإسلامه ٣٥
لقاؤه عثمان بن طلحة وعمرو بن العاص خارجين للإسلام ٣٥
احتفاء النبي صلى الله عليه وسلم به وثناؤه عليه ٣٦
ألوان من العبر فى قصة إسلامه ٣٦

الفصل الثالث

خالد فى الإسلام على عهد النبى صلى الله عليه وسلم

من ص ٤٧ إلى ص ٦٣

مجال العبقريات ٤٩
العرب والعبقرية ٤٩
مكانة خالد فى الإسلام ٤٩
روح الإسلام وطبيعة خالد ٥٠
أول وقائع خالد فى الإسلام ٥٠
إمارة خالد فى غزوة مؤتة ٥٥
اختلاف الروايات فى هذه الغزوة ٥٧
نقد وتحقيق ٥٩
رأى فى الموضوع ٦١

الفصل الرابع

فتح مكة

من ص ٦٧ إلى ص ٧٧

أمل المسلمين فى فتح مكة ٦٧
خروج النبى فى أصحابه معتمراً ٦٧
المفاوضة مع قريش ورجوع النبى بأصحابه عن مكة ٦٧
وقفة عمر بن الخطاب فى هذا الرجوع ٦٨
نقض قريش العهد ٦٨
ندم قريش وإرسال أبى سفيان ليؤكد العهد ٦٩

	صفحة
خيبة أبى سفيان فى سفارته	٧١
تجهيز رسول الله للفتح	٧١
تأمير خالد فى فتح مكة	٧٢
إسلام أبى سفيان وهيبة المسلمين فى قلبه	٧٣
خالد يدافع	٧٤
خالد يحطم العزى	٧٥

الفصل الخامس

خالد فى بنى جذيمة

من ص ٨١ إلى ص ٩٦

خالد فى قصة بنى جذيمة	٨١
روايات القصة	٨١
الرواية الأولى	٨١
مناقشة فى هذه الرواية	٨٢
رواية أخرى	٨٣
أغرب روايات القصة	٨٤
نقد وتمحيص	٨٥
أمثل الروايات	٨٩
مناقشة وترجيح	٨٩
رواية وتأويلها	٩٤
استئناس	٩٤

الفصل السادس

خالد فى بعوث شتى

من ص ٩٩ إلى ص ١١٤

خالد فى غزوة حنين	٩٩
انسحاب لا يخدش البطولة	١٠٠
شجاعة النبي وأثرها	١٠١

صفحة

خالد فى محاصرة ثقيف ١٠٢
بعث خالد للتثبت من بنى المصطلق ١٠٢
سرية خالد إلى أكيدر ١٠٣
بعث خالد لهدم اللات ١٠٦
بعث خالد إلى نجران هادياً ومعلماً ١٠٨
كتاب خالد إلى رسول الله مبشراً ١٠٩
كتاب رسول الله بوفد بنى الحارث ١١٠
حنين خالد إلى الجهاد ١١٠
رواية أخرى فى سرية خالد إلى نجران ١١١
التوفيق بين الروايتين ١١٢

الفصل السابع

خالد فى حروب الردة

من ص ١١٧ إلى ص ١٣٨

حال الناس بعيد وفاة رسول الله ١١٧
شجاعة الصديق ورسوخ إيمانه ١١٧
أين رأى خالد ؟ ١٢٣
توجيه خالد إلى طليحة الأسدى ١٢٥
وصية أبى بكر لخالد ١٢٦
تنبيه وتذكير ١٢٦
خالد وعدى بن حاتم ١٣٠
خالد فى وجه طليحة ١٣١
هزيمة طليحة ورجوعه إلى الإسلام ١٣٣
حملة تأديبية ١٣٤
سياسة حكيمة ١٣٨

صفحة

الفصل الثامن

أحدوثة مالك بن نويرة : عرض وتحليل

من ص ١٤١ إلى ص ١٥٨

قصة غامضة ١٤١

مالك بن نويرة ومسير خالد إليه ١٤١

حكمة حازمة ١٤٢

غرور وتيه جاهلى ١٤٤

اختلاف الروايات ١٤٥

رواية ملفقة ١٤٥

رواية زائفة ١٤٧

رواية مشهرة ولـكنها مريبة ١٤٩

عوامل الريبة فى هذه الرواية ١٤٩

رواية مقبولة ١٥٤

موقف أبى قتادة وابن عمر ١٥٥

لعب الخيال فى أقصوصة زواج خالد امرأة مالك ١٥٦

وجه الرأى فى هذا الزواج ١٥٦

نتيجة ١٥٧

الفصل التاسع

واقعة اليمامة : بين خالد ومسيلمة

من ص ١٦١ إلى ص ١٨٧

هول معركة اليمامة ١٦١

عبقرية خالد فى إدارة المعركة ١٦٦

نبوءة صادقة ١٦٦

ادعاء مسيلمة النبوة ١٦٧

شعوذة وخبث دهى ١٦٨

عصبية عمياء ١٧٠

	صفحة
أول لواء لحرب اليمامة	١٧٠
توجيه خالد إلى حرب مسيلمة	١٧٠
مجاعة بن مرارة ومكانته فى قومه	١٧٣
بدء المعركة	١٧٤
نفحات البطولة الإسلامية	١٧٥
حملة صادقة	١٧٥
قتل مسيلمة . من قتله ؟	١٧٦
بدء النهاية فى المعركة	١٧٦
خدعة مجاعة	١٧٧
الصلح بين التأييد والمعارضة	١٧٨
كتاب أبى بكر إلى خالد وإمضاء الصلح	١٧٩
غدرة لم تتم	١٨٠
رسول خالد إلى أبى بكر	١٨٠
هل وفد خالد على أبى بكر بعد اليمامة ؟	١٨١
زواج خالد بنت مجاعة	١٨٢
رجولية بطل وبطولة رجل	١٨٣
عتب أبى بكر ودفاع خالد	١٨٤
تحليل وتوضيح	١٨٥

الفصل العاشر

دولة الفرس بعد العرب : فتح العراق

من ص ١٩١ إلى ص ٢٢٠

أسس الفتح الإسلامى	١٩١
مقومات الدولة فى الإسلام	١٩١
العراق باب فارس	١٩٢
الإسلام يثير فى العرب روح المغالبة	١٩٢
المثنى بن حارثة وفتح العراق	١٩٢

أمر أبي بكر خالداً بغزو فارس ١٩٣
سياسة خالد فى حرب الفرس ١٩٣
من خالد بن الوليد إلى طارق بن زياد ١٩٤
تلاحق الهزائم بالفرس ١٩٥
واقعة « المذار » ١٩٥
واقعة « الولجة » ١٩٦
نهج خالدى فى إثارة الحماسة ١٩٦
واقعة « أليس » ١٩٧
غرور فارسى أجوف ١٩٧
واقعة « أمغيشيا » ١٩٩
عبقرية خالد فى رأى الصديق ١٩٩
فتح الحيرة ١٩٩
حيلة ومكيدة ٢٠٠
عزمة خالدية ٢٠٠
محاصرة قصور الحيرة ٢٠٠
براعة فى المفاوضة ٢٠١
تحليل براعة خالدية ٢٠٢
عدل فوق الرحمة ٢٠٤
عهد خالد لأهل الحيرة ٢٠٥
الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية ٢٠٥
أقصوصة طريفة ٢٠٧
أقصوصة أخرى ٢٠٧
غزو فارس فى عقر دارهم ٢٠٨
تيمن خالد بالفأل ٢٠٨
واقعة الأنبار ٢٠٩

	صفحة
سياسة ماهرة	٢٠٩
واقعة « عين التمر »	٢١٠
فتح دومة الجندل	٢١٢
شهادة خصم	٢١٣
وقائع « خنافس » و « الحصيد »	٢١٤
واقعة « المصيخ »	٢١٥
انتصار خالد بالرعب	٢١٦
مناوشات وتطهير	٢١٧
واقعة « الفراض »	٢١٧
عزمة خالدية	٢٢٠

الفصل الحادى عشر

دولة الروم بعد الفرس والعرب

من ص ٢٢٣ إلى ص ٢٥٢

مقدمات غزو الشام	٢٢٣
مشاورة أبى بكر لأهل الرأى	٢٢٣
تأمير خالد بن سعيد ثم عزله	٢٢٣
عقد الألوية وطموح عمر وبن العاص	٢٢٤
موقف الصديق والفاروق من طموح عمرو	٢٢٥
لواء يزيد بن أبى سفيان ووصية أبى بكر له	٢٢٦
لواء شرحبيل بن حسنة	٢٢٧
لواء أبى عبيدة بن الجراح	٢٢٧
سرور أبى بكر بكتائب المجاهدين	٢٢٨
فزع الروم ورأى هرقل	٢٢٨
مشاورة أمراء المسلمين واجتماع جيوشهم	٢٢٩
بعث خالد بن الوليد أميرا على الأمراء	٢٢٩
كتاب أبى بكر بالإمارة إلى خالد	٢٣٠

	صفحة
بين خالد والمثنى	٢٣١
مغامرة جريئة	٢٣٢
نظرة وعبرة	٢٣٣
بين خالد وأبى عبيدة	٢٣٥
أدب رفيع	٢٣٦
جولات فى الطريق	٢٣٦
سياسة حكيمة	٢٣٨
زمام الإمارة فى يد خالد	٢٣٩
إيمان	٢٤٠
قصة « جرجة »	٢٤٠
هزيمة الروم	٢٤٢
نبل عبقرى	٢٤٢
نظرة عابرة فى قصة جرجة	٢٤٣
ترتيب الوقائع الشامية	٢٤٢
طريقة أخرى فى ترتيب الوقائع	٢٤٤
نتيجة	٢٥٠

الفصل الثانى عشر

عزل خالد : لماذا عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد
من ص ٢٥٥ إلى ص ٢٧٥

سؤال	٢٥٥
خوالد خالد	٢٥٥
بين الباحث والمؤرخ	٢٥٦
مفاجأة	٢٥٧
إعظام التاريخ عزل خالد	٢٥٨
خالد عدل عمر	٢٥٨
اختلاف الروايات فى أسباب العزل	٢٥٩

صفحة

الراوية الأولى ٢٥٩
نقد وتحليل ٢٦٠
الرواية الثانية ٢٦٤
موازنة وتمحيص ٢٦٥
الرواية الثالثة وبهرجتها ٢٧٠
« الرابعة وتزييفها ٢٧٠
« الخامسة ونقدها ٢٧١
رواية راجحة ٢٧٣

الفصل الثالث عشر

رأى الدكتور هيكل فى عزل خالد وبواعثه : عرض وتحليل ونقد

من ص ٢٧٩ إلى ص ٢٩٧

هيكل وأثر البحث الحديث فى الناشئة ٢٧٩
أثر الأفكار الغربية فى فهم الإسلام وتاريخه ٢٧٩
إتكاء هيكل على أقصوصة مالك بن نويرة ٢٨١
تزيد فى التاريخ ٢٨١
نقد وتزييف ٢٨١
غضبة أبى بكر على خالد وسببها ٢٨٢
تعقيب غير موفق ٢٨٣
مجانة نواسية لا تحسب فى تحقيق التاريخ ٢٨٣
أبو بكر وعمر بن الخطاب فى تصوير الدكتور هيكل ٢٨٤
إلحاح فى قصة مالك نويرة ٢٨٦
منطق مدخول ٢٨٧
« الغاية تبرر الوسيلة » سياسة عمرية فى نظر هيكل ٢٨٨
أحقاد جاهلية هى التى حركت عمر نحو خالد فى نظر الدكتورهيكل ٢٨٩
اضطراب فى البحث ٢٩٠

صفحة

هيكل يقرر أن عمر بن الخطاب تاثر بشعوره الخاص نحو خالد ٢٩٢
عود إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسالة » ٢٩٤

الفصل الرابع عشر

تحرير قصة عزل خالد وتحقيق أسبابه

من ص ٣٠١ إلى ص ٣٢٨

العزل عن الإمارة العامة ٣٠١
بين عمر وأبي عبيدة ٣٠١
بين خالد وأبي عبيدة ٣٠١
العزل عن الجندية إطلاقا ٣٠٢
تحرير وضع القصة ٣٠٤
ليس لقصة ابن نويرة مدخل فى العزل ٣٠٤
تزييف أبطولة الحقد الجاهلي ٣٠٦
رأى للأستاذ العقاد ٣٠٦
الأسباب الجدية للعزل ٣٠٩
حق الحاكم على ولاته ٣٠٩
سياسة عمر وأبي بكر ٣٠٩
ليست الحوادث أكبر من عقولنا ٣١٢
صلابة الطبع عند عمر وخالد ٣١٣
افتراق فى السلوك والأعمال ٣١٥
اصطدام بين طبيعتين ٣١٧
وقف الطبيعة الخالدية ٣١٧
حقيقة دوافع العزل ٣١٨
فتح الباب أمام الكفايات ٣١٨
بدء التصادم بين عمر وخالد ٣١٩
خالد يأبى أن تقيد حريته فى دائرة عمله ٣١٩
تقدير عمر لعبقرية خالد ٣٢٠

	صفحة
طبيعة لاتغالب	٣٢٢
العزل الثانى وأثره	٣٢٢
اعتذار عمر	٣٢٣
سياسة عمر عامة	٢٢٤
تسامى العبقريات عن الصغائر	٣٢٥
عظمة خالدية	٣٢٥
مظاهر الحب والتقدير	٣٢٧
نهاية عبقرى	٣٢٩ – ٣٣٢

دار القومية العربية للطباعة والنشر
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)